

دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام

أ.د صالح موسى درادكة



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دراسات في الجغرافيا التاريخية
لبلاد الشام

● دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام
● الأستاذ الدكتور صالح درادكة

● وزارة الثقافة

● الطبعة الأولى ٢٠١١

عمان - الأردن

ص.ب ١٣٢ - عمان

تلفون : ٤٦٢١٧٢٤

تلفاكس : ٤٦٣٧٠٤١

www.jowriters.org

Email:info@jowriters.org

● الطباعة : مطبعة السفير هاتف : ٤٦٥٧٠١٥

● جميع الحقوق محفوظة للناسر : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال ، دون إذن خطي مسبق من الناسر .

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى .

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠١١/١١/٤١٨٥)

دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام

أ.د. الدكتور صالح درادكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

من الغرائز الهامة في الإنسان حب التعرف على المكان، إذ يبدأ الإنسان طفولته في التعرف على ما يحيط به، ويكبر هذا المحيط مع نمو الإنسان، حتى يصبح طموحه معرفة كل الكون إذا أمكن.

وللمكان أهمية زائدة في حياة الإنسان العربي، تنقل فيه وتعرف على خصائصه وكل ما يحيط به أو يؤثر فيه، وليس أدل على ذلك من أن الشاعر العربي كان يبدأ قصيدته بذكر المكان. فهذا امرئ القيس أمير الشعر في الجاهلية يبدأ معلقته قائلا:

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقال النابغة الذبياني مستهلا قصيدته:

يا دار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطلال عليها سالف الأمد

وهذا عنتره يقول في مطلع معلقته:

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

وغير هذا كثير في الأدب العربي شعراً ونثراً.

لقد خبر الإنسان أهمية المكان، وارتحل طلباً للكأ والماء، وعرف بالتجربة السحاب الماطر من السحاب العابر، وخبر التربة وبعد الماء فيها، كما خبر نبات الأرض ومكوناته وتأثيراته.

كانت الحاجة ولا زالت تدفع الإنسان إلى الرحيل من مكان إلى مكان، وأصبح للقبيلة روادها، يرتادون الأرض ليختارون المكان الأفضل للإقامة، وقد اتسعت رقعة البحث عن المكان الأفضل، كما تغيرت أهداف البحث وتعددت، حتى شملت المعمورة ممثلة بالاستكشافات الجغرافية، وظهور الرحالة العالميين.

كان للعرب إسهامهم في الرحلات المحلية والعالمية في العصور الوسطى، ولمع منهم رواد في هذا المجال، وأنتجوا أدباً عرف بالأدب الجغرافي، هو خلاصة مشاهدات الرحالة في أسفارهم للأماكن والبشر حيثما ساروا، وأظهر هذا الأدب أثر المكان في الإنسان، وأثر الإنسان أيضاً في المكان، وهذا ما يطلق عليه (الجغرافية التاريخية) أي هي ناتج التفاعل بين الإنسان والمكان. وعندما نقول المكان نقصد به، المكان fعناصره الطبيعية والمناخية بجمعها، ونعني بالإنسان هنا الأنشطة البشرية التي قام بها البشر في المكان عبر الزمان.

إن الجغرافية التاريخية علم قائم بذاته له مستلزماته، فلا بد للمعني بهذا العلم من أسس معرفية لعلوم عديدة، أخصها الجغرافيا والتاريخ ووسائل الاتصال والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والسياسة، ومبادئ في علم الخرائط، لذلك نجد أوائل الجغرافيين العرب هم الذين تتلمذوا على مدرسة بطليموس وآخرين من اليونان والرومان، ثم بعد نبوغهم واستقلالهم، أصبحت لهم مدرستهم الجغرافية العربية الخاصة، وعليها تتلمذ الأوروبيون في العصور الوسطى.

وفي العصور الحديثة حظيت الدراسات في الجغرافية التاريخية بجهود طيبة من قبل المستشرقين (للأسف) وليس من العرب، وأخذت هذه الجهود تتوالى ابتداءً من المصنف الكلاسيكي للمستشرق الفرنسي رينو Reinaud، وفي بدايات القرن الماضي نما هذا المجهود بشكل ملحوظ، بفضل الأبحاث الممتازة لبارتولد ومينورسكي وكرامرس Kramers وروسكا Ruska وفيران Ferrand وغيرهم.

تفوق المستشرق الروسي كراتشكوفسكي على من تقدم بهذا المجال بمؤلفه الممتاز، (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) الذي طبع لأول مرة في موسكو سنة ١٩٥٧، ثم نقله إلى العربية المرحوم الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم.

أدرك كراتشكوفسكي غنى الأدب العربي بعامة والأدب الجغرافي بخاصة بعد أن أتقن اللغة العربية، وأطلع على المكونات العربية في هذا المجال.

لذا فقد رأى في الأدب الجغرافي بالذات عنصراً أساسياً في الأدب العربي يجب معالجته من وجهة نظر تاريخ الأدب العربي والحضارة العربية (كما يقول الناشر في مقدمة الكتاب).

ومدلول الحضارة العربية لديه واسع للغاية، وقد استعمله للتعبير عن أوجه النشاط الثقافي جميعها لشعوب الشرق الأدنى، فلم يقتصر على العرب وحدهم بل أدخل شعوب آسيا الوسطى والقوقاز كما أدخل الإيرانيين والأتراك والسرّيان وغيرهم.

أصبحت المصادر الجغرافية أساسية في البحث التاريخي، وبخاصة كتب الرحالة، فهذه مصادر تبرز دور المكان في صنع الحدث التاريخي الأمر الذي يستوجب على الدارس تحليل الخبر التاريخي واستخلاص أثر عناصر المكان في هذا الخبر، وعلى الأغلب تتصف المصادر الجغرافية بصديقة أكبر من غيرها، لأنها تقوم على المشاهدة والرواية المباشرة؛ وهذا لا يعني إغفال استخدام مناهج البحث، ومن المنطلقات السابقة رأيت أن أنشر هذا الكتاب بعنوان "دراسات في الجغرافية التاريخية العربية، وهي مجموعة بحوث نشر بعضها في مجلات محكمة وبعضها نشر في كتب مؤتمرات محلية أو دولية، وبعضها لم ينشر من قبل.

وإدراكاً مني لأهمية المكان في صنع الحدث رأيت نشر هذه الدراسات في كتاب بعنوان: (دراسات في الجغرافية، التاريخية لبلاد الشام) لعلها تسهم في القراءة السليمة للتاريخ.

تضمنت الدراسات موضوعات في الفتوح الأولى العربية الإسلامية يظهر فيها العامل الجغرافي، وهي:

١- مقدمات في فتح بلاد الشام، نشر في المجلد الثامن من أعمال الندوة الثانية، للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام عام ١٩٨٧م في عمان.

٢- واقعة اليرموك - المكان والزمان - إشكالية الروايات (لم ينشر).

٣- فتح دمشق - دراسة في الروايات، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد الثاني/ العدد الأول ٢٠٠٨م.

٤- الحملة الإفريقية على أنطاكية والدروس المستفادة، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ٢٠٠٩م.

٥- لمحات من تاريخ أيلة (العقبة) في العصر الإسلامي، دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، كانون الثاني ١٩٨٤م.

٦- طريق الحج الشامي في العهد الأموي - قراءة في المصادر - المجلد الأول من أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٨٩.

٧- البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، المؤتمر الدولي الخامس، عمان ١٩٩٠.

٨- سكة حديد الحجاز - موسوعة الحضارة الإسلامية، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) الفصلية التجريبية، عمان ١٩٨٩.

٩- أهمية حلب بين المتوسط والفرات على طريق التجارة العالمي (غير منشور).

١٠- المياه والزروع في رقعة الأردن الحالي من خلال كتب الرحالة العرب، دراسات تاريخية العددان ٤٣-٤٤، ١٩٩٢.

١١- كتب الرحالة كمصدر لدراسة تاريخ بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين، العاشر والحادي عشر الميلاديين (كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي نموذجاً) (غير منشور).

١٢- رحالة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وجهودهم بالتعريف بالأصقاع الشمالية للعالم الإسلامي، (غير منشور).

١٣- الرحلة والرحالة في حياة نقولا زيادة، كتاب نقولا زيادة في ميزان التاريخ، مؤسسة عبد الحميد شومان ٢٠٠٨ م.

لايسعني في ختام هذه المقدمة الا أن ازجي بشكري وتقديري الى الأستاذ العلامة شيخ المؤرخين العرب، الزميل عبد الكريم غرايه الذي تفضل بالتقديم لهذا الكتاب. كما أسجل جزيل الشكر وجميل العرفان للطابيتين صفيه السلامين وروان السعيدات اللتين أعدتا الفهارس العامة للكتاب، والشكر موصول لإدارة المناهج والكتب المدرسية في وزارة التربية والتعليم، وأخص بالشكر السيد نايف المرأشده رئيس قسم التصميم الذي تولى مشكوراً تنسيق الكتاب وتنظيمه وإعداده للطبع.

لقد استأذنت هيئات النشر التي نشرت بحوثي سابقاً لإعادة نشرها، فتفضلوا بالأذن لي مشكورين، آملاً أن يكون في هذا العمل نفع، ولي فيه أجر، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

عمان ٢٠١١

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أستاذ الشرف الشيخ المعلم عبدالكريم غرايه

شرفني وأسعدني الزميل أستاذ الشرف الدكتور صالح درادكه عندما طلب مني تقديم مجموعة مقالات تقديمية عن بلاد الشام، والمقالات الثلاثة عشر منشورة باستثناء أربعة أبحاث وهي الأبحاث ١٢، ١١، ٩، ٢. وقد سبقني أساتذة في تقويم الأبحاث التسعة الأخرى لذا أتردد في التحدث عنها إحتراماً لهم بعد أن زكوها للنشر والإلقاء...

وتفاوتت المقالات في الطول، وأطولها هو المقال السادس عن الحج الشامي المؤلف من سبع وثلاثين صفحة، يليه الأول وهو عن فتوح الشام، أما أقصرها فهو المقال الرابع وهو عن الحملة الافرنجية الصليبية على انطاكية يليه في القصر المقال التاسع الذي لم ينشر عن حلب....

تعرضت الأبحاث الأول والثاني والثالث عن الفتح - فتح بلاد الشام -، اليرموك، فتح دمشق. وتوقعت أن يشير الكاتب إلى الأسباب التي حملت العرب على التركيز على بلاد الشام بدلاً من العراق مع أن سورة الروم تظهر عطفاً إسلامياً على الروم البيزنطيين المسيحيين وما يشبه العداء للفرس الوثنيين، وهدد الرسول - صلى الله عليه وسلم - آخر أيامه الحدود البيزنطية، وأرسل حملة مؤتة إلى بلاد الشام، بينما لم يتعرض للعراق وفارس.. وقد تكون الأسباب جغرافية...

ووجه الخليفة الأول الجيوش إلى بلاد الشام الكتابية لا إلى العراق، إلا أن قبائل شرق الجزيرة ورطته في حرب فارس على أرض العراق. ونسب إلى الخليفة الثاني قوله أن فتح خربة في الشام أحب إليه من فتح دسكرة في العراق.

أرسل الخليفة الأول جيوشه إلى بلاد الشام وإلى العراق ولكنه سحبها للقتال في الشام. ولم يرسل جيشاً إلى العراق إلا بعد أن ورطته قبائل شرق الجزيرة بالجهاد على أرض العراق ضد عبدة النيران.

وأجاد الزميل في تركيزه على الرواية والرواة. ولكن هذا البحث الدقيق والمعمق في الرواة يششت القارئ الباحث عن المعلومات التاريخية لا روايتها. وتداخل الروايات لتخلق بالضرورة تشويشاً للقارئ. وتمنيت لو أن الباحث الجليل وضع لهذه الروايات دراسة مستقلة نادرة وقيمة، وأفسح للقارئ متعة المعرفة بدون رواة، وروى الباحث عرضاً اعتبره هام جداً وينبغي إبرازه. قال: "معركة اليرموك كانت يمانية" مستنداً إلى الأزدي وابن أئثم.

وأود أن أضيف إلى ان اسماء حارات وأزقة الفسطاط القديمة تحمل أسماء قبائل يمانية. وعند الحديث عن ابن خلدون ومن عاصره من العلماء يذكر المؤرخون أنهم من أصول يمانية وحضرية..

وذكر الباحث أن عمر بن الخطاب سأل غزاة من الأزدي وبني كنانة أي الوجوه أحب اليكم فقالوا: الشام. فهل اتجه اليمانيون إلى الشام والشمال الأفريقي والأندلس تاركين العراق والمشرق إلى القيسيين بدون احتكار؟. وضمت المدن اليمانية ما يعرف بالقصبة، وهي كلمة سبأية يمانية..

ويلاحظ أن الطبري يسهب في الحديث عن فتوح العراق والشرق، وعند الحديث عن القادسية يصف الوقائع يوماً يوماً بينما لا يكثر عن اليرموك.. فهل كان الرواة عن الأحداث القيسية أكرم علينا من أحاديث اليمانية؟. هذا أمر متروك للباحث الذي أظهر عناية ودقة شديدة بين الرواية والرواة..

خصَّ الباحث المقالات الثلاث بأكثر من ربع الدراسة (٢٧٪). ولو أضفنا مقال العقبة - ايلة وهو ٣٤ صفحة لبلغ حجم المقالات الأربعة أقل قليل من نصف الدراسة. وأشار الباحث إلى حدث سبق أن اهتم به المستشرق (الفرد جيوم) (عن الاستعانة بمائتي رجل من أهل ايلة فضبطها ضبطاً شديداً) مستنتجاً أن حرس المدينة كانوا نصارى وأيده (ترسون) لاحقاً. ويقصد من الإشارة نفي ما يشاع عن تحريم دخول المدينة على غير المسلمين. وحديث العقبة امتد مع الباحث ليشمل أحداثاً أخرى عن فتن مصر التي قام بها الحويفون بزعامة ابي الندى. وأشار إلى الاحداث الطبيعية من زلازل وطواعين أو طغيان الماء على الطريق التجاري مما استدعى شق طريق جديدة. وأشار الباحث إلى أهمية ايلة في العهد الصليبي ولم يسمه الإفرنجي، وأوضح نشاط ارباط في هذا الصراع.

وتحدث عن الامير خاير بك المعمار ولم يذكر إذا كان هو أول ولاية العثمانيين على مصر للسلطان سليم بعد مقتل قانصوة الغوري. وختم الباحث كلامه عن عقبة بمجموعة تراجم لابرز رحالات العقبة.

أما المقال النفيس عن الحملة الافرنجية على أنطاكية، فقد ركز على الافرنج (الصليبيين) في خمس عشرة صفحة. وأفرز ثلث المقال لاحداث انطاكية قبل مجيء الافرنج. وتردد في استعمال كلمة صليبية وجعلها أحياناً بين قوسين. ولأمر ما لم يشر الكاتب إلى صلة رجال الحملة الافرنجية بالأندلس.

وأشار بوضوح إلى محاولات قادة من المسلمين والعرب التعاون مع الافرنج ضد اخوانهم من المسلمين بسبب الفوارق المذهبية التي حملت في الوقت نفسه قادة الافرنج إلى النفور من البيزنطيين، ولم يركز الباحث على قصر الفترة التي حكم فيها المسلمون انطاكية (١٠٨٥-١٠٩٨) بعد أن أصبحت بيزنطية أكثر من قرن، وبدأت انطاكية مدينة مسيحية عندما وصلها الافرنج ويحكمها السلجوقي (ياغي سيان) الذي اشتهر (بقبح السيرة والظلم).

ولا صحة لأقوال ابن القلانسي عن تجميع قوات في الشام بأعداد كبيرة. فالأعداد الإسلامية والفرنجية كانت محددة وقليلة.

ويبرز في الدراسة مقالان لهما أهمية خاصة هما طريق الحج الشامي في العهد الأموي وسكة حديد الحجاز في العهد العثماني، بالإضافة إلى البريد في العصر العباسي، وتشغل أكثر من ثلث الكتاب. والمقال الأول هو أطول المقالات في المجموعة وأهمها. أما مقال طريق الحج الشامي فهو أطول المجموع. وتحدث الكاتب مطولاً عن الجغرافيين الذين وصفوا المنازل من ابن خرداذبة إلى حمد الجاسر مما شكّل قائمة طويلة. وأرفق الدراسة بجداول لمنازل الحج الشامي من دمشق إلى المدينة المنورة...

وجاء مقال البريد متمماً لهذه الدراسة، وودت لو أن أستاذنا الكبير أشار إلى أول من تولّى منصب البريد في الإسلام وهو الصحابي «محمد بن مسلمة» الذي كان في الوقت نفسه المسؤول عن المخابرات ومكافحة الفساد. وقيل أن (محمد بن مسلمة) اطلع الخليفة (عمر بن الخطاب) على كل ما كان يحدث في الولايات، وقام بتكليف من الخليفة بالتحقيق

مع الفاسدين. أي أن صاحب البريد كان في واقع الأمر مدير المخابرات العامة. وشغل ابن مسلمة المنصب أكثر من نصف قرن ، وأبدع الكاتب في حديثه عن السكة الحجازية.

وأودُّ أن أشير هنا إلى أن الأمير عبد الله (الملك المؤسس) وصل عمان يوم الأربعاء الثاني من آذار ١٩٢١ قادماً من المدينة المنورة عبر معان بالسكة الحديدية. ولكن السكة أهملت بعد ذلك. ولا يمكن نسبة تعطل السكة إلى أعمال الاعراب الحربية، وتوجيهات لورنس، بل إلى دول عربية بإيعاز غربي. ويذكر أن الولايات المتحدة الامريكية عارضت بشدة مد سكة الدمام - الخرج - الرياض، وعرضت على الملك عبد العزيز بدائل مغرية ولكنه أصرَّ على رأيه - وتمنيت لو أن الكاتب أورد بعض الفتاوي التي صدرت حول السكة.

والبحث عن المياه والزرع في رقعة الأردن الحالي دراسة متميزة. وعرفت الاردن أحسن ايامها في العهدين الأيوبي والمملوكي. وبينت الدراسات الأثرية وجود عدد كبير من معاصر قصب السكر في وادي الأردن، كما أن مساحة الأرض المزروعة في الغور عام ١٩٤٠ كانت مساوية لتلك في العهد البيزنطي إذا ارتفع مستوى المياه في القنوات البيزنطية التي ازيلت منها العوائق عام ١٩٣٨، ووصل الماء إلى مستوى الماء القديم.

ولعل أطرف المقالات وأهمها هو المقال عن الأصقاع الشمالية، وهي دراسة عن وصف الجغرافيين للأصقاع الشمالية. وأبرز هذه المصادر هي وصف بلاد البلغار التي سجلها الرحالة السفير الاديب والشاعر أحمد بن فضلان الذي بدأ رحلته من بغداد في الحادي والعشرين من حزيران ٩٢١م ، ووصل نهر الفولجا بعد قرابة عام (١١ أيار/٩٢٢م).

إن هذه الدراسات التي قام بها أستاذنا الجليل أستاذ الشرف الدكتور صالح درادكة تمثل جهداً رائعاً يشكر عليه. وواضح انه بذل جهداً كبيراً في البحث والدراسات بجمع كل هذا الكم من المعلومات في ثلاثماية صفحة...

عبد الكريم غرايه

عمان في ١٠/١٠/٢٠١١

مقدمات في فتح بلاد الشام

تحاول هذه الدراسة، استعراض مجموعة التحولات والتفاعلات التي حصلت داخل الجماعات العربية وتحليلها، والتي أدت عبر تاريخ طويل، وبفعل عوامل متعددة، إلى تكوين ما نسميه اليوم بـ «الأمة العربية». وفي هذا المسار التاريخي كان فتح بلاد الشام والأجزاء العربية الأخرى، حتمية تاريخية، كحلقة في مجموعة المقدمات «التفاعلات» التي أعطت الأمة العربية، خصائصها ومميزاتها وأهلتها لحمل رسالتها، وطبعت الأرض التي انساحت عليها بالطابع العربي الذي نشهده اليوم.

إن الدراسات التي سبقت حول تحليل ظاهرة الفتح العربي، وفقت عند عوامل وظواهر آتية تكررت في حالة الأمة العربية. فقد عزا أصحاب هذه الدراسات حركة الفتح إلى أسباب اقتصادية ترجع إلى فقر الجزيرة العربية وطبيعتها الصحراوية، ورد بعضهم أسباب هذه الحركة إلى توالي الهجرات القبلية نحو الشمال، وإلى ضعف الحاجز الرومي والفارسي في بلاد الشام والعراق، ثم ما ذكروه عن الصراعات المذهبية داخل المجتمع الروماني، وإلى سخط رعايا الروم بسبب كثرة الضرائب أو إلى تمرد قبائل الحدود بسبب امتناع الروم من تقديم المعونات المالية التي اعتادوا على تقديمها^(١).

(١) انظر هذه الآراء عند: نكلر وكاتباتي ويكرودونرفي 3-5. E.M. donner, *The Early Islamic Conquests*, Princeton, New Jersey, p. 3-5.

سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Donner, *The Early Islamic*

وانظر عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١، ص ٤٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، مقدمة، توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوي، ط ٣، مصر ١٩٧٠، ص ٦٤، سيشار إلى هذا المرجع فيما بعد هكذا: توماس أرنولد. وانظر: A.N.Stratos, *Byzantium in the Seventh Century*, trans. By Harry F. Hionides, Vol.2, p. 39.

سيشار إلى هذا المرجع عند وروده هكذا: Byzantium

ي.أ. بليانيف، العرب والإسلام والخلافة العربية، نقله إلى العربية أنيس فريجه، وراجعه وقدم له محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، ط ١، بيروت، ١٩٧٢، ص ٤، وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا بليانيف، العرب، برنارد لويس، العرب في التاريخ، تعريب: نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤، ص ٦٦ وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لويس، العرب؛ فيليب حتي وادوارد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول ج ٢)، ط ٤، دار الكشف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ١٩٦٥، ج ١، ص ١٨٩ وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: حتي؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨، ص ٩٣، وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ.

وذهب الأب لامنس إلى انكاره وجود خطة لفتح بلاد الشام، وأن ما حصل إنما جاء نتيجة توالي الأحداث^(١). ولم يحاول أحد - في حدود معرفتي - أن يربط بين حركة الفتح وحركة التاريخ العربي قبل ذلك أي أن حركة الفتح لم تدرس كظاهرة متصلة بحركة التكوين إذ أن رصد هذه الحركة وإدراك طبيعتها سيؤدي إلى فهم أكبر لحقيقة الفتح العربي بعامة وفتح بلاد الشام بخاصة.

ومصطلح بلاد العرب اتسع منذ القديم ليشمل جزيرة العرب والمناطق الممتدة إلى الشمال منها حتى جبال طوروس^(٢). وهذه المنطقة بمفهومها الواسع تشكل بتكوينها وموقعها ومناخها وحدة جغرافية، كونت البيئة الطبيعية لها، وطبعت بداياتها الحضارية بطابع متماثل^(٣). أي أنها كانت مسرحاً تفاعلت عليه عناصر التكوين العربي مشكلة بذلك فصلاً مهماً في تاريخ الإنسانية. والشعوب التي أدت أدوارها فوق هذا المسرح، إنما هي هذه الجماعات المنساحة من داخل الجزيرة إلى خارجها، بمقتضى أحوال طبيعية لا مفر منها^(٤). وقد رافق حركة الانسياب من الوطن الأصلي تحولات اجتماعية مرافقة، نقلت مجموعات كبيرة من حالة البداوة إلى التحضر والاستقرار، وتفككت اللغة الواحدة (الأم) إلى مجموعة من اللهجات، دون أن تفقد روابط الاتصال، ورافق ذلك محاولات سياسية تمثلت بقيام كيانات هنا وهناك، تصارعت فيما بينها، كما تصارعت مع قوى أجنبية مختلفة، إبتداءً بالتطاحن التاريخي بين مصر وبلاد ما بين النهرين، وخلفاء الإسكندر، ومن ثم بين الفرس والروم.

ورغم ظاهرة الاضطراب هذه التي طبعت المنطقة السورية بشكل خاص، لم تغب وحدة

(١) انظر مقالته: «لماذا فتح العرب سورية». مجلة المشرق، م، السنة ٣٠ سنة ١٩٣٢. ص ١٧٨-١٨٢. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: لامنس، لماذا فتح العرب.

(٢) جواد علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠م، ط ١، دار العلم للملايين «بيروت ومكتبة النهضة» بغداد - بيروت ١٩٦٨. ج ١ ص ١٤٤. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جواد علي، الفصل.

(٣) عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية: دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٨٤. ص ١٦. سيشار إليه فيما بعد الدوري. التكوين.

(٤) انظر موسكاتي، سبتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة ص ٣٤. سيشار إليه فيما بعد: موسكاتي، الحضارات.

أصول شعوب المنطقة، فقد ذكر المسعودي أن الأمم التي سكنت العراق والشام وجزيرة العرب هم فروع مملكة واحدة كان يملكها ملك واحد، ولسانها واحد^(١).

وفي خضم الوضع السياسي المضطرب استمرت القبائل العربية تندفق بأعداد كبيرة من جزيرة العرب نحو الأطراف. وكان يرافق التفاعلات السياسية والحركات البشرية، تفاعل آخر ثقافي باتجاه تكوين (الأمة العربية)، ويتمثل ذلك بنمو بوادر حركة ثقافية تشير إليها مجموعة النقوش التي اكتشفت في جهات مختلفة من بلاد الشام، كالنقوش النبطية والصفوية والتدمرية، ونقوش أخرى كثيرة^(٢) ويستفاد من هذه النقوش - وبخاصة النقش المعروف باسم (نقش النمارة) - بالإضافة إلى التطور اللغوي الذي حصل في المنطقة، دلالة سياسية، تساير التطور الثقافي نحو العربية الموحدة، فعبارة: (ملك العرب) - الواردة في النص المشار إليه - تفيد بأن العرب جماعة متميزة متجانسة وقد يستنتج أيضاً الرغبة عند العرب في الوحدة السياسية. يمكننا اعتبار الفترة المبتدئة بالقرن الرابع الميلادي مرحلة جديدة، أو لنقل (مقدمة ثانية) في مسار التكوين العربي لغة وثقافة وسياسة. ومن هنا نرى وجهاً لتسمية الفترة الزمنية قبل القرن الرابع الميلادي (الجاهلية الأولى) والفترة المتبقية إلى ظهور الإسلام (الجاهلية الثانية)^(٣) وهي مرحلة ازدادت فيها عوامل التعريب في المجالات المختلفة. لقد نظر عرب سورية إلى الرومان على أنهم غزاة غرباء، وسنورد في فقرات لاحقة الشواهد على ذلك.

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م). التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت. ١٣٨٨-١٩٦٨. ص ٦٨-٦٩. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، التنبيه، الدوري، التكوين، ص ١٦.

(٢) حول هذه النقوش انظر: ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٩. ص ٨، ٨٦ وما بعدها. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ديسو، العرب؛ جواد علي، المفصل، ج ٣، ص ١٤٢ وما بعدها؛ نسب وهيبه الخازن، من الساميين إلى العرب، مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٢م. ص ٨٩، ص ١٤١-١٤٦. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: نسب، من الساميين؛ محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ج ٨، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج ٥، ص ٣٩ سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: دروزة، تاريخ؛ جورج زيدان، العرب قبل الإسلام، منشورات دار الحياة بيروت، ١٩٧٩. ص ١٢٢، ص ٢٦٩-٢٧٠. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: زيدان، العرب.

(٣) الدوري، التكوين، ص ٢٧. وانظر معنى الجاهلية عند جواد علي، المفصل، ج ١، ص ٤٠ وما بعدها.

تميزت المرحلة السابقة للإسلام في بلاد الشام باستقرار المجموعات القبلية التي دخلت البلاد منذ عهد بعيد، كما لم تنقطع الصلات بين عرب سورية وعرب جزيرة العرب، وبقيت الجزيرة مورداً لا ينضب للعرب، تدفع وبشكل مستمر بسيل من سكانها إلى بلاد الشام. وكان تغلغل هذه القبائل في سورية من طرفي البادية الجنوبي باتجاه حوران والبلقاء، ومن طرفها الشمالي باتجاه حاضر حلب وقسرين، ولكن انتشارهم بالفتوح شمل بلاد الشام كلها^(١). ومن بين القبائل التي استقرت قديماً في بلاد الشام (سليح) التي أوكل إليها الرومان وظيفة حماية جنوب سورية من تغلغل القبائل العربية، وملكوا عليهم رجالاً منهم يدعى: (النعمان بن عمرو بن مالك)^(٢). واستعان الروم في حماية نفوذهم في سورية، وحراسة الطرق التجارية بمجموعة من القبائل العربية وبخاصة مجموعة القبائل اليمانية المكونة من: لخم وجذام وكلب وبهراء وبلقين وعاملة، وقضاة وعذرة والغساسنة^(٣).

(١) الدوري، "العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام"، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، ط١، بيروت، ١٩٧٤. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، العرب.

(٢) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م. ص ٦٤٠. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن قتيبة، المعارف؛ وانظر الدوري، العرب، ص ٢٧.

(٣) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت ٢١٣هـ/٨٢٨م) السيرة النبوية، ط٢، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهراسها: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٢٧٥هـ/١٩٥٥م. م ١، ص ١٣، ص ١٥-١٦، ص ٧٥، ص ١٠٤. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة، الواقدي، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، كتاب المغازي، ج ٣، تحقيق مارسدن جونز، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ج ٣، ص ٤٠٢-٤٠٤. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، مغازي؛ البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج ٤، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٥-١٩٥١، ج ١، ص ١٧، ص ٢٠، ص ٢٨-٢٩، ص ٤٩-٥٠. سيشار إليه فيما بعد: البكري، معجم؛ غيداء عادل خزنة كاتبي، الوردة، رسالة ماجستير تم نشر، الجامعة الأردنية. ص ٣٩ وما بعدها، ص ١٠٥ وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: غيداء، الوردة؛ (نشرت بعنوان: أوليات الفتوح، حروب الردة في الإسلام، المدا الإسلامي، ٢٠٠٩م)، ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي ٤٠هـ/٦٦٠م - ١٣٢هـ/٧٤٩م؛ منشورات اتحاد المؤرخين العرب ١٩٨٠، ص ١٠٠، ص ١٥، ص ١٩، ص ٣٦-٣٨، ص ٦١-٦٢. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ناجي، القبائل؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري، (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، ج ٨، دار بيروت - دار صادر، بيروت ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، ج ٢، ص ١٢٨ وما بعدها. سيشار إليه فيما بعد: ابن سعد، الطبقات، الأزدي؛ فتوح، أبو

وقد استقرت مجموعة أبناء كهلان: لحم وجذام وعاملة في فلسطين^(١)، واستوطنت قبيلة كلب في دومة الجندل، ثم نزحت إلى تدمر وفي البداية جنوب شرق الشام^(٢). وكانت غسان في منطقتي دمشق وحوارن، وقضاة في البلقاء وإلى الجنوب الشرقي من الأردن، وتوخ وطىء وسليم بجوار حلب وقنسرين^(٣).

وكان عرب سورية في البداية وثنيين، فقد كان لقضاة ولحم وجذام وعاملة وغطفان صنم يقال له (الأقيصر) في مشارف الشام^(٤).

وتعرض العرب في سورية بخاصة إلى حملة نصير واسعة النطاق، والمصادر النصرانية تذكر العديد من نشاط الدعاة وكثيراً من الأديرة والكنائس في العصر الروماني^(٥). ومن الطبيعي أن تنتشر النصرانية في بلاد الشام أكثر من أية جهة أخرى من بلاد العرب، وذلك تبعاً للنفوذ

اسماعيل محمد بن عبد الله، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠، ص ٢١٨ وما بعدها. سيشار إليه فيما بعد؛ الأزدی؛ البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، م. السعادة ١٩٥٩ ص ١١٨، ص ١٢٧، ص ١٣١، ص ١٣٣، ص ١٣٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، ج ١٠، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠، ص ٣٢٦-٣٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ؛ ابن حبيب، محمد (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م)، كتاب المعبر، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق ايلزه ليختن شتير، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ١١٤، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: المحرر؛ لامنس، جذام، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشناوي ورفاقه، وزارة المعارف العمومية، ج ٦، ص ٣١٣، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: «دائرة المعارف الإسلامية»، الدوري، التكوين، ص ٥٨.

(١) الدوري، العرب والارض ص ٢٧.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ١١٨ وانظر ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١هـ/١١٣٥م)، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، هذبه ورثه الشيخ عبد القادر بدران، (ت ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، دار المسيرة، ط ٢، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩. ج ١، ص ١٧٥. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن عساكر، تهذيب.

(٣) الدوري، التكوين، ص ٥٨.

(٤) ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣هـ-١٩٢٤م، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٤-١٩٦٥م ص ٣٨. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب الأصنام؛ جواد علي، المفصل، ج ٦، ص ٢٧٥.

(٥) يوسف الدبس، مختصر تاريخ سورية، ط ٢، بيروت، ١٩٨٤، ص ٤٥٥ وما بعدها. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدبس، مختصر.

السياسي الروماني. وقد اعتنق النصرانية كثير من أبناء القبائل العربية وبخاصة المجموعات القبلية التي كانت تسكن سورية والعراق، ومثال ذلك: جذام وكتب وعاملة وبلقين وبهراء وبلي ولخم والغساسنة، وقد استعان الروم بهذه القبائل لحماية حدودهم الجنوبية والشرقية من غارات القبائل العربية، ومن أبرز عمالهم الذين تذكروهم المصادر العربية غير أبناء جفنة (أمراء الغساسنة) فروة بن عمرو الجذامي^(١). وذكرت المصادر العربية أن أول من تنصر تنوخ وسليم وغسان بالشام^(٢)، ثم طيء^(٣) ومذحج وبلي وبهراء ولخم وجذام^(٤)، وأكيدر ملك دومة الجندل^(٥). وتسربت النصرانية جنوباً إلى اليمن، وأصبح لها أسقفية في نجران^(٦).

- (١) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص ٢٨١؛ الطبري، تاريخ ج٣، ص ١٧٤؛ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ١٣٩١-١٩٧١. ص ٤٢١، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حزم، جمهرة؛ ابن عساکر، تهذيب، ج١، ص ١٣٢؛ أبو البقاء، هبة الله الخلي، المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، ج٢، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان ١٩٨٤. ج١، ص ٦٧-٦٨، ص ٩٤، ص ٢٧٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: المناقب المزيديّة؛ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المتنبأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بتصحيح وعناية: علال الفاسي وعبد العزيز بن إدريس المغربي، تعليق الأمير شكيب أرسلان، مصر ١٣٥٥-١٩٣٦، ج٢، ص ٢٣٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خلدون، تاريخ؛ جواد علي، المفصل، ج٤، ص ٤٦٢.
- (٢) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، المعارف، ص ٢٧٨، ص ٢٧٩، وانظر المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ط ٤، م. السعادة، مصر ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج١، ص ٣٦٥-٣٦٦. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج.
- (٣) ابن هشام، السيرة، ج١، ص ٨٩؛ كتاب الأصنام، ص ٦١.
- (٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت بعد ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، تاريخ اليعقوبي، ج ٣، قدم له وعلق عليه، محمد صادق بحر العلوم، النجف ١٣٨٤-١٩٦٤، ج١، ص ٢٥٧، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، تاريخ.
- (٥) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٥٢٦.
- (٦) البلاذري، فتوح، ص ٩٠-٩١؛ وابن سعد ج١، ص ٣٣٩؛ وابن قتيبة، المعارف ص ٦٢١؛ الأصفهاني، حمزة بن الحسن (ت ٣٨٠/٩٩٠م)، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ط ٣، بيروت ١٩٦١، ص ١١٣. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الأصفهاني، تاريخ؛ واليعقوبي تاريخ ج١، ص ٢٢٧، ص ٢٥٤؛ ابن حوقل، أبو القاسم محمد، صورة الأرض؛ مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ٢٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صورة الأرض؛ الأصبغري، أبو اسحق إبراهيم، كتاب الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت، ص ١٤، ص ٢٠. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: كتاب الأقاليم؛ السيوطي، جلال الدين أبو بكر (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، عيسى البابي الحلبي ط ٢، ج١، ص ١٠٥. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: السيوطي، المزهري؛ لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، المطبعة اليسوعية، بيروت ١٩٢٣م، ص ١٢٤. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: شيخو، النصرانية، الدبس، مختصر، ص ٤٥٩-٤٦٣.

ويمكن القول بأن التأثير المسيحي في سورية وإن كان من الناحية الظاهرية واسعاً إلا أنه سطحي لا يتعدى مسيرة العرب لحكام سورية ورجال الدين النصارى، الذين كانوا منتشرين في بيوت العبادة النصرانية، ولحكام الروم نفوذ عليهم، كما كان البعض ممن تنصروا يرغبون في الحصول على المساعدات المالية أو ألقاب الرياسة أو طلب عون الروم ضد الخصوم من القبائل الأخرى. والذي يؤكد سطحية النصرانية بين العرب، أنه لم يكن لها تأثير يذكر في شمال جزيرة العرب حيث يكاد ينعدم النفوذ الروماني^(١)، كما أن معظم المنتصرة من العرب تخلوا عن نصرانيتهم والتحقوا بالإسلام كما سنرى في حوادث لاحقة. ويجب أن لا يفهم من عبارات المصادر العربية حول تنصر بعض القبائل العربية، أن التنصر كان فيها شاملاً، إذ قيد هذه المصادر نفسها أن المنتصرين لم يكونوا جل أفراد هذه القبائل، إذ نجد في القبائل نفسها أحناف ووثنيين، ويبدو أن هذا التعميم إنما جاء نتيجة لتنصر بعض رؤساء هذه القبائل.

ولم يكن دعم الروم للنصرانية تقرباً إلى الله وحده، بل لتمكين سلطانهم في بلاد العرب، ولهذا كان من سياسة بيزنطة «الروم» نشر النصرانية بين أتباعها وفي الخارج وإرسال المبشرين والإغداق عليهم ومدهم بالأموال لنشر الدعوة وتأسيس مكاتب للتبشير^(٢).

ويرى الأب لامنس في معرض حديثه عن جذام: "أن النصرانية لم تتغلغل في قلوبهم شأنهم في ذلك شأن القبائل البدوية"^(٣). وذهب (ترتون) إلى أن النصرانية بين القبائل العربية كانت اسمية^(٤)، وقال (ريتشارد بل): "إن الكنسية لم تنجح حقيقة في تثبيت قدمها بين العرب

(١) عبد المالك خلف التميمي، التبشير في منطقة الخليج العربي، الكويت ١٩٨٢، ص ١٣-١٤. سيشار لهذا

المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عبد المالك، التبشير، وانظر:

J.S. Trimingham, Christianity among Arabs, in Pre-Islamic times, London - Newyork, p. 121-122

سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Trimingham, Christianity, وصالح الحمارنة، دور الأنباط في الفتح الإسلامية، مجلة دراسات، العدد ١ م ٧، ص ١٦٨ الجامعة الأردنية، ١٩٨٩. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد حمارنة، دور الأنباط.

(٢) جواد علي، المفصل، ج ٦، ص ٥٩٠.

(٣) «الموسوعة الإسلامية»، ج ٦، ص ٥٩٠.

(٤) A.S. Tritton, Caliphs And Their Non - Moslem - Subjects, p. 76

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: Caliphs, Tritton

وانظر محمد البطاينة، العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي في الجزيرة العربية والشام والعراق، مجلة المؤرخ العربي، عدد ١٩٨٢/٢٢، ص ٥٦/٥٥. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: البطاينة العلاقة.

اطلاقاً^(١). وذهب إلى مثل ذلك (ولفنسون) فقال: "أن النصرانية لم تغلب في وقت ما على النفوس العربية"^(٢). ويعزو (ترمقهام) ذلك إلى (اتخاذ النصرانية الآرامية بدلاً من العربية، وعدم وجود ترجمة عربية للإنجيل متداولة بين العرب، وغياب كنيسة وطنية بين القبائل العربية)^(٣). ويمكن أن يضاف إلى قول ترمقهام في تعليل فشل النصرانية بين العرب، أن النصرانية كدين والنشاط السياسي الروماني، باستبداده وحروبه وضرائه، كان صورة واحدة لا تتجزأ في عقل الإنسان العربي، فأدرك بفطرته أن اعتناق النصرانية يعني التبعية للحكم الروماني الأجنبي. هذا ما رافق انتشار النصرانية من صراعات مذهبية ومسلكتيات غير أخلاقية.

تمثل هذه الفترة التي أطلق عليها القرآن اسم (الجاهلية) فترة خصيبة بإمكاناتها العربية، على الرغم من أن خريبتها السياسية لم تكن كذلك، فقد بلغ التطور اللغوي في المهاجر العربية مداه قبيل الإسلام. بما لا يزيد على قرن ونصف القرن على الأقل، ويؤيد ذلك الشعر والأدب الذي وصلنا من تلك الفترة على الرغم مما قد يقال فيه. وقد أصبح اسم العرب شاملاً علماً على هؤلاء الذين تكونت منهم الأمة العربية فيما بعد^(٤).

وتأخر توطد اللغة الفصحى كلغة مشتركة للعرب جميعهم إجمالاً، عن توطد التسمية (بالعرب) طبعي لأنه لا يمكن أن يكون إلا بعد توطد مفهوم الوحدة الجنسية والاسم القومي، وشمولهما من جهة، وبعد تطورات في صلات العرب ببعضهم لا يمكن أن تتم إلا بعد توطد وشمول ذلك المفهوم والاسم من جهة أخرى^(٥).

ومن الشواهد الثقافية في هذا المجال، ظهور الخط العربي، فقد ظهر للمرة الأولى في (زبد) شرقي حلب، ويرجع إلى سنة ٥١٢ م، فهو أقدم خط عربي مكتشف حتى الآن - إذا استثنينا النقش السابق أي نقش النمارة المكتوب بخط نبطي - حروفه وسط بين النبطي

(١) R. Bell, The Origin of Islam in its Christian environment, Edinburgh University, 1925. p. 17, 79

سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: The Origin of Islam.

(٢) إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، القاهرة ١٩٢٧، ص ٣٧. سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: ولفنسون، تاريخ.

(٣) Trimingham, Christianity, P. 17, 79، وانظر البطاينة (العلاقة)، ص ٥٥-٥٦.

(٤) دروزة، تاريخ، ج ٥، ص ٤٨.

(٥) دروزة، تاريخ، ج ٥، ص ٥٦.

والكوفي ويسمى النسخي، وهو منقوش على عتبة وواجهة كنيسة مارسركيس جنوب غرب القلعة^(١). ونقش حران الذي عثر عليه في منطقة اللجا ويعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨ م وهو مكتوب بالكوفي^(٢).

يؤكد نولدكه وحدة اللغة الفصحى عند شعراء الجاهلية بقوله: (إن شعراء العرب استعملوا لغة واحدة بالرغم من انتمائهم إلى قبائل كثيرة، فامرؤ القيس كان كندياً - قحطانياً - يمنياً، وزهير وعنترة ولبيد كانوا من قيس، وطرفة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من ربيعة، وقيس وربيعة من قبائل نزار)^(٣). ورافق هذا التطور الثقافي المتمثل ببلوغ العربية مرحلتها الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم تطور آخر في المجال السياسي، إلا أن اللغة كانت أسرع في الوصول إلى أهدافها بينما تعثرت الوحدة السياسية ولكل أسباب. فالتطور اللغوي والثقافي سارعت فيه وعززته مجموعة من العوامل، منها الصلات الدائمة بين العرب في الجزيرة وخارجها، صلة اقتصادية وسياسية وثقافية تتمثل بالرحلات التجارية وما ترتب عليها من اتفاقات (الإيلاف مثلاً) والأسواق الموسمية التي كانت تنعقد بشكل دوري في أرجاء مختلفة، من الجزيرة العربية، ومن أبرز هذه الأسواق، عكاظ وذو المجاز ومجنة، في منطقة الحجاز. وكان العرب يحضرون هذه الأسواق من كل صوب يتبادلون فيها السلع والأفكار، إذ كانت هذه الأسواق محجاً للخطباء والشعراء والفصحاء وكل ذي علم وفن من العرب^(٤). ومن هذه العوامل الحج إلى مكة - المحج الوطني للعرب - وقد قرر غير واحد من علماء العرب وغير العرب أنه كان للحج وتقاليده

(١) الخازن، من الساميين إلى العرب، ص ١٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٢.

(٤) انظر حول الأسواق: المحبر ٢٦٣ وما بعدها؛ ياقوت الحموي، شهاب الدين عبد الله (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م)، معجم البلدان، ج ٦، بيروت. ١٩٧٧، مادة (أسواق). سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم؛ محمود شكري، الألويسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، ط ٣ مصر ١٣٤٢ هـ ج ١، ص ٢٦٤ وما بعدها. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الألويسي، بلوغ؛ سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ط ٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٣٩٤ - ١٩٧٤ م، ص ٢٣٢ (سوق دومة الجندل) وص ٢٧٧ (سوق عكاظ) وص ٣٤٤ «سوق مجنة» وص ٣٤٧ (سوق ذي المجاز) وص ٣٦٤ (سوق بصرى) وص ٣٧٢ (سوق أذرع) وص ٣٧٤ (سوق الحيرة). سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الأفغاني، أسواق.

وأساقه أثر كبير في ذلك بعد أن غدا شاملاً لجميع العرب^(١). وضاعف هذه التطورات تعرض المنطقة العربية للأطماع الأجنبية متمثلة بالتنافس الذي حصل بين الفرس والروم. وقد راقب العرب هذا الصراع وأدركوا أنه يمسه ويؤثر في سيرتهم، وأدركوا أيضاً أنه لا بد لهم من كيان عربي خاص بهم يقف في وجه الأطماع الفارسية والرومية^(٢). وقد حاولت دولة حمير لعب هذا الدور وأوكلت إلى (آل كندة) مهمة توحيد القبائل العربية في وسط جزيرة العرب وشمالها وشرقها، ونجح الحارث بن عمرو الكندي وأبنائه في هذه المهمة فترة وجيزة، فكانت هذه السابقة حافزاً لمحاولات سياسية أخرى لاحقة. وقد شهدت فترة الصراع الفارسي الرومي على المنطقة العربية أساليب متعددة للفوز بهذه المنطقة ذات الموقع الاستراتيجي والاقتصادي - عقدة المواصلات التجارية في العالم القديم - فاتبعوا وسائل الغزو العسكري والفكري وألقوا على رؤساء العرب بالألقاب والامتيازات، كالردف، وذي الأكال، وذي التاج، وفلارك، وبطريق^(٣).

جاء الإسلام متوجاً لكل العوامل الفاعلة لتكوين الشخصية العربية المتكاملة، فكان أقوى حدث في التاريخ العربي على طوله، فمن الناحية اللغوية والثقافية ثبت القرآن قواعد اللغة شعراً ونثراً وكرس نقاوتها وحلق بها في أسمى الآفاق فباتت مقاطعها آيات تبهر المسلمين والمسيحيين^(٤).

ومن الناحية السياسية دعا العرب إلى الوحدة في إطار الأمة الإسلامية، مميزة من دون

(١) دروزة، تاريخ، ٥٦-٥٧.

(٢) أبلغ شاهد على مراقبة العرب للأحداث التي تجري في المنطقة بشكل عام. والصراع الجاري بين الفرس والروم بشكل خاص قوله تعالى في بداية سورة الروم: ﴿اللَّهُ غَلَبَ الرُّومَ﴾ ﴿فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ﴾ ﴿مَسِيحِيَّتُهُمْ﴾ ﴿فِي بَيْتِ مَرْيَمَ قَوْلَ الْأَنْثَرِ مِنْ قَوْلِ وَمَنْ يَمْزُقُ يَمْزُقُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

(٣) مثال على الغزو العسكري: حملة ايليوس غالوس - حاكم مصر الروماني، على الحجاز واليمن، ثم احتلال تراجان لدولة الأنباط، وأورليان لدولة تدمر وحملات الفرس على منطقة الخليج العربي وأخيراً حملة وهرز مع سيف بن ذي يزن واحتلال اليمن. بالإضافة إلى محاولة نشر النصرانية وفي أحيان المزدكية انظر صالح درادكة، الردافة على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق جزيرة العرب في القرن السادس وبداية السابع الميلادي، مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، عدد ١١/١٩٨٢، ص ٤٠.

(٤) انظر: الخازن، من الساميين، ص ١٧٣.

الناس^(١)، تدعو للتي هي أقوم^(٢).

ولما كان خارجاً عن أغراض هذه الدراسة الدخول في بيان تفاصيل أثر الإسلام في العرب، فيكفي أن نقول: أن الإسلام قاد العرب في المسارات السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية وحملهم رسالة قومية وإنسانية، فكانت حركة الفتوحات - التوحيد السياسي للعرب - بدءاً بالجزيرة العربية ومن ثم بلاد الشام والعراق. وبهنا أن نعرف فيما إذا كان في الإسلام ما يحتم فتح بلاد الشام أو تحريرها واستكمال الوحدة السياسية للعرب؟ وسنعمد في الإجابة على هذا التساؤل إلى نصوص من القرآن والسنة والتراث الإسلامي ثم إلى المقدمات العملية التي حدثت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلها توحى بحتمية فتح بلاد الشام.

ومن أولى الأدلة على مكانة بلاد الشام في الفكر الإسلامي قوله سبحانه وتعالى في مستهل سورة الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ [الإسراء] وقد اتفق المفسرون على أن المقصود بالمسجد الأقصى هو: بيت المقدس وسمي بالأقصى لبعده المسافة ما بين المسجد الحرام في مكة وبيت المقدس^(٣).

وقال ابن الكلبي في تفسير الأرض المباركة بأنها الشام، وقال الحسن: هي الشام باركنا فيها بالماء والأشجار والثمار والخصب والسعة، وقال السهيلي: الذي باركنا حوله يعني الشام، والشام

(١) انظر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هَذِهِ أَمْثَلُكُمْ أَجْدَةً وَجِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤنود].

(٢) انظر قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: الآية (٩)].

(٣) انظر الطبري أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، ٣٠ ج، دار المعارف، القاهرة، ج ١٥، ص ٣، وبهامشه تفسير النيسابوري ١٥/١٤. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تفسير؛ العلمي، أبو اليمن القاضي بجزير الدين (ت ٩٢٧هـ/١٥١٢م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ ح، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ ج ١ ص ٥-٦. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العلمي، الأنس؛ انظر مناقشة روايات الإسراء عند الدوري. (فكرة القدس في الإسلام)، بحث قدم في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (مخطوط)، ص ١. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: الدوري، فكرة.

بالسريانية «الطيب» (سميت بذلك لطيبها وخصبها)^(١) ويتضح في الآية السابقة الربط المكاني بين الحجاز وفلسطين، كما هو واضح بالمباركة الربط المعنوي بين المكانين من حيث القدسية والأهمية. وقال تعالى: ﴿وَنَجِّنَنَّهُ وَلَوْ طَأَّ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنبياء].

فعند أبي بن كعب وسفيان الثوري، وقنادة أن المقصود بالأرض التي باركنا فيها أرض الشام، وهذا ما دعا إبراهيم عليه السلام أن يفارق أرض العراق إلى الشام^(٢). وجاء في السورة نفسها ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الأنبياء].

ويروى في بعض الأقوال أن الأرض الموروثة يعني بها: الجنة، وأفادت الآثار أنها بلاد الشام إذ منها المحشر والمنشر^(٣). وقال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَمُفِيهَا بِالْعُدُودِ وَالْأَصَالِ﴾ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا لُتْلُهُمْ تَحَرَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ [الدور].

وقيل إن الذي عني بالبيوت والمساجد: (بيت المقدس)^(٤)، وقال تعالى: ﴿فَضَرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا لِمَا بَابَاطْنَهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهَرَهُمْ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ﴿١٣﴾ [الحديد].

وعند ابن وهب عن ابن زيد أن ذلك السور بيت المقدس، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ﴿٥﴾ [المؤمنين].

لقد تضاربت الأقوال حول المقصود بالربوة، فعند قنادة وكعب، أن الربوة هي الرملة من

(١) أبو هلال الدمشقي، أبو محمود أحمد بن محمد (ت ٥٧٦٥هـ/١٣٦٤م) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، مخطوط في جامعة برنستون، صورة عنه في مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم ٣٨٥، ورقة ٢أ، سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: مثير الغرام.

(٢) الطبري، تفسير، ج ١٧، ص ٣٤-٣٥، مثير الغرام، ورقة ٢ب.

(٣) الطبري، تفسير، ج ١٧، ص ٨١ «رواية ابن عباس»؛ وانظر المكناسي أبي اسحق إبراهيم المكناسي ابن يحيى، كتاب في فضائل بيت المقدس وبلية فضائل الشام، صورة مخطوطة توينجن، مكتبة الجامعة الأردنية رقم تصنيفها (٤٢١، ٩٥٦) ورقة ٤٣/أ. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا المكناسي؛ ومثير الغرام، ورقة ٣ب - ٦ب.

(٤) الطبري، تفسير ج ١٨، ص ١١١-١١٤.

فلسطين وشايعهما البهزي، وقال آخرون هي دمشق ومنهم سعيد بن المسيب، وقيل غير ذلك^(١). وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ ^(٢) و﴿طُورِ سِينِينَ﴾ ^(٣) [التين]، جاء في أقوال بعض المفسرين أن التين يقصد به مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس^(٤) وفي قول آخر أن التين وطور سنين ثلاثة مساجد بالشام^(٥).

وعن ابن عباس: أن التين بلاد الشام والزيتون بلاد فلسطين وطور سنين الجبل الذي كلم الله موسى عليه السلام، وهذا البلد الأمين (مكة)^(٦). وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صَدَقَ﴾ [يونس: الآية (٩٣)].

بوأهم الشام وبيت المقدس، روى ابن عساكر هذا الحديث من عشرة طرق، وبصيغ مختلفة في الألفاظ متفقة في المعنى كلها تفيد تبشير الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح الشام والاقامة فيه^(٧). وقد ذكر صاحب مثير الغرام، كما أوردت كتب التفسير وكتب فضائل القدس والشام، عدداً كبيراً من الآيات تتضمن الإشارة إلى أماكن قالوا أنها تعني بيت المقدس أو مواقع في بلاد الشام ومن تلك الآيات^(٨).

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: الآية (٣٠)].

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَفَوْا بِهِمْ هُمْ عُرِفُوا مِنْ قَوْفِهَا عُرِفَ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر: الآية (٢٠)].

﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: الآية (٢٩)].

﴿يَمْسُوسُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ ^(٩) [القصص].

(١) الطبري، تفسير، ج ٨، ص ٢٠؛ وابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ٤٦ «رواية ابن عباس»؛ ومثير الغرام ورقة ١٣.

(٢) قال ذلك كعب وقتادة وابن زيد ووكيع وآخرون. انظر الطبري، تفسير، ج ٣٠، ص ١٥٤.

(٣) انظر: الطبري، تفسير، ج ٣، ص ١٥٤؛ وابن عساكر تهذيب، ج ١، ص ٤٧؛ وابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور ط ٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ٧٠-٧١ سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الجوزي، فضائل.

(٤) ابن عساكر، تهذيب ج ١، ص ٤٧؛ وانظر العلمي، الأنس الجليل ج ١، ص ٦.

(٥) ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ٣٥.

(٦) انظر، مثير الغرام، ورقة ٣ أ، و ٣ ب (وان المحشر سيكون في أرض الشام).

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا...﴾ [طه: الآيات (٩ - ١٠)].

﴿فَاخْلَعْ تَعْلِيكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:].

﴿يَنَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾ [الأنبياء:].

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّ سَيِّدِينَ﴾ [الصافات:].

وقد رويت أحاديث كثيرة من فضائل بيت المقدس والشام، منها الصحيح والحسن والغريب والضعيف والمحتمل والواهي والموضوع، والآثار القوية والواهية وغير ذلك، كما صنف آخرون كتباً في فضائل الشام^(١).

وعلى أية حال فإن كثرة هذه الأحاديث رغم ما يطعن في بعضها، تكمل الصورة السابقة لبلاد الشام، وتضع الجانب النظري - إن جاز التعبير - موضع التطبيق، وسنذكر مجموعة من الأحاديث مبتدئين بتلك التي بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بها بفتح بلاد الشام، والتي تعكس أهمية هذه البلاد في العقيدة الإسلامية - كما ذكرنا سابقاً - وتحتمل هذا المنظور العقدي استكمال وحدة هذه البلاد مع وحدة الجزيرة العربية، كلبنة أولى في بناء الصرح الكامل للشخصية العربية الإسلامية.

ومن أشهر الأحاديث التي بشر فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح الشام، حديث الخندق، لما استعصت على أحد الصحابة صخرة أثناء الحفر، فاستعان بالرسول صلى الله عليه وسلم فضرب الصخرة بمعوله عدة ضربات، تخرج لمعة في كل ضربة تضيء المكان، فأخبر صلوات الله عليه وسلم بفتح الشام وفارس واليمن، والحديث معروف ومشهور^(٢).

وعن معاذ أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ أن الله عز وجل

(١) انظر محمد ناصر الدين الألباني، تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق، للريعي، ومعه: مناقب الشام وأهله، تأليف: شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، ط ٤، بيروت ١٤٠٥ هـ، ص ٥-٦٩.

(٢) انظر الحديث في ابن هشام، السيرة ٢م، ص ٢١٩؛ والطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٥٦٨-٥٦٩؛ الواقدي، مغازي، ج ٢، ص ٤٥٠؛ وانظر أجناس جولدت تسيهر، العقيدة والشريعة ترجمة وتعليق: محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلي حسن عبد القادر، دار الكاتب المصري، القاهرة ١٩٤٦، ص ٢٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: جولدت تسيهر، وقد روى هذا الحديث أبو هلال الدمشقي، وهشام بن عمار عن معاوية بصيغة أخرى.

سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت المقدس، فهو جهاد إلى يوم القيامة^(١).

ورويت في كتب الصحاح عدة أحاديث بلفظ يفتح الشام، وسيفتح عليكم الشام، وليفتحن الشام والروم، وغير ذلك^(٢).

وجاء في حديث رواه ابن حنبل، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح: (إني نذرت أن فتح الله عليك مكة، أن أصلي في بيت المقدس)^(٣).

وروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لشداد بن أوس: (ألا إن الشام ستفتح وبيت المقدس سيفتح إن شاء الله تعالى، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله تعالى)^(٤).

وقال جزء بن سهيل السلمي للرسول صلى الله عليه وسلم: (ومن يستطيع الشام وفيها الروم ذات القرون، قال: والله ليستخلفكم الله فيها ... حتى تظل العصاة البيض منهم قياقا على الرجل الأسود منكم، وما أمرهم فعملوا...) ^(٥).

وأورد الواقدي حديثاً مرفوعاً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبره بفتح بيت المقدس وقيسارية^(٦).

(١) الأئس الجليل، ج١، ص٢٢٨.

(٢) انظر ونسك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ٧ ج، ليدن ١٩٦٥، ج٥، ص٤٣-٤٤، ص٤٨، ص٥٣، ص٥٥. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا ونسك، المعجم؛ وانظر، ابن عساكر، تهذيب ج١، ص٥٩؛ الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/٨٥٥م)، مسند أحمد بن حنبل، ٦ ج، المكتب الإسلامي بيروت، ج٣، ص٣٦٣. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: مسند أحمد بن حنبل.

(٣) مسند أحمد ابن حنبل، ج٣، ص٣٦٣، ج٤، ص١٩٩.

(٤) العليمي، الأئس، ج١، ص٢٤٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ٤ ج، ط١، دار احياء التراث العربي، بيروت- ١٣٢٨هـ/٢٣٤٤ رقم (١١٤٤).

(٦) الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م)، كتاب الفتوح، ط١ منشورات المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٦٦. ج٢١٣. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، فتوح.

وقال ابن اسحاق: "وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم فالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك" (١).

ومن الآثار البينة التي تدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرى أن فتح بلاد الشام ودخول المسلمين بيت المقدس حاصل بإذنه تعالى، أنه أقطع بعض القطائع في بلاد الشام وهي تحت حكم الروم إلى بعض أصحابه. ومنها أقطاعه لتميم الداري وأخيه سنة تسع: حبرون أو «حبرى» وبيت عينون والمرطوم وبيت ابراهيم ومن فيهم إلى الآبد (٢).

وقد نقل أبو عبيد ما روى عن تميم الداري حين خاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "إن الله مظهرك على الأرض كلها فهب لي قريتي من بيت لحم" (٣) فوهبها له وكتب له فيها كتاباً، ووعد رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق وعطاؤه حق (٤). وما زال التميميون في منطقة الخليل حتى يومنا شاهد صدق على فعل الرسول صلى الله عليه وسلم. وتعطي الروايات المختلفة لوثيقة تميم التصرف في هذه المواطن وفيمن يسكنها، وتبيح له حق توريثها لأبنائه من بعده (٥).

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٢١٩.

(٢) حول أقطاع تميم الداري انظر: ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٥٤؛ ابن سعد، ج١، ص ٢٦٧، ٣٤٣، أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت ٣٢٤هـ/ ٨٣٨م)، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٢٧٤، ص ٢٧٥، ص ٢٨٩. سيشار إليه فيما بعد هكذا: الأموال؛ الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن، تاريخ الحميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهيبية، القاهرة، ١٢٨٣هـ، ج٢، ص ١٤٦، سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم، ج٢، ص ٢١٢ مادة «حبرون»؛ محمد حميد الله، الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٣، دار الإرشاد، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، رقم ٤٣-٤٥، ص ١٠٠-١٠٣. سيشار إليه فيما بعد هكذا: حميد الله، الوثائق، الإسلامية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، دار الكتاب اللبناني، بيروت (١٤٠١-١٩٨١)، ط ٣، سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: عون الشريف، نشأة، ص ٢٦٢.

(٣) ذكر أبو عبيد أن تميم جاء بالكتاب لعمر بن الخطاب الخليفة بعد فتح الشام، وطلب إليه ما فيه، فقال عمر: أنا شاهد ذلك «أي الكتاب» فأعطاه إياها. انظر: الأموال ٢٧٤-٢٧٥.

(٤) الكتاني، الشيخ عبد الحي، التراتيب الإدارية، ج ٢، بيروت، ج ١، ص ١٤٩-١٥٠، وانظر عون الشريف، نشأة، ص ٢٦٢.

(٥) انظر الوثيقة في المصادر السابقة.

وأقطع الرسول صلى الله عليه وسلم أرضاً لأبي ثعلبة الخشني وهي بأيدي الروم^(١). وفي ذكر فضائل بلاد الشام ومدنه، وبخاصة بيت المقدس ودمشق والخليل وغيرها، رويت أحاديث كثيرة وصنفت كتب.

عن أبي هريرة قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربع من مدائن الجنة، مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس)^(٢)، ونلاحظ في هذا الحديث محاولة المساواة بين الحجاز والشام. وعن عبد الله بن حوالة أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستجدون أجناداً، جنداً بالشام وجنداً بالعراق وجنداً باليمن)، قال: فقلت: «خبر لي أي تخير لي يا رسول الله، قال عليك بالشام» وقد رواه ابن عساكر من عشرة طرق ورواه الإمام أحمد في مسنده بخلاف لفظي يسير^(٣).

روى الواسطي (الخطيب ببيت المقدس)، عن الوليد بن مسلم عن ثور بن يزيد قال (قدس الأرض الشام، وقدس الشام فلسطين، وقدس فلسطين بيت المقدس وقدس بيت المقدس الجبل، وقدس الجبل المسجد، وقدس المسجد القبة)^(٤).

ومن هذه الأحاديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الجنة مطوية في قرون الشام) وأن الشام مهبط عيسى بن مريم قبل قيام الساعة، وأن أهل دمشق لا يزالون على الحق ظاهرين^(٥).

ودعا الرسول للشام بأن يبارك الله في ثمرها وأرضها وصاعها ومدنها^(٦) وأثر عنه

(١) انظر: الأموال، ص ٣٨٨-٣٨٩؛ حميد الله، الوثائق، ص ١٠٣ رقم ٤٧ أ. وأقطع الرسول صلى الله عليه وسلم موضع دار للأزرق الغساني (حميد الله، ن. م، ص ٢٦٣ رقم ٢١٥ أ).

(٢) ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ٤٧؛ العليمي الأنس، ج ١ ص ٢٢٨؛ وطه الولي، التراث الإسلامي في بيت المقدس وفضائله الدينية، مطبعة دار الكتب، ص ٦٧. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: طه الولي.

(٣) ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ٢٧.

(٤) ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٤١-١٤٢؛ وانظر الدوري، «فكرة»، ص ٣٤.

(٥) ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ٤٨-٥٥.

(٦) ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ٣٤، ٥٨؛ مثير الغرام، ورقة ١٥. أبو المعالي المشرف ابن المرجا المقدسي (من رجال القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي). فضائل البيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام، ص ٢٠٧. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أبو المعالي فضائل.

صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ان دمشق من أبواب الجنة)^(١) وقوله صلى الله عليه وسلم (طوبى للشام)^(٢).

ووردت أحاديث كثيرة ترغب بسكن الشام والإقامة فيها منها:

(عليكم بالشام فإنها صفوة الله تعالى في أرضه، يسوق إليها صفوته من خلقه...) (٣) ومن الأحاديث المشهورة التي تأتي موازية في الغرض والأهمية لآية الإسراء، حديث: (لا تشد الرجال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)، وقد روي هذا الحديث بصيغ مختلفة لا تخرج عن هذا المعنى (٤).

والمسجد الأقصى وبيت المقدس جزء هام من بلاد الشام، تفرد أكثر من غيره من المدن الشامية بمركزه الروحي والتاريخي، وحسبها أن الله ربطها ربطاً روحياً مع مكة والمدينة مما يؤكد إسلامياً وحدة المصير.

وقد انعكست مكانة بلاد الشام وأهميتها في كتب التراث، فقد صنف في فضائل الشام ومدنها وبخاصة بيت المقدس، كثير من المؤلفات، تذكر خصائصها وتبرز فضائلها وبدأ المسلمون منذ زمن مبكر في تأليف مثل هذه الكتب التي تجسد أهمية هذه البلاد في

(١) ابن عساکر، تهذيب، ج ١، ص ٤٧.

(٢) ابن عساکر، فضائل، ص ٣٠٩، المكناسي، فضائل، ورقة ٣٥ ب.

(٣) ابن عساکر، تهذيب، ج ١، ص ٢٨٨، المكناسي، فضائل، ورقة ٣٧ ب وما بعدها.

(٤) ٢٣٠؛ وانظر مناقشة الحديث عند الدوري فكرة ص ٢٠ وما بعدها. وعن فضائل الشام انظر ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن إبراهيم، مختصر كتاب البلدان، نشره دي خويه، بريل، ليدن، ١٨٨٥/ ص ٩٢ سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه مختصر؛ والمقدسي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، ص ١٥١. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: أحسن التقاسيم؛ العلمي، الأنس الجليل ج ١، ص ٢٢٨، الصنعاني أبو بكر عبد الرزاق بن همام (ت ٢١١ هـ/ ٨٢٦ م)، المصنف، ١١، ح، تحقيق حبيب الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، باكستان، ١٩٧٢، ج ٥، رقم ٩١٣٢، ٩١٧٣، ١١٦٣. سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: الصنعاني، المصنف؛ ونسك المعجم، ج ٢، ص ٤٢؛ ابن الجوزي، فضائل، ص ١٣٩-١٤٧؛ طه الولي، التراث ٤-١٠؛ جبرائيل جبور مكانة القدس لدى المسلمين، بحث للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام وفلسطين ١٩٨٠. (مخطوط) ص ٣٠-٣٢. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: جبور، مكانة؛ غفيف عبد الرحمن، القدس ومكانتها لدى المسلمين وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، م ٢ «القدس»؛ ص ٢٢٧.

- نظر المسلمين وتصور مدى تطلعهم إليها ... ونحن ذاكرون عددًا من هذه المؤلفات:
- الرازي البجلي، أبو القاسم تمام بن أبي الحسين محمد بن عبد الله (ت ٤١٤هـ/١٠٢٣م) وهو من كبار رجال الحديث بدمشق، واشتهر بمعرفة فضائل الشام ودمشق، وقد كان ما رواه في هذا الصدد، نواة الكتب التي ألفت في هذا الموضوع من بعد، منذ الربيعي إلى أولاد عساكر - الذين ألفوا كثيرًا في فضائل الشام - ومن بعدهم^(١).
 - الربيعي، علي بن محمد المالكي (ت ٤٤٤هـ/١٠٥٢م) وهو من محدثي دمشق، أتم سنة ٤٣٥هـ، جمع كتاب سماه: فضائل الشام ودمشق^(٢).
 - المقدسي القيسراني، أبو الفضل محمد بن طاهر (٤٤٨/١٠٥٦ - ٥٠٧/١١١٣) تاريخ أهل الشام ومعرفة الأئمة منهم والأعلام^(٣).
 - أبو المعالي المشرف بن المرجا بن ابراهيم المقدسي فضائل البيت المقدس والخليل عليه الصلاة والسلام وفضائل الشام^(٤).
 - ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي الدمشقي (٤٩٩/١١٠٥ - ٥٧٢/١١٧٦) ألف في فضائل: دمشق، القدس، مكة، المدينة، الخليل، عسقلان^(٥).
 - الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م) الفتح القسي في
-
- (١) شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ٢ ح، دار العلم للملايين، ط ٢، بيروت، ج ٢، ص ٢٤٣. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: التاريخ العربي. لقد أوردنا نماذج من المؤلفات في فضائل بلاد الشام ورتبناها حسب سني وفاة المؤلفين. ومن أراد معرفة المزيد من هذه المؤلفات عليه الرجوع للمراجع المشار إليها في الهوامش.
- (٢) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩١م)، الاعلان بالتبويب لمن ذم التاريخ، ط. روز نثال العربية، ص ٢٦٣، سيشار إليه فيما بعد السخاوي، التاريخ العربي، كامل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، دراسة وبليوغرافيا، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ط ١، عمان ١٩٨١، ص ٣٠. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: العسلي. مخطوطات، وقد طبع المجمع العلمي بدمشق الكتاب بتحقيق صلاح الدين المجذ.
- (٣) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ٦ ح، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٩٧٧، ج ١، ص ٣٩٨. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: بروكلمان، تاريخ الأدب.
- (٤) العسلي ٣٤.
- (٥) التاريخ العربي، ج ٢، ص ٢٤٣.

الفتح القدسي^(١).

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥١٠-٥٩٧) فضائل القدس.
- البغدادى، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن أبي زيد (ت ٥٩٧هـ) مثير الغرام لسكاني الشام^(٢).
- الضياء المقدسي، أبو عبد الله بن عبد الواحد بن أحمد الجماعيلي (٥٦٩-٦٤٣/١٢٤٦) فضائل الشام. وهو يشبه ما كتبه الربيعي وابن عساكر قبله^(٣).
- أبو اسحاق، ابراهيم بن يحيى بن أبي الحفاظ المكناسي، من علماء المغرب عاش في القرن السابع، وألف كتابه في أواخر القرن المذكور: كتاب فيه فضائل بيت المقدس وفضائل الشام^(٤).
- مؤلف مجهول: فضائل الشام وفضل مدنها، بيت المقدس وعسقلان وغزة والرملة وأريحا ونابلس وبيسان ودمشق وحمص وذكر الأنبياء المشهورين فيها وذكر الصحابة المدفونين فيها^(٥).
- الكنجي، شمس الدين محمد بن محمد بن حسين (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣)، فضائل بيت المقدس وفضائل الشام فيها^(٦).
- المقدسي الشافعي، شهاب الدين أبو محمود أحمد بن محمد بن ابراهيم بن هلال بن تميم بن سرور (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٤م) مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام^(٧).
- شمس الدين أبو العباس، تحفة الأنام في فضائل الشام^(٨).

ومما هو جدير بالذكر أن كتب السير والتواريخ، وفيه ذكرت فضائل بلاد الشام، وكتب الكثيرون في الرحلات ووصف البلدان والمسالك والممالك وطرق الحج وفضائل

(١) العسلي، ص ٤١، مطبوع.

(٢) مثير الغرام، ص ٦.

(٣) التاريخ العربي، ج ٢، ص ٢٥٩.

(٤) العسلي، ص ٥٧.

(٥) المصدر السابق، ص ٦١.

(٦) المصدر السابق، ص ٧١.

(٧) المصدر السابق، ص ٥٥.

(٨) عفيف عبد الرحمن، ص ٢٢٩، وما بعدها.

الأماكن المقدسة. ومن أقدم كتب التراث التي انتبعت لهذا الموضوع - غير كتب الحديث وعلوم الفقه - كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي^(١). ثم جاء أصحاب كتب الجغرافيا والبلدان فأبرزوا جوانب متعددة لفضائل بلاد الشام ومدنها مثل ابن خرداذبة (جاء قبل ابن عبد ربه بنحو ثلاثين سنة) فكتب كتابه المسالك والممالك^(٢) وكان هذا الكتاب مصدرًا استمد منه المتأخرون بعده كابن الفقيه في كتابه: مختصر كتاب البلدان، وابن حوقل والمقدسي الذي جاء بعد ابن خرداذبة، وابن واضح اليعقوبي صاحب كتاب البلدان، وابن رسته الذي ألف كتاب الأعلام النفيسة، وبعد ذلك جاء الأصطخري فكتب المسالك والممالك^(٣).

ويتضح مما سبق أن مسلمين من مصر والمغرب والمشرق الإسلامي ألفوا في فضائل الشام وهذا يعكس مكانة بلاد الشام في قلوب المسلمين وعقيدتهم. ويمكن الاستدلال بمجموعة من الحوادث أن النبي صلى الله عليه وسلم اتجه بنظره إلى شمال الجزيرة نحو بلاد الشام قبل استكمال وحدة جزيرة العرب منذ السنة الخامسة، ومن خلال استقراء الحوادث يتبين أن من بين العوامل التي دفعت لعقد صلح الحديبية مع قريش التفرغ للقيام بنشاط دبلوماسي وعسكري في المنطقة الشمالية تمثل بالانفراد بخيبر، بعد عهد السلام مع قريش، وكانت خيبر معقلاً يقوي من عزائم القبائل العربية في الشمال ضد الدعوة الإسلامية، كما استغلت هذه الحالة بعد الحديبية في نشر الإسلام وبخاصة بين القبائل الشمالية والقبائل المستقرة في بلاد الشام.

وستعرض بإيجاز لمجموعة الحوادث التي توضح غرضنا المتمثل في تصميم المسلمين على فتح بلاد الشام وأولى هذه الحوادث: غزوة دومة الجندل في السنة الخامسة أو السادسة للهجرة، ففي بداية السنة الخامسة للهجرة غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دومة الجندل، وأراد أن يدنوا إلى أدنى الشام، وقيل له أنها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت لها كان ذلك مما يفرع قيصر^(٤). وكانت دومة الجندل مركزاً تجارياً هاماً، تستمد منه المدينة حاجتها من المواد

(١) جبرائيل، «مكانة»، ص ١٨.

(٢) ليدن ١٨٨٩.

(٣) جبرائيل (مكانة)، ص ٢٠.

(٤) الواقدي، مغازي، ج ١، ص ٤٠٢-٤٠٣.

الغذائية، وقيل في سبب الغزوة أن الأعراب هاجموا دومة الجندل وعطلوا وصول ميرتها إلى المدينة، واعتبرت بعض المصادر أن غزوة دومة الجندل أول غزوات الشام^(١). وطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الرحمن بن عوف قائد السرية أن يتزوج من ابنة سيد قبيلة كلب إذا استجابوا للإسلام. ويذكر الواقدي أن الأصمغ بن عمرو الكلبي استجاب للإسلام وكان نصرانياً، وتزوج عبد الرحمن بن عوف من تमाضر ابنة الإصمغ رأس كلب. وهذا يوضح الأهمية التي يعلقها الرسول صلى الله عليه وسلم على كسب قبيلة كلب إلى جانبه، فقد كانت كلب أهم مجموعة عربية بالشام حين برز الإسلام كقوة سياسية، وتمثل قوتهم في ثروتهم الحيوانية المتمثلة بقطعان الماشية - وبخاصة في منطقة دومة الجندل وتبوك وسواها من الواحات المتناثرة حول وادي القرى بنخيلها الغني، وكانت دومة الجندل بالإضافة إلى ما ذكر مركزاً تجارياً غنياً تلتقي فيه الطرق التجارية بين الحجاز والعراق وتدمر^(٢).

وفي السنة السادسة للهجرة بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك عندما علم بأنهم يريدون أن يمددوا يهود خيبر^(٣).

وفي السنة نفسها بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سرية زيد بن حارثة إلى حسمى وهي وراء وادي القرى، بسبب اعتراض نفر من جذام دحية بن خليفة الكلبي وهو راجع من عند قيصر^(٤)، وكذلك سرية زيد بن حارثة سنة ست إلى أم قرفة، حيث بنو فزارة من بني بدر^(٥). وسرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك في سنة سبع للهجرة^(٦). وقل مثل

(١) انظر أخبار هذه الغزوة في السيرة لابن هشام، ٣-، ص ٢٥٣، ومعه الروض الأنف للسهيلى، ضبط وتعليق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، ومغازي الواقدي، ج ٢، ص ٥٦٠؛ وابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٨٩، والطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٥٦٤ (جعلها من حوادث السنة الخامسة)؛ وابن عساکر، تهذيب، ج ١، ص ٩١؛ انظر ياقوت الحموي (دومة الجندل).

(٢) انظر: ياقوت، معجم، مادة «دومة الجندل»، عون الشریف نشأة، ص ٢١٢.

(٣) الواقدي، مغازي، ج ٢، ص ٥٦٢؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٨٩-٩٠؛ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح محمد، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال السمر، ط ٢، دار الجليل، بيروت ١٩٧٤، ١٠٩/٢. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: عيون الأثر.

(٤) الواقدي، مغازي، ج ٢، ص ٥٥٥؛ ابن سعد، ج ٢، ص ٨٨.

(٥) الواقدي، مغازي، ج ٢، ص ٥٦٤؛ وابن سعد، ج ٢، ص ٩٠-٩١؛ عيون الأثر، ج ٢، ص ١١٠.

(٦) الواقدي، مغازي، ج ٢، ص ٧٢٣؛ وابن سعد ١١٨/٢؛ وعيون الأثر ج ٢، ص ١٤٧.

ذلك عن سرية زيد بن حارثة إلى مدين^(١). وبعث غالب بن عبد الله الليثي إلى فدك^(٢).

وتعتبر غزوة خيبر سنة سبع للهجرة من المقدمات لفتح بلاد الشام، إذا نظرنا إلى نتائجها، فقد كانت عقبة أمام المد الإسلامي إلى الشمال، فبزوها ازداد انتشار الإسلام بين أبناء القبائل العربية، كما سارعت الكيانات اليهودية الأخرى في الشمال إلى طلب الأمان والصلح، كما كانت المقدمة لفتح مكة، هذا الحدث الهام في تاريخ الدعوة الإسلامية، فهو يمثل انهيار أقوى الموانع في وجه الدعوة الإسلامية ممثلة باستسلام قريش. رأس العرب، ومن ثم وقفها مع الدعوة الإسلامية. وليس غريباً بعد ذلك أن نجد توافد العرب من كل صوب طالبين الدخول في الإسلام.

وقد ذكر ابن إسحاق أن العرب كانت تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله^(٣).

ومن السرايا ذات الدلائل الواضحة في اتجاه بلاد الشام، سرية كعب بن عمير سنة ثمان للهجرة إلى ذات أطلاح من أرض الشام، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد نشر الإسلام بين قبائل حدود الشام وكانت أول احتكاك لقوات المسلمين بالروم^(٤). وتمثل غزوة مؤتة مرحلة أكثر تقدماً في مصارعة النفوذ الروماني، ذلك أن قوات المسلمين توغلت جنوب بلاد الشام ووصلت إلى البلقاء في سنة ثمان للهجرة، وكان هرقل قد حضر إلى فلسطين وأجلبت معه القبائل المنتصرة، بهراء وواثل وبكر وخم وخدام وبلي وبلقين، وقيل أن سببها مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك بصرى^(٥). وعلى الرغم من

(١) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ١٠٩ تاريخ الخميس ١٥/٢.

(٢) مغازي، الواقدي، ٧٢٦/٢، عيون الأثر ١٤٩/٢ تاريخ الخميس ج٢، ص ٦٧.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٥٦٠ وابن سعد، ج١، ص ٣٢٥.

(٤) انظر: الواقدي، مغازي، ص ٧٥٢-٧٥٣ ابن سعد، ج٢، ص ١٢٧ والطبري، تاريخ، ج٣، ص ١٥٧ ابن عساکر، تهذيب، ج١، ص ٩٢، «رواية الزهري»، و«عيون الأثر»، ج٢، ص ١٥٢ تاريخ الخميس، ج٢، ص ٧٠ أسد رستم، الروم وصلاحهم بالعرب ج١، ط١، بيروت ١٩٥٥. ص ٢٣٤. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: أسد رستم، الروم.

(٥) أنظر أخبارها في ابن هشام، السيرة، ج٢، ص ٣٧٣ وما بعدها؛ الواقدي، مغازي، ج٢، ص ٧٥٥ ابن سعد ٢٨/٢، البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م)، صحيح البخاري، ٩، ح، في ٣، دار إحياء التراث العربي بيروت، ج٥، ص ١٨١-١٨٣. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا:

الفشل العسكري الذي واجهته السرية المسلحة فاننا نلمس نتائج إيجابية تتمثل بانتشار الإسلام في القبائل المنتصرة كما تدل الحوادث اللاحقة، ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بهذه الغزوة وغيرها يريد أن يؤكد للعرب المنتصرة وغير المنتصرة أن لهم قوة يمكنهم الاعتماد عليها.

ومن السرايا ذات العلاقة ببلاد الشام سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل (سنة ثمان للهجرة وقيل سنة سبع) وراء وادي القرى، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص أن يستعين بمن يمر به من بلي وعذرة وبلقين، وهذا يشير إلى بداية تحول في مواقف هذه القبائل، وفي رواية عن الزهري أنه قال: "ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما هاجر وجاء الذين كانوا بأرض الحبشة بعث بعثين قبل الشام، إلى كلب وبلقين وغسان وكفار العرب الذين في مشارف الشام"^(١) وبعث رسول الله بسرية للهجرة^(٢)، أما الواقدي فذكر سرية إلى الجنباب يقودها بشير بن كعب سنة سبع للهجرة^(٣).

ويستفاد من المصادر العربية أن من أهداف هذه السرية، استنفار العرب إلى الشام وإظهار القوة لقبائل جذام وبلي وبلقين وكلب وغسان وعذرة وسعد الله، ومن يليهم من قضاة. وتعتبر السنة التاسعة للهجرة، سنة الأعداد لفتح بلاد الشام، إذ تلاحت الأحداث العسكرية والدبلوماسية بشكل كثيف ومركز، وتميز من هذه الأحداث، غزوة تبوك، التي

صحيح البخاري؛ ابن عساکر، تهذيب، ج١، ص٩٢؛ وعيون الأثر، ج٢، ص١٥٣؛ تاريخ الخميس، ج٢، ص٧٠، وابن كثير عماد الدين أبي الفداء اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/٣٧٢م)، البداية والنهاية ١٤ ح، ط١، بيروت، ١٩٦٦، ج٣، ص٢٤١-٢٤٢. سيشار إليه فيما بعد هكذا: البداية والنهاية.

(١) ابن شهاب الزهري، محمد بن مسلم بن عبيد الله (ت ١٢٤هـ/٧٤١م)، المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار، ط١، دار الفكر، ١٤٠٠-١٩٨٠، ص١٥٠. سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: المغازي، وانظر أخبار ذات السلاسل في ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٦٢٣؛ الواقدي، مغازي، ج٢، ص٧٦٩-٧٧٠؛ وابن سعد، ج٢، ص١٣١؛ ابن عساکر، تهذيب، ج١، ص١٠٣-١٠٥؛ أبو يوسف، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/٧٩٨م)، الخراج، المطبعة السلفية القاهرة، ص١٦. سيشار إليه، الخراج؛ صحيح البخاري، ج٥، ص٢٨ وما بعدها؛ البداية والنهاية، ج٣، ص٧٣؛ وانظر الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ط٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١، ص٤٥، سيشار إليه فيما بعد هكذا: مقدمة؛ تاريخ الخميس، ج٢، ص٣٥؛ وعيون الأثر، ج٢، ص١٥٧، «وذا السلاسل» ماء لجذام.

(٢) ابن سعد، ج٢، ص١٦٤.

(٣) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٧٣٧.

تعتبر متممة للأهداف التي أرادت أن تحققها غزوة ذات السلاسل، غير أنها أكبر حجمًا وأكثر أعدادًا وعددًا، وقد صرحت المصادر العربية بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، إنما كان يريد الروم وكفار العرب بالشام^(١).

وذكرت بعض المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم، شاور أصحابه في مجاوزة تبوك شمالًا، إلا أن عمر بن الخطاب أشار بعدم المجاوزة^(٢).

وأمام سياسة التوجه نحو بلاد الشام، أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم، يعمل على ترتيب الأوضاع ما بين المدينة والشام، ولهذا قام بعدد من الإجراءات لضمان عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز للجماعة الإسلامية، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الأمان، إن لم يكونوا قد ارتبطوا بالإسلام. وهذه الإجراءات ضرورية لحماية القوات الإسلامية في صراعها مع الروم الذي بدأ قبل ذلك.

طلب الرسول صلى الله عليه وسلم من يحنه صاحب أيلة وسروات أهل أيلة، أن يصالحوه، فقدموا إلى تبوك، وأمضوا الصلح المعروف والمشهور ولم يكن لهم خيار في ذلك، إذ أن أيلة مركز تجاري يقع على طريق الحجاز، الذي أصبح في أيدي المسلمين، كما أن المسلمين في السنة التاسعة أصبحوا أقوى قوة عسكرية وسياسية في المنطقة. وقد ذكر ابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث برسالة ليحنة، وضح له المخاطر المنتظرة في البر والبحر إذا لم يستجيب للمصالحة^(٣). وذكر الواقدي أن دومة الجندل و(أيلة) و(تيماء) قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد أسلمت^(٤). وتابع أهل جرباء وأذرح

(١) انظر أخبار هذه الغزاة في: ابن هشام، السيرة، جـ ٢، ص ٥١٥؛ الواقدي، مغازي، جـ ٣، ص ٩٨٩؛ ابن سعد، جـ ٢، ص ٦٥؛ الطبري، تاريخ، جـ ٣، ص ١٠٠-١١١؛ وصحيح البخاري، جـ ٦، ص ٢؛ وقدامة ابن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١، ص ٢٧٠. سيشار إليه فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج؛ تاريخ الخميس، جـ ٢، ص ١٢٢، عيون الأثر، جـ ٢، ص ٢١٥؛ البداية والنهاية، جـ ٥، ص ٢.

(٢) الحلبي الشافعي، علي بن برهان الدين، إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، جـ ٣، وبهامشة السيرة النبوية والآثار المحمدية، لأحمد زيني دحلان، ط ٣، المطبعة الأزهرية، مصر ١٣٥١-١٩٣٢م، ص ١٦١. سيشار إليه فيما بعد هكذا: إنسان العيون.

(٣) ابن سعد، جـ ١، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) الواقدي، المغازي، جـ ٣، ص ١٠٣١.

ومقنا وحواضر شمال الحجاز ما عمله أهل أيلة، فصالحوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأقروا على أنفسهم دفع الجزية، وعدم المظاهرة على المسلمين أو مطالعتهم بشر مقابل تعهد الرسول لهم بالأمن والخير^(١).

وآخر الغزوات العسكرية، إلى بلاد الشام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سرية أسامة بن زيد، حيث أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم وأبني - وهي أرض الشراة إلى ناحية البلقاء - من أرض فلسطين. ويقول ابن هشام ان هذا آخر بعث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢). ويبدو الغرض واضحاً من سرية أسامة بن زيد في قول السيوطي: (أن القبائل العربية كانت تقول عندما مر بها جيش أسامة، لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم)^(٣).

ويبدو حرص الخليفة أبي بكر على مواصلة سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق ببلاد الشام، وبعث جيش أسامة، أنه أصر على بعث هذا الجيش رغم ردة القبائل ونصح بعض الصحابة باستبقاء هذا الجيش حفظاً للمدينة^(٤).

ومن مظاهر النشاط الدبلوماسي الذي رافق النشاط العسكري بعد الحديبية أن الرسول صلى الله عليه وسلم، بعث إلى الملوك والناس من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام^(٥).

وبعد العودة من الحديبية، أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم ستة نفر في يوم واحد إلى هرقل وكسرى وحاكم اليمن، والمقوقس في مصر والنجاشي في الحبشة، وبعض عمال الروم من العرب في بلاد الشام، وإلى رؤساء آخرين داخل الجزيرة العربية. وتؤكد هذه الرسائل

(١) انظر هذه المعاهدات (كتب الأمان) ونصوصها ومصادرها عند محمد حميد الله ص ٨٣ وما بعدها؛ صالح درادكة، (لمحات من تاريخ أيلة) (العقبة) (في العصر الإسلامي)، أحد بحوث هذا الكتاب.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٦٠٦، ص ٦٤١-٦٤٢؛ الواقدي، مغازي، ج ٣، ص ١١١٧؛ ابن سعد، ج ٢، ص ١٨٩ وما بعدها وعيون الأثر ج ٢، ص ٢٨١؛ وانظر أسد رستم، الروم ج ٢، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٣) السيوطي، جلال الدين (ت ٩١٠هـ/١٥٠٥م) تاريخ الخلفاء، مطبعة المدني، ط ٢، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م، ص ٧٤. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده فيما بعد هكذا: السيوطي، تاريخ.

(٤) أفرد ابن عساکر باباً سماه: «باب ذكر اهتمام أبي بكر الصديق بفتح الشام وحرصه عليه ومعرفة أنفاذه الأمراء بالخشود الكثيفة، تهذيب، ج ١، ص ١٢٦.

(٥) انظر ابن سعد، ج ١، ص ٢٨٨.

والجهات التي أرسلت إليها، أن صورة العالم الذي ستجري عليه الحوادث المقبلة، كانت واضحة في ذهن الرسول صلى الله عليه وسلم، ودليلنا أن كل الذين بلغتهم الرسائل، دخلت بلدانهم الدولة العربية الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أو في عهد خلفائه، كما تؤكد هذه الرسائل أن رسالة الإسلام لم تكن مقصورة على العرب وإنما هي للناس كافة^(١).

ويهمنا في هذا الصدد معرفة الرسائل التي وجهت إلى ملوك أو رؤساء لهم صلة ببلاد الشام. فقد كتب الرسول عليه السلام في أواخر سنة ست للهجرة، أو بداية السنة السابعة للهجرة رسالته المشهورة إلى هرقل قيصر الروم يدعو به إلى الإسلام، وتذكر المصادر أن هرقل استقبل الرسول استقبالا حسنا وأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم جواباً رقيقاً.

وقد كتب الرسول إلى هرقل أكثر من مرة، إحداها في تبوك في السنة التاسعة للهجرة^(٢) وكتب عليه السلام كتاباً مماثلاً إلى المقوقس حاكم مصر، وقيل ملك الإسكندرية - واسمه (جريج بن مينا القبطي) وقد أكرم هذا الرسول وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية فيها جارتان إحداها مارية القبطية أم إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣). وبعث الرسول بكتاب مماثل إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، صاحب دمشق وقيل ملك تخوم الشام، وذكر في بعض المصادر - اسم (المنذر بن الحارث)^(٤). وأرسل مثل الكتب السابقة إلى جبلة بن الأيهم، ويقال بأنه أسلم وأرسل بهدية إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبقي على إسلامه حتى زمن الخليفة عمر بن الخطاب^(٥). وقد برهنت الأيام أن هذه

(١) انظر توماس أرنولد، ص ٤٨.

(٢) حول رسائل الرسول انظر: المغازي، ص ٦٠؛ ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٦؛ الأموال ٣٢؛ الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٦٤٤؛ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م). العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد الغريان، المكتبة التجارية الكبرى، بيروت، ج ١، ص ٢٦٠. سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: العقد؛ صحيح البخاري، ج ٦، ص ١٠؛ تاريخ الخميس، ج ٢، ص ٢٩-٣١؛ البداية والنهاية ج ٣، ص ٢٦٤؛ أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٣٤. ولمعرفة النصوص والمصادر انظر حميد الله ص ٨٠-٨٣، الأرقام ٢٦-٢٨ ب؛ عون الشریف، نشأة ص ٧٣ وما بعدها.

(٣) حميد الله ص ٨٢-٨٣، الأرقام ٢٧-٢٨ ب؛ عون الشریف، نشأة، ص ٧٧-٨١.

(٤) المصادر السابقة، الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي، المواهب اللدنية، ٨ ج، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٢٥-١٣٢٩، ج ٣، ص ٣٥٦. سيشار إلى هذا المصدر فيما بعد هكذا: المواهب اللدنية. حميد الله ص ٩٧ رقم ٣٧؛ عون الشریف، نشأة، ص ٣٠٧.

(٥) ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٦٠٦؛ ابن سعد ج ١، ص ٢٦٥؛ تاريخ الخميس ج ٢، ص ٦١؛ حميد الله

الرسائل لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء^(١)، وأن ما جاء فيها قد تحقق كما هو معروف ومشهور في زمن قصير.

ومما يجدر ذكره أن النشاط الدبلوماسي كان يشمل كافة أرجاء الجزيرة العربية، وبلاد الشام ومصر والعراق، ونلاحظ أن تركيزاً أكثر قد أنصب على بلاد الشام. تذكر لنا المصادر أن المراسلات لم تنقطع بين الرسول صلى الله عليه وسلم ورؤساء القبائل في الشمال، وأفراداً من القبائل لم يكونوا بالرؤساء. وقد حصل هؤلاء على كتب أمان من الرسول صلى الله عليه وسلم، لهم ولقبائلهم، فيها العهد بنصرة الرسول وعدم المناصرة عليه. وتفيد هذه المصادر أن نفرأ قد أسلم في وقت مبكر وقبل فتح مكة. وكان هؤلاء عوناً للرسول وأصحابه في نشر الإسلام وتنفيذ سياسته بين أفراد قبائلهم، وتحويل مواقف هذه القبائل الموالية للروم إلى الصف العربي الذي يقوده الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقد كتب الرسول إلى مالك بن أحرر الجذامي العوفي^(٢) وبني الضبيب من جذام، وإلى رفاعة بن زيد الجذامي^(٣)، وإلى بني جفال الجذاميين^(٤) وإلى بطون أخرى وأفراد من جذام^(٥). وكتب عليه السلام إلى زهير بن قرضم^(٦) من قضاة. وكتب إلى زميل بن عمرو العذري أماناً له ولقبيلته عذرة^(٧)، وكتب إلى جزء بن عمرو العذري^(٨). وكتب مثل ذلك إلى بني جعيل من بني من قضاة التي كانت منازلها قرب وادي القرى. وكتب إلى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان من أرض البلقاء^(٩). وكتب أماناً لبني ثعلبة^(١٠) من

ص ٩٨ رقم ٣٨-٩٣.

(١) توماس أرنولد، ص ٤٩.

(٢) حميد الله، ص ٢٣٢ رقم ١٧٣، ١٧٤.

(٣) المصدر السابق، ٢٣٣ رقم ١٧٥.

(٤) المصدر السابق ٢٣٤ رقم ١٧٦.

(٥) المصدر السابق ٢٣٤ رقم ١٧٧.

(٦) المصدر السابق ٢٣٥ رقم ١٧٨.

(٧) المصدر السابق ٢٣٥ رقم ١٧٨، ورقم ١٧٩.

(٨) المصدر السابق ٢٣٨ رقم ١٧٩.

(٩) هون الشريف، نشأة ص ٢٠٧.

(١٠) حميد الله ٩٨ رقم ٤٠؛ عون الشريف، نشأة ص ٣١٣.

غسان، ثم إلى سعد بن هذيم^(١) من قضاة وإلى بني غاديا، ولبني عريض^(٢)، ولبني جناب من كلب^(٣). وتشير مصادرننا إلى خمس وثائق موجهة إلى مجموعات مختلفة من قبيلة طيء، تؤمنهم على ممتلكاتهم وتمنحهم الذمة إذا ما أدوا ما عليهم، وفارقوا المشركين. وقد وجهت الرسالة الأولى إلى معاوية بن جرو ل الطائي، والثانية إلى عامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي، والثالثة لبني جوين من طيء، والرابعة لبني معن الطائيين، والخامسة لجابر بن ظالم بن حارثة الطائي^(٤).

وقد نجم عن نشاط الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام، دخول أعداد كبيرة في الإسلام في وقت مبكر، وبخاصة من أفراد القبائل الموالية للروم، نذكر على سبيل المثال، أن دحية بن خليفة الكلبي، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد أرسله إلى هرقل في السنة السادسة للهجرة^(٥)، وهو من قبيلة كلب المشهورة وكان ناقل الرسالة إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة من لحم^(٦). ونقل الرسالة إلى الحارث الغساني، شجاع بن وهب من أسد^(٧). وقالت بعض المصادر أن رفاعة بن زيد الجذامي، أسلم وأجاب قومه للإسلام في هدنة الحديبية وقبل خير^(٨) وأسلم فروة بن عمرو الجذامي، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٩).

وأرسل عليه الصلاة والسلام لمن أسلم من حدس من لحم منهم زياد بن جهور اللخمي، وكانت هذه الكتب تشترط الدخول في الإسلام، ومفارقة المشركين^(١٠).

(١) ابن سعد، جـ١، ص ٢٧٠.

(٢) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٧٩.

(٣) المصدر السابق، جـ١، ص ٢٨٥.

(٤) انظر حميد الله، ص ٢٥٠-٢٥٣، الأرقام ١٩٣-١٩٦، ١٩٨؛ عون الشريف، نشأة ٢٢١.

(٥) المغازي، ص ٣٣، ص ٦٠.

(٦) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٦٠٦.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر السابق، جـ٢، ص ٥٩٦؛ الطبري، تاريخ، جـ٣، ص ١٦، ص ١٤٠-١٤٣.

(٩) ابن هشام، السيرة، جـ٢، ص ٥٩١؛ عيون الأثر، جـ٢، ص ٢٤٤؛ حميد الله ٩٦ رقم ٣٥.

(١٠) ابن سعد جـ١، ص ٢٦٦.

وفي السنة التاسعة للهجرة، وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم، وفود من بلي وبهراء، وعذرة وکلب وغسان وجزام وکلاب وطيء وغيرهم^(١) من القبائل التي كان الروم يستنصرون بها على العرب. وكلما كانت تتزايد قوة المسلمين العسكرية، كان يرافق ذلك تزايد في الشعور القومي العربي يتمثل بتحول كثير من القبائل المنتصرة عن مواقفها السياسية السابقة، ودخول أعداد كبيرة في الدين الإسلامي، لا سيما وأن الإسلام يعزز العروبة، فالرسول صلى الله عليه وسلم يعتز بانتماؤه إلى قريش، وقريش من العرب، وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أبغض العرب أبغضه الله)^(٢)، ونذكر بعض الحوادث التي تؤيد التحول القومي عند العرب بفعل التغيير الذي أحدثه الإسلام.

ذكر البلاذري أن أبا زبيد الطائي الشاعر النصراني، أبلى في معركة الجسر مع المسلمين، وكان قتاله يعدل قتال جماعة^(٣). وفي معركة البويب قدم أنس بن هلال النمري ممداً للمثنى بن حارثة الشيباني في أناس من النمر نصارى وجلاب جلبوا خيلاً - وهو عبد الله بن كليب بن خالد - وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم: (نقاتل مع قومنا)^(٤). وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين أن العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية (الرومية) الواقعة على أطراف الصحراء، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامي، في حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعود على دفعها لهم مقابل خدماتهم العسكرية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراساً للحدود^(٥).

وذكرت بعض المصادر أن هرقل ملك الروم قال لرسول عمر بن الخطاب: (ألقيت ابن عمك هذا الذي ببلدنا)، (يعني جبلة بن الأيهم)^(٦). فهذا الحديث وأمثاله يبين لنا أن الروم

(١) ابن هشام، السيرة، جـ ٢، ص ٥٥٩ وما بعدها؛ ابن سعد جـ ١، ص ٣٣٠ وما بعدها؛ عيون الأثر جـ ٢، ص ٢٣٦ وما بعدها؛ توماس أرنولد ص ٥٩.

(٢) العقد، الفريد جـ ٣، ص ٢٤٥. وروي أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذكر أن قريشاً الجؤجو والعرب الجناحان. والجؤجو لا ينهض إلا بالجناحين، وقوله: (لا أن درع هذا الحي من قريش إخوانهم من العرب).

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٢٥٢.

(٤) الطبري، تاريخ جـ ٣، ص ٤٦٣.

(٥) W. Mure, *The Calliphate, Its rise, decline and fall*, London, (1891), pp. 90-94

سيشار إلى هذا المرجع عند وروده هكذا: *The Calliphate*؛ وانظر توماس أرنولد ص ٦٦.

(٦) العقد الفريد، جـ ١، ص ٢٦٠.

كانوا يعتبرون العرب أبناء عم، كما يعكس هذا القول النضج القومي الذي بلغه العرب في بداية العهد الإسلامي. وكان العرب حتى في وضعهم القبلي يشعرون بأنهم مميزون عن الأمم الأخرى، فهاهم نصارى بني تغلب بن وائل يرفضون دفع الجزية لعمر ابن الخطاب لأنها كجزية الأعلاج^(١)، وهم قوم من العرب شديدة نكايتهم. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في معرض إظهار فرحة العرب بانتصارهم على الفرس في موقعة ذي قار المشهورة: (هذا أول يوم انتصف العرب من العجم، وبني نصرُوا)^(٢) وذكر أبو يوسف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عامل الأرض المفتوحة من العرب معاملة خاصة فقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح فتوحاً من الأرض العربي فوضع عليها العشر، ولم يجعل على شيء منها خراجاً، وكذلك قول أصحابنا في تلك الأرضين، ألا ترى أن مكة والحرم لم يكن فيها خراج، فأجروا الأرض العربية كلها هذا المجرى، وأجرى البحرين والطائف كذلك^(٣) وقد رفض النعمان بن المنذر آخر أمراء الحيرة أن يزوج إحدى بناته أو أخواته من كسرى ملك الفرس أنفة^(٤) وأورد الدينوري كتاباً منسوباً إلى كسرى يبين فيه أسباب نقمته على النعمان ملك الحيرة جاء فيه: "فان النعمان وأهل بيته واطأوا العرب وأعلموهم توقفهم خروج الملك عنا إليهم"^(٥). وجاء في خطاب أبي بكر لما عزم على توجيه الجيوش إلى بلاد الشام: "(فالعرب اليوم بنو أم وأب) وقد رأيت أن استنفر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام"^(٦) وفي حصار خالد ابن الوليد للحيرة، استغرب موقف

(١) وهذا القول له دلالة إذ هم نصارى والأعلاج الذين يدفعون الجزية نصارى ومع ذلك لا يقبل بنو تغلب أن يعاملوا من العرب المسلمين معاملة الأعلاج غير العرب. أنظر: الخراج ص ١٢٠؛ البلاذري، فتوح ص ١٨٥-١٨٦؛ توماس أرنولد ص ٦٧.

(٢) الطبري، تاريخ ج ٢، ص ١٩٣، وما بعدها؛ أبو عبيدة، معمر بن المثنى (كتاب النقائص) (الطبعة الأوروبية) ج ٢، ص ٦٣٨ وما بعدها؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ٢٤، الهيئة المصرية القاهرة، ج ٢٤ ص ٥٣ وما بعدها. سيشار إليه فيما بعد: الأغاني؛ المناقب المزيدي ج ٢، ص ٤٠٣ وما بعدها.

(٣) الخراج، ص ٥٨.

(٤) الطبري، تاريخ ج ٢، ص ١٩٣ وما بعدها.

(٥) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر ومراجعة الدكتور جمال الدين الشيال، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط ١، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٠٧-١٠٩. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده هكذا: الأخبار الطوال.

(٦) الأزدي ص ٢؛ ابن عساكر، تهذيب ج ١، ص ١٢٧.

أهلها وهم من العرب، فسأل وفدهم الذي حضر إليه للنظر في شروط تسليم المدينة: (ما أنتم! أعرب؟ فما تنقمون من العرب!؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل! وقد أجاب عدي بن عدي بن زيد باسم الوفد قائلاً: "بل عرب عاربة، وأخرى متعربة"، فقال: لو كنتم كما تقولون، لم تحادونا، وتكرهوا أمرنا؟! فقال له عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية، فقال: صدقت^(١). ولما دخلت جيوش الفتح الأردن وفلسطين كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون: (يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا)^(٢).

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم^(٣).

ويفهم من البلاذري أن البعض من القبائل اليمانية الموجودة في الشام من قبل أسلمت بعد الفتح بقليل كما حصل لأكثر تنوخ في حاضر قنسرين، ولطي، وكذا لتنوخ وغيرهم في حاضر مدينة حلب^(٤). وحصل ذلك للخم وجذام وتعاونوا مع الفاتحين^(٥)، حتى أنهم طالبوا بالعطاء مثلهم^(٦).

وذكر الأزدي في فتوحه أن لحماً وجذاماً وغسان وعاملة والقين وقبائل من قضاة دخلوا مع المسلمين في وقعة فحل فكثر عدد المسلمين، فكان من هذه القبائل جمع عظيم وكثير^(٧) كما ذكر اشتراك قضاة ولخم وجذام وغسان وعاملة وقبائل أخرى في معركة

(١) الطبري، تاريخ ج ٣، ص ٣٦١؛ وانظر توماس أرنولد ص ٦٩. في النص المذكور أمران. الأول استغراب قتال العرب للعرب، والثاني تأكيد عروبة أهل الحيرة.

(٢) الأزدي ص ١١١؛ توماس أرنولد ٧٣.

(٣) توماس أرنولد ٧٣ نقلاً عن فتوح البلاذري ١٣٧.

(٤) البلاذري، فتوح، ص ١٢٧، ص ١٣٣، ص ١٣٤، ص ١٤٧؛ وانظر الدوري، (العرب) ص ٢٦.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ١٣١، ص ١٣٦؛ الدوري. (العرب)، ص ٢٦.

(٦) ابن عساكر، تهذيب ج ١ ص ١٧٥؛ الدوري، (العرب) ص ٢٦.

(٧) الأزدي، ص ١١١، ١٣٠.

اليرموك إلى جانب المسلمين^(١). وفي رواية الألكاني والبيهقي عن دخول خالد بن الوليد بلاد الشام: "وتسامع الأعراب الذين كانوا في مملكة الروم بخالد ففزعوا له"^(٢).

ومما يجدر ذكره أن بعض المصادر العربية أطلقت على دخول المسلمين بلاد الشام تسمية (جهاد الروم بالشام)^(٣).

كان سكان بلاد الشام يدركون أن الروم غرباء عنهم مغتصبون لبلادهم فساعدوا الفاتحين وكانوا عيوناً لهم^(٤).

ومما يدل على قوة الشعور القومي عند العرب أن الذين تهودوا منهم في الحجاز ووردت أسماء قبائلهم في الوثيقة التي كتبت بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود^(٥)، لم نسمع بذكرهم بعد الفتح مما يشير إلى أن هؤلاء تخلوا عن يهوديتهم وانضموا للإسلام، بينما بقيت البطون اليهودية الكبرى على يهوديتها.

وفي صلح إيليا (العهد العمري) اشترط أهلها على عمر أن لا يسكن بإيلياء معهم أحداً من اليهود، وعلى أهل إيليا أن يخرجوا منها الروم واللصوص^(٦) واقترا أن الروم باللصوص له دلالة ما بعدها دلالة.

وقد اتحد مفهوم الإسلام (الدين) و (العروبة) (النسب واللغة) في مفهوم واحد تمثل في الدولة والسلطة السياسية العربية، ونظر إليها حتى من قبل المسلمين من غير العرب أنها دولة عربية، فقد اشترك الموالي في معارضة الدولة الأموية ابتداء بحركة المختار الثقفي إلى

(١) الأزدي، ص ٢١٨، ابن عساكر، تهذيب، ج ١، ص ١٦٣؛ وانظر الواقدي، ج ١، ص ١٤٤.

(٢) ابن عساكر، تهذيب ج ١، ص ١٣٥.

(٣) الأزدي، ص ٢؛ ابن عساكر، تهذيب ج ١، ص ١٢٧، ص ١٣٠.

(٤) ذكرت المصادر العربية في مواضع متعددة أن المعاهدين بالشام والأنباط كانوا عيوناً لجيش المسلمين. انظر الأزدي ص ٤٤، ٨٧، ١٢٦، ١٦١، ٢٥٣، ١٥٧، الطبري، تاريخ ج ٣، ص ٣٤٦؛ وابن عساكر، تهذيب ج ١، ص ١٩٢؛ والواقدي، فتوح، ج ١، ص ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٠، ج ٣، ص ٣٣، يذكر الواقدي أن بطارقة ورجال دين نصارى أعنتقوا الإسلام واحتلوا على أقوامهم في فتح مدنهم، كما حدث في فتح صور على يد باسيل الراهب ويوحنا الذي فتح قلعة اعزاز وأنطاكية وغيرها.

(٥) انظر الوثيقة عند حميد الله رقم (١) ص ٣٩ وما بعدها.

(٦) انظر الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٩؛ الأزدي ٢٤٦ وما بعدها؛ البلاخري، فتوح، ص ١٤٤ وما بعدها؛ الواقدي، فتوح، ج ١ ص ٢١٣ وما بعدها.

ثورة ابن الأشعث إلى ثورة الحارث بن سريح المرجي، إلى الدعوة العباسية، وهي حركات تسترت بالإسلام لهدم السلطان العربي والنظام القائم، وكذلك يقال عن الشعوبية^(١).

سبقت العروبة (النسب واللغة) الإسلام (الدين) في بلاد الشام وكونت الأرضية التي حصل عليها التفاعل بين العرب والإسلام وكونت الأمة والنظام والمؤسسة العسكرية. فقد ذكر يعقوبي أن حماة وحمص وشيزر وجبله والأطم كان معظم سكانها عند الفتح من العرب اليمانية^(٢).

ولما قدم غزاة الأزدي وبني كنانة على عمر بن الخطاب في سبعمائة، قال لهم: أي الوجوه أحب إليكم، فقالوا: الشام، أسلافنا أسلافنا...^(٣)

وعن غير الواقدي أن قيسارية لما فتحت وجد فيها خلق من العرب وفتحت بدليل يهودي^(٤). وذكر أبو يوسف أن سكان مدينة الرها من الأنباط^(٥). ويرى لامنس أن العناصر الجنسية التي كانت تؤلف سكان سورية (بلاد الشام) متعددة ومتباينة ولكن يمكن ردها جميعاً، بطريقة إجمالية، إلى العنصرين الأصليين في الشعوب السورية، وهما العنصر الآرامي في الشمال والوسط والعنصر الكنعاني الفينيقي على الشاطئ والجنوب^(٦)، ولكن المصادر العربية والبيزنطية لا تذكر العنصر الكنعاني - الفينيقي، وإنما تذكر العرب المنتصرة والنبط والروم كعناصر السكان في سورية زمن الفتح، وكانت هذه العناصر ما عدا الروم يتكلمون الآرامية قبل نضج العربية كما ذكرنا سابقاً.

وقد رافق الحركة الإسلامية بين العرب حركة تحضر موازية، فقد أكد القرآن الكريم على الفردية واعتبرها الأساس في الحياة الاجتماعية، أي أن الإسلام قام بتفكيك الأعراف القبلية - النظام الاجتماعي - لصالح كيان الأمة، وأكد في هذا التوجه على المسؤولية

(١) مقدمة ص ٦٧ وما بعدها.

(٢) يعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) البلدان، نشر ضمن كتاب الأعلام النفيسة، باعتناء دي خويه، بريل، ليدن، ١٨٩١. ص ٣٢٤-٣٢٧. سيشار إلى هذا المصدر عند وروده هكذا: البلدان.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٧٢-٧٣.

(٤) قدامة، الخراج، ص ٣٠١.

(٥) الخراج ص ٣٩.

(٦) «سورية في زمن الفتح العربي»، مجلة المشرق، م ٣٠، ١٩٣٢ ص ١٣. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: سورية.

الفردية في الأمور الدينية والقانونية^(١)، وقد نزلت آيات كثيرة في ذلك،

قال تعالى: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: الآية (١٦٤)].

وقال ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِعٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [القمان: الآية (٣٣)].

وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْتِبُهُ يُبْمِنُهُ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق].

وحث القرآن على الهجرة إلى المدينة، والمهاجر يقطع علاقاته بعشيرته وقبيلته ويضحى بعلاقات وتقاليد قبلية كثيرة، ونزلت في هذا المعنى آيات عديدة^(٢).

وأطلق القرآن على المقيمين خارج المدينة تعبيرين هما: (البادون) و (الأعراب)^(٣)، ومدح الإسلام التحضر وأثنى عليه، ووصف حالة التبدي (الأعراب) وصفًا مقررًا، فكل الآيات التي وردت فيها كلمة (الأعراب) جاءت تقرر الأعراب وتذم التبدي وتصف أهله بالغلظة والجفاء^(٤)، ووردت أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم تصف الأعراب بالجفاء^(٥).

(١) صالح العلي، (الإسلام والبداءة) مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، ع ٧، جمادى الأولى ١٣٩٥هـ / حزيران ١٩٧٥ ص ٣٣-٤٣، ص ٢٤. سوف يشار إلى هذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا: صالح العلي.

(٢) انظر سورة الأنفال، الآيات: ٢٠-٢٢، ٧٢، ٧٤-٧٥؛ وسورة محمد، آية: ٢٥؛ وسورة النمل آية: ٤٤؛ وسورة الحج آية ٥٨؛ وسورة الحشر آية ٨ وسورة التوبة ٢٠-٢٢.

(٣) سورة الحج آية: ٢٥، والأحزاب، آية: ٢٠، وسورة يوسف، آية: ١٠٠؛ وانظر صالح العلي ص ٤٠.

(٤) صالح العلي ص ٤١.

(٥) المصدر السابق ٤١ وما بعدها؛ ابن حنبل، ج ١، ص ٦٨، ج ٢، ص ٢٠٣، ج ٥،

ص ١٥٣، ١٨٦.

الخاتمة

من خلال العرض السابق، يتبين لنا أن الأمة العربية مرت بأدوار تاريخية في سنة تكونها وتطورها، وبرزت في معارج التاريخ تستكمل عناصر هذا التكوين ومع الزمن أطلق الآخرون عليها وعلى نطاقها الجغرافي، العرب أو الأعراب وبلاد العرب (Arabia)، ضمن هذا الإطار الجغرافي، وسكانها جزء من المصطلح العربي ونظرًا لموقع بلاد الشام الاستراتيجي تعرضت لموجات الغزو الخارجي وخضعت للسيادة الأجنبية وتعرضت لحملات من الغزو الثقافي إلى جانب الغزو العسكري، وكل ذلك لم يبلغ التوجه العربي لأهل هذه البلاد. فلما جاء الإسلام بإمكاناته الجديدة والقوية تسارعت عوامل النمو العربي بشكل هائل وسريع في ميادين التحول الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري، وفي فترة وجيزة تحولت جزيرة العرب إلى وحدة سياسية وثقافية واقتصادية وضعت ثقلها في اتجاه استكمال الشخصية العربية، فكان لا بد من دخول بلاد الشام وتحريرها من الغزاة الأجانب، ذلك كان حتمية تاريخية اقتضاها بحث العرب عن هويتهم واضطلاعهم بدورهم الذي تهيأ لهم بفضل موقعهم وفكرهم، وما كان لهذا الفتح أن يكون لولا هذه المقدمات التي سبقت هذا الحدث التاريخي الكبير.

واقعة اليرموك

الزمان والمكان وإشكالية الروايات

من المعروف أن العرب كانوا من أغنى الأمم في تسجيل أخبارهم وتداولها بالرواية المكتوبة والشفهية عن طريق السمر والقصص والشعر، ونظراً لكثرة هذه الروايات في ميادين الحياة المختلفة، حصل اختلاط واختلاف بين هذه الروايات، في كثير من الحوادث، وهذه حالة لا ينفرد بها العرب وحدهم، وإنما هي محصلة طبيعية ناتجة عن اختلاف الرواة في المكان والزمان واختلافهم أيضاً في الأهواء والغايات.

وهذه الأخبار والروايات على كثرتها واختلافها أو تباينها لا تلغي الواقعة التاريخية بل بالعكس تؤكد حدوثها، وإنما قد تتباين أو تختلف في زمان ومكان الواقعة وربما تفاصيل أحداثها.

وحركة الفتح العربي التي بدأت مع قيام الدولة الإسلامية من هذه الأحداث الهامة في التاريخ، وحصل في نقل أخبارها ما حصل من اختلاط بين روايات الاخباريين والمؤرخين القدامى في بعض التفاصيل والذي انعكس على كتابات المؤرخين المحدثين.

من بين أحداث الفتوح، اخترنا واقعة اليرموك، باعتبارها حدثاً بارزاً في سياق فتح بلاد الشام أو تحرير بلاد الشام كما يحلو للبعض تسمية هذه الحركة باعتبار أن البيزنطيين (الروم) طارئين محتلين لهذه البلاد، التي كان يقطنها سكانها العرب منذ أقدم العصور.

لن ندخل في كل تفاصيل هذه الواقعة التاريخية الهامة والتي ترتب على نتائجها تحرير كامل بلاد الشام من السيطرة البيزنطية (الرومية). ومع أهمية هذه الواقعة في التاريخ العالمي، فقد حصل بعض الاختلاف في تحديد زمان حدوثها ومكانه، وهذا ما سيحاول هذا البحث تجليله اعتماداً على المصادر الأولية المعتمدة.

إن أقدم المصادر التي يعتمد عليها في مثل هذه الحالة هي: / كتب الفتوح الأولى وهي حسب الترتيب التاريخي، تاريخ فتوح الشام للواقدي (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) وكتاب فتوح الشام للأزدي (٢٣١هـ/ ٨٤٥م) وكتاب فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) وكتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ/ ٩٢٦م).

كما لا يمكننا إغفال كتب الحوليات والتاريخ الأولى التي نقلت لنا أخبار الواقعة عن مشارك في الحدث أو راوٍ عمن شارك أو سمع ممن روى عن مشارك.

وأهم هذه الكتب - مرتبة وفق أقدميتها - تاريخ ابن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) وتاريخ أبي زرعة الدمشقي (ت ٢٨١هـ/ ٨٩٣م) وتاريخ اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م) وأخيراً تاريخ الرسل والملوك للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) الذي يعود له أكبر الفضل في حفظ ونقل الروايات المكتوبة والمنقولة شفاهاً لمجمل التاريخ الإسلامي خلال القرون الهجرية الثلاث الأولى.

وهذه المصادر العربية الإسلامية توحى في أغلبها بالثقة بها، ومرد ذلك إلى أنها تعتمد على تسلسل السند الذي يوصل إلى صاحب الحدث، وأنها أيضاً تمتاز بتعدد المصادر للرواية الواحدة، وأن اختلاف هذه المصادر أو تباينها يغنيها ويمنح الباحث فسحة استقصاء الخبر الأدق والأصح، يضاف إلى ذلك أن نقلة هذه الأخبار كانوا في الأغلب معروفين بحرصهم على الصدق والتحقيق والدقة فيما يروون وكانوا يعاملون من قبل معاصريهم من النقاد معاملة المحدثين الذين لا يجوز لهم التقول على الرسول صلى الله عليه وسلم.^(١)

أما المصادر الأجنبية القريبة من الحدث تكاد لا تقدم فائدة تذكر في هذا المجال، فثيوفانس Theopahns (ت نحو ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) والذي أرّخ للدولة البيزنطية، لا يقدم معلومات تفصيلية لحركة الفتوح العربية الإسلامية، رغم قربه منها، كذلك لا نجد ما يشفي الغلة عند معاصرة نففور Nikephores أو Nikephorus (ت ٢١٤هـ/ ٨٢٩م)، الذي كان

(١) انظر ناصر الدين الأسد، وقعة أجنادين - دراسة تحليلية للمصادر والروايات، المجلد الثاني، بلاد الشام في صدر الإسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، تحرير: محمد عدنان البخيت وإحسان عباس، عمان ١٩٨٣، الصفحات ٢٨٥-٣٢١، ص ٢٨٨-٢٨٩، سيشار إليه عند وروده، الأسد، أجنادين.

بطريقاً للقسطنطينية من ٨٠٦ إلى ٨١٥ م كما كان مؤرخاً وكذلك ميخائيل السرياني الذي كان بطريقاً لانتاكية من ١١٦٦-١١٩٩ م، ويعرف كتابه بتاريخ ميخائيل^(١).

وقد خلص إلى هذه النتيجة كايثاني Caetani بعد دراسته لهذه المصادر وغيرها من المصادر الأجنبية المقاربة للحدث قائلاً "إن النص الذي أورده ثيوفانس كان مشوشاً تشويشاً مؤسفاً، ومن الصعب أن يرى المرء بوضوح في مثل هذا النسيج المضطرب من الأخبار الناقصة عن أحداث تلك المدة كلها: ما بين ١٢ و ١٧ هـ"^(٢).

وقد درس فريد دونر (Fred MicGraw Donner) الفتوحات الإسلامية وخلص إلى أن المصادر اليونانية والبيزنطية والأرمنية لا تقدم إلا القليل في مجال الفتوحات الإسلامية^(٣).

كان لا بد من هذا التمهيد ونحن نتحدث عن إحدى وقائع الصراع بين العرب والروم البيزنطيين لنلفت النظر مسبقاً إلى الاعتبارات التي جعلتنا نعتمد اعتماداً كلياً على المصادر الأولية العربية في استجلاء تاريخ ومكان وقعة اليرموك^(٤).

ورواة اليرموك بخاصة وفتوح الشام بعامة في المصادر العربية التي ذكرناها من قبل، هم كثر ونذكر أهمهم بالنسبة لبحثنا على التوالي: محمد بن اسحاق (ت ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م) والواقدي (ت ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م) والمدايني (٢٢٥ هـ/ ٨٣٩ م) وأبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني (نجهله) وسيف بن عمر (ت ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م) وابن الكلبي هشام بن محمد (٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م) وسعيد بن عبد العزيز الدمشقي (نحو ١٨٤ هـ/ ٨٠٠ م) والأزدي المؤرخ (٢٣١ هـ/ ٨٤٥ أو ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م) والوليد بن مسلم (ت ١٩٥ هـ/ ٨١٠ م)

وقد حدد ابن اسحاق تاريخ معركة اليرموك في شهر رجب من سنة ١٥ هـ/ ٦٣٦ م، ويمثل ابن اسحاق مدرسة المدينة في كتابة التاريخ، ويأخذ من مصادر متعددة ومتنوعة، وقد وصل عدد

(١) انظر صالح درادكة، فتح دمشق، دراسة في الروايات، الندوة الدولية، دمشق في التاريخ، الجزء الأول، جامعة دمشق ٢٠٠٦ م، الصفحات (١٨٥-٢١٧) ص ١٨٧-١٨٨، الأسد، أجنادين ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٢) Leone Caetani, Annali Dell Islam, 10 vol., Georg olms Verlage, Hildesheim, 1972, vol.111, p. 62.

الأسد أجنادين، ص ٢٨٧.

(٣) The early Islamic Conquests, Princeton university Press, 1981, p. 116.

(٤) اعتمدنا المصادر الأولية التي لا تتجاوز القرن الثالث الهجري.

شيوخه إلى مائة وأربع عشرة شيخاً منهم محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ / ٧٤١م) وصالح بن كيسان (ت بعد ١٤٠هـ / ٧٥٧م) ومحمد بن عمر بن عطاء، وعبدالله بن أبي بكر الأنصاري (١٢٤هـ / ٧٤١م) والعلاء بن عبدالرحمن وغيرهم.

وقد تباينت آراء اصحاب التراجم والمحدثين بآبن اسحاق بين موثق له ومثنياً عليه، وبين متهم له بالكذب والتدليس والوضع^(١).

لقد وصلتنا روايات آبن اسحاق في الفتوح من مصادر متعددة، منها، تاريخ ابن خياط (٢٤٠هـ / ٨٥٤م) وعن طريق الطبري محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) في كتابه تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ويعتبر هذا الكتاب الجامع لروايات ابن اسحاق وغيره في أخبار الفتوح.

وقد أورد الطبري الروايات التي تمكن من الوصول إليها حتى زمانه، وقد لفت نظره هذا الاختلاف الحاصل بتحديد أزمنة الأحداث وأماكنها إذ يقول: "ومن الأمور التي تستنكر وقوع مثل الاختلاف الذي ذكرته في وقته، لقرب بعض ذلك من بعض"^(٢)، وهو يقصد توالي الأحداث في سير فتوح الشام.

نقل الطبري تاريخين لواقعة اليرموك، الأول جعلها سنة ١٣هـ اعتماداً على رواية سيف بن عمر التميمي (١٨٠هـ / ٧٩٦م) حيث قال: "وقد مضى ذكر ما ورد عن سيف عمن روى عنه، أن وقعة اليرموك كانت سنة ثلاث عشرة، كان المسلمون ورد عليهم البريد بوفاة أبي بكر باليرموك في اليوم الذي هزمت الروم في آخره"^(٣)، وهذه لعلها الأساس الذي اعتمد عليه من ذهبوا إلى أن واقعة اليرموك كانت سنة ١٣هـ.

أما سند الرواية كما أورده الطبري هو: "كتب إليّ السري عن شعيب، عن سيف عن

(١) انظر جدول رواة فتوح الشام عند ابن اسحاق في كتاب الطريق إلى دمشق، لأحمد عادل كمال، دار النفائس، بيروت ص ٦٤، سيشار إليه عند وروده، أحمد كمال، الطريق، وأحمد عرموش، كتاب الفتنة ووقعة الجمل، دار النفائس، بيروت، ص ٧، وابن النديم، كتاب الفهرست، طبعة فلوجل - ص ٢ وصالح درادكة، فتح دمشق، ص ١٨٧.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت. ٣١٠هـ / ٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦٢، ص ٤٤٢/٣، سيشار إليه عند وروده، الطبري، تاريخ.

(٣) المرجع السابق ص ٤٤١.

ابي عثمان يزيد بن أسيد الغساني، عن عبادة وخالده..^(١) قالوا: "لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الياقوصة، وفرغ من المقاسم والانفال، وبعث بالأخماس وسرحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليرموك، بشر بن كعب بن أبي الحميري كي لا يغتال برده، ولا تقطع الروم على مواده، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفرة، وهو يريد اتباع الفالّة، ولا يدري يجتمعون أو يفترقون، فأتاهم الخبر أنهم أُرزوا إلى فحل، وأتاه الخبر أن المدد أتى إلى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبادمشق يبدأ أم بفحل، من بلاد الأردن، فكتب بذلك إلى عمر وانتظر الجواب"^(٢) وهذا يشير إلى أن سيف بن عمر جعل واقعة اليرموك قبل فحل، وقبل فتح دمشق.

وسيف بن عمر التميمي الأزدي (١٨٠هـ/٧٩٦م) هو مصنف "الفتوح الكبير" و"الردة" و"الجمل وسير عائشة" وهو من أبرز رواة الفتوح وأغزرهم مادة، ولكنه متهم بالاختلاق^(٣).

ورغم الحجم الكبير لروايات سيف في الفتوح وغيره، لا نجد له ذكراً في كتب التراجم يوازي أعماله، فلم يذكره ابن سعد (٢٣٠هـ/٨٤٤م) في الطبقات الكبرى، ولم يذكره ابن خلكان (٦٨١هـ/١٢٨٣م) في وفيات الأعيان، ولا الكتبي (٧٦٤هـ/١٣٦٤م) في فوات الوفيات، ولا الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ/١٠٧٠م) في تاريخ بغداد، ولا ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في معجم الأدباء، ولا الذهبي (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) في الثقات الذين ضمنهم كتابه تذكرة الحفاظ، ولم يذكره البخاري (٢٥٦هـ/٨٦٩م) في كتابه عن الضعفاء ولا النسائي (٣٠٢هـ/٩١٥م) في كتابه (الضعفاء والمتروكين) ولم يذكره ابن حجر العسقلاني (٨٥٢/١٤٤٧م) في الضعفاء الذين ضمنهم كتابه (لسان الميزان) ولكن ذكر عنه في تقريب التهذيب أنه ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ^(٤).

ورغم ما قيل فيه، فإن الإمام الطبري أخذ معظم مادته في الردة والفتوح عنه، كذلك فعل

(١) الطبري تاريخ، ٣٩٤.

(٢) الطبري تاريخ، ٤٣٦/٣.

(٣) أنظر مرتضى العسكري، خمسون ومائة صحابي مختلف (ترجمة عدد من الصحابة، اعتماداً على رواية سيف في الطبري).

(٤) أحمد كمال، الطريق ص ٦٥.

ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) في تاريخه المسمى تاريخ مدينة دمشق، كما وجدنا بعض المحدثين يطمنون لروايات سيف وبخاصة روايات فتوح العراق، ويمنحونها الثقة^(١).

يعتمد سيف في رواياته على رواة كوفيين وبخاصة ممن هم من الازد قبيلته، وأحياناً نجده يطعم رواياته ببعض الروايات المدنية والشامية^(٢).

ونقل الطبري في أحداث سنة ١٣هـ رواية للمدائني (ت ٢٢٥هـ/ ٨٣٥م) مفادها أن المسلمين قاتلوا الروم بالواقصة، بعد انتصارهم في أجنادين وجاء خبر وفاة أبي بكر وهم بالواقصة^(٣)، ويعتبر المدائني من شيوخ الاخباريين "استفاد ممن سبقه، وتوسع في مجال أخباره بدرجة من الدقة في البحث، حتى أضحى مصدراً لا يستغنى عنه المؤرخون"، فقد وصفه بعضهم بقوله "وأما المدائني فيجول في تاريخ العرب كله السياسي والأدبي والاجتماعي، مبتدئاً بالجاهلية ومستمراً حتى مطلع القرن الثالث الهجري"^(٤).

نعود إلى رواية سيف في تاريخ الطبري وهم: أبو عثمان يزيد بن أسيد الغساني (لم يتيسر لنا الحصول على ترجمة له) أما عبادة بن نسي الكندي الشامي الأردني قاضي طبرية (ت ١١٨هـ/ ٧٣٦م) فقد روى له الأربعة^(٥)، ترجم له ابن سعد في الطبقات وذكره خليفة بن خياط في التاريخ والطبقات، وكذلك فعل الفسوي وابن دريد وغيرهم^(٦) وثقه كل من

(١) أحمد كمال، الطريق، ص ٦٥، وانظر كتابه الآخر الطريق إلى المدائن.

(٢) الدوري، عبدالعزيز، نشأة علم التاريخ عند العرب، دار الشرق، ش م م، ١٩٨٣، ص ١٢٤، سيشار إليه عند وروده، الدوري، نشأة.

(٣) الطبري، تاريخ، ٤١٨/٣، ٤١٩، ٤٣٤.

(٤) الدوري، نشأة، ص ٣٩، ١٢٢.

(٥) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق شكري فيصل وروحيه النحاس ورياض عبدالحميد مراد، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق، مجلد أحرف عبادة بن اوفى - عبد الله بن ثوب ص ٤٠. سيشار إليه عند وروده، ابن عساكر، تاريخ دمشق.

(٦) ابن سعد محمد بن منيع البصري (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) كتاب الطبقات الكبرى، دار بيروت - دار صادر - بيروت، ١٣٧٧/١٩٨٥ ص ٤٥٦/٧. سيشار إليه عند وروده، ابن سعد، الطبقات.

خليفة بن خياط (٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ١٣ النجف الأشرف، ١٣٨٦/١٩٦٧. ٤٦٥/٢، ٥١٦، ط ١، سيشار إليه عند وروده، ابن خياط، تاريخ.

الفسوي، أبي يوسف يعقوب بن سفيان (٢٧٧هـ / ٨٩٠م) المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، ٤٠٤/٢، ٣٢٩، انظر ابن دريد، أبي بكر محمد بن الحسن (٣٢١هـ/ ٩٣٣م)، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، مصر، ١٣٧٨/١٩٥٨ ص ٣٥٢.

أحمد بن حنبل وابن أبي حاتم ويحيى بن معين، والعجلي وابن خراش وغيرهم.^(١)
 وخالد بن معدان بن أبي كرب أبو عبدالله الكلاعي الحمصي، كان يتولى شرطة يزيد
 ابن معاوية، وهو ثقة روى عن جماعة من الصحابة وكان من فقهاء التابعين، توفي حوالي
 ١٠٣ هـ.^(٢) وكما هو مبين فإن هؤلاء الرواة في إسناد سيف تغلب فيهم خاصية التوثيق من
 أهل العلم من القدماء.

لنرجع إلى رواية المدائني التي أوردتها الطبري دون إسناد مباشر، وإنما أحالتها على الإسناد
 السابق في لفظ (الذي ذكرت قبل) وبالرجوع إلى سلاسل سند المدائني وجدنا أن راويته
 الأشهر هو أبو زيد عمر بن شبة، يروي عنه عن أبي معشر تارة، وتارة أخرى بمد سنده فيذكر
 (عن أبي معشر ومحمد بن اسحاق وجويرية بن أسماء باسناده الذي ذكرت قبل).

وأبو معشر نجيح بن عبدالرحمن السندي (الراوي) توفي سنة (١٧٠ هـ/٧٨٦ م) وهو
 من أهل المدينة، مؤرخ ومحدث، ألف كتاباً في المغازي. وآخر في تاريخ الخلفاء، تتلمذ عليه
 محمد بن عمر الوافدي،^(٣) أما جويرية بن أسماء بن عبيد بن مخارق روى عن أبيه ونافع
 والزهري وروى عنه أناس مشهورون في الرواية، منهم ابن حبان في الثقات، وقال عنه ابن
 سعد وكان صاحب علم كثير وذكره المدائني في الطبقة السابعة من اصحاب نافع.^(٤)

وحتى يتصل خبر جويرية أو أبو معشر بصاحب الخبر الأول، لابد أن يكون بينهما
 ثلاث رواة على الأقل، فلماذا لم يكمل سنده؟ فهل اعتمد على معرفة العلماء لشيوخه،
 أم يصدق فيه قول عبدالله بن أحمد بن حنبل "نجيح المدني صدوق ولكنه كان لا يقيم

(١) انظر ابن عساكر، تاريخ، المجلد السابق ص ٤٠-٥٠.

(٢) انظر ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (٦٣٠-٧١١ هـ) مختصر تاريخ دمشق، تحقيق محمد راتب
 خموش ومحمد ناجي العمر راجعه رياض عبد الحميد مراده، ط. حيدر آباد (١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م)، ٣/١١٨،
 دار الفكر، ١٩٨٢، ص ٢٩٦/٧.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨ م). تهذيب التهذيب، طبعة حيدر آباد، ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩
 م. سيشار إليه عند وروده، العسقلاني، تهذيب.

(٣) انظر ابن سعد، الطبقات ٤١٨/٥، ابن النديم، الفهرست ص ١٠٥
 أحمد أمين، ضحى الاسلام، ط ٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧١/١٩٥٢ م، ٢/٣٣٣-٣٣٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني، تهذيب ١٢٤/٢-١٢٥ رقم (٢٠٢).

الأسناد^(١) وذكر البغدادي أن نجيح سمع محمد بن كعب القرظي ونافعاً مولى ابن عمر، وسعيد المقبري ومحمد بن المنكدر وهشام بن عروة،^(٢) وفي كل الأحوال برغم أن المدائني شيخ الاخباريين، إلا أن إهمال الاسناد مأخذ عليه.

ننتقل للحديث عن مصدر آخر عني بأخبار المغازي والفتوح، وهو محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧هـ/٨٢٢م) وله كتب كثيرة، منها المغازي، وكتاب تاريخ فتوح الشام، وهذا الأخير قيل فيه الكثير، ومن ذلك أنه منسوب للواقدي، والواقدي (٢٠٧هـ/٨٢٢م) أقدم من الأزدي (٢٣١هـ أو ٢٣٧هـ/٨٤٥، ٨٥١م) صاحب كتاب فتوح الشام أيضاً، وأقدم من البلاذري (٢٧٩هـ/٨٩٢م) وابن أعثم الكوفي (٣١٤هـ/٩٢٦م) وابن حبيش (٥٨٤هـ/١١٨٨م) صاحب كتاب الغزوات، وإبو الربيع الكلاعي (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) صاحب الإكتفاء في أخبار المصطفى والثلاثة الخلفاء.^(٣) وتشابه رواياتهم عن الفتوح مع ما أورده الواقدي وبخاصة في تحديد تواريخ الأحداث وأماكن وقوعها، وفي كل الأحوال لا بد من الرجوع إليه في موضوعنا.^(٤) ذكر الواقدي رواية عن تاريخ واقعة اليرموك في كتابه فتوح الشام، وسنده الرئيسي فيها، مكحول الذي سماه الزهري عالم الشام، وأحد العلماء الأربعة في زمانه. توفي سنة (١١٣هـ/٧٣١م)^(٥) وعن مكحول أخذ أبي العلاء برد بن سنان (من أهل دمشق، سكن البصرة وثقه قوم وضعفه آخرون قليلون، وقيل أنه كان قدراً توفي سنة (١٣٥هـ/٧٥٢م)، أما عبد الرحمن بن الفضل الذي أخذ الرواية عن برد بن سنان وعنه أخذ الواقدي، فلا ذكر له في المصادر التي اطلعت عليها، إلا أن يكون ابن الفضل بن دكين أبو نعيم المتوفى سنة ٢١٩هـ^(٦) والله أعلم.

وتسلسل الرواية كما وردت في كتاب فتوح الشام "حدثنا عبد الرحمن بن الفضل عن

(١) الخطيب البغدادي، الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) تاريخ بغداد دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٣٣/١٣. سيشار إليه عند وروده، الخطيب، تاريخ

(٢) المرجع نفسه ص ٤٢٩. ابن حجر، المرجع السابق.

(٣) لمن رغب في الاستزادة عليه الرجوع إلى مقدمة صالح درادكة، المحقق لكتاب فتوح الشام، دار حمادة، اريد، ٢٠٠٧، الأسد، اجنادين ص ٢٩٧.

(٤) الواقدي، كتاب فتوح الشام، تحقيق ودراسة، صالح درادكة، ص ٣١٨.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ٦/٤٠٠-٤٠١.

(٦) ابن خلكان، وفيات الأعيان ١٦/٣ أحمد كمال، الطريق ص ١٠٨.

برد بن سنان عن مكحول قال: كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة". وقد أكد الطبري صحة خبر الواقدي برواية محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير أنه قال: "كان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب، وأما الواقدي فزعم أن فتح دمشق كان سنة أربع عشرة كما قال ابن اسحاق، وزعم أن وقعة اليرموك كانت في سنة خمس عشرة"^(١) أما لماذا استخدم الطبري لفظ زعم الواقدي، وكأنه لا يثق به، مع أن ما ذكره الواقدي يتطابق مع رواية ابن اسحاق، والطبري أخذ عنه في مواضع كثيرة في كتابه، ولعل هذا الموقف يعود إلى موقف أهل الحديث منه، أو لحسد منهم له، لغزارة علمه ودقة معلوماته، وربما لأنه حَسِبَ على خالد بن برمك الذي استقدمه من المدينة وعينه قاضياً في بغداد، وكان من أهل الخطوة في بلاطه^(٢).

وبعد الواقدي نتحول إلى مؤرخ للفتوح يماثل الواقدي في سعة علمه، لا بل يحظى بثقة أكبر عند الفقهاء والمحدثين، وهو أبو اسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي (٢٣١هـ/ ٨٤٥م) وله تاريخ "فتوح الشام" ذكره المزي (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) والذهبي (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) وكان يلقبه بصاحب فتوح الشام، وابن حجر (٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) ووصفه بعضهم بأنه كان شيخاً صدوقاً، ووثقه نفر منهم ابن حبان (٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)^(٣) أما رجال سند روايته واقعة اليرموك عند الأزدي هم: "أخبرنا الحسين بن زياد عن أبي اسماعيل محمد بن عبد الله، عن الصقعب بن زهير عن المهاجر بن صفي عن راشد بن عبد الرحمن الأزدي" أما الرواية التي ذكر فيها تاريخ واقعة اليرموك فهي:

"حدثنا الحسين بن زياد عن أبي اسماعيل عن أبي معشر، أن وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة لخمس ليال مضين من رجب"^(٤) ونلاحظ أن في إسناد هذه الرواية نقص، لأنه يقف عند أبي معشر المتوفى سنة (١٧٠هـ/ ٧٨٦م) وهو بعيد عن الحدث بما لا يقل عن ثلاث رواه، لكن للأزدي روايات في سرد تفاصيل معركة اليرموك تصل إلى

(١) تاريخ الطبري، ٣/ ٤٧١، ٤٤١.

(٢) انظر مقدمة صالح درادكة لكتاب فتوح الشام للواقدي.

(٣) انظر مقدمة المحققين لكتاب فتوح الشام للأزدي

(٤) كتاب فتوح الشام، تحقيق عصام عقله ويوسف بني ياسين دار حمادة للنشر والتوزيع، اربد، ٢٠٠٥ ص ٣٨٥. سيشار إليه عند وروده، الأزدي، تاريخ.

عبدالله بن قرط الثمالي (ت ٥٥٦هـ/٦٧٥م) وهو مشارك في أحداث اليرموك ودليل ذلك الرواية التالية: "حدثنا الحسين بن زياد عن أبي اسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي عن مخنف بن عبدالله عن عبد الرحمن بن السليك عن عبدالله بن قرط قال: كنت أنا القادم على عمر بكتاب أبي عبيدة^(١) - أثناء أحداث المعركة -" ويظهر هنا بين الأزدي وعبدالله بن قرط ثلاث رواة.

ومما يلفت النظر أن الأزدي كالواقدي أورد عدداً كبيراً من الروايات عن أحداث واقعة اليرموك، إلا أنه لم يذكر ابا معشر إلا مرتين الأولى تتعلق بتشااور قادة المسلمين أثر تجمع جيوش الروم^(٢) والثانية في حديثه عن وقائع أجنادين وفتح دمشق^(٣).

ومن شيوخ الأزدي الذين ورد ذكرهم في أسناده لأحداث اليرموك، أبو جهضم الأزدي الشامي، كان حياً سنة ٨٣هـ/٧٠٢م وهو في الغالب ينقل روايته عن عبد الملك بن السليك عن عبدالله بن قرط،^(٤) كما نقل عن سفيان بن سليم الأزدي عن الحارث بن عبدالله الأزدي ثم النمري^(٥) وفي رواية نقلها أبو جهضم عن رجل من الروم^(٦). وقيل عن أبي جهضم أنه ثقة صدوق صالح الحديث^(٧).

ومن استعراض روايات الأزدي، يتبين لنا مدى غلبة البعد القبلي على رواياته، لذلك اعتبر من الرواة القبليين، وهذا لا يقلل من شأنه لاسيما وأنه يختار الثقات من قومه، وأن "معركة اليرموك كانت يمانية في أغلب مقاتليها، إذ لم تشارك فيها أسد ولا ربيعة ولا تميم"^(٨)

(١) الأزدي، فتوح، ص ٢٨٠-٢٨١.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٦٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٨٥.

(٤) الأزدي، فتوح، ص ٢٤٤، ٢٤٦، وفي ص ٢٧٩، يرد عبدالرحمن بن السليك، بدل عبد الملك وليس لأيهما ذكر في كتب التراجم.

(٥) نفس المصدر ص ٢٨٧.

(٦) نفس المصدر، ص ٣١٠، ٣٨١.

(٧) أحمد كمال، الطريق، ص ١٠٨.

انظر الدوري، وعصام ويوسف بني ياسين، في تقديمهم الكتاب فتوح الشام للأزدي.

(٨) الأزدي فتوح ص ٣٢٢، ابن أعثم، أبي محمد (ت ٩٤٣هـ/٩٢٦م)، كتاب الفتوح، بيروت، ص ٢٥٥/١.

لم نعثر على ترجمة لعبد الرحمن بن السليك، أما عبدالله بن قرط: الثمالي الأزدي فهو صحابي من أعلام الفتوح والي حمص في عهد عمر بن الخطاب (ت ٥٦هـ/ ٦٧٥م)^(١) والصقعب بن زهير الأزدي الكوفي خال أبي مخنف، محدث صدوق، روى عن عمرو بن شعيب وروى عنه أبو مخنف وأبو اسماعيل محمد بن عبدالله الأزدي المؤرخ^(٢).

ونعرج الآن على كتاب فتوح البلدان للبلاذري^(٣) وهو يحظى بالثقة بين المؤرخين القدامى والمحدثين، أخذ عن عدد من الشيوخ منهم محمد بن سعد كاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م) وارتحل بين العراق والشام، يسمع من علمائها. والبلاذري يخرج عن التطويل وتكرار الأسناد، وسادت عنده الرواية الجمعية، وفيما يتعلق بتحديد تاريخ واقعة اليرموك، فقد أوردها على النحو التالي: "قالوا، وكانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة"^(٤).

وكتاب الفتوح الرابع هو لابن اعثم الكوفي^(٥) المتوفى سنة (٣١٤هـ/ ٩٢٦م) وهو كتاب مفصل لأخبار الفتوح إذ جاء في سبع مجلدات، أورد فيها القصص والحوارات على طريقة الأزدي في نقل الروايات في إطار من العاطفة والحماسة كما هو حال محمد بن عمر الواقدي في سرده لأخبار الفتوح الأولى، ونجد ابن اعثم يتبع كتاب الأزدي صفحة صفحة كأنما وقع على كتاب الأزدي وقع الحافر على الحافر وإن لم نجد فيه ذكراً لروايته كما وجدنا في كتاب الأزدي، فقد كان يكتفي بقوله في مطلع كل خبر أو مجموعة من الأخبار "قال:..." دون أن يذكر لنا من هو هذا القائل!^(٦)

أورد ابن اعثم تفاصيل اليرموك إلا أنه وللأسف لم يذكر تاريخ وقوعها وإن كان يفهم من تتابع الأحداث أنه يتفق مع الأزدي في حدوثها سنة ١٥هـ.

(١) ابن حجر العسقلاني، تهذيب رقم ٣٦٢، ص ٣٦١/٥.

(٢) انظر حاشية رقم (٥) ص ١٣٥، من الأزدي، فتوح.

(٣) هو أحمد بن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٢٩هـ/ ٨٩٢م، فتوح البلدان، بعناية رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، بمصر ١٩٥٩، سيشار إليه عند ورود، البلاذري، فتوح..

(٤) البلاذري، فتوح، ص ١٤٢.

(٥) هو العلامة أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي المتوفى نحو (٣١٤هـ/ ٩٢٦م)، كتاب الفتوح طبعة ١، دار الندوة، بيروت.

(٦) الاسد، أجنادين، ص ٢٩٦.

نعرض بعد ذلك إلى كتب الحوليات والتاريخ الأولى والتي لا تقل في أهميتها عن كتب الفتوح، لما تميزت به من حرص على استقصاء الخبر من أثبت المصادر وأصدقها، وفي طليعة هذه الحوليات يأتي تاريخ خليفة ابن خياط المتوفى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وهو أقدم ما وصلنا من الحوليات^(١) ويمتاز بدقة وسلامة سنده، وشهرته بالصدق والأمانة، ذكر خبر تاريخ وقعة اليرموك بسطر واحد، نقلاً عن ابن الكلبي حيث قال: "كانت الوقعة يوم الاثنين لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة"^(٢)، والكلبي هو محمد بن السائب الكوفي المتوفى سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م نسبة ومفسر واسع الحفظ حجة في انساب العرب وأيامهم ضعيف في الحديث^(٣).

ومن الطريف أن اليعقوبي المؤرخ ذكر أجنادين لكنه لم يذكر اليرموك.

ويعتبر تاريخ أبي زرعة الدمشقي^(٤) من المصادر التي لا بد من الرجوع إليها في حوادث الشام الأولى، فبالإضافة إلى أنه من المحدثين المدققين المشهود لهم بالنزاهة، فهو ابن دمشق، وينقل معظم أخباره عن شاميين معاصرين.

أورد أبو زرعة خمس روايات في كتابه عن تاريخ واقعة اليرموك وهي على التوالي: حدثني عبدالرحمن بن إبراهيم قال حدثنا الوليد بن مسلم قال: "واليرموك سنة خمس عشرة" وروى مثل ذلك عن يزيد بن عبيدة، وجاء اسناد الرواية الثالثة: "أخبرني أبو زرعة قال: أخبرني الحارث بن مسكين عن ابن وهب عن أبي لهيعة أن اليرموك سنة خمس عشرة" وكررت نفس الرواية في مكان آخر من الكتاب^(٥).

وهكذا نجد أماناً قولين في تاريخ واقعة اليرموك، الأول يقول بوقوعها سنة (١٣هـ/٦٣٤م) ويتزعمه سيف بن عمر التميمي، والثاني يقول بوقوعها سنة (١٥هـ/٦٣٦م)، ويتزعمه محمد بن اسحاق.

(١) الأسد، أجنادين، ص ٣٠٤.

(٢) تاريخ ابن خياط ١٠٠/١.

(٣) الدوري، نشأة ص ٤٠-٤١.

(٤) تاريخ أبي زرعة الدمشقي للحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبدالله بن صفوان النصري المتوفى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م تحقيق شكر الله بن نعمة الله الفوجاني، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سيشار إليه عند وروده، أبي زرعة، تاريخ..

(٥) أبي زرعة، تاريخ، الصفحات ١٧٦، ٢١٧، ٦٨٨.

وحتى نرجح تاريخ على آخر، علينا أن نضع مجموعة محددات، منها تواتر الخبر، وثانيها سلامة الروايات وثالثها ترتيب الحوادث المتتابعة.

فالتواتر يرجح تاريخ (١٥٠هـ/٦٣٦م)، حيث ذهب ابن اسحاق في الطبري وابن الكلبي عند ابن خياط والواقدي في فتوحه وعند الطبري في تاريخه، والازدي في فتوحه. وابن لهيعة في تاريخ ابي زرعة ويزيد بن عبيدة عند ابي زرعة ايضاً، وكذلك البلاذري في فتوحه في رواية جمعية.

اما بالنسبة إلى مصداقية الرواة وسلامة السند نجده في قائمة من حددوا تاريخ الواقعة (بـ ١٥٠هـ/٦٣٦م) هم أجدر بالثقة، لأن معظمهم من أبناء المنطقة، بالإضافة إلى ان الخبر عندهم جاء من موارد متعددة ومتنوعة.

يبقى أن نشير إلى مكان اللبس الذي جعل سيف والمدائني يخرج عن شبه الإجماع. فقد اعتمد سيف على الرواية التي تقول بورود البريد بوفاة أبي بكر وهم باليرموك في اليوم الذي هزمت الروم في آخره.^(١) والمعروف المشهور أن أبا بكر توفي سنة ١٣هـ.

وفي رواية أخرى لسيف عن أبي عثمان يزيد بن أسيد الغساني^(٢) عن عبادة وخالد قالاً: "لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الياقوصة، وفرغ من المقاسم والانفال.. سار إلى الصفر يتبع الفألة، فاتاه الخبر أنهم ارزوا (قصداً) فحل، وأن المدد من الروم أتى إلى أهل دمشق، فهو لا يدري أيدمشق يبدأ أم بفحل^(٣) فكتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، وجاءه الجواب أن يبدأ بدمشق"^(٤)، وفي رواية أخرى أن المسلمين قاتلوا الروم بالواقوصة بعد انتصارهم في أجنادين وجاء خبر وفاة أبي بكر وهم بالواقوصة.^(٥)

وإذا أهملنا التفاصيل الصغيرة كالإختلاف بأيام الشهر الذي حصلت فيه الواقعة، نجد ابن اسحاق والواقدي وابن سعد والازدي وخليفة بن خياط والبلاذري وأبو زرعة

(١) الطبري، تاريخ، ٤٤٢/٣ سبق ذكر هذه الرواية بسندها.

(٢) المصدر نفسه، ٤٤٤/٣.

(٣) المصدر نفسه، ٤٣٦/٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه ٤١٨/٣، ٣١٩، ٤٣٤.

الدمشقي وابن أعثم الكوفي قد اتفقوا على أن ترتيب الوقائع جاء على التوالي، بصرى ثم أجنادين ثم فحل ثم دمشق ثم اليرموك^(١)

أما رواية المدائني السابقة التي اتفقت مع رواية سيف فعمادها أبو معشر نجيح السندي يورد الخبر مقطوعاً، كما أن بعض كتب التراجم قالت بأنه أُمي لا يحفظ ولا يعلم الاسانيد^(٢)، كما هناك رواية تقول بأن اليريد بوفاة أبي بكر جاءهم وهم على حصار دمشق.

ونختم اجتهادنا بالقول أن وهماً أو سهواً واختلاطاً حصل بين الرواة ما بين تاريخ وقعة أجنادين واليرموك كما قال الطبري^(٣) ولازالة هذا الخلط لابد من إعادة ترتيب الأحداث الواقعة منذ قدوم خالد من العراق إلى الشام، وعند أول وصوله عسكر بالغوطة يحاذي دمشق ثم نتيجة تجمع الروم بأجنادين، غادر الغوطة إلى أجنادين، وبعد الانتصار في أجنادين تابعوا فلول قوات الروم إلى فحل وكل ذلك كان عام (١٣هـ/٦٣٤م)^(٤).

بعد فحل حاصرت القوات الإسلامية دمشق (سنة ١٤هـ/٦٣٥م) وبعد فتحها انطلق المسلمون إلى حمص وفتحوها^(٥).

عند ذلك شعر الروم بخطورة الوضع، وأمر هرقل بجمع الجيوش من جميع أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، ولما علم المسلمون بضخامة الحشد الرومي، قرر قادتهم التخلي عن حمص ودمشق والتراجع إلى مكان ملائم في اليرموك، حيث حصلت معركة اليرموك (سنة ١٥هـ/٦٣٦م)، وعادوا إلى دمشق ودخلوها على نفس شروط الصلح السابقة. وهكذا يكون المسلمون فاتحين مرتين لدمشق (سنة ١٤هـ/٦٣٥م) وبعد اليرموك (سنة ١٥هـ/٦٣٦م). وبذلك يكون ترتيب الوقائع على النحو التالي: بصرى - غوطة دمشق - أجنادين - فحل - دمشق - حمص - اليرموك - دمشق^(٦).

(١) انظر صالح درادكة، المرجع السابق، ص ٢٠٧.

(٢) أحمد كمال، الطريق ص ٢٩٨.

(٣) أنجز الباحث بحثاً حول فتح دمشق - دراسة في الروايات، وانتهى إلى أن فتح دمشق حصل (سنة ١٤هـ/٦٣٥م) مع اختلاف بين الرواة في الأيام والشهور.

(٤) الطبري، تاريخ ٤٤٢/٣.

(٥) قام الأسد ببحثه المشار إليه في هذا البحث (أجنادين) بدراسة الروايات المتعلقة بتاريخ وقعة أجنادين وانتهى إلى تقرير حدوثها (سنة ١٣هـ/٦٣٤م).

(٦) صالح درادكة، المرجع السابق. Donner, Op. cit. p. 29-128.

مكان معركة اليرموك:

كما اختلفت الروايات في تحديد تاريخ واقعة اليرموك اختلفت في مكان حدوثها، وانعكس هذا الاختلاف عند بعض الباحثين المحدثين الذين أفردوا ببحثاً لهذا الموضوع^(١).

لقد وردت أوصاف المكان الذي اختاره المسلمون ميداناً لهذه المعركة في مصادرنا، فالواقدي أورد المشاورة التي حصلت بين قادة فتوح الشام بالجابية حول المكان الأفضل لملاقاة الحشد الرومي (البيزنطي) وقال بأن رأي خالد بن الوليد كان الرحيل من الجابية إلى "مكان كأنكم مستقبلون عدوكم، وتجعلوا أذرعاً خلف ظهوركم حتى تنزلوا اليرموك، ويكون المدد من أمير المؤمنين متلاحقاً بكم، وأنتم في قتال عدوكم على فسخ لجولان الخيل"^(٢)، فقام أبو سفيان صخر بن حرب وقال: "أيها الأمير إفعل رأي خالد وأنفذه إلى ماء الرقاد..^(٣)".

ويتابع الواقدي الرواية، "بأن أبا عبيدة، نزل باليرموك وترك أذرعاً من خلفه وكان هناك تل عظيم كأنه جبل، فعمد أبو عبيدة إلى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك التل ثم أقام الحرس..^(٤)".

"وأما الروم لم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى اليرموك، فنزلوا بدير يقال له دير الحسك وهو بالقرب من أرض السواد والجولان وجعلوا بينهم وبين المسلمين ثلاثة فراسخ، وكان جيشهم قد مسك ستة فراسخ طويلاً وعرضاً..^(٥)".

أما الأزدي فقد وصف قتال المسلمين في روايات تصف ركوب الروم بعضهم بعضاً حتى انتهوا إلى مكان مشرف على أهوية تحتهم فأخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون^(٦).

(١) من البحوث الحديثة، انظر يوسف غوانمة، معركة اليرموك، دار هشام للنشر والتوزيع، أربد- الأردن، ١٩٨٥. وفواز طوقان، الواقصة، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الإسلام) المجلد الثاني، تحرير محمد عدنان البخيت وإحسان عبداس عمان ١٩٨٧، صفحات ٣٢٣-٣٣١.

(٢) فتوح الشام، ص ٢٥٠.

(٣) نفسه.

(٤) الواقدي، فتوح ص ٢٥١.

(٥) الأزدي، فتوح، ص ٢٥٢.

(٦) فتوح الشام ٣٣٩.

وفي رواية سابقة للأزدي ذكر نزول الروم دير الجبل^(١). وفي مكان آخر يورد الأزدي رأي أبي مسيرة بن مسروق أحد قادة اليرموك في المكان الأفضل لمعسكر المسلمين، ويرى "الإقامة في بلاد تشبه بلادنا، وجمع القواصي والكتابة إلى إمبر المؤمنين"^(٢).

أورد الطبري رواية عن سيف عن شيوخه، يصف ساحة المعركة، فيقول: "... فكان مقاتلهم واسع المطرد، ضيق المهرب.. وخرجت خيلهم (الروم) تشتد بهم في الصحراء. فيعمدوا إلى الواقوسة، حتى هوى فيها المقترون وغيرهم"^(٣)، ويعرف البلاذري الواقوسة بأنه واد فمه الفوارة^(٤).

"وذكر الوليد عن صفوان عن عبدالرحمن بن جبير أن الروم نزلوا فيما بين دير أيوب واليرموك ونزل المسلمون من وراء النهر من الجانب الآخر وأذرعاع خلفهم ليصل إليهم المدد من المدينة"^(٥).

ويمكننا الآن إعادة التأكيد على أهم عناصر المكان الذي اختاره قادة المسلمين واسع العطن، واسع المطرد، ضيق المهرب يفصل الجيشين واد سحيق أو هوة (الواقوسة) وتكون أذرعاع خلف ظهور المسلمين وكذلك برية آمنة يصلهم عن طريقها البرد والمدد وكذلك تلة عالية كالجبل خلف المسلمين تتحصن عليها النساء والغلمان.

قام الدكتور فواز طوقان بدراسة لتحديد مكان المعركة، وبعد أن جمع مواصفات المكان من المصادر التاريخية والجغرافية استقر اجتهاده على أن تلة عقربا^(٦) هو المكان لهذه المعركة لاشتماله على أغلب المواصفات، وبوجود قبور إسلامية في أسفل سفوح عقربا المنحدرة إلى وادي اليرموك^(٧).

(١) نفسه ص ٨٢٧.

(٢) نفسه ص ٢٥٠.

(٣) تاريخ ص ٤٠٠.

(٤) فواز طوقان، المرجع السابق، ص ٣٢٦، (لم أعر على التعريف في النسخة المستخدمة في البحث).

(٥) المحافظ بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) البداية والنهاية، ط ١، مكتبة المعارف - مكتب النصر، بيروت - الرياض، (١٩٦٦م)، ٧/٧.

(٦) فواز طوقان، المرجع السابق، ص ٣٢٩.

(٧) الواقوسة، بحث نُشر في المجلد الثاني «بلاد الشام في صدر الإسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي الرابع

أما الباحث الآخر الذي أنجز دراسة في نفس الموضوع لتحديد مكان واقعة اليرموك وخلص من دراسته، إلى أن المكان الذي تنطبق عليه مواصفات المصادر هو بلدة سحم الجولان في الجولان السوري وهذه المناطق تعتبر من مسارح عمليات اليرموك كما رأيتها (١).

وأنا بدوري قمت بجولات ميدانية في المكان أستطلع مواصفاته، وابتحث عن المكان الذي يحقق أهداف قادة المسلمين وتتنطبق عليه المواصفات التي ذكرتها المصادر، أي مكان واسع المطرد فسيح فيه تلة تكون فيه هوة واقوصة (واد في فمه فوارة)، ويتصل بيرية أمنة نحو الحجاز تكون اذرعاً (درعا الحالية) خلفه.

وبعد الاستطلاع الدقيق استبعدت بلدة عقربا وسهلها لأن هذه المنطقة ضيقة وعرة المسالك، محاطة بمنحدرات من جهاتها الأربع، لا تصلح لجولان الخيل وليس فيها هوة (واقوصة) ولا فواره، وهي واقعة غرب درعا ولا تكون درعا خلف الجيش، ولا يمكن للجيش البيزنطي الوصول إليها من جهة قدمه من الشمال، وإلى حد ما تتطابق المواصفات في المكان الذي قدره الغوامه مع ما ورد في المصادر.

وأثناء بحثي وتجوالي في المنطقة وجدت مواصفات أرض المعركة تتوافر في منطقة تمتد على شكل قوس يبدأ بعد حوالي ستة كيلو مترات شمال بلدة المزيريب السورية، باتجاه الجنوب نحو مدينة الرمثا الأردنية وما حولها.

وهذه منطقة سهلية فسيحة فيها واد (شق في الأرض عميق تغور منه المياه) لا يرى من بُعد يقع إلى الشمال من بلدة المزيريب ويطلق عليها الواقوصة الحالية، كما أن الفوارة موجودة على امتداد الشق في بلدة المزيريب ويسمون بها البجة، لأنها تبج الماء من باطنها على شكل فوارة، ونظراً لهذه الميزات لمنطقة المزيريب، أصبحت من أشهر منازل الحج الشامي على الطريق بين دمشق والحجاز عبر العصور الإسلامية.^(١)

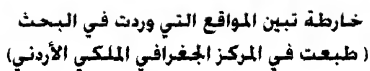
وخلف المكان تلة كالجبل مشرفة على هذا السهل، ويتصل هذا السهل بالبرية بحيث لا يحجز وادي اليرموك بين المسلمين وبين بريدهم ومددهم القادم من الحجاز، وفي نفس

لتاريخ بلاد الشام، تحرير، محمد عدنان البخيت واحسان عباس، عمان ١٩٨٧، الصفحات ٣٢٣-٣٣١.

(١) انظر صالح درادكة، طرق الحج الشامي في العصور الإسلامية، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، ط ٢، ٢٠٠٧م، وانظر مادة (الحج) عند ابن منظور في لسان العرب ٢/٢١٠.

الوقت يكون هذا الوادي على يسارهم، واذرعات خلف ظهورهم.
ولما شاهدت هذه المنطقة أكبرت المؤرخين القدامى الذين وصفوا لنا المكان وكان
وصفهم في منتهى الدقة والمصادقية، ولعل الخارطة المرفقة تعين على التعرف على خصائص
المكان.

هذا هو اجتهدانا، ومبلغ علمنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل.



فتح دمشق

دراسة في الروايات

يعاني الباحث في تاريخ الفترة الإسلامية المبكرة من صعوبة في فهم الروايات المسندة، لاعتقاده بأن هذه الروايات إنما وصلت إلينا شفاهاً من راوٍ إلى آخر. وهذه الحالة تثير الشك في مدى دقة المعلومة المنقولة بمثل هذه الطريقة، لاحتمالات السهو والنسيان عند الراوي، أو ربما لأغراض في تركيب الرواية وتوظيفها.

إن هذا الانطباع جعل الدارس لمثل هذه الروايات يذهب بعيداً في تفسير اختلافاتها، ولربما يصل به الأمر إلى الطعن بصحة تاريخنا.

”فإذا أراد الباحث تقدير المواد المتعلقة بالقرنين الأول والثاني للهجرة في المصادر التي وصلتنا اعتماداً على الإسناد، فعليه أن يتحرر من الآراء القائلة بأن هذه الأخبار ظلت تتداول شفاهاً على مدى مائة وخمسين عاماً^(١). وبالرغم من صعوبة البحث في الروايات (علم الرواية) فلا بد من معاودة النظر في الرواية التاريخية، وتحليل عناصرها وبيان مصادرها وطرق انتقالها إذا أردنا إعادة كتابة تاريخ أمتنا^(٢).”

و عند التدقيق في الروايات المعتمدة على سلاسل السند، نجد أن هذه الروايات تعتمد في الأعم الأغلب على مصادر مكتوبة.

فعلى سبيل المثال نورد الرواية التالية من تاريخ أبي جعفر بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):

(١) فؤاد سيزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثاني، نقله إلى العربية: د. محمود فهمي حجازي، وراجع د. عرفة مصطفى ود. سعيد عبد الرحيم ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م المملكة العربية السعودية، ص ٨، نقلاً عن مقدمة بلاشير لترجمة القرآن Balachere, Lecoran, Paris 1947, P 1-2

(٢) لا بد من التنويه هنا بالدراسة المميزة والجادة التي قام بها الباحث أحمد عادل كمال في دراسة روايات الفتوح، وكذلك الدراسة القيمة التي قام بها أستاذنا الكبير ناصر الدين الأسد لاجنادين المشار إليها في ثنايا هذه الدراسة. وكذلك محاولة أمينة البيطار في تحديد تاريخ فتح دمشق. واشير هنا ايضاً الى دراسة قديمة أنجزها الدكتور جورج حداد سنة ١٩٣١. ولكل من هذه الدراسات ميزتها، بعضها في الجانب المعرفي وبعضها في الجانب المنهجي وقد افدت منها جميعاً.

”حدثنا ابن حميد، قال حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن اسحق، قال: حدثني الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير“^(١).

ففي هذه الرواية نجد أن الطبري تلقى حق رواية كتاب المغازي لابن اسحق عن طريق ابن حميد و سلمة، وابن اسحق تلقى نص رواية كتاب المغازي لعروة بن الزبير عن طريق الزهري ويزيد بن رومان، أي أن ابن اسحق استخدم لهذا النص كتابي المغازي ليزيد ابن رومان والزهري اللذين اعتمدا بدورهما على كتاب المغازي لعروة^(٢).

ويحدث أحياناً أن نجد أكثر من سند لرواية واحدة كما يفعل الطبري، فنجد أن أكثر من سلسلة سند لخبر واحد، كأن يورد سلسلة تعتمد على ابن اسحق وأخرى تعتمد على الواقدي وأخرى تعتمد على سيف بن عمر وهكذا، اجتهداً منه لوضع كامل ما توصل إليه حول الخبر الواحد، وهو في الوقت نفسه يشير - دون ذكر - إلى عدد المصادر المكتوبة التي رجع إليها.

ومن الطبيعي أن نجد في روايات تاريخنا المبكر اختلافات في معلوماتها وتواريخ حدوثها، لأن الطبائع البشرية وما حباها الله من قدرات وخصائص، تتفاوت في الحفظ والفهم، وهي حال مستمرة عند بني البشر، ففي رواية التاريخ المعاصر يقع الاختلاف والتعارض، رغم تقدم وسائل المعرفة والاتصال والحفظ.

ومما يزيد صعوبة البحث في روايات التاريخ الإسلامي - ومنها روايات الفتوح - انعدام مصادر أخرى غير عربية معاصرة تسند الرواية الإسلامية. فثيوفانس Theophans (ت نحو ٢٠٤هـ / ٨١٩م) الذي أرخ للدولة البيزنطية لا يقدم معلومات تفصيلية لحركة الفتح الإسلامي، رغم قربه منها، كذلك لا نجد ما يشفي الغلة عند معاصره الآخر، نقفور (فيستورس) (ت نحو ٢١٤هـ / ٨٢٩م) ومثلهما ميخائيل السرياني الذي عمل بطريقاً لإنطاكية من ١١٦٦-١١٩٩م ويعرف كتابه بتاريخ ميخائيل، وأفتيشيوس المكني بسعيد بن البطريق في كتابه التاريخ المجموع. وكذلك يحيى الأنطاكي في تاريخه، مروراً بالمؤرخين المحدثين من المستشرقين من أمثال كياتاني وجولدتسيهر اللذين لفتا النظر إلى ضالة الفائدة في

(١) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م، ٢/٤١٠، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٦، ٤٥٦، ٥٦٥. سيشار إليه عند وروده، تاريخ الطبري.

(٢) فؤاد سيزكين، المرجع السابق، ص ٨-٩.

أخبار المؤرخين الأجانب، وعدم دقتها، وتعارضها مع المصادر العربية^(١).

لذلك علينا الاعتماد في مثل هذه الحال على المصادر العربية، وذلك بالوصول إليها وجمع رواياتها وفهمها ونقدها وفق المناهج العلمية المعاصرة للوصول إلى الحقيقة.

وقد اخترت لهذه الغاية الروايات المتعلقة بفتح مدينة دمشق، كمحاولة أولية لدراسة الرواية العربية وعلم الإسناد.

نبدأ بإيراد روايات محمد بن اسحق (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م) عن فتح مدينة دمشق. وصلت روايات ابن اسحق إلينا عن طريق خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) في تاريخه، وعن طريق محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) في تاريخه، وعن طريق الواقدي (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) في كتابه فتوح الشام ومصادر أخرى، ثم عند ابن عساكر، مؤرخ دمشق المعروف (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م).

ولابد من إيراد نبذة عن محمد بن اسحق، فقد بدأت به الكتابة التاريخية، وعن طريقه وصلت إلينا أقدم سيرة نبوية محفوظة بالكامل، وهو عمدة مدرسة المدينة التاريخية، ومصادر معلوماته كثيرة ومتنوعة. ووصل عدد شيوخه إلى مائة وأربعة عشر شيخاً (١١٤). وشيوخه في أخبار فتوح الشام كثر منهم: محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١م) وصالح بن كيسان (ت بعد ١٤٠هـ/ ٧٥٧م) ومحمد بن عمر بن عطاء، وعبد الله بن أبي بكر الأنصاري (ت ١٣٥هـ/ ٧٥٢م) والعلاء بن عبد الرحمن، وغيرهم^(٢).

وقد شهدت له كتب التراجم بسعة العلم وبالصدق، وبعضهم اتهمه بالقدر والتشيع،

(١) ليون كاياني (Caetani, Leone) مستشرق إيطالي، أصدر مجموعة كتب، أهمها:

حوليات الإسلام 1905 - 1926 (Annali dell' Islam, 10 Vols, Milan; U. Hoepli).

أما (اجتس جولدتسيهر Ignaz Goldziher) فهو مستشرق مجري الأصل يهودي الدين، اهتم بالدراسات الدينية والعقائدية الإسلامية، ت ١٩٢١م، له عشرات الكتب والتعليق منها: العقيدة والشرعة في الإسلام، ومذاهب المسلمين في تفسير القرآن، وترجم الأول إلى العربية، دار الكاتب المصري القاهرة ١٩٤٦م.

وحول الإستشراق انظر الدراسة القيمة للمرحوم ادوارد سعيد (الإستشراق) ترجمة: كمال أبو ذيب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط ٤، ١٩٩٥م.

وانظر Fred McGraw Donner, The Early Islamic Conquest, Princeton, 1981.

(٢) انظر جدول رواة فتوح الشام عند ابن اسحق في كتاب الطريق إلى دمشق لأحمد عادل كمال، دار النفائس، ص ٦٤.

يقول عنه احمد عرموش: "والمحدثون لا يتهمون ابن اسحق بالكذب وإنما يتهمونهم بالتدليس والإرسال، وذلك بأنه يسقط من بعض الأخبار رجالاً متهمين بالكذب والوضع"^(١). فقد اتهمه الإمام مالك بن أنس وهشام بن عروة بن الزبير بالكذب والدجل والنقل من غير الثقات ومجالسة النساء ووضع الشعر....^(٢). وبالمقابل فإن الذين أثنوا عليه ومدحوه من العلماء الأجلاء كثر، أكثر من الذين غمزوا قناته وألنوا جانبهم، وفي طليعة هؤلاء (ابن شهاب الزهري)^(٣)، الذي قال فيه: "قال أبو زرعة: قال لي ابن أبي عمر، قال سفيان" وبلغني أن محمد ابن اسحق أتى الزهري - ولم أكن حاضراً - فلما ذهب من عنده قال الزهري: لا يزال بالمدينة علم ما بقي هذا"^(٤).

وممن وثقه وأشاد به، شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ/ ٧٧٦م) وسفيان الثوري (ت ١٦١هـ/ ٧٧٧م) وهو أحد الأئمة المجتهدين، والحفاظ الميزين وقيل فيه: أمير المؤمنين في الحديث. وزياد ألبكائي (ت ١٨٣هـ/ ٧٩٩م) راوي المغازي عن ابن إسحاق، والخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) صاحب كتاب تاريخ بغداد المشهور، وابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م) في سيرته المعروفة باسمه (عيون الأثر في فنون المغازي والسير).

ولم يتردد الثقات في الأخذ عنه، فقد أخرج له الإمام مسلم في المبيعات واستشهد به الإمام البخاري، وروى له أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه^(٥). وترجم له الخطيب البغدادي ترجمة وافية، وقال فيه: "قال الشيخ أبو بكر لم أر في جملة المحمدين الذين كانوا

(١) مقدمة كتاب الفتنة ووقعة الجمل، دار النفائس - بيروت، ص ٧.

(٢) انظر الفهرست للنديم، ص ٢٠٠.

(٣) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري القرشي (٥٠-١٢٤هـ) صاحب كتاب (المغازي) انظر تصنيف أبي القاسم علي بن الحسن (ابن عساكر) للزهري في تاريخ مدينة دمشق بعناية شكر الله بن نعمة الله القوجاني، مؤسسة الرسالة ١٩٨٢. سيشار إليه عند وروده، ابن عساكر الزهري.

(٤) تاريخ أبي زرعة الدمشقي، للحافظ عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري المتوفى سنة ٢٨١هـ، ج ١، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني، د. ت. ص ٥٣٧ رقم (١٤٥٢)، سيشار إليه عند وروده، تاريخ أبي زرعة، ومما يجدر ذكره أن أبا زرعة يعتمد كثيراً في أخباره على ابن شهاب الزهري، وعنه أخذ ابن عساكر في تاريخ دمشق، حول الزهري، انظر: عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز زايد للتراث والتاريخ ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص ١٦٣-١٧٤. سيشار إليه عند وروده، الدوري، نشأة علم التاريخ.

(٥) انظر عنه مقدمة السيرة النبوية لابن هشام، للمحققين: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شليبي. وانظر أحمد عادل كمال، الطريق، ص ٦٣.

في مدينة السلام من أهلها الواردين إليها أكبر سناً أو أعلى إسناداً أو أقدم موتاً منه، ولهذه الأسباب المجتمعة فيه، افتتحت كتابي بتسميته وأتبعته من لحق به من أهل ترجمته^(١).

حفظ لنا خليفة بن خياط (شباب العصفري) (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) رواية ابن اسحق عن فتح دمشق، وتاريخ خليفة بن خياط هو أقدم تاريخ حوли مرتب على السنين، وصل إلينا بعد ضياع الحوليات التي كتبت قبله، روى عن جمع غفير من العلماء، وثقه ابن حبان وقال عنه: "كان متقناً عالماً بأيام الناس وأنسابهم"^(٢).

ونظراً لأن ابن خياط من المحدثين فلا عجب أن يهتم بالإسناد حتى في رواياته التاريخية، فقد نقل عن ابن اسحق فيما نقل روايات تتعلق بالردة والفتوحات الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين، ولعل هذه النقول مأخوذة من كتاب ابن اسحق (تاريخ الخلفاء)^(٣).

أما نص الرواية التي وصلتنا عن فتح دمشق عن طريق خليفة بن خياط، فتقول: "حدثني بكر بن سليمان عن ابن اسحق قال: "صالحهم أبو عبيدة في رجب (الرواية في أحداث سنة ١٣هـ)^(٤).

ونص رواية ابن اسحق عند الطبري: "فحدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة عن ابن اسحق قال: لما فرغ المسلمون من أجنادين ساروا إلى فحل، من أرض الأردن، وقد اجتمعت فيها رافضة الروم، والمسلمون على أمرائهم، وخالد على مقدمة الناس... فكانت فحل في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة، على ستة أشهر من خلافة عمر... ثم ساروا إلى دمشق، وقد اجتمعت الروم إلى رجل منهم يقال له باهان بدمشق، وقد كان عمر عزل خالد بن الوليد واستعمل أبا عبيدة على جميع الناس، فالتقى المسلمون والروم فيما حول دمشق،

(١) تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٠م، ١/ ٣٠٠ رقم (٥١) (فصل في الحديث عن ابن اسحق وذكر ما له وما عليه، ويستخلص أنه أمام في السير والمغازي والفتوح).

(٢) انظر مقدمة المحقق لكتاب تاريخ ابن خياط، أكرم ضياء العمري، ط ١، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م. انظر طه الهاشمي، مشاهير علماء الأمصار، ص ١٧٥. وثق ابن اسحق أيضاً ابن خلكان في كتابه (وفيات الأعيان) وابن الأثير في (اللباب) وأعادوا أوصاف ابن حبان وعبارته وتوسعوا فيها. سيشار إليه عند ورودها، تاريخ ابن خياط.

(٣) النديم، كتاب الفهرست، طبعة، فلوجل، ص ١٤٢.

(٤) تاريخ ابن خياط، المرجع السابق، ١/ ٩٤.

فاقتتلوا اقتتالاً شديداً، ثم هزم الله الروم وأصاب منهم المسلمون، ودخلت الروم دمشق، فغلقوا أبوابها، وجثم المسلمون عليها فربطوها حتى فتحت دمشق وأعطوا الجزية، وقد قدم الكتاب على أبي عبيدة بإمارته وعزل خالد، فاستحيا أبو عبيدة أن يقرئ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق، وجرى الصلح على يدي خالد وكتب الكتاب باسمه... وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة (١٤هـ) في رجب^(١).

وقد جمع خليفة بن خياط أسانيد بكر بن سليمان ووهب بن جرير (ت ٢٠٦هـ / ٨٢١م) في عدة أماكن، وفي رواياته لأخبار فتح دمشق ينقل عن ابن اسحق عن طريق بكر بن سليمان، دون أن يصل بسند الرواية إلى الراوي الأول ولعله عروة بن الزبير^(٢).

جاءت صيغة التحمل في رواية ابن خياط: "وحدثني بكر عن ابن اسحق^(٣) وهذه صيغة سماع (سمعت عن، أو حدثني) أي أن خليفة سمع كتاب ابن اسحق (تاريخ الخلفاء) عن طريق بكر بن سليمان تلميذ ابن اسحق الذي أجاز له رواية كتابه، مثلما سمع ابن اسحق كتاب عروة بن الزبير عن طريق أحد تلاميذه، إما محمد بن جعفر بن الزبير، أو عن طريق ابن شهاب الزهري الذي يروي عن ابن كعب، أو عن طريق صالح بن كيسان الذي يروي عن عبد الله بن أبي أوفى وهكذا^(٤).

وابن حميد (رواية الطبري) هو محمد بن حميد بن حيان الرازي (ت ٢٤٨هـ / ٨٦٢م) عن مسلمة بن الفضل، روي عن أبي زرعة (إمام أهل دمشق في الحديث) قوله: "من فاته ابن حميد يحتاج أن ينزل في عشرة آلاف حديث، ومن فاته هشام ابن عمار، يحتاج أن ينزل في عشرة آلاف حديث"^(٥).

وقد أثنى عليه عدد من الثقات، فقال أحدهم: "ما لي لا أحدث عنه وقد حدث عنه أحمد

(١) تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م / ١٣٤٤-٤٣٥.

(٢) انظر جدول الرواية، عند أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص (مقابل) ٦٥.

(٣) تاريخ خليفة، ٩٥/١.

(٤) انظر أحمد عادل كمال، جدول رواة فتوح الشام عند ابن اسحق، المرجع السابق.

(٥) تاريخ بغداد ٢/ ٢٥٥ رقم (٧٣٣).

ابن حنبل ويحيى بن معين^(١). و سلمة بن الأبرش الذي يروي عنه ابن حميد، هو ابن الفضل، يكنى (أبو عبد الله) وهو صاحب محمد بن اسحق، وروى عنه المغازي والمبتدأ وتوفي في الري، وقد أتى عليه مائة وعشر سنين، وكان مؤدباً، وقيل أنه أخشع الناس في صلاته^(٢).

وتبدو صورة التحمل واحدة بين رواة ابن خياط والطبري، وهي صيغة "حدثني" التي تعني إجازة ابن اسحق لسلمة برواية كتابه. هذا ما ذكره ابن اسحق عن فتح دمشق، ورواته من الثقات، ومع أن ابن اسحق لم يذكر شيوخه الذين روى عنهم الفتح، فهم معروفون ومشهورون بالصدق^(٣).

وبعد ابن اسحق تنتقل إلى الواقدي أحد الذين كتبوا فتوح الشام، ورووا خبر فتح دمشق، والواقدي هو أبو عمر محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) وقد اشتملت حياته على ثلثي القرن الثاني الهجري (١٣٠-٢٠٧هـ) شهد له الكثيرون بسعة العلم ودقة الخبر، وأحياناً نجد تغاضياً من بعض المؤرخين الكبار عن ذكر اسمه في إسناد رواياتهم، علماً بأن أثره واضح في هذه الروايات. ولعل السبب يعود إلى ما اتهم به من موالة للبرامكة، وما قيل عن تشيعه، وموقف رجال الحديث منه، وأسباب أخرى أتيت على ذكرها في مقدمة كتاب، فتوح الشام المنسوب للواقدي، ولذلك نجد الطبري يستخدم عبارة (وزعم الواقدي) عندما يصرح بروايته.

يذهب الواقدي في تمحيص أخباره إلى التنقل والترحال، وسؤال من شهد أو سمع أو شارك، متفحصاً المكان ومستقصياً الزمان، ويحرص أن يكون رواته من الثقات، ويقسم مؤكداً للقارئ صدق روايته^(٤). ونظراً لإدراك الباحث أهمية كتاب فتوح الشام للواقدي، فقد أعاد دراسته وتحقيقه^(٥).

يعتمد الواقدي على تسلسل الإسناد، ويكتفي في أحيان أخرى بالإسناد الجماعي (قالوا)، وهذه الصيغة تفيد توافق الرواة على الخبر. هذه الصفات عند الواقدي جعلت المؤرخين الكبار

(١) تاريخ بغداد، المرجع نفسه، ٢/ ٢٥٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٧/ ٣٨١.

(٣) انظر أحمد عادل كمال، المرجع السابق، ص ٦٤.

(٤) يكرر عبارات القسم بصدق أقواله في ثانيا كتاب «فتوح الشام».

(٥) انظر مقدمة كتاب فتوح الشام، دار حمادة، اربد/ ٢٠٠٧م.

الذين جاءوا من بعده يرجعون إليه في القضايا الخلافية. فالبلاذري صاحب فتوح البلدان نجد في معرض ترجيح الروايات يقول: "رواية الواقدي أثبت"^(١).

ذهب بعض المحدثين^(٢) إلى نفي نسبة كتاب فتوح الشام المتداول للواقدي، بحجة الأسلوب القصصي والملحمي المتبع في أخباره، غير أن هذا الاتجاه في المزج بين أخبار الفتوح والأنساب والقصص والسمر كان اتجاهاً قديماً عند المؤرخين ورواة الأخبار والأنساب. فقد رأينا أن ثابتاً البناي المتوفى (١٢٧هـ/٧٤٤م) كان "يقص" وأن ميله إلى ذكر القصص كاد يشكك بعض علماء الحديث النبوي في صدقه، وأن الحسن البصري - على جلال قدره - كان "يقص" حتى مر به علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زين العابدين) فنهاء عن سرد القصص في الحج، لأن قصصه "تشغل الناس عن طواف البيت"^(٣). وكانت أمه كذلك "نقص للنساء" ... وهشام بن محمد الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م، كان من أعلم الناس بأخبار العرب وأنسابهم وأشعارهم، وشديد الضبط والتدقيق لها فيما يروي، وكان يرجع إلى مدونات ونقوش لم يرجع إليها غيره، ورّجحت صحتها الكشف والدراسات الحديثة، ومع ذلك ضعفه كثير من رواة الأخبار والأنساب وكذبوه وهو الذي قال عنه ياقوت: "لله در ابن الكلبي، ما تنازع العلماء في شيء من أمور العرب، إلا وكان قوله أقوى حجة وهو مع ذلك مظلوم، وبالقوارض مكلول"^(٤) وما ذلك إلا لأنه مزج بعض أخباره بالأقاصيص والأساطير، حتى قيل فيه: "من يحدث عن هشام إنما هو صاحب سمر ونسب ما ظننت أحداً يحدث عنه"^(٥).

(١) أبو الحسن البلاذري (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان، عني بمراجعته والتعليق عليه: رضوان محمد رضوان، المكتبة التجارية بمصر، م. السعادة ١٩٥٩، ص ١٢٥. سيشار إليه عند وروده، البلاذري، فتوح.

(٢) من امثال: بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ج ٣، نقله الى العربية، عبد الحليم النجار، ط ٥، دار المعارف بمصر، ص ١٧. وتابعه، شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٩م/١٦٤١. وسعد زغلول عبد الحميد في دراسته لمخطوط (فتوح مدينة افريقية من مخطوطات الواقدي)، انظر J. Horowitz, Islamic Culture, 1928, P. 516.

(٣) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق يوسف علي طویل ومريم قاسم طویل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ٥٧/٢. وانظر ناصر الدين الأسد، وقعة أجنادين (الندوة الثانية) المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، م ٢ تحرير محمد عدنان البيهت وإحسان عباس، عمان ١٩٧٨م، ص ٢٩٧.

(٤) ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص ٢٩٧-٢٩٨.

(٥) كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، ص ١٤.

وقد ذكر النديم في الفهرست له من الكتب ما جعل عنوانه: "كتبه في الأخبار والأسمار"^(١). أذكر هذه التفاصيل عن الواقدي لما رأيته فيه من الدقة والتفصيل في أحداث الفتوح وبخاصة فيما يتعلق بتحديد تواريخ الوقائع وأماكنها، وما صاحب ذلك من الاستطراد الحماسي في وصف الوقائع لا يغير من الحقائق التاريخية شيئاً، شأنه في ذلك شأن غيره، ممن حكم عليه منافسه بالوضع والكذب، فالواقدي عالم مغازي وفتوح وليس محدثاً، وبين المدرستين تنافس وخلاف.

أما رواية الواقدي في فتح مدينة دمشق فسندها: "حدثني مسلمة بن عوف عن سالم بن عبد الله بن حجاج الأنصاري، قال: "قلت لجدي رفاعه بن عاصم، وكان ممن قاتل بدمشق، وكان في خيل أبي عبيدة، فقلت يا جده: ما منع أبا عبيدة، أن ينصب له قبة من بعض قبب الروم مما أخذه من أجنادين وبصرى"^(٢).... وذكر حصار أمراء الجيش لدمشق، (كل قائد على الباب الذي حدد له)، ويذكر مشاورات أهل دمشق بين داع إلى طلب الصلح وبين داع إلى مشاورة توما صهر الملك، (الرواية)^(٣). ونقل الواقدي رواية عن تميم بن عدي عن صلح أبي عبيدة لأهل دمشق، وذكر أنه "كتب لهم كتاب الصلح والأمان، ولم يسم فيه اسمه، ولا أثبت شهوداً، وذلك لأنه لم يكن أمير المؤمنين، فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه، وقالوا له: "قم معنا إلى البلد..."^(٤).

وفي رواية أخرى ينقل الواقدي خبر دمشق عن عمر بن عيسى عن عبد الواحد بن عبد الله النصري عن واثله بن الأسقع^(٥).

جعل الواقدي عام ١٤ هـ عام فتح مدينة دمشق، وفي روايته عن طريق الطبري (٤٤١/٣) نقل الواقدي عن ابن اسحق تاريخ فتح مدينة دمشق في رجب سنة ١٤ هـ، بصيغة "وزعم الواقدي أن فتح دمشق كان سنة أربع عشرة كما قال ابن اسحق". ونقل البلاذري رواية الواقدي (ص ٣٣٥) قائلاً: "وكان فتح دمشق في رجب سنة

(١) النديم، الفهرست، ص ٩٥-٩٨.

(٢) كتاب فتوح الشام، تقديم عمر أبو النصر، المكتبة الأهلية، ١٩٦٦م، ص ٧١/١-٧٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه، ص ٦٣-٧٥.

١٤ هـ. وتاريخ كتاب خالد في شهر ربيع الآخر سنة ١٥ هـ. والرواية الأولى تصل إلى حجاج الأنصاري وهو المكنى (بأبي مطيع) بن يوسف بن أبي منيع عبيد الله بن أبي زياد الرصافي أبو محمد وقيل أبو منيع كنية يوسف، روى عن جده عن الزهري. والزهري من أعمدة رواة المغازي والفتوح، وهو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أحد كبار صغار التابعين، روى عنهم الحديث والحديثين مثل: أنس بن مالك الأنصاري (خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولازم كلاً من: سعيد بن المسيب بن حزن (ت ٩٤ هـ) وعروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤ هـ) وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي (ت ٩٤ هـ) وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (ت ٩٨ هـ)^(١).

أما واثله بن الأسقع، فهو صحابي شامي، يقال أنه زار القدس وتوفي بها سنة ٨٥ هـ. وقيل ٨٣ هـ^(٢).

وصيغة التحمل في هذه الروايات عن فتح دمشق "حدثني فلان عن فلان" وهذا يعني أن الخبر كان ينقل عن كتب أجاز أصحابها لمن بعدهم روايتها^(٣).

وبعد فتوح الشام للواقدي تنتقل إلى فتوح الشام للأزدي، والأزدي هو أبو إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري (ت ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م) يتميز الأزدي بعنايته بالإسناد، ويؤخذ عليه الإكثار من الروايات الخاصة بقبيلته الأزدي، وهذه ظاهرة عامة عند رواة أبناء القبائل، فقد اتهم بمثل ذلك سيف بن عمر التميمي، وعوانة بن الحكم الكلبي وغيرهم.

اعتمد الأزدي في أخباره عن بلاد الشام على رواة شاميين في الأغلب، وهذه ميزة جيدة، لأنها تعتمد على شهود من مناطق الحوادث نفسها الأكثر قرباً.

أتى أهل تراجم الرجال على الأزدي، ونعتوه بصاحب فتوح الشام وعدّه ابن حبان في

(١) شكر الله بن نعمة الله قوجاني، مقدمة الكتاب الزهري، من كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، بيروت، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م، ص ١٠-١١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر ابن سعد، الطبقات ١/ ٣٠٥، وابن خلكان، وفیات، ٤/ ٤٨٣، وناصر الدين الأسد، المرجع السابق، الصفحات: ٣٧٦، ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩٧، ٤٢٨.

الثقات^(١). وبين الأزدي وأحداث الشام راويان أو ثلاث، فهو معاصر للواقدي.

يستخدم الأزدي في إسناده صيغة: "حدثني" بينما يستخدم راوية كتابه الحسين بن زياد صيغة: "أخبرنا فلان عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال: "حدثني فلان....".

نورد هنا رواية الأزدي لرسالة عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بتولية إمارة جيوش الشام وعزل خالد، لأن الأزدي تابع أخبار حصار دمشق اعتماداً عليها ونصها: "أخبرنا الحسين بن زياد عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال: "حدثني محمد بن يوسف عن ثابت البناني عن العباس بن سهل بن سعد قال: قدم شداد بن أوس بعهد أبي عبيدة، فدفعه إليه وشداد شاك (مريض)، فنزل على أبي عبيدة وعلى معاذ، وكان منزلهما وأمرهما واحداً، وكانا يقومان عليه حتى ثمائل، فمكث أبو عبيدة خمسة عشرة ليلة، وخالد يصلي بالناس ويأمر وينهى، وما يعلم أن أبا عبيدة الأمير عليه، حتى جاء كتاب من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي عبيدة فكره أن يخفيه"^(٢).

أما الرواية التي ذكر فيها الأزدي تاريخ فتح دمشق فنصها "أخبرني الحسين بن زياد عن أبي إسماعيل محمد بن عبد الله قال: "وحدثني عمرو بن مالك القيني عن أدهم بن محرز عن أبيه محرز ابن أسيد الباهلي قال: افتتحنا دمشق سنة أربع عشرة، يوم الأحد لثلاثة عشر شهراً مضت من إمارة عمر رضي الله عنه إلا سبعة أيام"^(٣). ومحمد بن يوسف بن واقد بن عثمان الضبي أبو عبد الله الفريابي، أحد شيوخ الأزدي الكبار، نزل قيسارية من ساحل الشام، روى عن طائفة منهم: الأوزاعي، ونافع مولى ابن عمر، وسفيان الثوري، وروى عنه كثيرون منهم البخاري، ولد سنة ١٢٠ هـ وتوفي سنة ٢١٢ هـ، وقد وثقه علماء الرجال ووصفوه بأنه "صدوق"^(٤).

وثابت بن أسلم البناني البصري (ت ١٢٧ هـ/٧٤٤ م) من رواة محمد بن يوسف الذي

(١) انظر مقدمة محقق كتاب الأزدي، مؤسسة حمادة، اريد ٢٠٠٤ م.

(٢) فتوح الشام، ص ١٩٠-١٩١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٤) انظر ترجمته عند ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ٥٣٥-٥٣٧. وانظر ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص ٢٩٣.

نقل الخبر عن العباس بن سهل بن سعد، ممن وثقه العلماء وقالوا عنه "مأمون كبير القدر، توفي سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م^(١). والعباس بن سهل بن سعد الذي يروي عنه ثابت البناني، أنصاري من الخزرج، محدث ثقة له ولأبيه صحبه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن جماعة من الصحابة. وروى عنه عدد من كبار التابعين، ولد قبل الهجرة بخمس سنين وتوفي في سنة (٩٦هـ) وهو آخر من مات في المدينة من الصحابة، كان اسمه حزناً، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلاً^(٢).

أما سند الرواية الثانية فيتألف من عمرو بن مالك القيني عن أدهم بن محرز عن أبيه محرز بن أسيد الباهلي، وهذه الرواية وإن جاءت عن طريق غير طريق الرواية الأولى، فهي تتوافق معها، من حيث تأكيدها أن الفتح كان بعد ثلاثة عشر شهراً من بداية ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والمصادر مجمعة على أن وفاة أبي بكر كانت في جمادى الأولى سنة ١٣هـ/ أغسطس ٦٣٤م أي أن دخول دمشق حصل في سنة ١٤هـ في شهر رجب أو قبله أو بعده حسب التاريخ الذي اعتمده الراوي لبداية إمارة عمر رضي الله عنه.

لم نجد لعمرو بن مالك ترجمة في المصادر التي اطلعنا عليها، وقد ذكره ابن عساكر في تاريخه (٤٦٤/٧) ممن رروا عن أدهم بن محرز، وأدهم صحابي حمصي شهد فتح مكة وشهد صفين، وكان من قادة الحجاج، وأحد أمراء الجيش الذين وجهوا مع عبيد الله بن زياد لقتال التوابين الذين قتلوا عند عين الورد (٦٥هـ/ ٦٨٤م)، وهو الذي حمل رأس سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن نجبه (رأسي التوابين) إلى مروان بن الحكم^(٣). وكان والد أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي من أعلام الفتح^(٤).

جاءت صيغة التحمل عند الأزدي "حدثني" فلان عن فلان وهي صيغة مماثلة لصيغة

(١) انظر تاريخ أبي زرعة، ص ١٦٢، ابن حجر، التهذيب ٢/٢-٤، ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص ٢٩٤. الذهبي، شمس الدين، (ت ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء، دار الكتب العلمية، ١٣٤/٥.

(٢) ابن سعد الطبقات، ٣/٦٢٤-٦٢٥، ابن حجر، التهذيب ٤/٢٥٢-٢٥٣. أبي يوسف يعقوب بن سفيان البسوي (ت ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، رواية عبد الله بن جعفر بن درستوية النحوي، مؤسسة الرسالة، ط ١٤١٢هـ/ ١٩٨١، ٩٩/٢، ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص ٢٩٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٤/٢٩٣.

(٤) أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص ١٠٦.

الحمل عند الواقدي السابقة، أي أن مصادر الأزدي التي ينقل عنها كتابيه.

بقي أن نستعرض كتاباً هاماً في الفتوح، ألا وهو كتاب فتوح البلدان للبلاذري (أحمد ابن يحيى بن جابر المتوفى سنة ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، وهو إمام نسابة وراوي ثقة، ومحدث ثبت، وأديب متفطن، وشاعر مجيد، هكذا وصفه رضوان محمد رضوان الذي عني بكتابه فتوح البلدان وقدم له وعلق عليه^(١).

سمع البلاذري من عدد من الشيوخ الكبار مثل: أبي الحسن علي بن محمد المدائني (ت ٢١٥هـ/٨٣٠م)^(٢) وهشام بن عمار وأبي عبيد القاسم بن سلام ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ومصعب الزيري وغيرهم. وهشام بن عمار الدمشقي يكنى بأبي الوليد، راوية الوليد بن مسلم (ت ١٩٥هـ/٨١٠م)^(٣) ثقة صدوق أكثر، خرج له البخاري في صحيحه وأصحاب السنن، ولد سنة ١٥٣هـ وتوفي سنة ٢٥٤هـ^(٤).

والوليد بن مسلم الذي يروي عنه هشام بن عمار، هو أبو العباس الأموي (١٩٥هـ/٨١٠م) وكان من مشاهير محدثي الشام^(٥). كتب الوليد بالتاريخ ونبغ في حفظ المغازي، أخذها عن أستاذه الأزاعي، وقد قاسمه شهرته محدث معاصر له هو إسماعيل بن عياش (١٨٢هـ/٧٩٨م) وهما أعلم أهل الشام برواية الشاميين^(٦). روى عنه ابن عساكر حصار مدينة دمشق، وأخذ العلم عنه عدد كبير من كبار العلماء، منهم ابن أبي خيثمة، والإمام أحمد بن حنبل والمديني وعلي بن محمد الطنافسي، وقد تميز من بين تلاميذه الشاميين في الرواية التاريخية ابنه العباس بن الوليد^(٧).

(١) انظر تقديم الكتاب.

(٢) انظر أخباره في الفهرست للندم، ص ١٠٠-١٠٤، وله كتب في الفتوح وتاريخ الخلفاء.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ٤٧٣/٧.

(٤) أحمد عادل كمال، المرجع السابق، ص ١٠٦. وعن معركة عين الورد، أنظر الطبري ٥/٩٥٥.

(٥) ابن سعد، الطبقات ٤٧٣/٧. أحمد عادل كمال، المرجع السابق نفسه.

(٦) شاعر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٩م، ص ١/١٢٩. سيشار إليه عند وروده، شاعر مصطفى، التاريخ.

(٧) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٧/٨٤٤، وفي موسوعة علماء المسلمين، ق ١، ج ٣، وشاعر مصطفى المرجع السابق، ص ١٣٠.

أما الإمام الأوزاعي هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو (١٥٧هـ/٧٧٣م) إمام الشاميين في الحديث في عصره، وله مذهب مشهور في الفقه، انتشر في الأندلس، ولا يجارى في معرفته بالسير والمغازي والفتوح، وقال فيه ابن تيمية: "الأوزاعي كان أعلم بهذا الباب (السير) من غيره من علماء الأمصار"^(١).

وفي أخبار فتوح دمشق قال البلاذري: "قالوا: لما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج (مرج الصفر) أقاموا خمس عشرة ليلة ثم رجعوا إلى مدينة دمشق لأربع عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة أربع عشرة فآخذوا الغرطة وكنايسها عتوة، وتحصن أهل المدينة، وأغلقوا بابها فنزل خالد بن الوليد على الباب الشرقي في زهاء خمسة آلاف ضمهم إليه أبو عبيدة، وقوم يقولون: "إن خالداً كان أميراً وإنما أتاه عزله وهم محاصرون دمشق،.... (توزع الأمراء على الأبواب) ونزل أبو الدرداء عويمر بن عامر الخزرجي على مسلحة ببرزة، وكان الأسقف الذي أقام لخالد النزل في بدأته ربما وقف على السور فدعا له خالد فإذا أتى سلم عليه وحادثه، فقال له ذات يوم: يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ولي عليك عدة فصاخني عن هذه المدينة فدعا خالد بدواة وقرطاس فكتب (كتاب الأمان)"^(٢).

لم يذكر البلاذري في رواياته رجال السند الذين أخذ عنهم روايته، وإنما ذكر في بداية كتابه فتوح البلدان: "أخبرني جماعة من أهل العلم بالحديث والسير وفتوح البلدان - سقت حديثهم واختصرته ورددت من بعضه على بعض - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم..."^(٣) وهذه البداية تدل على أمور ثلاثة في نظر الأستاذ ناصر الدين الأسد^(٤):

الأول: أن رواته في كتاب الفتوح هم رجال الحديث، وأهل السيرة ورواة أخبار الفتوح المؤرخين. والثاني: أن البلاذري جمع حديثهم معاً، وساقه متداخلاً، فلم يشر عند كل خبر ومجموعة أخبار إلى سنده من الرواية أو الرواة إلا في حالات.

والثالث: أنه "اختصر" أحاديثهم فلم يوردها كاملة على ما وجدها في كتبهم أو سمعها من رواته.

(١) المراجع السابقة نفسها.

(٢) فتوح البلدان، ص ١٢٧-١٢٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧.

(٤) وقعة أجنادين، المرجع السابق، ص ٣٠١-٣٠٢.

وكما هو واضح في مقدمة البلاذري، فقد سمح لنفسه بالتصرف بالروايات فحذف منها ما لم يستسغه وجمع بعضها لبعض فيما يعتقد معزراً لحقيقة الخبر، وبهذا يكون البلاذري صاحب مدرسة جديدة في التأليف التاريخي، خلا كتابه من السرد القصصي المعهود والإطالة في سرد الأخبار، فجاء كتابه مختصراً.

ومع ذلك يذكر أحياناً بعض الرواة، فذكر خبر أبي مخنف في توزيع أمراء الجند على أبواب دمشق، وذكر رواية الهيثم بن عدي، "بلفظ زعم الهيثم بن عدي أن أهل دمشق صولحوا، على أنصاف منازلهم وكنائسهم" ويرد على هذه الرواية، برواية نقلها عن محمد بن سعد "قال أبو عبد الله الواقدي: قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس" وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه^(١).

ويلعل البلاذري سبب الوهم الذي وقع فيه ناقل الخبر بقوله: "ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون، وقد روي أن أبا عبيدة كان بالبواب الشرقي وأن خالداً كان بباب الجابية وهذا غلط"^(٢).

وهذه النصوص وغيرها تدل على سعة اطلاع البلاذري ودقة ملاحظته ونقده للأخبار. وعندما ينقل عن أبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م) يورد سنده: "حدثنا أبو مسهر عن يحيى بن حمزة بن أبي المهلب الصنعاني عن أبي الأشعث الصنعاني أو أبي عثمان الصنعاني أن أبا عبيدة...^(٣) وحدثني أبو عبيد قال: حدثنا هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عن أهل الشام، وبعض الرواة. ويلاحظ أن معظم رواته عن فتوح الشام هم شاميون (من أهل الشام كأبي حفص الدمشقي، الأوزاعي، هشام بن عمار والوليد بن مسلم وغيرهم. وهذا ينطبق على رواية أبي عبيد القاسم بن سلام الذي أخذ عنه البلاذري، وأبو مسهر هو عبد الأعلى بن مسهر الغساني (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) أحد كبار العلماء وشيوخ الشام في وقته،

(١) فتوح البلدان، ص ١٢٩.

(٢) المصدر نفسه، (لعله يذكر اسم صاحب الرواية في الحالات الخلافية ليؤكد الخبر أو ينفيه).

(٣) نفسه، ص ١٣٠.

(٤) نفسه، ص ١٣١.

روى له أصحاب الكتب الستة^(١). ويحيى بن حمزة من رواة الشام روى عنه الحكم بن موسى البزاز ويحيى بن صالح. وهو ثقة كثير الحديث صدوق، روى عنه ابن عساكر في تاريخه بالإضافة إلى البلاذري، توفي ١٨٣هـ/٧٧٩م^(٢).

ومن رواة البلاذري أبو عثمان شراحيل بن مرثد الصنعاني، أبو الأشعث، مخضرم شهد اليمامة وفتح دمشق، أدرك أبا بكر وجعله ابن حبان في الثقات، وقيل أنه صاحب الفتوح يروي المراسيل، روى عنه أهل الشام^(٣).

وواضح من الرواية الأخيرة للبلاذري أن مصدر معلوماته مستمد من كتاب للوليد ابن مسلم الذي أخذ خبره عن فتح دمشق من كتاب الأوزاعي، ورجال السند في روايات البلاذري عدول مشاهير شهد لهم بالصدق.

وبقي أن نذكر شيئاً عن آخر كتاب للفتوح، وهو كتاب أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/٩٢٦م) هذا الكتاب روى أخبار الفتوح متابعاً لأبي إسماعيل الأزدي، فقد طعم أخباره بالقصص ومزجها بالحوار، وهو لا يسند أخباره بسلسلة سند كما شهدنا عند الأزدي، فكان يكتفي بقوله في مطلع كل خبر أو مجموعة من الأخبار بلفظ "قال" دون أن يذكر لنا من هو القائل^(٤).

أما خبره عن فتح دمشق فجاء على الشكل التالي: "قال: فصر أهل دمشق على الحصار، وجعلوا ينتظرون المدد من عند هرقل، فلما أبطأ ذلك عليهم، وضاق بهم الأمر، واشتد عليهم الحصار، ورأوا أن المسلمين لا يزدادون إلا قوة وصرامة، وقد كانوا علموا أن خالد بن الوليد معزول، فأرسلوا إلى أبي عبيدة بن الجراح يسألونه الصلح فأجابهم أبو عبيدة إلى ذلك ووقع الصلح على مائة ألف دينار والجزية بعد ذلك على كل محتلم أربعة دنانير في كل

(١) ابن سعد، الطبقات ٤٧٣/٧، المعرفة والتاريخ ص ٢٨٦-٢٩٢، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، ق ٣-٧٥/١، تاريخ بغداد ٧٢-٧٢/١١، ابن حجر، التهذيب، ٩٨/٦-١٠١، تاريخ البخاري، ق ٣-٧٣/٢-٧٤، انظر تاريخ ابن زرة، ص ١٥٨، ح: ٥.

(٢) أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، ص ١٠٩.

(٣) تاريخ أبي زرة ص ٢٢/١ (كان مع أبي الدرداء في مسلحة برزة)، ابن حجر، التهذيب، ٣٢٠/٤، رقم (٥٤٩).

(٤) ناصر الدين الأسد، المرجع السابق، ص ٢٩٦. المرجع السابق، ص ٢٩٦..

سنة، وعلى نسائهم ديناران فرضي القوم... وفتحت أبواب دمشق، ودخلها المسلمون يوم الجمعة في رجب سنة أربع عشرة وثلاثة عشر شهراً مضت من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فنزل المسلمون دمشق آمين^(١).

بقي أن نشير إلى سيف بن عمر التميمي (١٨٠هـ/٧٩٦م)^(٢)، الذي روى له الطبري وآخرون روايات عن فتوح الشام، فقد أثبت لنا الطبري الرواية التالية حول تاريخ فتح دمشق فقال "كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن أبي عثمان عن خالد وعادة، قالاً: "لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الياقوصة، وفرغ من المقاسم والأنفال، وبعث بالأخماس وسرحت الوفود، استخلف أبو عبيدة على اليرموك، بشير بن كعب بن أبي الحميري كي لا يغتال برده، ولا تقطع الروم على مواده، وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصفير، وهو يريد اتباع الفال، ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخير بأنهم أرزوا إلى فحل، وأتاه الخبر أن المدد أتى إلى أهل دمشق من حمص، فهو لا يدري أيدمشق بيداً، أم بفحل من بلاد الأردن، فكتب في ذلك إلى عمر وانتظر الجواب، وأقام بالصفير، فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الأمراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر، إلا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، فإنه ضم خالداً إلى أبي عبيدة، وأمر عمرواً بمعونة الناس، حتى يصير الحرب إلى فلسطين، ثم يتولى حربها"^(٣).

"ولما جاء عمر الكتاب عن أبي عبيدة بالذي ينبغي أن يبدأ به كتب إليه: "أما بعد، فابدأوا بدمشق، فانهدوا لها، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم...، وقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض، وعلى الرجل شرحبيل، فقدموا على دمشق، وعليهم نسطاس بن نسطورس، فحاصروا أهل دمشق، ونزلوا حوالها... نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزخوف والترامي بالمجانيق، وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث... فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا تصل إليهم، فشلوا ووهنوا وأبلسوا... فعند

(١) ابن أعمش، كتاب الفتوح، دار الندوة الجديدة، بيروت، عن الطبعة الهندية، حيدر آباد، بمراجعة: الدكتور محمد عبد المعيد خان، د.ت. ج ١، ١٦٠-١٦١.

(٢) انظر ترجمته عند ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٢٩٥/٤ رقم (٥٠٦)، شاكر مصطفى، المرجع السابق، ١٨١-١٨٠/١.

(٣) تاريخ الطبري، ٤٣٦/٣.

ذلك انقطع رجاؤهم.. وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف، وفتحوا للمسلمين... ولما شد خالد على من يليه، وبلغ منهم الذي أراده عنوة أُرز من أقلت إلى أهل الأبواب التي تلي غيره، وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة. فأبوا وأبعدوا، فلم يفجأهم إلا وهم ييوحون لهم بالصلح، فأجابوهم وقبلوا منهم، وفتحوا لهم الأبواب، وقالوا: ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم، ودخل خالد مما يليه عنوة...^(١).

ويتبين لنا أن سلسلة السند عند سيف بن عمر التميمي تعتمد على أبي عثمان عن خالد ابن معدان أبي عمر عبادة بن نسي الكندي الشامي الأردني قاضي طبرية (ت ١١٨ هـ/٧٣٦ م) روى له الأربعة (٢).

وخالد بن معدان أبو عبد الله بن أبي كرب الكلاعي الحمصي، ثقة روى عن جماعة من الصحابة، وكان من فقهاء التابعين توفي ١٠٣ هـ^(٣).

وسيف بن عمر (ت ١٨٠ هـ على الأغلب ٨٩٦ م) هو مصنف "الفتوح الكبير" و"الردة" و"الجمال وسير عائشة" وهو من أبرز رواة الفتوح وأغزرهم مادة.

ورغم ضخامة المادة التاريخية التي نجدها له في المصادر التاريخية، فإن كتب التراجم لم تترجم له، إذ لم يذكره ابن سعد في طبقاته ولا ابن خياط، ولا ابن خلكان في وفياته، ولا الكتبي في الفوات ولا الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، ولا ياقوت الحموي في معجم الأدباء، ولم يرد اسمه في كتاب الثقات لابن حبان. لكن الأخير قال عنه "ضعيف في الحديث عمدة في التاريخ"^(٤) وضعفه عدد من العلماء مثل يحيى بن معين أبو داود وقال عنه أبو حاتم "متروك الحديث" وقال ابن حبان "اتهم بالزندقة" وقال ابن عدي "عامة حديثه منكر...".

(١) تاريخ الطبري ٣/٤٣٩-٤٤٠، تفيد الرواية أن المسلمين أجروا ناحية خالد مجرى الصلح، فصار صلحاً، وكان صلح دمشق على المقاسم، الدينار والعقار، ودينار عن كل رأس، فافتسموا الأسلاب....»، ص ٤٤٠. والرواية في أحداث سنة ١٣ هـ.

(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق شكري فيصل وروحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق، مجلد الأحرف، عبادة بن أوفى - عبد الله بن ثوب، ص ٤٠.

(٣) ابن حجر، التهذيب، ٣/١١٨، رقم (٢٢٢)، أحمد كمال، الطريق، ص ٩٩.

(٤) أحمد كمال، المرجع السابق، ص ٦٥.

وكان يضع الحديث^(١). واتهمه مرتضى العسكري بوضع الأساطير^(٢)، ولكن الإمام الطبري أخذ معظم مادته في الردة والفتوح عنه، كذلك فعل ابن عساكر في تاريخه، كذلك نجد أحمد كمال بعد دراساته القيمة عن فتوح العراق، يطمئن لروايات سيف ويمنحها الثقة^(٣).

ونحن نرى أن ليس من الإنصاف إطلاق أحكام قاطعة على روايات سيف وغيره، فلدينا مناهج دقيقة في البحث التاريخي تساعدنا في تمييز الغث من السمين، فنأخذ بعض الأخبار ونترك أخرى. وعليه وجدنا رواية سيف عن تاريخ فتح دمشق لا تخرج في سياقها عن روايات المؤرخين الآخرين.

نرجع إلى اليعقوبي - أحمد بن اسحق بن جعفر بن واضح (ت ٢٩٢هـ/ ٩٠٥) ينتمي إلى أسرة كانت تعمل في دواوين الدولة، وهذا ساعده على الاطلاع على الكثير من الوثائق كما سهل له الترحال، فأصبح يعد من الرحالة الجغرافيين، فقد اهتم بالجغرافيا إضافة إلى التاريخ وألف في الجغرافيا كتاب "البلدان" وهو أقدم كتاب وصلنا في هذا المجال، لذلك نجد تأثير الجغرافيا واضحاً في كتاب التاريخ الذي ألفه، وتاريخه يتصف بالشمول والعالية، وفيه تفاصيل لموضوعات لا توجد عند غيره ومصادره متنوعة بين أصحاب الاتجاهات الفكرية والأقاليم الجغرافية، ذكر مصادره في بداية كتابه، وأهمل الأسانيد، واعمل الفكر في المعلومات التي حصل عليها.

اتهم بالتشيع، رغم حرصه تظهر الميول العلوية عنده عندما يكون في خبره شخصيات علوية^(٤).

ذكر اليعقوبي أن دمشق "فتحت في خلافة عمر بن الخطاب سنة أربع عشرة، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح من باب لها يقال له باب "الجابية" صلحاً بعد حصار سنة. ودخل خالد بن الوليد من باب لها يقال له "الباب الشرقي" بغير صلح، فأجاز أبو عبيدة الصلح في جميعها^(٥).

(١) المرجع نفسه، ص ٦٦.

(٢) انظر كتاب العسكري، عبد الله ابن سبأ وأساطير أخرى. المرجع نفسه، ص ٦٦.

(٣) الطريق إلى دمشق، ص ٦٧٤، وانظر كتابه الآخر (الطريق إلى المدائن).

(٤) انظر ترجمته في مقدمة كتابه المعروف باسم: تاريخ اليعقوبي، قدم له وعلق عليه: محمد صادق بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف ١٩٦٤م، شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون ٢٥١/١-٢٥٣.

(٥) كتاب البلدان، ملحق بكتاب الأعلام النفيسة، طبعة ليدن ١٨٩١، ص ٣٢٥. وذكر في تاريخه ١٣٠/١.

أما خبره في كتاب التاريخ عن فتح دمشق "كان خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين فتحوا (مرج الصفر) من أرض دمشق، وحاصروا مدينة دمشق قبل وفاة أبي بكر بأربعة أيام، فستر أبو عبيدة الخبر عن خالد، حتى ورد كتاب ثان من عمر على أبي عبيدة يأمره أن يتوجه إلى حمص ونواحي الشام، فعلم بذلك خالد فقال: رحم الله أبا بكر لو كان حياً ما عزلني... وأقاموا على ما كانوا عليه من حصار دمشق حولاً كاملاً وأياماً، وكان أبو عبيدة بباب الجابية وخالد بباب الشرقي وعمر بن العاص بباب توما ويزيد بن أبي سفيان بباب الصغير..." (آخر الرواية التي تفيد أن أبا عبيدة دخل صلحاً وخالد دخل عنوة ثم أمضي الصلح على الجميع)^(١). في رجب سنة ١٤ هـ.

وأشار اليعقوبي إلى الرواية التي تقول بأن خالد بن الوليد صالحهم وكتب للأسقف كتاباً للصلح أعطاهم الأمان فأجاز أبو عبيدة ذلك^(٢). وبذلك يكون اليعقوبي قد نقل خبره عن ابن إسحاق والواقدي^(٣).

بقي أن نذكر ما جاء به ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م) وإن كان متأخراً، فهو مؤرخ دمشق المشهور، ومؤلف أكبر وأهم كتاب عن تاريخ دمشق.

جمع ابن عساكر روايات من تقدمه من المؤرخين أمثال: ابن اسحق، وابن الكلبي، وأبو عثمان الصنعاني والأوزاعي والعباس بن سهل بن سعد، وسيف بن عمر وأبو عبيد القاسم بن سلام، وعقبة بن عامر الجهني، وعبد الرحمن بن جبير ومكحول الدمشقي^(٤) وغيرهم.

يتابع ابن عساكر من سبقه فيجعل فتح دمشق في رجب من سنة ١٤ هـ^(٥)، وبناء على ما تقدم نجد اتفاقاً بين المؤرخين بأن تاريخ فتح مدينة دمشق كان سنة ١٤ هـ، قال ذلك ابن اسحق والواقدي وابن الكلبي وأبي عبيد القاسم بن سلام، والوليد بن مسلم وأدهم بن محرز

رواية الواقدي التي تفيد صلح أبي عبيدة لأسقفهم.

(١) تاريخ اليعقوبي، ١٢٩/٢.

(٢) نفس المصدر، ١٣٠/١.

(٣) انظر روايتهما فيما سبق.

(٤) ابن منظور، محمد بن مكرم، مختصر تاريخ دمشق، فضائل الشام وخطط دمشق، (٦٣٠ هـ-٧١١ هـ) تحقيق رواية النحاس، رياض عبد الحميد، محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، ط ١، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م، ص ٢٠٣-٢١١.

(٥) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، ٢٠٣/١-٢١١.

وعبد الله بن قرط والأوزاعي، والمدائني وغيرهم ممن ورد اسمهم في إسناد الروايات التي حكى أخبار الفتوح الأولى لبلاد الشام.

يعزز قناعتنا بأن أفيتشيوس (سعيد بن البطريق ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) يروي تفاصيل حصار دمشق كما ورد في بعض المصادر العربية إلا في بعض التفاصيل، وخبره يفيد أن الفتح حصل سنة ١٤هـ^(١).

أما أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، من علماء القرن التاسع (ولد سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م) صاحب كتاب نزهة الأنام في محاسن الشام^(٢). فيأخذ عن ابن عساكر، ويقول بأن خالد بن الوليد دخل من الباب الشرقي عنوة وأبي عبيدة دخل صلحاً، ثم أمضى أبو عبيدة الصلح مناصفة، فجعلوا نصف البلد صلحاً ونصفه عنوة فأخذ المسلمون نصف الكنيسة الشرقي فجعله أبو عبيدة رضي الله عنه مسجداً، وكانت قد صارت إليه إمارة الشام، وبقي الأمر كذلك حتى خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ضم نصف الكنيسة إلى المسجد^(٣).

كذلك أخذ أحمد غسان سبانو بعدما درس ما ورد عن فتح دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، بالرواية التي تقول بفتح دمشق عام ١٤هـ/٦٣٥م^(٤).

والروايات اختلفت باسم الشهر واليوم الذي فتحت فيه دمشق، فابن اسحق والكلبي والواقدي والأوزاعي واليعقوبي وابن أعثم جعلوها في شهر رجب، وفي رواية للبلاذري جعلها في شهر محرم وفي رواية للأزدي جعلها سنة ١٤هـ لثلاثة عشر شهراً من إمارة عمر^(٥).

وفيما يلي جدول توضيحي لما ورد في الروايات التاريخية الرئيسة للفتوحات الأولى

(١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، يليه تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٩م، ص ١٣-١٧. قال: إن الذي أمضى الصلح خالد بن الوليد، وأن أبا عبيدة دخل من باب الجابية عنوة.

(٢) نزهة الأنام، المكتبة العربية - بغداد، المطبعة السلفية، بمصر ١٣٤١هـ ص ٢٨-٣٣.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) انظر كتاب دمشق في دوائر المعارف العربية والعالمية، دار الكتاب العربي، سورية، ص ٩٤.

(٥) ناقشت المذكورة أمينة البيطار الروايات التي تناولت تاريخ فتح دمشق مناقشة جيدة، مبنية على الروايات التي قالت بفتحها قبل الرموك والتي قالت أنها بعد الرموك. انظر مقالاتها «ملابسات فتح دمشق في روايات المؤرخين العرب، المؤرخ العربي، ع ١٥ (١٩٨٠)، ص ٢٣-٣٩.

لبلاد الشام (المواقع الرئيسية: بصرى، أجنادين، فحل، دمشق، حمص، اليرموك) والجدول يساعد في ترتيب تاريخي لتواريخ هذه الوقعات.

جدول توضيحي لوقائع الفتوحات الإسلامية الأولى في بلاد الشام

الوقعة	تاريخها	رواتها	المصدر	ملاحظات
بصرى	١٣هـ	ابن إسحق	الطبري ٤١٧/٣	
		المدائني	الطبري ٤١٨/٣	
		الواقدي	الطبري ٤١٨/٣	
		قيس بن أبي حازم	الأزدي ١٦٥	
مرج الصفري	١٣هـ	عمرو بن محسن	الأزدي ١٨٢	بين أجنادين ومرج
	١٤هـ	الواقدي	البلاذري ١٢٥	الصفري عشرون يوماً
أجنادين	١٤هـ	ابن اسحق	ابن خياط ٧٨/١	
		اليقوي	اليقوي ١٢٤/٢	
		الأزدي	الأزدي ١٧٧-١٦٩	
		الواقدي	الواقدي، فتوح ٦٠/١	
فحل	١٣هـ	ابن اسحق	الطبري ٤٣٤/٣	جعلها بعد أجنادين مباشرة
	١٣هـ	سيف بن عمر	الطبري ٤٤٢/٣	جعلها بعد فتح دمشق
	١٤هـ	ابن الكلبي	ابن خياط ٩٥/١	بعد فتح دمشق
	١٣هـ	الواقدي	البلاذري ١٢٢	بعد مرج الصفري مباشرة
دمشق				.
اليرموك				

إن نظرة سريعة إلى الجدول تبين أن فتح بصرى كان سنة ١٣هـ و كذلك وقعة أجنادين و فحل، باستثناء ابن الكلبي الذي جعلها بعد فتح دمشق سنة ١٤هـ كذلك يوجد شبه اتفاق على تاريخ فتح دمشق سنة ١٤هـ وفي تحديد تاريخ معركة اليرموك خلاف ما بين سنة ١٣هـ و ١٥هـ.

ومما يجدر ذكره أن الروايات أفادت بأن خالد بن الوليد بعد قدومه من العراق عسكر في الغوطة واحتل بعض كنائسها وحاصر أبوابها وكتب إلى أبي عبيدة ليوافيه حول دمشق^(١).

غير أن الأخبار تواردت إلى خالد وأبي عبيدة بتجمع الروم في أجنادين وأظهر قادة الجيش الإسلامي من خلال مشاوراتهم، خطورة الحشد الرومي فقرروا التجمع في أجنادين لمواجهة القوات الرومية^(٢). وبعد الانتصار في أجنادين تابعوا فلول القوات الرومية في فحل كل ذلك عام ١٣هـ.

بعد فحل زحفت القوات الإسلامية وحاصرت دمشق سنة ١٤هـ حتى فتحها، وانطلق المسلمون في فتوحاتهم حتى حمص^(٣).

شعر هرقل بخطورة الهجمات العربية، فقرر استدعاء ما لديه من قوات من كافة أرجاء الإمبراطورية، وتكون لديه جيش جرار، يمثل أقصى ما لدى الرومان من قوة.

علم القادة العرب بالحشد الرومي فقرروا تجميع قواتهم في مكان آمن غير منقطع الاتصال مع المدينة، وفي نفس الوقت تحميه الصحراء إذا ما تعرضت القوات لأخطار التفوق الرومي^(٤).

وهكذا حصلت معركة اليرموك بعد فتح دمشق، لأن المسلمين عندما قرروا الانسحاب إلى اليرموك وأعادوا الأموال التي أخذوها من المدين التي صالحتهم بما في ذلك حمص ودمشق، باعتبار شرط الأمان الذي أعطاه المسلمون لأهالي المدن المفتوحة، قد انتفى برحيل المسلمين عنهم.

لذلك يكون تاريخ معركة اليرموك (كما تواردت الروايات) الأنسب هو شهر رجب من عام ١٥هـ. كما أخبر ابن اسحق وأبي حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز، وكذلك رواية ابن الكلبي والواقدي^(٥).

(١) ابن أعثم، ١/١٤٥، (انطلق خالد و أبو عبيدة من الغوطة إلى أجنادين) وابن خياط ١/٨٧

(٢) الأزدي، فتوح الشام، ص ١٦٩-١٧١.

(٣) ابن أعثم، ١/١٨٩-١٩٥.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧٩-١٨٢.

(٥) البلاذري، ١٤٠-١٤٣، (ردوا لأهل حمص ما أخذوه منهم).

أما الذين أرخو لفتح دمشق لعام ١٣هـ فقد توهموا الحصار الأول آخر خلافة أبي بكر فتحاً، ونسوا أن المسلمين فكوا حصارهم وذهبوا إلى أجنادين، ثم عاودوا حصار دمشق وفتحها وفق الروايات المشهورة، وإعطاء أهلها كتاب الأمان والصلح، ولما انسحبوا من حمص ودمشق إلى اليرموك عادت دمشق في حل من شروط الصلح والأمان. وبعد انتصار المسلمين في اليرموك أعادوا فتح دمشق على شروط الصلح السابقة^(١). وبناء عليه يكون ترتيب الوقائع على الشكل التالي:

بصرى - غوطة دمشق - أجنادين - فحل - فتح دمشق - حمص - اليرموك - دمشق للمرة الثانية.

إن هذا الترتيب جاء نتيجة متابعة للروايات وفهم لجغرافية المنطقة (مسرح العمليات العسكرية) بالإضافة لعامل المنطق في ترتيب الأحداث، إذ من غير المعقول أن يخطط الجيش لمعركة وخطوطه الخلفية مهددة، وخطوط اتصاله بالمركز مقطوعة.

هذا مبلغ اجتهادي والله ولي التوفيق

(١) انظر جدول الروايات السابق، وأبن منظور، مختصر ابن عساكر، ١/٢١٢.

الحملة الإفريقية على إنطاكية، والدروس المستفادة

المقدمة:

يهدف هذا البحث إلى إبراز واحد من الدروس التاريخية الهامة في التاريخ العربي الإسلامي، كنموذج للدروس البليغة التي مرت في تاريخنا، وعلى الرغم من بلاغتها، لم يتعظ بها أولي الأمر، وربما لم يحسن قرائتها احد، وتكرر الأحداث المشابهة وكأن شيئاً لم يكن، وهذا النموذج الذي يتناوله البحث هو الحملة الفرنجية على إنطاكية سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م، كحلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب.

اعتاد المؤرخون أن يبدأوا الحديث عن الحروب الصليبية، بالإشارة إلى أحوال منطقة الشرق الأوسط في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، غير أن هذا المدخل لا يمثل بداية الصراع بين الشرق والغرب، إذ من فك هذا الصراع محتدا منذ قيام الإمبراطوريات الأولى التي قامت حول البحر الأبيض المتوسط، ومن أقدم هذه الصراعات ما حدث بين الإمبراطورية الفينيقية العربية ممثلة بقرطاج وبين روما التي كانت تمثل إمبراطورية أوروبية ناشئة، وذلك قبل أواخر الألف الثالث قبل الميلاد.

من المعروف أن الفينيقيين انطلقوا من عاصمتهم صور اللبنانية حالياً، وبسطوا نفوذهم غرباً على امتداد سواحل البحر الأبيض المتوسط سلمياً، واستطاع الفينيقيون أن يقيموا لهم مراكز في سواحل أفريقيا الشمالية، وسواحل أوروبا الجنوبية، كمدينة قرطاج التي لا تزال خرائبها قائمة قرب مدينة تونس حتى الآن.

يطيب للبعض أن يعتبر قرطاج وريثة أمها صور في العظمة والغني والطموح، فقد ذكر أنهم بلغوا في تجوالهم رأس الرجاء الصالح وسيراليون جنوباً، ووصلوا إلى إسبانيا وفرنسا وإنجلترا شمالاً، وفي قول دعم بالآثار، إنهم وصلوا إلى القارة الأميركية قبل كولومبس بآلاف السنين^(١).

(١) فيصل الحربي، قرطاج كيف ضاع التاريخ البشري، مجلة العصور الحديثة، العدد التاسع، مايو ٢٠٠٠، (١٤٢-١٥٤) ص ١٤٤، وانظر المراجع المتعلقة بقرطاج في جريدة المصادر.

لقد كان القرطاجيون من سادة التجارة العالمية، كما كانوا روادا في النظم الإدارية والاقتصادية، كما كانوا يدركون أهمية السلام في نجاح مشاريعهم، لذلك بادروا إلى عقد اتفاقيات سلام وعدم اعتداء مع الممالك المجاورة ومنها روما.

بعد أن شبت روما عن الطوق، أخذت تسعى إلى التوسع والهيمنة على البحر المتوسط، ولهذا اصطدمت مع قرطاج في حروب طويلة ومريرة، عرفت في التاريخ (بالحروب البونية) كان شعار قادة روما فيها: «يجب أن تدمر قرطاج»، انتهت هذه الحروب بتدمير قرطاج وإزالتها من الوجود بطريقة مفعمة بالحق إلى أقصى حد، قال «بيار هوباك» عن مصرع^(١) قرطاجة: «أنها الجريمة غاشمة سببت ضياع ألفي سنة من تاريخ الإنسانية»^(٢) وقال لويدي في كتابه «دمروا قرطاجة»: ماتت عبقرية بموت مدينة قرطاج التي انبثقت منها تلك العبقرية، فالدولة التي كانت يوما ما، علة التقدم التجاري للعالم الغربي بشكل لا يبارى، وقد حصلت لها الطامة الكبرى قبل انفجار أول قنبلة ذرية بحوالي ٢٠٩٥ سنة»^(٣).

بعد نكبة العرب بقرطاج، تتالت النكبات التي حلت بمراكز الحضارة الإنسانية، وحرمت هذه النكبات الأجيال من بعدها، من التمتع بإبداعات العرب في مجال الفكر والعلم والعمل، فمن نكبة قرطاج إلى نكبة بغداد (٦٥٦/١٢٥٨م) على يد التتار، إلى نكبة قرطاج وغيرها من المدن الأندلسية الزاهرة بالحضارة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، امتدادا إلى حال العرب في الوقت الراهن. ومما يجدر ذكره أن في هذه الصراعات بل النكبات كثيرا من الدروس التي لم يستفد منها أهلها، ورغم توالي النكبات على بلاد العرب، فلا يزال العرب يصمون أذانهم دون سماع درس من هذه الدروس.

وقد اخترت نكبة إنطاكية (٩١١/١٠٩٧) كنموذج لهذه النكبات التي لم يستفد العرب من دروسها شيئا.

(١) فيصل الحربي، قرطاج كيف ضاع التاريخ البشري، مجلة العصور الحديثة، العدد التاسع، مايو ٢٠٠٠، (١٤٢-١٥٤) ص ١٤٤، وانظر المراجع المتعلقة بقرطاج في جريدة المصادر.

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٣.

(٣) المرجع نفسه، هذا التاريخ إلى زمن آن لويدي، وحتى الآن فقد مضى على تدمير قرطاج ٢١٥١ سنة.

لماذا هذا الاختيار؟

فقد رأيت أن أصلح غودج يصور إشكالية الحالة التاريخية المتكررة في التاريخ العربي، هي حالة إنطاكية في مواجهة الغزو الفرنجي، وحالة العرب والمسلمين تجاه هذا الغزو، حيث تغلبت الأنانية وحب السلطان على الوطن والعقيدة، وبالتالي فإن هذا الحدث التاريخي غني بدروسه، وجاء اختيار إنطاكية لتوسطها في الزمان والمكان، فأحداثها جاءت لتتوسط أحداث التاريخ العربي، فقد سبقت أحداثها أحداث مماثلة، كما تلت حوادثها أحداث مماثلة كذلك، منذ نكبة قرطاج ١٤٦ ق.م، وحتى سقوط بغداد ٢٠٠٣ م.

ولعل أهمية إنطاكية الإستراتيجية بالإضافة إلى أهميتها الدينية في المسيحية، إحدى أسباب هذا الاختيار.

أهمية إنطاكية:

احتلت إنطاكية مكانة هامة في الخطط العسكرية الأولى لغزو الفرنجة، وعول قادة الغزو على سقوطها نتائج عظيمة وكبيرة، ومع أن الفرنجة استولوا أولاً على نيقية من بلاد الإسلام، إلا أن هذا الاستيلاء لم يعتبر ذا بال مقارنة بالاستيلاء على إنطاكية.

ونظراً لهذه الأهمية لإنطاكية فقد كان تأثير سقوطها مؤلماً وواسعاً في الأوساط الإسلامية سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي، ويكفي أنه كان مدعاة لتشكيل أول تحالف للممالك والإمارات الإسلامية لرد العدوان الفرنجي وتخليص إنطاكية من الاحتلال.

وفي العالم المسيحي تبوأَت إنطاكية المرتبة الثالثة، إن لم تكن الثانية بعد روما ذاتها، وهي في نظرهم تقع على رأس الجميع، ولها الصدارة على كل منطقة الشرق، وكانت تدعى في القديم «ريبلاتا»^(١).

«وقد أنزلت الكراسي الرئيسية في المسيحية منذ أيام الرسل الأولى في العواصم الثلاث لعالم البحر المتوسط: روما والإسكندرية وإنطاكية... ولأن القسطنطينية هي روما الجديدة، أسندت الأسقفية لأسقف روما القديم، بيد أن بطرقي الإسكندرية وإنطاكية ومن بعدهما

(١) وليم الصوري، الحروب الصليبية، ج ١، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١، ص ٢٧١.

زميلهما بطريق بيت المقدس، الذي أنشئ منصبه فيما بعد، كانوا يتلونه في المرتبة»^(١).

تعزو الروايات التاريخية بناء هذه المدينة إلى أحد خلفاء الإسكندر المقدوني المدعو «انطيوخس أو انتيوكس» في المصادر اللاتينية «وانطيغونيا» في المصادر الإسلامية^(٢). وكما هو واضح فإن اسم المدينة نسب إلى مؤسسها الأول انطيخوس.

وقد اعتبر المسلمون هذه المدينة قسبة العواصم من الثغور الشامية، وقيل أنها من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء، وكثرة الفواكه وسعة الخير^(٣). وهكذا فإنطاكية محط اهتمام كلا الطرفين المسيحي والإسلامي.

ومما يجدر ذكره أن العرب فتحوا هذه المدينة سنة ١٥هـ، في أعقاب معركة اليرموك ١٥هـ/٦٣٦ م وتحرير سورية من النفوذ الروماني. بقيت المدينة تحت الإدارة الإسلامية المباشرة حتى عام ٣٥٥هـ/٩٦٥ م ثم تناوب المسلمون والروم السيطرة على إدارتها، وفي العهد السلجوقي كانت هذه الإدارة تتبع حاكم حلب^(٤). ولعل من أسباب عظمة إنطاكية في أعين المسيحيين، وجود كنيسة ذائعة الصيت، بنيت تمجيدا للذكرى بطرس الرسول، الذي أصبح أسقفا فيها بعد أن استلم من السيد المسيح صدارة الكنيسة، ومفاتيح مملكة السماوات^(٥). ويبدو أن موقع المدينة الإستراتيجي وتحصيناتها المتينة، جعل كلا الطرفين المسيحي والإسلامي، ينظران إليها كصمام أمان، يقي كل طرف عدوان الطرف الآخر.

تصف المصادر المعاصرة للحملة الفرنجية على إنطاكية أن المدينة كانت من أقوى مدن ذلك العصر تحصينا، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية، وأنه لا يمكن أن يأخذها عدو من الخارج، إذا ما توافرت فيها الإمدادات والغذاء، وإذا ما

(١) استيفان رنسيما، الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، ص ١٢٤-١٢٥.

(٢) انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان "إنطاكية" دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١، ص ٢٦٦.

(٣) المرجع السابق.

(٤) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم (٥٥٥-٦٣٠هـ) التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد الطليعات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٦.

(٥) فوشية الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة د. زياد العسلي، ط ١، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، ١٩٩٠م، ص ٥٣.

عقد سكانها العزم على الدفاع عنها^(١).

كان غالبية سكان إنطاكية غداة الحملة الصليبية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، من السريان والأرمن، وكان للمدينة حامية تركية غير أن السكان كانوا موزعين بين مختلف الكنائس المسيحية^(٢).

الشام في ظل السلاجقة:

كان ملكشاه السلجوقي قد وزع امبراطوريته بين أولاد أخيه وأتباعه اعتقاداً منه أنهم كلما تذكروا مآثره عليهم اشتد ارتباطهم به، فكانت نيقة وما جاورها من ولايات من نصيب قلع أرسلان، وكان في نزاع دائم مع الإمبراطورية البيزنطية، وجعل دمشق وما حولها لابن أخيه دقاق، وكان في نزاع دائم مع الدولة الفاطمية في مصر، أما التابع الآخر، فهو آق سنقر، وهو والد عماد الدين زنكي، وأغدق ملكشاه فيض كرمه على ياغي سيان فجعل إنطاكية من نصيبه^(٣).

ملكشاه هذا هو أعظم سلاطين السلاجقة، وهو ابن السلطان ألب أرسلان بطل معركة ملاذكرت ٤٦٣هـ/١٠٧١م ضد الروم (البيزنطيون)، والتي كان من نتائجها استنجد الإمبراطور البيزنطي بالبابا وأوروبا لدرء الخطر السلجوقي الإسلامي عن بيزنطة وأوروبا^(٤).

(١) انظر الشار تري، المرجع السابق، وياقوت الحموي، المرجع السابق، مؤلف مجهول (Gesta) أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وعلق عليه: د. حسن حبشي، دار الفكر العربي، ص ٤٩. وانظر د. سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٦م، ص ١٤٣.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر - بيروت، ١٠م، حوادث (٤٩١هـ) وانظر عاشور، المرجع السابق ص ١٤٤، وانظر كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، ١٩٩٥م، ص ١٠٠.

(٣) الرواندي، محمد بن علي بن سليمان، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية نقلة إلى العربية: د. إبراهيم أمين الشواربي، وعبد النعيم محمد حسنين، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص ٢٠٣-٢٠٦. وليم الصوري، المرجع السابق، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) انظر ابن الأثير، الكامل ١٠/٦٥-٦٩. وعماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الشيخ الإمام الفتاح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١٤٠٣هـ/١٩٨٠م، ص ٤٠-٤٤.

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين هم: بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود، وكان محمود عند وفاة والده طفلاً، وبتدبير من والدته ترکان خاتون زوجة ملكشاه بويع محمود بالسلطنة في بغداد، بينما كان بركياروق أكبر أولاد ملكشاه في أصفهان، وسيرت ترکان خاتون قوة للتخلص من بركياروق، إلا أن مساعيها لم تغلق، وبويع بركياروق بالسلطنة^(١).

وكان كربوقا (الذي يظهر اسمه لأول مره) قائد حملة ترکان خاتون إلى أصفهان، ومنذ هذه الحادثة اخذ اسمه يتردد في الحوادث والصراعات بين أبناء ملكشاه، منتقلاً من ولاء سيد إلى ولاء سيد آخر، ولعله كان يتمتع بمزايا عسكرية وسياسية جعلت المتنافسين يسعون إلى كسبه كل إلى صفه.

كان آخر حكام إنطاكية من قبل الإمبراطورية البيزنطية: فيلاريتوس الارمني حتى انتزعها منه، زعيم سلاجقة الروم سليمان بن قلمش في فبراير سنة ١٠٨٥م، وعندما تغلب تتش أخو السلطان ملكشاه على سليمان هذا، سنة ١٠٨٦م، صارت إنطاكية من أملاك تتش، حتى اختار أخوه ملكشاه أن يأخذها منه ويعطيها لأحد رجاله من التركمان، وهو ياغي سيان سنة ١٠٨٧م، على أن يكون تابعاً لرضوان بن تتش ملك حلب، ولكن الحروب والخلافات التي حصلت بين رضوان ملك حلب وأخيه دقاق ملك دمشق، جعلت ياغي سيان يقف إلى جانب دقاق، ومع ذلك لم ينجح في التغلب على رضوان ملك حلب^(٢).

ويمكن وصف حالة الدولة السلجوقية غداة خروج الصليبيين من أراضي الدولة البيزنطية نحو إنطاكية، بأنها حالة صراع على العرش وحروب بين الأخوة والأتباع من أبناء السلطان ملكشاه، فالكل طامع بالكل وتكاد الثقة تنعدم حتى بين الحلفاء من حكام الدولة السلجوقية، يضاف إلى ذلك العلاقات الحربية مع الدولة الفاطمية في مصر، ولا شك أن الانشقاقات بين حاكم إنطاكية، وبين رضوان الحلبي، وبين سلاجقة سوريا، أضعفت كثيراً جهود المسلمين في مواجهة الغزو الفرنجي.

(١) ابن الأثير، الكامل، ١٠/٢٢٤-٢٣٢.

(٢) انظر ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جراحة، ت ٦٦٠هـ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له: د. سهيل زكار، ج ١، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ٣٤٤-٢٤٥. وانظر عاشور المرجع السابق، ص ١٩٠.

الحملة الفرنجية والصراع على إنطاكية:

أما الجبهة الفرنجية (الصليبية) فكانت تتكون من أخلاط شتى من سكان أوروبا الغربية، وكانت هذه الأخلاط متباينة الأهداف، فمن رغبة في النهب والسلب وجمع المال، إلى دوافع دينية، أو انقياد للسادة الأمراء والملوك، وكان قادتهم الكبار لا يختلفون عن العامة في الأهداف، وتثور بينهم أحياناً رياح الحسد والتنافس على الرياسة، ومع ذلك دلت أعمالهم على قدر كبير من الحنكة والشجاعة، ومما زاد في أعباء قادة الحملة الفرنجية ريبة الإمبراطور البيزنطي بهم وبأطماعهم، مما جعله يتعامل معهم بحيلة وحذر، وأخذ عليهم ميثاقاً، بأن يسلموه كل مدينة أو بلدة يستولون عليها من المسلمين.

وقد برز في هذه الحملة التي اجتاحت شمال سورية المتاخمة للدولة البيزنطية، قادة على قدر من الدهاء من أمثال: تانكرد، وريمون الصنجيلي، وبلدوين، وبوهيمند، وجودفري، وفلاندرز وغيرهم.

وتعتبر الحملة الفرنجية الأولى عمل فرنسي بالدرجة الأولى وإن خالطت الفرنسيين عناصر أخرى. كان لكل قائد من هؤلاء فرسانه ومقاتلوه الذين خرجوا من بلاده، وهم في كل الأحوال أتباعه ويأثمرون بأمره.

في هذا التشكيل أطبق الفرنجة على مدينة إنطاكية، بعد أن أحرزوا نجاحات في الاستيلاء على المدن والمواقع الحدودية، مثل نيقية، وحصون الدروب، والبارة، وفامية وكفر طاب ونواحيها^(١).

كان كل قائد من القادة الذين ذكرناهم يطمح أن تكون إنطاكية من نصيبه، فكان بوهيمند قد ورث كراهية بيزنطة من والده، وأخذ يدبر أمر الفكك من التبعية للإمبراطور البيزنطي ويحيك المؤامرات ليجد الوسائل التي تسوغ له حكم إنطاكية وعدم تسليمها للإمبراطور البيزنطي، باتفاق قادة الحملة الصليبية.

(١) جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ٧١٣-٨٧٤هـ. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٥، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت، ص ١٤٦، وانظر وليم الصوري، مرجع سابق، ١٩٣/١ وما بعدها.

لم يكن حصار الفرنجة لإنطاكية أمراً سهلاً، وإنما كان مغامرة ومجازفة محفوفة بالمخاطر، بسبب حصانة المدينة وطبيعة البلاد المحيطة بها.

يصف لنا مؤلف كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، حال الفرنجة خلال الحصار بقوله: «وأصبحنا لا نكاد نجروء على مغادرة المعسكر، وعدنا لا نجد في منطقة المسيحيين شيئاً مما يمكن أن نتبلغ به، زد على ذلك، أنه لم يجسر أحد على اقتحام أرض المسلمين، إن لم يكن في النفر العديد والحشد الكثيف...»^(١).

ولعل هذا الحال الذي سبق وصفه ناتج عن الهجمات المفاجئة التي كان يتعرض لها جنود الفرنجة من الحاميات التركية من داخل أنطاكية ومن خارجها التي تستعمل أسلوب الكر والفر مستفيدة من معرفتها بطبيعة المنطقة^(٢).

كان القادة الفرنجة في حالة تنافس وبخاصة بين بلدوين الفرنسي وبوهيمند الترانتي والنورماندي^(٣) الذي كان يتباطأ في الاستيلاء على إنطاكية، حتى يستكمل خيوط التآمر والخداع لتكون أنطاكية من نصيبه إذا ما تم الاستيلاء عليها.

إن هذا الوضع الناتج عن نفاذ قوت المحاصرين، وصمود المدينة، وقوة أبراجها، واستيصال حامياتها، بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي أشرنا إلى بعضها، جعلت الفوضى والمجاعة تدب في أوساط القوات الفرنجية، مما جعل الجند يفرون من المواجهات، لم تقتصر هذه الظاهرة على الجند المغمورين، بل إن بطرس الناسك نفسه ووليم النجار أمير ميلون، اختفيا فجأة، فجد القائد تنكرد في أثرهما حتى قبض عليهما وأعادهما إلى بوهيمند الذي وبخهما لفرارهما، وأخذ عليهما عهداً بعدم ترك الجيش الصليبي حتى يتم الاستيلاء على بيت المقدس^(٤).

وهنا قد يتساءل الرجل العاقل: (أي الحالين كانت أحسن من غيرها، وأيهما كانت مبعث

(١) ترجم الكتاب وقدم له وعلق عليه: الدكتور حسن حبشي، دار الفكر العربي ويعرف هذا الكتاب بـ: (Gesta)، ص ٥٤-٥٥.

(٢) انظر التفاصيل عند وليم الصوري، المرجع السابق ٢٨٤/١ وما بعدها.

(٣) انظر كلود كاهن، المرجع السابق، ص ٩٣-٩٤. والتراتني، نسبة إلى تورنتو، وكان معظم جنده من النورمانديين.

(٤) الجستا، مرجع سابق، ص ٥٥. د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ج ١، ص ١٩٥.

فرح: حالة الجيش المحاصر أم أولئك الذين كان المفروض فيهم أن يكونوا محاصرين؟^(١). وإذا كان الحال هكذا، فكيف عجز السلاجقة عن القضاء على هذه الحملة، ثم كيف انقلبت الأحوال وتمكن الفرنجة من احتلال أنطاكية؟!

إن في ما حدث لأنطاكية يفسر لنا كثيراً من حالات الفشل التي واجهت العالم الإسلامي حتى يومنا هذا، وكأن درس أنطاكية لم يقرأه أحد!!.. تقيد المصادر العربية أن ياغي سيان أخرج النصارى من أنطاكية عندما حاصره جيوش الفرنجة، فانضم هؤلاء إلى معسكر الأعداء^(٢)، وذكرت مصادر عربية أيضاً أن الأفضل بن بدر الجمالي حاكم مصر الفاطمي، استغل الهجوم الفرنجي على بلاد الشام، واحتل بيت المقدس وأرسل سفارة إلى قادة الحملة الفرنجية أثناء حصارهم لأنطاكية بقصد التعاون معهم ضد السلاجقة، وتقاسم المغانم^(٣)، وأشار بعض هذه المصادر إلى حدوث عصيان بعض رعايا ياغي سيان عند قدوم الفرنجة نحو أنطاكية وطلبوا المدد من الفرنجة، وذكرت أن «هذا كله لقبح سيرة ياغي سيان وظلمه في بلاده»^(٤). تضيف بعض الروايات أن تباطؤ النجدة التي قادها كربوقا أمير الموصل والمكونة من ملوك وأمراء بلاد الشام، وانشغال هؤلاء بمحاصرة الرها التي استولت عليها القوات الفرنجية، خارج أنطاكية، منح الفرصة المناسبة لقادة الحملة الفرنجية لإصلاح أحوالهم، واتخاذ الاستعدادات اللازمة، مما مكّنهم من الاستيلاء على أنطاكية^(٥).

وإذا ما جمعنا هذه الأسباب إلى بعضها، نجدها تقدم الصورة العربية لأسباب سقوط أنطاكية بيد الفرنجة، وأبرزها أن الشعوب الشرقية كان يجمع بينها على الرغم من تنوعها الشديد، عدم تمكنها من إدراك الجدة في الحملة الفرنجية.

(١) ولیم الصوري، المرجع السابق، ٢٩١/١.

(٢) انظر ابن الأثير، الكامل، ٢٧٤/١٠، وسبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزواغلي ٥٨١-٦٥٤هـ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج ١، تحقيق ودراسة د. مسفر بن سالم بن عريج الغامدي، مركز إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٢٧٩.

(٣) ولیم الصوري، الحروب الصليبية ٢٠٤/١، وانظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ١٩٨، وانظر رسالة العباس وزير الخليفة الفاطمي إلى الفرنجة (البيانة)، عند كلود كاهن، المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٤) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٥) انظر سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ص ٢٠٣.

أما المصادر اللاتينية فلها وجهة نظر مختلفة عن أسباب سقوط إنطاكية بأيدي الفرنجة، فتقول هذه المصادر أن: «الأرمن والسرمان الذين كانوا بداخل المدينة أسرعوا بالخروج والهروب منها تاركين خلفهم نساءهم وأولادهم بالمدينة، فاستفسروا منا عن هدفنا وأمدونا بمعلومات عن كافة أسرار المدينة»^(١).

تتفق المصادر العربية واللاتينية على أن من أهم أسباب سقوط إنطاكية بيد الفرنجة إنما تعود إلى أحد حماة أحد أبراج المدينة ويدعى «فيروز» أو «الزرد»، الذي اتفق مع بوهيمند الذي آلت إليه قيادة الحصار على المدينة، على أن يسلم المدينة إلى بوهيمند فقط، وأبقى بوهيمند علاقته مع فيروز سرية حتى تمكن من أخذ ميثاق من قادة الفرنجة على أن تكون إنطاكية من نصيب من تتفتح على يده، وهكذا رتب أموره مع فيروز، وفي الوقت المحدد، سمح بدخول جند الفرنجة من قبله، مما سمح باحتلال المدينة مع ذلك بقيت القلعة الرئيسية حيث يوجد ياغي سيان بيد الحامية التركية»^(٢).

لقد استمر حصار الصليبيين لإنطاكية من ٢١ أكتوبر سنة ١٠٩٧ حتى ٣ يونيو ١٠٩٨، أي حوالي سبعة أشهر في بعض الروايات وفي روايات أخرى تزيد مدة الحصار أو تنقص قليلاً^(٣).

ارتكب الصليبيون في إنطاكية أعمالاً وحشية ضد المسلمين، وصفها الشارترى المرافق للحملة والمشارك فيها بقوله: «... دب رعب هائل في نفوس الأتراك، ورأوا

(١) سعيد عاشور (نقلاً عن Gullaume de Tyre, vol.1, p.174-175) ولم أعر على هذا النص في النسخة المترجمة إلى العربية والمستخدم في هذا البحث.

(٢) ابن الأثير، الكامل ١٠/٣٧٤، ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ٤٧٠-٥٥٥هـ/١٠٧٧-١١٦٠م، تاريخ دمشق، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢٢٠، ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن (٨١٢-٨٧٤هـ)، ج ٥، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ص ١٤٦.

وليم الصوري، المرجع السابق ١/٣٣٤-٣٣٥، الشارترى، المرجع السابق، ص ٥٧-٥٨. مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة (Gesta)، ص ٦٤ وما بعدها.

(٣) انظر س. رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ١٩٨١م، ص ٢١٤/١ وما بعدها، وانظر Gesta، ص ٤٩.

- جاء في بعض المصادر تواريخ أخرى لسقوط أنطاكية بيد الصليبيين، انظر، سبط بن الجوزي، مرجع سابق، ٢٠٩/١ (حا: ١٠)، وابن الأثير، الكامل ١٠/٢٧٤.

الفرنجة يقتحمون الشوارع بسيفوف مشرعة، ويقتلون الناس بوحشية، أصابتهم الرهبة، وأمعنوا في الفرار لا يلوون على شيء. وهرب من الأتراك من استطاع أن يصل إلى القلعة على جرف الجبل»^(١). أما ابن الأثير فيقول، «أن الفرنج دخلوا البلد من الباب، ونهبوه، وقتلوا من فيه من المسلمين»^(٢)، ويذكر ابن الجوزي، أنه قتل وسبي من أهل إنطاكية، من الرجال والنساء والأطفال ما لا يدركه حصر»^(٣).

كان ياغي سيان قد استنجد بالأمراء والحكام المسلمين، واستصرخهم لمواجهة الخطر الذي يهدد بلده، غير أن المدينة سقطت بيد الفرنج قبل وصول النجيدات.

هرب ياغي سيان من المدينة وخلف ولده شمس الدولة في القلعة مع الحامية، ولعل هربه كان بقصد استعجال نجيدات المسلمين إلا أن جواده كبا به في الطريق وهاجمه الأرمن وقتلوه. توضح المصادر اللاتينية دور الإيمان وإخلاص الرب لهم وحصول الخوارق والمعجزات، ومن ثم شجاعة الجند الفرنج وفنونهم في القتال مما جعل الفرنج القله أن ينتصروا على المسلمين الكثرة، رغم قساوة الظروف التي أحاطت بالفرنجة أثناء الحصار^(٤). كان لسقوط إنطاكية وقع شديد ومتباين، فالعالم المسيحي أعلن فرحته واستبشر بتوالي الانتصارات، وتحفز جند الفرنجة لمواصلة السير إلى بيت المقدس^(٥).

أما وقع الحدث في الأوساط الإسلامية فكان مؤلماً، ومنذراً بالخطر، مما استدعى أمراء الشام والجزيرة إلى الجدي في مواجهة هذا الخطر، وهكذا استجاب السلطان بروكياروق وندب قوام الدولة كربوقا ليكون قائداً للحملة لتخليص إنطاكية من الفرنجة، فجمع العساكر وسار من الموصل إلى الشام وأقام بمرج دابق، حيث اجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب^(٦). ومن الذين لبوا النداء واجتمعوا إلى كربوقا، دقاق بن تتش ملك دمشق،

(١) الشارترى، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) الكامل، ٢٧٥/١٠.

(٣) سبط، المرأة ٢٠٩/١.

(٤) وليم الصوري، مرجع سابق، ص ٢٢٦/١، الجستا، ص ٨٠ وما بعدها، الشارترى، مرجع سابق، ص ٥٨ وما بعدها.

(٥) س. رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ٢٥٣/١.

(٦) ابن الأثير، الكامل، ٢٧٦/١٠، تذكر بعض المصادر مشاركة رضوان صاحب حلب، انظر مرآة الزمان

وطغتكين أتاك الملك دقاق، وجتاح الدولة، صاحب حمص، وأرسلان تاش، صاحب سنجار، وسقمان بن ارتق، صاحب ماردين وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم^(١).

يصف ابن القلانسي جيوش الشام وحصارها للفرنجة في إنطاكية فيقول: «فتجمعت عساكر الشام في العدد الذي لا يدركه حصر ولا حزر، وقصدوا عمل إنطاكية للإيقاع بعسكر الإفرنج، فحصروهم حتى عدم القوت عندهم، حتى أكلوا الميتة ثم زحفوا وهم في غاية الضعف إلى عساكر الإسلام، وهم في غاية من القوة والكثرة، فكسروا المسلمين، وفرقوا جموعهم، وانهزم أصحاب الجرد السبق، ووقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالين في الرغبة في الجهاد، وحماية المسلمين كان ذلك يوم الثلاثاء السادس من رجب في السنة^(٢) (إحدى وتسعين وأربعمائة).

تصف المصادر اللاتينية حال الفرنجة في إنطاكية وهم تحت الحصار أسوأ وصف، فيقول صاحب الجستا: «بلغ من ضيق الحصار علينا أن اضطررنا لأكل خيولنا وحميرنا»^(٣) ويقول فوشيه الشارترى عن الفرنجة وهم تحت الحصار «لم يستطيعوا أن يطيقوا هذا العذاب أكثر من ذلك، إذ لم يبق لديهم ما يأكلونه مما أوهنهم وأنهك جيادهم»^(٤).

كان وقع الأخبار بقدوم الأمير كربوقا على رأس جيش كثيف، أليماً في نفوس المحاصرين^(٥)، ويبدو أن سمعة كربوقا وشدته، وحجم الجيش الذي يقوده هما أسباب هذا الذعر الذي أصاب الأوساط الفرنجية.

وإذا كانت هذه حال الفرنجة تحت الحصار في إنطاكية، وهذه حال الجموع الإسلامية من ترك وتركمان وفرس وعرب، فما الذي قلب الموازين وجعل القلة المحاصرة واليائسة، أن تنتصر على الكثرة المهاجمة، الكثيرة العدد والعتاد؟!

١/ ٣١٠، ومن المعروف أنه لم يكن على علاقة حسنة مع ياغي سيان.

(١) نفس المصدر، وانظر مرآة الزمان ١/ ٣١٠.

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص ٢٢١.

(٣) أعمال الفرنجة، ص ٨٠.

(٤) الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ص ٦١.

(٥) انظر وليم الصوري، المرجع السابق، ص ٣٣٩.

تجيب المصادر اللاتينية على هذا التساؤل بأن فضل ذلك يعود للخوارق أي لمساعدة الرب لشعبه من النصارى، لهذا الشارترى يقول: «في تلك الأثناء ظهر الرب، غير ناس عباده، لكثير من الناس، وقد كرروا ذكر هذه الحقيقة، وطمأنهم ووعدهم أنهم سيفرحون بالنصر في القريب... وأمرهم الرب بعدم الهرب: «لا تهرب بل عد... لأنني أنا الذي أكلمك أنا الرب»^(١). وتذكر بعض المصادر اللاتينية نصائح وتوسلات لأُم كربوقا، التي قدمت من حلب، لمقابلة ولدها وثنيه عن مقاتلة الفرنجة «أستحلفك يا بني بجميع الأرباب، وبحق طبيعتك السمحاء أن ترجع عن قتال الفرنجة... أتوسل إليك يا ولدي الحبيب أن تستمع إلى نصائحي، وألا تحاول مطلقاً التفكير في قتال الأمة المسيحية، أو الشروع في منازلتها»^(٢). وتوحي صياغة الحوار بين الأم ولدها وكأنها كانت تؤمن بالديانة النصرانية، وحتمية انتصار النصرانية: «يا بني العزيز، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة سنة، أنه جاء في كتابنا وفي كتابات الوثنيين أن الأمة المسيحية ستهاجمنا، وسيعقد لها النصر علينا في كل ناحية، وأنها ستسود الوثنيين...»^(٣)، ويلاحظ تشابه الوصف بين ما ورد على لسان الأم وما أورده مؤرخو الحملة الصليبية في وصف الجيوش الإسلامية المحاصرة بالوثنية، كما يدل على ضعف الإيمان في الجبهة التركية، أن أحمد بن مروان الذي سلمه كربوقا، قلعة إنطاكية من ابن ياغي سيان، سلم القلعة لبوهيمند، واعتنق المسيحية وانضم لجيوش الفرنجة بعد هزيمة كربوقا^(٤). لم تذكر المصادر العربية تدخل أم كربوقا في حصار إنطاكية، ولكن يستنتج من مجمل الروايات أن كربوقا كان متقلباً في ولائه، مستبدلاً في إمرته، ومستهنئاً بخصمه، معتمداً على كثرة جيوشه، وكأنه لم يستوعب الدرس الذي لم تمض عليه مدة طويلة، حيث تمكن الفرنجة وهم في حال من الضعف من الاستيلاء على أنطاكية. وإذا كان حصار الفرنجة لإنطاكية قد استغرق سبعة شهور ونيف فإن حصار الجيوش التي قادها كربوقا لم يستمر إلا أياماً (من ٥ يونيو إلى ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م)^(٥).

تذكر بعض المصادر العربية أن العلاقات بين الجموع المحاصرة للفرنجة لم تكن على

(١) الشارترى، المرجع السابق، ص ٦٠.

(٢) الجستا، ص ٧٥-٧٦.

(٣) نفس المصدر.

(٤) انظر كلود كاهن، مرجع سابق، ص ٣٧٢.

(٥) الجستا، ص ٧١.

وفاق، فقد جرت بين الأتراك والعرب منافرة عادوا لأجلها، وتفرق كثير من التركمان بتدبير من الملك رضوان ملك حلب، وتخوف بعض الأمراء من بعض»^(١).

وذكرت مصادر أخرى أن الفرنجة المحاصرين في إنطاكية أرسلوا وفادة إلى كربوقا، يعلنون فيها رغبتهم بالحصول على الأمان مقابل دفع الجزية، والخروج من إنطاكية، لكن كربوقا خاطبهم قائلاً: «لا تخرجون إلا بالسيف»^(٢). مما أدى إلى ضياع هذه الفرصة، وإصرار الفرنجة على المقاومة حتى الموت.

كان الحصار شديداً، وكل الظروف مهيأة لانتصار المسلمين، فقد بلغ اليأس عند الفرنجة، أن كثيراً من زعمائهم، تسللوا وسط الظلام وآثروا الهرب والنجاة بأنفسهم، كما أن بعضهم فت في عضد الإمبراطور البيزنطي اليكسوس، فرجع بجيوشه بينما كان في منتصف الطريق قادماً لنجدة الجيوش الفرنجية المحاصرة، لأن الهارين أخبروه بهلاك الفرنجة وسقوط إنطاكية بيد الأتراك.

لم يكن الأمر يحتاج لأكثر من استمرار الحصار لعدة أيام، حتى يهلك الفرنجة داخل إنطاكية. إن الذي حصل يستحق التمحيص والاستدلال، لإزالة هذا الغموض، وحصول هذه الفاجعة بهذا الجيش العرمرم، الذي لن يكتب للمسلمين حشد مثله إلا على يد القائد صلاح الدين الأيوبي.

إن تكرار مثل هذه النتائج في بعض فترات التاريخ الإسلامي تجعل الباحث يتساءل، هل أن ضعف الإيمان، وغياب قوة العقيدة، هما السبب، أم عدم التجانس في الأهداف وفي الأعراق والولاءات هي المسؤولة عن هذه النتائج؟! أم أن الخبرة العسكرية الفرنجية والتعبئة المسبقة لهذه الجموع ضد المسلمين هي السبب؟! وفي كل الأحوال جاء درس إنطاكية لينضاف إلى دروس كثيرة سبقته وأخرى لحقته، لتتكرر هزائم الأمة، وتكثر مآسيها.

(١) ابن العديم، زبدة الحلب، ص ٣٥٠.

(٢) ابن الأثير، الكامل ١٠/٢٧٦.

الدروس المستفادة:

- ١- إن الدرس الأول يتمثل في أن حالة التشرذم وانقسام الأمة إلى كيانات، هو من أهم الأسباب التي أدت وتؤدي إلى النكبات، كما هو واضح في خريطة الأمة العربية الإسلامية غداة الغزو الفرنجي في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وكذلك خريطة العالم العربي غداة الغزو الصهيوني والاستعمار الغربي للمشرق العربي.
 - ٢- إن انقسام الدولة الواحدة إلى وحدات سياسية يؤدي إلى نزاعات بينية، وصراعات وحروب داخلية، ويخلق نزاعات إقليمية وعرقية ومذهبية.
 - ٣- إن الدولة القطرية يصاحبها نزعة انفصالية عن الأمة، ويتيح المجال لحالة من النفاق والفساد تضعف معه المبادئ والقيم الأساسية الموروثة من تاريخ الأمة.
 - ٤- إن العرب والمسلمين لم يستخلصوا العبر من نكباتهم المتكررة، ودعت حالهم إلى الاعتماد على الغير، والاستكانة إلى واقعهم، وعدم الأخذ بأسباب النهوض التي أخذ بها غيرهم.
 - ٥- إن في العرب المسلمين، خاصية سلبية، أنهم في صراعهم مع بعضهم أشد نكاية بغيرهم، لا بل يتجاوزون كل حد، ويقدمون على التعاون مع العدو الأجنبي الطامع ببلادهم ضد إخوانهم من بني جلدتهم.
- فهل يعي العرب اليوم هذه الدروس، وقد أصبحت بلادهم مرتعاً لكل طامع، وهل يسمو الإنسان العربي عن أنانيته وفرديته، إلى حيث مصلحة الأمة في الوحدة والقوة؟
أسأل الله أن يتحقق ذلك

لمحات من تاريخ أيلة (العقبة)

في العصر الإسلامي

تذكر المصادر العربية أيلة كثيراً عند الحديث عن الأمور التجارية والسياسية لمنطقة جنوب الأردن، والحجاز، وشمال البحر الأحمر، ففيها تلاقى قديماً السلع المختلفة من الصين والهند وبلاد العرب وأفريقيا وأوروبا. وهذه الأهمية لأيلة اكتسبتها من موقعها الهام كحلقة وصل في العالم القديم، ولذلك استفادت الأمم التي سيطرت على هذه المنطقة من أيلة واستخدمتها في الأغراض الاقتصادية والعسكرية.

وعلى الرغم من هذه الأهمية لم تحظ أيلة بدراسة شاملة وجادة تناسب وتاريخ هذا الثغر عبر العصور.

وقد قامت بعثة المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية في الأعوام ١٩٣٨-١٩٣٩ بحفريات في موقع، تل الخليفة، القريب من العقبة الحالية^(١) ونشر جلدن^(٢) وموسل^(٣) بعض الدراسات حول (أيلة). غير أن ما نشره جزئي ولا يعالج إلا نواحي خاصة من أيلة في فترات تاريخية قصيرة ومحددة. ولذلك بقي تاريخ أيلة بحاجة إلى دراسة شاملة.

تحتل العقبة اليوم مكانة هامة في الاقتصاد الأردني واقتصاد الأقطار المجاورة، الأمر الذي حفزني على محاولة القيام بالدراسة التاريخية المطلوبة لهذا الثغر ذى التاريخ الطويل، آملاً أن أستطيع قضاء بعض حق لهذه المدينة أو أن ألفت نظر الباحثين نحوها، وفي كلتا الحالتين خدمة للمكتبة التاريخية العربية. والله من وراء القصد.

(١) N.Gluck, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 71 (1938) pp. 3f 75 (1939) 8f.

وانظر أيضاً محمود أبو طالب، تاريخ الأردن وفلسطين في العصور القديمة، عمان ١٩٧٨، ص ٢٤.

(٢) H.E. Glidden, The mamluk Origin of the Fortified khan, At Al-Akabah, Jordan, p. 116-118.

وانظر مقالته عن أيلة في: The Ency of Islam. 2, Vol, 1 pp. 783-84.

(٣) موسل (Musil) دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة (أيلة).

١- ذكر الجغرافيون العرب (أيلة) وضبطوا أسمها فجعلوه على وزن فعلة، وحددوا موقعها على ساحل بحر القلزم، وقالوا هي آخر الشام وأول الحجاز، وآخر الحجاز وأول الشام، يجتمع فيها الحجاج، وذكروا أن فيها زروعا وتجارة وسمكا^(١).

أما المقدسي فسمها ويلة وقال: هي مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة^(٢) وأعتبرها فرضة فلسطين وخزانة الحجاز، وقال: العوام يسمونها أيلة، وأيلة قد خربت على قرب منها^(٣) وذهب بعضهم إلى أنها هي التي قال الله فيها: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾^(٤) [الأعراف: الآية (١٦٣)].

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية الوارد ذكرها في الآية السابقة. ف قيل هي أيلة وقيل مدينة بين أيلة والطور وقيل طبرية، وذهب بعضهم إلى أنها ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة يقال لها (معنة)^(٥).

ووصف المقدسي مجتمع ويلة قائلاً: "وفي ويلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين كما في عبادان، وضافتها إلى الشام أصوب لأن رسومهم وأرطالهم شامية وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم"^(٦).

وهذا يشير إلى أن سكان أيلة في القرن الرابع الهجري كانوا خليطاً من الشاميين والحجازيين والمصريين، وقد يكون التنازع نتيجة التنافس التجاري. ويبدو من كلام المقدسي أن الإليين تأثروا بأهل الشام أكثر من غيرهم، ويعود ذلك إلى أن أيلة كانت

(١) انظر اليعقوبي، البلدان ٨٥، ٩٤، والهمداني، صفة جزيرة العربي ص ٣، ٥٨. والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٧٨-١٧٩. والبكري، معجم ما استعجم ٢١٦/١. وابن الفقيه الهمداني، البلدان ص ٢٥ وما بعدها وابن حوقل صورة الأرض ص ١٥٣، والاصطخري، المسالك والممالك، ص ١٤، ٤٩، والحربي، المناسك، صفحات متفرقة (انظر ثبت الأماكن)، والقزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٥٣. وأبو الفداء، تقويم البلدان ص ٢٥، والحميري، الروض المعطار، ص ٧٠-٧١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظر المقدسي، المرجع السابق. والمقريزي، خطط ص ٣٤٥/١.

(٥) المقريزي، خطط ٣٤٥/١. عينونة: قيل هي من قرى بيت المقدس، وقيل قرية من وراء البنية من دون القلزم في طرف الشام. ياقوت، معجم البلدان، مادة (عينون).

(٦) المرجع السابق، ص ١٧٩.

تتبع فلسطين في أغلب العصور.

وقد اختلف في سبب تسميتها بهذا الاسم، ففريق ذهب إلى أن (أيلة) اسم لجبل برضوى، وهو غير المدينة المذكورة، أي جبل ينبع بين مكة والمدينة واستشهد بشعر القائل: من وحش أيلة موشى أكارعه والوحش لا ينسب إلى المدن، وفي هذا المعنى أيضا قال كثير عزة:

رأيت وأصحابي بأيلة موهنا	وقد غار نجم الفرقد المتصوب
لعزة نازا ما تبوخ كأنها	إذا ما رمقناها من البعد كوكب
تعجب أصحابي لها حين أوقدت	وللمصطليها آخر الليل أعجب
إذا ما خبت من آخر الليل خبوة	أعيد لها بالمندلي فتثقب ^(١)

وفي مكان آخر من شعر كثير نجد أنه استعمل لفظ، أيلة، للدلالة على جبل، فقد قال:

ولو بذلت أم الوليد حديثها	لعصم برضوى أصبحت تتقرب
تهبطن من أركان ضاس وأيلة	إليها ولو أغرى بهن المكلب ^(٢)

وهناك من يرى أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى (أيلة) بنت مدين بنت ابراهيم الخليل عليه السلام^(٣).

وفي لسان العرب لابن منظور: (أيل) اسم جبل، واستشهد بقول الشماخ:

تربيع أكناف القنان فصارة	فأيل فالما وان فهو زهوم ^(٤)
--------------------------	--

وأما ما يدل على أنها اسم بلدة فقول ابن الأعرابي:

فانكم والملك يا أهل أيلة	لكالمتأبي وهو لي له أب ^(٥)
--------------------------	---------------------------------------

(١) ياقوت، معجم البلدان (أيلة) ٢٩٣/١. البكري، معجم ما استعجم ٢١٧/١، الهمداني، صفة ٣٣٤، ابن حوقل، صورة الأرض ١٥٣.

(٢) ياقوت، معجم البلدان (أيلة) ٢٩١/١، المكلب: الذي يعلم الكلاب أخذ الصيد، لسان العرب (كلب). ضاس موضع بين المدينة وينبع، ياقوت، معجم البلدان (ضاس).

(٣) ياقوت، معجم (أيلة) وانظر الحميري الروض المعطار، ص ٧٠-٧١ والبكري، المرجع السابق ٢١٧/١.

(٤) جاء في اللسان أن (أيلة): قرية عربية وورد ذكرها في الحديث، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء، البلد المعروف فيما بين مصر والشام. وأيل: اسم جبل. انظر لسان العرب (أيل). صارة الجبل: رأسه وقيل اسم جبل قرب وادي القرى. ياقوت، معجم البلدان (صارة).

(٥) أراد كالتأبي أبا اللسان (أيل).

والأيل هو ذكر الأوعال من الغزلان. ولا شك أن منطقة أيلة كانت من الأماكن التي تكاثرت بها الوعول والغزلان. وذهب البيهقي إلى أن الأيكة اسم جامع للأرض التي فيها مدينة أيلة ومدين^(١).

وفي النص العربي للتوراة جاء اسمها (أيلوت)، وفي الترجمة العربية للتوراة (أيلة) ولا نعلم مدى العلاقة اللغوية بين ألفاظ (أيلة) و (أيلوت) و (أيلات). غير أننا نرى أن (أيلة) لفظة عربية، ويرى بعض الباحثين المحدثين أن لفظة أيلات معروفة أيضاً عند الشعوب السامية، فروحة الاله بلع عند الفينيقيين تسمى (أيلات) وهي المعروفة كذلك بـ (عشيرة البحر) والتي يطلق عليها لقب آلام الاله^(٢) وتعني (أيلات) بالعبرية (بيت الآلهة). وجاء في التوراة أن سليمان بن داود (١٠٠٤-٩٦٨ ق.م) بنى عصيون جابر قرب أيلة على شاطئ بحر سوف في أرض أدوم^(٣). كما ذكرت التوراة أن عزيا ملك يهوذا بنى أيلة وردها ليهودا^(٤). ويستفاد من التوراة أن العرب وبعض الأقوام الساكنة قرب أيلة كانت تهاجم مملكة يهوذا، كما أن الصراع مع الايديوميين كان مستمراً^(٥).

٢- وأطلق اليونان على أيلة اسم (Elana) أيليانا وكانوا يسمون خليج العقبة الحالي (Aleantic Gulf)^(٦).

وعندما استولى البطالمة على مصر، دخلت منطقة جنوب فلسطين والأردن في الصراع بين البطالمة والسلوقيين، ووقعت أيلة بيد البطالمة الذين اتخذوا منها ميناء لنقل تجارة فلسطين إلى موانئ البحر الأحمر وأفريقية، كما كان يستقبل السفن القادمة من

(١) وقيل الايكة بلدة معينة كانت في قديم الزمان فخرت. انظر رواية البيهقي في نشوة الطرب ٨١٢/٢.

(٢) نجيب ميخائيل ابراهيم، سورية، ص ٦٧.

(٣) سفر الملوك الأول الأصحاح، ٩ آية ٢٦. ومما يجدر ذكره ان سليمان استعان بالملك حيرام ملك صور الفينيقي الذي بنى له السفن وزوده بالنواتي، انظر نفس الاصحاح.

(٤) سفر الأيام الثاني، الأصحاح ٢٦ آية: ٢.

(٥) انظر حول هذا الموضوع سفر الملوك الثاني، الاصحاح ١٤ آية ٧ وسفر الأيام الثاني، الاصحاح ٢٦ الآيات ٦-٩ والاصحاح ٢٨ الآيات ١٦-١٩ وما ستنج قاموس الكتاب المقدس ١٨٤/١ وما بعدها. Musil, Hegaz, p.274، وجواد علي، المفصل ٦٤٣/١.

(٦) نجيب ميخائيل، المرجع السابق ص ٣٠٢، وانظر أيضاً

G.A. Smith, Historical Geography of the Holy land, (London 1894,1968)m, p.367.

أفريقية والمحيط الهندي، وقد أدرك الأنباط مدى الخطر الذي يتهدهم من جراء النشاط التجاري البحري للبطلمة، فحرضوا بهم وتعرضوا لسفنهم في البحر مما جعل البطلمة يفكرون جدياً بوسائل تمنع الأنباط من مهاجمة السفن ونهب حمولاتها، فبنى فيلادلفوس مدينة برنيسي Berenice على خليج العقبة لحماية التجار من هجمات الأنباط، كما أنشأ بطليموس (٢٨٥-٢٤٦ ق.م) قوة بحرية لحراسة السفن البطلمية، وبذلك تمكن من السيطرة على شمال البحر الأحمر وخليج العقبة. وقد ازدهرت أيلة في الفترة الهيلينية حتى أننا نجد ايراثوستنس Eratosthenes (٢٧٥-١٩٤ ق.م) يقول: أيلة أهم مدن بلاد العرب التجارية^(١). واحتفظت أيلة باسمها في العهد الروماني لأنها كانت معروفة به قبل احتلال الرومان للمنطقة العربية^(٢).

وقد ازدهرت تيماء وأيلة وسلع في شمال الحجاز وجنوب فلسطين في فترات من العهد الروماني، إذ كانت مراكز للقوافل التجارية الكبرى منها تسوق العالم الروماني واليوناني معظم ما يحتاج إليه^(٣).

وبعد احتلال الإمبراطور الروماني تراجان (٩٨-١١٧ م) بتراء عاصمة الأنباط سنة ١٠٥، ١٠٦ م كون ما يسمى بالمقاطعة العربية Provincia Arabea ثم أحدث تغييرات مهمة في الإدارة وفي طرق المواصلات وأصول الجباية، فأنشأ طريقاً مهمة من (أيلة) حتى رأس خليج العقبة مارة بالبتراء إلى بصرى فدمشق. وصارت بصرى محطة مهمة جداً للقوافل القادمة من اليمن والحجاز، وأصلح تراجان القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وأحكم احتكار الرومان للتجارة البحرية التي كانت مصدر كل غنى وثراء^(٤).

(١) انظر مفيد رائف العابد، حول مصادر تاريخ العرب، مجلة دراسات تاريخية دمشق، العدد ٦ لسنة ١٩٨١ ص ١٣٦. وحول أيلة في زمن البطلمة انظر: جواد علي، المجلد ٢/٢٧، سيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ١٩٠. ومصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين ١/٤٩٣. يرى بعض الباحثين أن هي عصيون جابر، انظر جواد علي ١/٦٣٧. الدباغ، المرجع السابق. سيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق ص ١٩٠، وانظر جلدن: (Ayla) I.E2. Vol.1. اراتوستنس أحد أشهر ثلاثة كتاب في العصر الهيليني (٣٢٣-٣١ ق.م) مفيد العابد، مجلة دراسات ص ١٣٦.

(٢) نجيب ميخائيل، المرجع السابق، ص ٣٠٢، ٣٩٤.

(٣) سعيد الأفغاني، أسواق العرب ص ١٦.

(٤) جواد علي، المجلد ٢/٦٥. صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب ص ٤٢.

وفي القرن الثالث الميلادي قسمت المقاطعة العربية إلى كورتين: كورة شمالية عاصمتها بصرى وعرفت بـ (كورة بصرى)، وكورة جنوبية عاصمتها بترأ وعرفت باسم كورة بترأ^(١).

أما في القرن الرابع الميلادي وفي حوالي ٣٠٧م تقريباً اقتطع من الكورة الجنوبية بعض المدن مثل (أيلة و Phainon) فينون أو فينان حالياً^(٢)، وألحقت بفلسطين وبذلك توسعت رقعة فلسطين. ويظهر أن الضرورات العسكرية هي التي دفعت إلى أحداث هذه التغييرات، فقد كانت الطرق الحربية تصل من أيلة إلى سورية وفلسطين ولهذا أصبحت هذه المدينة معسكراً للجيش الروماني^(٣).

وفي العهد البيزنطي دخلت المنطقة العربية في الصراع ما بين الفرس والروم البيزنطيين، لذلك اختط يوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) خطة لتحرير التجارة البيزنطية من سيطرة الساسانيين عليها، وهي الاتصال المباشر بالأسواق الرئيسية المصدرة، ونقل المشتريات إلى الإمبراطورية بطريق البحر الذي كان يسيطر الروم على أعاليه. لقد كان ميناء (أيلة) في أيدي البيزنطيين، وكان فرضة حافلة تقصدها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وتأتيها من البر قوافل الشام^(٤).

استقرت النصرانية في أيلة منذ عهد مبكر حيث تنصر معظم سكانها، واشترك أساقفتها في النشاط الكنسي، فقد كان (بطرس) أسقفها من بين الذين وقعوا قرار مجمع نيقية

(١) جواد علي، نفس المرجع ٧١/٣. ومن الطريف أن يذكر شيخ الربوة أن: (بلاد الشام في العهد الروماني كانت مقسمة إلى أربعة أقسام قسم قصبته دمشق وقسم قصبته طبرية ويسمى بالأردن، وقسم قصبته حمص وقسم قصبته أيليا (بيت المقدس) ويسمى فلسطين، وكان لهم في كل عمل بطريق من البطارقة يحفظه) مع العلم أن هذه التقسيمات إسلامية؛ انظر نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص ١٩٢.

(٢) ورد ذكر فينان في سفر العدد أصحاب ٣٣ الآيات ٤٢-٤٣ أثناء عبور الإسرائيليين فلسطين، وتلفظ (فينون) أيضاً واشتهرت بمناجم النحاس - على حد زعم التوراة - وكانت في العهد البيزنطي مركزاً لاسقفية. انظر لويس مخلوف، الأردن تاريخ وحضارة وآثار، عمان ١٩٨٣، ص ٢٢٩.

(٣) Glidden, I.E.2, vol.1, pp. 783-84. وموسل، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية "أيلة" ٢٠٧/٣ جواد علي، المرجع السابق، ١٧٠/٣.

(٤) الأب لويس شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلين، ص ٤٤٨/٢. جواد علي، المرجع السابق ١٧٠/٤.

(٣٢٥م) وكان أميرها قبل يوحنا بن روية أوريون النصراني^(١) كما كانت في القرن الرابع الميلادي مقراً لابريشية حضر مطارنتها بعض المجامع الكنسية، ومنهم المطران (غوث) وكان في رأي الأب شيوخو عربياً، حضر المجمع الخلقدونى سنة ٤٥١م^(٢).

ومات في أيلة سنة ٥١٣م، القديس (أيليا) وهو عربي الأصل سكن مدة في أحد الأديرة الواقعة على ضفة نهر الأردن اليمنى ثم رقي إلى رتبة البطريكية^(٣).

ولما تضعضعت قوة بيزنطة على تخوم (أيلة) كسدت تجارتها لأن (أيلة) والبلاد المحيطة بها كانت خاضعة لنفوذ الأمراء من بني غسان^(٤).

وفي بعض الأحيان كانت أيلة تقع تحت سيطرة القبائل البدوية. وكان شيوخ هذه القبائل يحكمون وكانهم عمال روم (فيلارك Phylarchus)، بعضهم يحكم أراضي صغيرة، ويعمل أتباعهم بالرعي وبعضهم بالزراعة وآخرون بالتجارة والبعض أعراب ينتقلون في البادية، والذين كانوا يقطنون ساحل العقبة كانوا أشباه أعراب. ينتهزون الفرص المواتية ويشغلون بالتجارة لحسابهم أو لحساب غيرهم، أو يقدمون الخدمات للتجار مقابل جعل معين^(٥).

ومن أشهر القبائل التي استوطنت منطقة أيلة قضاة التي امتد نفوذها ما بين الشام والحجاز إلى العراق، واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك^(٦). وامتدت مواطن جذام من أيلة شمالاً إلى ينبع جنوباً على طول الساحل^(٧)، وبلغ من نفوذ جذام أن المصادر تذكر لهم رياسة في معان، وأن بطن بني النافرة من نفاثة من جذام تعاون مع الرومان الذين عينوا فروة بن عمرو بن النافرة عاملاً لهم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب، وتزعم بعض المصادر أن فروة هذا هو الذي بعث إلى الرسول

(١) شيوخو، المرجع السابق ٤٧/١، ١٠٨. موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة).

(٢) شيوخو، المرجع السابق، الدباغ، المرجع السابق، ص ٤٩٢-٤٩٣.

(٣) شيوخو، المرجع السابق، ٤٧/١، الدباغ، المرجع السابق، ص ٤٩٣.

(٤) موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة).

(٥) جواد علي، المرجع السابق، ٦٠٦/٢.

(٦) ابن خلدون، تاريخ ٢٤/٢ وما بعدها.

(٧) الهمداني، صفة ... ص ١٢٩. جواد علي، المرجع السابق ٤/٢٤٥.

صلى الله عليه وسلم بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء مما جعل قيصر ينقم عليه، فأغرى به الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان، فأخذه وصلبه بفلسطين^(١). ونظرًا لغلبة جذام على منطقة أيلة ذهب بعض المؤرخين إلى أن يوحنا بن روية، صاحب أيلة، الذي صالح الرسول صلى الله عليه وسلم هو من جذام^(٢).

وإلى جانب امتداد جذام كانت قبيلة جهينة التي كانت ما بين ينبع ويثرب في متسع من برية الحجاز إلى عقبة أيلة^(٣). وإلى جانب امتداد جهينة كانت مواقع قبيلة بلي^(٤).

وفي غمرة الصراع بين آل حجر الكندي والغساسنة كانت أيلة خارج هذا الصراع، مع أنها تعتبر ضمن المنطقة التي شملها نفوذ غسان، وربما كان ذلك عائد إلى المكانة الخاصة لمدينة أيلة عند الروم الذين أقاموا بها حامية رومية وأشرفوا عليها إشرافًا مباشرًا. اتسع نفوذ الغساسنة اتساعًا كبيرًا شمل ما بين أيلة ولبنان وهذا ما يفهم من شعر حسان بن ثابت يمدح به آل النعمان^(٥).

فَمَنْ يَغْزُ الدَّهْرَ أَوْ يَأْمَنُهُ مِنْ قَتِيلٍ بَعْدَ عَمْرٍو وَخَبِرِ
فَلِكَا مِنْ جَبَلِ الثَّلْجِ إِلَى جَانِبِي أَيْلَةَ مِنْ عَبْدٍ وَخَرِ

وقد تعرض الشعراء لأيلة في أشعارهم يذكرون موقعها تارة ويشيرون إلى بعض الأماكن المتصلة بها تارة أخرى، كما أشاروا إلى نباتاتها وزروعها ودنانيرها، ففي أرجوزة طويلة للحسين بن قبيصة المحرمي الجذامي جاء:

وعزلت أيلة والبحر المضم عنها يمينا وتعددت في الاتم^(٦)
وعزلت حزم ردام ذا الثلم عنها يمينا وتياسرت للام

(١) انظر ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٢١. تاريخ ابن خلدون ٣٧/٢. جواد علي، المرجع السابق ٤/٤٦٢.

وفي رواية أن فروة كان على عمان أو معان، الطبقات الكبرى ٢٨١/١.

(٢) الطبقات الكبرى ٢٨١/١، تاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ١٦/٣. تاريخ ابن خلدون ٢٠/٢ - ٢٤.

(٤) تاريخ ابن خلدون، المرجع السابق والصفحة.

(٥) انظر ابن قتيبة، المعارف، ص ٦٤٣، ابن منظور، اللسان (أيلة) البكري، معجم ما استعجم، ١/٢١٦. صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، ص ٦٢.

(٦) الاتم: واد يسيل من حسمى على ليلة.

وصبّحت نعمى وأكواز النعم^(١)

وذكر في بعض الأشعار أن شجر الدوم كان بأيلة، فقد ورد منسوباً لأيلة. فمما أخذ على حميد بن ثور الهلالي، وقيل على ابن الطمّحان القيني، قوله:

لما تخاللت الحمول حسبتها دوماً بأيلة ناعماً مكموماً^(٢)
وضرب بعض الشعراء المثل بدنانير (أيلة): فهذا أحичه بن الجلاح يرثي ابنه قائلاً:

الا ان عيني بالبكاء تهلل جزوع صبور كل ذلك يفعل
فان تعتريني بالنهار كآبة فليلي إذا أمسى أمر وأطول
فما هبرزي من دنانير أيلة بأيدي الوشاة ناصع يتأكل
بأحسن منه يوم أصبح غاديا ونفسني فيه الحمام المعجل^(٣)

وكانت أيلة مجتمعاً تتلاقح فيه الأفكار اليونانية والمسيحية والعربية، فهي مركز من المراكز الرومانية، وهي أيضاً اسقفية مسيحية، وهي قرية من الحجاز حيث كانت الأسواق العربية تنعقد دورياً وتتحوّل إلى مهرجانات أدبية وثقافية، تمثل كل النزعات السائدة قبيل الإسلام، فهي لم تشتهر اقتصادياً فحسب بل اشتهرت كمركز من مراكز الثقافة المرموقة في بلاد العرب^(٤).

٣ - برز اسم (أيلة) في التاريخ الإسلامي منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك بحكم موقعها كبوابة لبلاد الشام، والتي كان سيطرتها المسلمون في توجيههم نحو الشمال. ففي أعقاب غزوة تبوك - أي في السنة التاسعة للهجرة - عقد الرسول صلحاً مع يحنه بن ربيعة صاحب أيلة^(٥) وقد أوردت المصادر كتاب الصلح بخلاف يسير. وتذكر هذه

(١) نعمى: ماء يفيء عليها ظل الشوق بالعشي. والشوق: أعظم جبل بحسمى. انظر حمد الجاسر، أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٢) الدوم: شجر المقل وهو لا يكمن، إنما يكمن النخل: انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢٣٢. ابن عبد ربه، العقد الفريد ١٨٢/٦.

(٣) الوشاة: الضرابون. ناصع: مشرق. يتأكل: أي يأكل بعضه بعضاً من حسنه. الهبرزي: الدنبار الجيد، وقيل الذهب الخالص. انظر: ياقوت، معجم البلدان (أيلة) ٢٩٢/١. ابن منظور، اللسان (هبرز).

(٤) انظر: سعيد الأفغاني، أسواق العرب، ص ٢١٢. سيأتي الحديث عن الناحية الثقافية لأيلة في الجزء الأخير من هذا البحث.

(٥) ستأتي مصادر كتاب الصلح عند إيراد هذا الكتاب في الصفحات القادمة.

المصادر أن يحنه (يوحنا) بن ربيعة هو الذي قدم على الرسول في تبوك وطلب أن يصالحه مقابل دفع الجزية^(١)، الأمر الذي يدفع إلى التساؤل عن أسباب ودوافع قدوم صاحب أيلة ليدفع الجزية للرسول، وأيلة مدينة عامرة وجيليلة ومعظم سكانها من النصارى؟!

ويبدو أن يحنه بن ربيعة لم يقدم طائعا مختارا، فقد أثبتت المصادر رسالة بعث بها الرسول إلى يحنه وسروات أهل أيلة، يستفاد منها أن قدوم الوفد الايلي إنما كان بفعل التهديد الذي تضمنته رسالة الرسول هذه والتي أدت مع عوامل أخرى إلى كتاب الصلح بين الرسول وأهل أيلة، وجاء في الرسالة:

(سلم أنتم فاني أحمد إليكم الله الذي لا اله إلا هو فاني لم أكن لأقاتلكم حتى اكتب اليكم، فأسلم أو اعط الجزية، وأطع الله ورسوله ورسول الله وأكرمهم واکسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاة^(٢)). واکس زيدا كسوة حسنة فمهما رضيت رسلي فاني قد رضيت وقد علم الجزية فان أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم الا حق الله وحق رسوله، وانك ان رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئا حتى اقاتلكم فأسيي الصغير وأقتل الكبير فاني رسول الله بالحق أو من بالله وكتبه ورسوله وبالمسيح بن مريم أنه كلمة الله وان أو من به أنه رسول الله، وأت قبل أن يمسكم الشر فاني قد أوصيت رسلي بكم واعط حرملة ثلاثة أوسق شعيرا، وان حرملة شفيع لكم واني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئا حتى ترى الجيش وأنكم ان اطعتم رسلي فان الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه وان رسلي شر حبيب وأبي و حرملة و حريث بن زيد الطائي^(٣) فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيت به وان لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله والسلام عليكم أن اطعتم وجهزوا أهل مقنا إلى أرضهم^(٤).

(١) انظر المصادر التي أوردت كتاب الصلح.

(٢) قوله: غير كسوة (الغزاة) بالمعجمتين وفي آخره همزة والظاهر أن الصحيح (الغزاة) بالناء جمع غازية بمعنى المقاتلة، أي غير ثوب المقاتل كالدرع، وثوب حرير يختص بحال الحرب، وفي نسخة ابن عساکر (العزاة) ولا يناسب سياق الكلام، انظر الأحمدی، مکاتیب الرسول ١/١٦٢.

(٣) حريث بن زيد الطائي، يعتقد أنه ابن زيد الخيل الذي لقب أيضا بزيد الخير، انظر تحليل الرسالة، الأحمدی، المرجع السابق ١/١٦٤-١٦٥.

(٤) طبقات ابن سعد (والنص له) ١/٢٧٧ - ٢٧٨. وانظر تهذيب ابن عساکر ٤/١١٤. وفي مجموعة الوثائق السياسية لحמיד الله، ص ٨٧ رقم (٣٠) عن الطبقات وابن حديد في المصباح المضيء في كلمة يحنه،

ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام أصبح ضرورة ملحة، ولا سيما بعد هزيمة المسلمين في مؤتة، وتجمع الروم وقبائل عاملة ولخم وجذام لحرب المسلمين^(١). فكان لا بد والحالة هذه أن يعمل الرسول على ترتيب الأوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو بلاد الشام. ولهذا اتخذ الرسول عدة إجراءات تضمن عدم عداء القبائل والخواضر في شمال الحجاز، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الأمان ان لم يكونوا قد ارتبطوا بالإسلام. وتلك ضرورة لحماية قوات المسلمين في صراعها مع الروم الذي بدأ بغزوة مؤتة. وكان الوضع الخاص لأيلة يدفع صاحبها وسرواتها للاستجابة لطلب الرسول، فأيلة مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الأولى، والرسول أصبح يسيطر على أهم الطرق التجارية البرية المؤدية إلى أيلة من اليمن وجنوب بلاد العرب، ونحن نعرف أيضا أن العام التاسع للهجرة هو عام الوفود الذي يشير إلى خضوع الجزيرة للرسول، وقد ذكر الواقدي أن دومة (دومة الجندل) وأيلة وتيماء، قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد أسلمت^(٢). كما أن فكرة النصارى عن الإسلام لم تكن سيئة حتى الآن، إذ أننا لا نلمس معارضة نصرانية واضحة ضد الدعوة الإسلامية في هذا العهد، بينما كانت العلاقة بين المسلمين واليهود على أسوأ ما تكون فكل هذه العوامل - في رأى الباحث - دفعت يحنه بن رؤبة وأهل أيلة للموافقة على دفع الجزية ومصالحة الرسول، ومن هنا لا نستبعد أن يكون الأمان الموجه من الرسول إلى يحنه بن رؤبة، وهذا نصه^(٣): بسم الله الرحمن الرحيم: (هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله

والزرقاني ٣/٣٦٠ ثم نقل كاتباني ٩: ٣٨ (التعليقة الأولى) وأشيرنكر ٣/٣٢١-٤٣٣ وإشيرنكر ٢١-٤٢. والأحمدي، مكاتيب الرسول ١/١٦١-١٦٤. وقد ضبطت المصادر اسم صاحب أيلة تارة (يحنه) وتارة أخرى (يوحنا) وأكثرها على اللفظ الأول، انظر الأحمدي، المرجع السابق.

(١) البلاذري، فتوح، ص ٧١، وانظر ابن سعد، الطبقات ٢/١٦٥. وتاريخ ابن عساکر (رواية ابن إسحاق)، ١، ٤٢٤. (٢) المغازي، ٣/١٠٣١.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٥٢٥-٥٢٦. وانظر مغازي الواقدي ٣/١٠٣١، وطبقات ابن سعد ١/٢٨٩ وأبو عبيدة الأموال ٢٨٧-٢٨٨ وتاريخ ابن عساکر ١، ص ٤٢٤. والسيرة الحلبية ٢/١٦٠. ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية رقم ٣١-٣١ أ ص ٨٨، عن القسطلاني، المواهب اللدنية ١/٢٦٧، وسيرة ابن سيد الناس ٢/٢٢٠ والزرقاني في شرح المواهب ٣/٣٥٩، والمقرئزي، أمتاع الأسماع ١/٤٦٨، وابن زنجويه، الأموال (نسخة خطية) رقم ٦٩/ب و ٧٠ أ (حقوق نشر) والبيهقي، دلائل النبوة، خطية كوبرولو بتركيا، ج ١ ورقة

ليحنه بن روبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ما له دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر وبحر^(١).

وقد ذكرت بعض المصادر التي أثبتت نص كتاب الصلح اسم الكاتب والشهود ومقدار الجزية. إلا أن ابن هشام لم يذكر ذلك، فقد جاء في هذه المصادر أن الكاتب هو جهيم بن الصلت، وبعضها أضاف شرحبيل بن حسنة^(٢)، وأما السبكي فذهب إلى أن علي بن أبي طالب هو الذي كتب كتاب الصلح وفيه شهادة أبي بكر وعمر وعثمان وإعلام الصحابة. جاء ذلك في معرض رده على الجرجاني الذي زعم أن أبا حنيفة لم يسبق في كتابة الشروط، وأورد السبكي جواب أبي منصور بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أول من أملى كتب العهود والمواثيق، منها عهده إلى نصارى أيلة، وذكر أن هذا العهد باق عند أصحابه أيلة ولاجل ذلك يصانون^(٣) وتذكر أغلب المصادر أن مقدار الجزية التي صولح أهل أيلة عليها كان ثلاثماية دينار في السنة، وكانوا ثلاثماية رجل أي أن يؤخذ من كل حالم دينار في السنة^(٤).

وجاء في بعض الروايات أن الرسول اشترط على أهل أيلة بالإضافة للجزية قرى من يمر بهم من المسلمين^(٥).

ويبدو أن الجزية لم تبق على حالها بل زاد فيها الخلفاء من بني أمية، فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز خفف من أثقال الجزية المفروضة على النصارى في قبرص وأيلة، وكان لا يزداد من أهل أيلة على ثلاثماية دينار شيئاً. ويفهم من هذا أن الجزية في البداية

٢٣ ب. وأحمد بن حنبل، المسند ٤٢٥/٥. والبكري، معجم ما استعجم ٢١٧/١.

(١) سيرة ابن هشام ٥٢٦-٥٢٧/٢.

(٢) الواقدي، المغازي ١٠٣١/٣ طبقات ابن سعد ٢٨٩/١ وأبو عبيد بن سلام، الأموال، ص ٢٨٨. ومحمد حميد الله، الوثائق السياسية رقم ٣١-٢١، ص ٨٨-٨٩.

(٣) السبكي، تاج الدين أبي نصر، طبقات الشافعية الكبرى ١٤٦/١.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧١، والمسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٣٦. وقدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص ٢٧٠. وياقوت الحموي، معجم البلدان (أيلة) ٢٩٢/١. وابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٩١/٢. وتاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١.

(٥) قدامة بن جعفر، الخراج ... ص ٢٧٠.

كانت على الرؤوس ثم أصبحت جماعية، إذ لا بد أن يكون نصارى أيلة قد نقصوا أو ازدادوا في زمن عمر بن عبد العزيز.

وأطلقت المصادر على يوحنا بن روية صاحب أيلة وتارة أسقف أيلة، وأخرى ملك أيلة^(١) وقيل أن رسول الله كساه بردة^(٢) وهي البردة التي اشتراها أبو العباس السفاح بثلاثماية دينار وهي غير البرد التي منحها الرسول - ص - إلى كعب بن زهير عندما أنشده قصيدته المشهورة التي مطلعها^(٣):

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفد مكيول

كما ذكر أيضا أن يوحنا بن روية أهدى للرسول هدية فيها بغلة بيضاء، فرد رسول الله على هذه الهدية بإهداء البرد ليوحنا. وذكر المقرئ أن اليهود كانوا يخرجون رداء عدنيا ملفوفا في الثياب قد أبرز منه قدر شر فقط، يزعمون أنه برد النبي صلى الله عليه وسلم وأنه بعثه إليهم أمانا^(٤). وهذه الرواية وما شابهها إنما يقصد بها حرص أهل الذمة في فترات معينة إبراز ما يثبت حصولهم على أمان الرسول أو الخلفاء، وليس بالضرورة أن تكون هذه الأدلة صحيحة، ففي بعضها التزوير واضح^(٥).

ويستدل من كتاب الصلح أن أهل أيلة كانوا يعملون بالتجارة البرية والبحرية، كما يعملون بصيد السمك. وجاء في وصف بعض الجغرافيين لها بأنها مدينة اليهود^(٦) ولعل هذه الإشارة فيها مبالغة ظاهرة لأننا لم نعر في المصادر أنها كانت يهودية في العهود

(١) مغازي الواقدي ٣/ ١٠٣٠. والمسعودي التنبيه والإشراف، ص ٢٣٦. وتاريخ ابن خلدون ١/ ٣٤٤ وانظر أيضا مصادر كتاب الصلح السابقة.

(٢) حول البردة انظر: العماد الاصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، ص ١٢: ح ٥ من القسم العراقي. والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٩. الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا ٢/ ٢٦٩، وحاشية ابن هشام على بانت سعاد، ومقالة الآثار لأحمد تيمور في (مجلة الهداية الإسلامية المصرية)، ١م، ج ٨، لسنة ١٣٤٨هـ.

(٣) انظر القصيدة في سيرة ابن سيد الناس ٢/ ٢٠٩ وما بعدها.

(٤) خطط المقرئ ١/ ٣٤٥ وما بعدها.

(٥) انظر محمد حميد الله، الوثائق السياسية، ص ٤١١ وما بعدها، وأبو عبيد، الأموال، ص ٢٠٧.

(٦) ياقوت، معجم البلدان (أيلة) ١/ ٢٩٢. اليعقوبي، البلدان، ص ٩٤، الحميري، الروض المعطار، ص ٧٠، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٨٧، القزويني، آثار البلاد، ص ١٥٣. أن ظاهر كتاب الرسول ليحنه يعني كونهم نصارى، انظر الأحمدي مكاتيب الرسول، ص ١٦٤.

الإسلامية وإن كان يقطنها جماعة من اليهود عملوا كبقية سكانها بالتجارة، وارتبطوا بالتجار في بلاد العرب، فقد اشتهر أبو رافع الخيزري اليهودي بالتجارة، وكانت له شهرة بين المواضع التي يكثر فيها اليهود في العهد المدني، حيث تشير الروايات إلى أن اليهود احتكروا تجارة البلح والشعير والقمح في شمال الحجاز^(١) ومن المعروف أن اليهود كانوا يعملون بالصيرفة والصياغة في أماكن إقامتهم.

وحظيت أيلة بأهمية خاصة أثناء حركة الفتوح الإسلامية، فقد كانت معبراً لجيوش الفتح المتجهة إلى بلاد الشام، وقد سلكها عمرو بن العاص الذي أخذ طريق المعركة على أيلة لما بعثه الخليفة أبو بكر قبل فلسطين^(٢). وأصبحت أيلة بالضرورة محطة للفتاحين نزلاً كثيراً من المسلمين منهم عدد كبير من موالي عثمان بن عفان^(٣). ومنهم من نزل في ضواحي أيلة مثل أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين الحقل مولى رافع عثمان الذي نسب إلى قرية حقل إلى جانب أيلة وكان فقيهاً أماما توفي سنة تسع وعشرين ومائتين^(٤)، كما توفي أبو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أمام أهل المدينة في (أدما) و(ادمي) قرب (بدأ وشغب) وهما واديان على مرحلة من أيلة^(٥) والزهري شيخ العديد من المحدثين الذين نسبوا إلى أيلة، فقد أقام بها وأخذ الكثيرون عنه^(٦) وكان الذين نزلوا أيلة يعملون في البداية بسقاية الحجاج^(٧). وتذكر بعض الروايات أن عمر بن الخطاب نزل أيلة سنة سبع عشر^(٨)، وربما كان ذلك عندما كان في طريقه إلى الجابية. وممن نزل أيلة في الفترة الإسلامية المبكرة أبان بن سعيد بن العاص^(٩) وقد عاتبته خطيبته عائشة ابنة عثمان على تركه المدينة وأقامته بأيلة قائلة:

(١) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص ١٨، وانظر أيضا الافغاني، أسواق العرب، ص ٢٤.

(٢) البلاذري، فتوح، ص ١١٦. وتاريخ الطبري ٣/٣٨٧.

(٣) اليعقوبي، بلدان، ص ٩٤، وياقوت، معجم البلدان (أيلة) ١/٢٩٢.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض ١٥٣، وياقوت الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعا، ص ١٤١.

(٥) أنساب المسعاني ١/٤٠٩.

(٦) النووي، تهذيب الأسماء واللغات ١/٩٠.

(٧) الحميري، الروض المعطار، ص ٧٠.

(٨) الطبري (رواية سيف) ٤/٦٤.

(٩) ابن الكلبي، جمهرة النسب (رواية ابن حبيب) خطية، ص ٢٥.

نزلت ببیت الضب لا أنت ضائر عدوا ولا مستنفعاً أنت نافع^(١)

وبرز اسم أيلة في حوادث الفتنة الأولى، فتنة عثمان، فقد كانت مركز استطلاع للأحزاب المتصارعة، ومنها عاد المصريون لحصار عثمان، وفي هذه المدينة كانت العيون ترصد ما يجري في عاصمة الدولة الإسلامية، فقد تبع عبد الله بن سعد بن أبي السرح المصريين حين خرجوا على عثمان وأقام في أيلة يترقب ما تسفر عنه الأحداث، حتى إذا ما علم بمقتل الخليفة عثمان دخل فلسطين وأقام بها^(٢). وقد تجمع موالي عثمان وأنصاره أيضا في أيلة يتسقطون بدورهم أخبار المدينة، ولما بعث علي بن أبي طالب قيسا بن سعد واليا إلى مصر لقيته خيل أنصار عثمان في أيلة وسألوه عن حاله، ولم يجرؤ بإخبارهم أنه عامل علي على مصر، بل قال لهم أنه من فالة عثمان يطلب من يأوى إليه ويتنصر به، ومضى حتى دخل مصر حيث أعلن أمره^(٣). ولما ولي مروان بن الحكم المدينة في مطلع الحكم الأموي عين مصعب بن عبد الرحمن بن عوف على شرطته فقال له هذا: إني لا أضبط المدينة بحرس المدينة، فابغني رجلا من غيرها، فأعانه بمائتي رجل من أهل أيلة، فضبطها ضبطا شديدا^(٤). ويرى (ترتون) مؤلف كتاب (أهل الذمة في الإسلام) أن هؤلاء كانوا من النصارى^(٥). ولم يوثق ما ذهب إليه، والغالب أن هؤلاء من أنصار الأمويين الذين كانوا قد استوطنوا أيلة ومنهم موالي عثمان بن عفان الناقمون على أهل المدينة لموقفهم من عثمان.

وبعد بيعه مروان بن الحكم بالخلافة في ذي القعدة، ٦٤ هـ، خرج يريد مصر التي كانت تتبع ابن الزبير، وخرج معه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وزفر بن الحارث وحسان بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني في إشراف كثير، وبعث ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة ليدخل مصر من تلك الناحية^(٦). ولما علم ابن

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ١٢/٤.

(٢) تاريخ الطبري، ٣٧٨/٤.

(٣) المرجع السابق، ٤٤٢/٤. وتاريخ ابن خلدون ٤٠٥/١.

(٤) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ٧٤/٥.

(٥) أهل الذمة في الإسلام، ص ٢١٥.

(٦) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٢.

الزبير أرسل جيشاً يقوده وإليه بمصر عبد الرحمن بن جحدم، وأتبعه بجيش آخر يقوده زهير بن قيس البلوي إلى أيلة ليمنع عبد العزيز من المسير إليها، وقد التقى زهير بعدد العزيز بن مروان في مكان قرب أيلة يدعى (بصاق) فقاتله فانهزم زهير ومن معه، وفي ذلك قال زهير بن قيس لعبد العزيز بن مروان^(١):

منعت بصاقا والبصاح فلم ترم بطاحك لما أن حميت ذماركا

وفي بداية قتال عبد الملك بن مروان لابن الزبير وجه عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان، وأمره أن ينزل بين أيلة ووادي الثقري فيمنع عمال ابن الزبير من الانتشار ويحفظ ما بينه وبين الشام ويسد خلا ان ظهر له^(٢)، وفي طارق هذا يقول الشاعر:

ولو تكلمنا ذمنا طارقاً والدهر قد أقر عبد آبقا^(٣)

لقد سقت هذه الأخبار لأبين كم كان ولاة الأمر أو الخارجون عليهم - منذ مطلع الدولة الإسلامية - يعيرون من أهمية لموقع أيلة ويتسابقون للسيطرة عليها، وارى أن لذلك سببين:

الأول: موقع أيلة كحلقة وصل بين مصر والشام والحجاز، والاستيلاء عليها يعني السيطرة على مركز اتصال هام في العالم الإسلامي، لا سيما وقد وحد الإسلام المنطقة سياسياً فأصبحت أيلة على صلة مباشرة بالمراكز السياسية والتجارية في العالم الإسلامي.

الثاني: كون أيلة مركز تجمع الحجاج والتجار والمسافرين من أنحاء العالم الإسلامي اكسبها ميزة استعلامية فريدة، فمنها يمكن تتبع أخبار العالم الإسلامي بعامه وما يجري في العاصمة الإسلامية بخاصة، وهذا من الأسباب التي جعلت الحميمة القريبة منها المركز السري للدعوة العباسية.

وفي التقسيمات الإدارية التي تمت في عهد عمر بن الخطاب تبعت أيلة جند

(١) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٣. بصاق: مكان بين التيه وأيلة: انظر: ياقوت، المشترك وضعاً والمفترق صقعا، ص ٥٥.

(٢) البلاذري، أنساب الأشراف، ٣٥٦/٥.

(٣) المرجع السابق والصفحة.

فلسطين^(١)، وأصبحت منذ عهد مبكر مركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية، فكانت واحدة من المراكز المشهورة التي عنيت بالسنة إلى جانب دمشق وبيت المقدس والرملة وعسقلان والمدينة المنورة^(٢).

ولما استتب الأمر لعبد الله بن الزبير في الحجاز أرسل إلى عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية: (أما أن تباعاني أو تخرجنا من جوارى)^(٣)، فخرجنا من مكة ونزلاً بالطائف وأقاما هناك، ثم خرج ابن الحنفية إلى أيلة ومنها كتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه في القدوم عليه والنزول إلى جواره، فكتب عبد الملك إليه: (وراءك أوسع لك، ولا حاجة لي فيك) فأقام محمد بن الحنفية عامه ذلك بأيلة إلى أن توفي بها^(٤).

وفي غمرة الصراع بين عبد الله بن الزبير والأمويين احتلت أيلة مكانة هامة في الأحداث السياسية والعسكرية كما هو شأنها دائماً، فالكل يحاول أن يسبق إلى السيطرة عليها، فهي حلقة وصل بين الشام والحجاز ومصر كما أسلفنا.

وفي العهد العباسي كان لأيلة دورها في الأحداث، فلما تولى هارون الرشيد لخلافة قلد الحسين بن جميل ولاية مصر وجمع إليه خراجها وصلاتها، فتشدد في جباية الخراج، فخرج عليه أبو الندى مولى بليّ في نحو من ألف رجل وأخذ يقطع الطريق بأيلة، وخرج مع أبي الندى أهل الجوف، ثم انضوى إليه رجل من جذام يقال له المنذر بن غالب بن غطفان ومعه سلام النوبي فبلغوا مبلغاً عظيماً في النهب والسلب والقتل حتى بلغ الرشيد خبرهم فأرسل إليهم يحيى بن معاذ في جيش من بغداد، كما أرسل الحسين بن جميل أيضاً إليهم جيشاً يقوده عبد العزيز الجزري، فالتقى العسكران بأيلة، وقاتلا أبا الندى وجماعته وهزموهم وظفروا بأبي الندى الذي

(١) في رواية غير موثقة ذكر مولوي، ص، ١٠. ف. حسيني، ان عمر قسم جند فلسطين إلى قسمين جعل أيلة عاصمة احدهما والرملة عاصمة القسم الآخر. وتبعه في ذلك علي حسني الخربوطلي. انظر حسيني في كتابه (الإدارة العربية)، ص ٨١، والخربوطلي، في كتابه (الإسلام والخلافة)، ص ٩٠.

(٢) انظر ملكة أبيض، التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الأولى، ص ٤١٠.

(٣) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٠٩.

(٤) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٣٠٩.

أرسل إلى بغداد حيث قتل^(١). ونالت أيلة عناية الخلفاء العباسيين وأعوانهم من القادة فانفق في إصلاح طرقها وتحسين أحوالها المال الكثير^(٢). ذلك أن أيلة كانت تصبح في فترات الاضطراب السياسي ملجأً للفارين من وجه السلطان أو العصاة المتمردين نظرًا لموقعها وصعوبة مسالك المنطقة المحيطة بها^(٣).

وفي خلال حكم الأسرة الطولونية لمصر حصل في أيلة بعض الإصلاحات، ويبدو أن الطريق المحاذي لأيلة في أسفل العقبة قد ضاق بفعل ماء البحر، فأمر أحمد بن طولون (٢٥٤-٢٧٠هـ / ٨٦٨-٨٨٣م) بإنشاء طريق جديد على حافة جبل أم نصيلة بدلاً من طريق القوافل القديم الذي كان ضيقاً محصوراً بين منحدر الجبل من ناحية وبين البحر من ناحية أخرى، فكانت تغطي عليه الأمواج في أغلب الأحيان. وسمي هذا الممر العميق، عقبة أيلة، نسبة إلى المدينة التي كانت تجاوره^(٤).

وفي سنة خمس عشرة وأربعمائة (٤١٥هـ) في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي (٤١١-٤٢٧هـ)، هاجم عبد الله بن أدريس الجعفري ومعه أحد بني الجراح مدينة أيلة ونهبها وأخذ منها نحواً من ثلاثة آلاف دينار وغلالاً، وسبى النساء والأطفال. ويعود السبب في ذلك إلى أن عبد الله عزل من ولاية وادي القرى فراجع حسان^(٥) بن الجراح ليتوسط له لدى الظاهر ليعود لولايته السابقة، غير أن الظاهر الفاطمي لم يستجب لهذه الوساطة، ففعل الجعفري ما فعل يساعده الأمير من بني الجراح، إلى أن سارت إليه قوات عسكرية من القاهرة^(٦).

(١) الكندي، الولاة والقضاة، ص ١٤٣. والنجوم الزاهرة ١٣٤/٢-١٣٥.

(٢) النجوم الزاهرة ١٠١/٣.

(٣) المرجع السابق ٩٠/٢.

(٤) المقرئزي، خطط ٣٤٥/١ وما بعدها. وموسل، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية (أيلة).

(٥) حسان بن جراح الطائي: أحد أسرة بني جراح من قبيلة طيء اليمنية الذين استقروا في فلسطين كان لهم دور في الحياة السياسية في الشام في نهاية القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس ولكنهم لم يستطيعوا إطلاقاً أن يؤسسوا دولة ولا أن تكون لهم عاصمة إلا لفترة قصيرة جداً في الرملة. وتولى حسان بن جراح في سنة ٤٠٤هـ وكون بالاشتراك مع صالح بن مرداس وسنان بن البنا حلفاء ليستقلوا بالشام عن الدولة الفاطمية فتكون حلب لابن مرداس ودمشق لسنان بن البنا وفلسطين لابن جراح. وطلبوا معاونته الأمير طور البيزنطي فلم يسعفهم، واستعان الفاطميون على محاربتهم بالقائد المشهور انوشتكين الدزيري. انظر المسبحي، أخبار مصر، ج ٤٠، ص ٣٥، ح: ١.

(٦) المسبحي، أخبار مصر، ج ٤٠، ص ٢٤-٢٥. المقرئزي، خطط ٣٤٧/١، اتعاض الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ١٤٣/١.

وتعرضت أيلة للكوارث الطبيعية علاوة على الكوارث السياسية، فقد نقل صاحب النجوم الزاهرة عن ابن الصائى أن زلزلة حدثت سنة ٤٦٠ هـ أهلكت أيلة ومن فيها وذكر أشياء كثيرة من هذه المقولة^(١). وتعرضت كل من غزة واللد والكرك سنة ٦٩٢ هـ إلى الزلازل فتهدمت فيها دور وكذلك حدثت هزة أخرى سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠٢ م، أصابت المنطقة الجنوبية من الأردن الحالي وشملت معظم افريقيا وسورية وقبرص، ولا نعلم مقدار ما أحدثته هذه الهزات من الخسائر في أيلة والمناطق المجاورة لها^(٢).

ولعل أهل أيلة لم يتأثروا كثيراً بكارثة الجراد التي أصابت منطقة شمال الجزيرة وبلاد الشام في مستهل ربيع الأول من سنة ٧٤٦ هـ/١٣٤٥ م بشكل مباشر لأن الإيليين كانوا يعتمدون في معيشتهم على التجارة وتقديم الخدمات والصيد البحري^(٣) وفي عام ٧٤٩ هـ، تعرضت غزة وبلاد الشام بعامه للطاعون الذي أفنى كثيراً من السكان في مصر وبلاد الشام، ولا بد أن أيلة أصابها ما أصاب غيرها مع أن المصادر ركزت على وفيات مصر ودمشق وغزة^(٤).

ولما أصبحت أيلة غير صالحة للملاحة نقلت إلى الجنوب من موقعها الأول وأقيمت المدينة في هذه الجهة، وهجر الناس أيلة القديمة منذ القرن التاسع، أما مدينة ويلة الجديدة - وأسمها مشتق من (أيلة) - فكانت في عهد الخلفاء مركزاً للثقافة العقلية والثقافة المادية^(٥).

ومن بداية الحروب الصليبية أصبحت أيلة محل صراع مرير بين الفرنجة والمسلمين، ذلك أن الصليبيين وضعوا نصب أعينهم منذ البداية السيطرة على شمال البحر الأحمر وذلك لتحقيق عدة أهداف منها: فصل مصر عن بلاد الشام، والاستئثار بتجارة البحر الأحمر، وفي هذا ما فيه من أضعاف لقوة المسلمين المادية والسياسية والمعنوية مقابل

(١) النجوم الزاهرة ٨٠/٥.

(٢) محمد عدنان البيخيت، مملكة الكرك، ص ١١٠.

(٣) المقرئزي، السلوك ١ م، ج ٣، ص ٧٨٣. والنجوم الزاهرة ٨، ٣٦ وما بعدها.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية. حوادث سنة ٧٤٩ هـ، ١٤/٢٢٥ وما بعدها.

(٥) موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة) وقارن، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٨-١٧٩.

زيادة قوة الصليبيين، ثم الاستيلاء على المدينة ومكة لضرب الروح المعنوية لدى المسلمين لحرمانهم من أقدس مقدساتهم^(١). كما أنهم باستيلائهم على هذه المنطقة يمنعون غارات القبائل المتتالية على مملكة القدس الصليبية، لذلك جرد بلدوين الأول سنة ٥١٠هـ/١١١٦م، حملة على أيلة وتمكن من احتلالها وضمها إلى الإقليم الذي كان يحكمه كرك مونتريال Crac don Montreal، وأقاموا الحصون في جزيرة فرعون أمام أيلة، كما أنشأوا في المدينة نفسها حصنا صغيراً وشحنوه بالمقاتلة، فمنعوا بذلك الاتصال بين مصر وبلاد الشام^(٢).

أصبحت القوة الصليبية الجديدة في أيلة وشمال البحر الأحمر عقبة في وجه التجارة، كما أصبح الحجاج يتعرضون للأذى والضرر في طريقهم على أيدي الصليبيين في هذه المنطقة^(٣).

وأمام خطورة سيطرة الأعداء على هذه المنطقة الحيوية، صمم صلاح الدين الأيوبي على تطهير أيلة وما جاورها من الصليبيين، فسار من مصر قاصداً أيلة وعمل مراكز مفصلة وحملها قطعاً على ظهور الجمال إلى ميناء عيذاب حيث أعاد تركيبها وأبحر بها نحو أيلة فحاصرها برّاً وبحراً حتى فتحها في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ^(٤)، ويمكن إدراك مدى الأهمية التي كان صلاح الدين الأيوبي يوليها لاحتلال أيلة من الرسالة

(١) حول أهداف الصليبيين من احتلال أيلة والمنطقة المجاورة، انظر: Prawer, (J). The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, p.71 King. Knight Hospitallers, p.115. Lane pool, Saladin, p.175.

سعيد عاشور، الحركة الصليبية ٣٢٧/١. يوسف غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص ١٢٧ وما بعدها.

(٢) William of tyer, A History of deeds done beyond the sea, vol.1.p.513.

وعاشور، المرجع السابق والصفحة. موسل، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية "أيلة"، ومحمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص ٥. وغوانمه، المرجع السابق، ص ٩٩.

(٣) ابن قاضي شهاب، سيرة الملك نور الدين، لوحة (٩٥) مخطوط، نقلا عن غوانمه، ص ٩٩. وانظر عاشور، المرجع السابق ٧١٥/٢.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١١٠/٩، والمقريزي، خطط ٣٤٧/١. وأبو شامة، شهاب الدين، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٦. وابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٢١٤/١. والبنداري، منا البرق الشامى، ١٠٩/١. وسط بن الجوزي، مرآة الزمان ١٧٧/٨، وابن واصل، مفرج الكروب ١٩٨/١. وأبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ٥٢/٣. وابن الوردي، تمة المختصر ٧٨/٢، وابن كثير البداية والنهاية ٢٦٣/١٢. ورائسمان ٦٣١/٢ وعاشور، المرجع السابق ٧١٨/٣ ومحمد عدنان البخيت، ص ٧. وغوانمه ص ١٢٨.

التي كتبها القاضي الفاضل - كاتب صلاح الدين - إلى الخليفة في بغداد يشره بالفتح ويصف له ما لاقاه المسلمون من عناء في فتحها، نقطتف منها: "... ومنها قلعة بثر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند، وهو السلوك منه إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقا، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها، ومقام الخليل صلوات الله عليه أن يقوم به من ناره غير برد وسلام، ومضجع الرسول شرفه الله أن يتطرق من لا يدين. بمن جاء به من الإسلام، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلاً للجهاد، وموئلاً لسفار البلاد، وغيرهم من عباد العباد، فلو شرح ما تم بها للمسلمين من الأثر الجليل، وما أستد من خلاتهم، وأحرق من زروع المشركين ورعي من غلاتهم، إلى أن ضعفت ثغورهم، واختلت أمورهم، لاحتيج فيه إلى زمن يشغل عن المهمات الشريفة لسماع مورده وإيضاح مقصده"^(١).

ويتبين من هذه الرسالة أن الفرنج غزوا سواحل الحجاز قبل عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م وهددوا الحرمين الشريفين خلافاً لما هو متعارف عليه عند المؤرخين بأن النشاط البحري الصليبي لم يصل إلى قبالة الحرمين إلا بعد تولي ارنات امارة الكرك، ودليل ذلك أيضاً ما جاء في الرسالة السابقة: "ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية"^(٢) منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع وخطب هائل ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله...".

ومن المعروف أن غزوة صاحب صقلية للإسكندرية حدثت في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م كما يتبين من تاريخ الرسالة أي ٥٧٠هـ/١١٧٤م"^(٣).

وعليه يمكن القول بأن الصليبيين بدأوا نشاطهم البحري في البحر الأحمر قبل إمارة ارنات على الكرك، غير أن هذا النشاط لا يقارن بضخامة نشاط ارنات وغزواته المنظمة التي كان يوجهها من الكرك للسيطرة على البحر الأحمر لاعتراض السفن التجارية

(١) راجع نص هذه الرسالة في: أبو شامة، الروضتين ١/٦١٠-٦٢١. وابن واصل، مفرج الكروب ٢/٤٨٦-٤٩٣. والقلقشندي، صبح الأعشى ١٣/٨١-٩٠.

(٢) يوسف غوانمة، إمارة الكرك، ص ١٠١.

(٣) أبو شامة، الروضتين ٢/٣٥. وابن واصل، مفرج الكروب ٢/١٢٧، وغوانمة المرجع السابق والصفحة.

وتهديد طريق البر أيضاً^(١). ومن هنا ندرك أن صلاح الدين كان مضطراً للحملة السابقة حتى لا يحقق الصليبيون أهدافهم ويعيثون في منطقة الحجاز والبحر نهبا وسلبا وقرصنة وفصلا بين مصر والشام.

وحتى يضمن صلاح الدين أمن أيلة وطرق المواصلات بين مصر والشام والحجاز أخذ يشن الحملات المتواصلة والشديدة على كل من قلعتي الشوبك والكرك، وكان أمير الكرك، ارناط، ينتهز الفرص ليشن بدوره الغارات على أيلة وعلى طرق القوافل البرية والبحرية، ذلك أنه وضع نصب عينيه تحقيق الأهداف الصليبية السابقة في المنطقة، أي احتلال منطقة الحجاز والبحر الأحمر وهدم المقدسات الإسلامية أو نقل جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الكرك واستخدامه وسيلة ضغط على المسلمين لاذلالهم وتحصيل الضرائب منهم^(٢).

وفي غمرة هذا الصراع عزم ارناط على إعادة احتلال أيلة مهما كلفه ذلك من ثمن. فأعد مراكب مفككة في الكرك ونقلها إلى بحر القلزم - كما سبق وعمل صلاح الدين - وذلك عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، وهاجم أيلة وتمكن من هزيمة حاميتها واحتلالها ثانية، ثم حاصر جزيرة فرعون ولم يتمكن من فتحها، فترك قسما من سفنه يحاصر القلعة في الجزيرة ويراقب مداخل البحر الأحمر، وانطلق بالقسم الثاني نحو الجنوب يريد تملك الحجاز كما قال الذهبي: "وفيها سار الفرنج بحرا وبراً لتملك الحجاز"^(٣)، فهاجم ميناء عيذاب المصري وأحرق السفن ونهب ما فيها، كما استولى على مراكب الحجاج القادمة من مدينة جدة، كما توغلت قوة صليبية في بر عيذاب وأسروا قافلة كبيرة من الحجاج كانت في طريقها إلى الديار الحجازية ... وواصلت القوة البحرية الصليبية تقدمها نحو الجنوب حتى سواحل تهامة واليمن^(٤).

(١) يوسف غوانمة، المرجع السابق والصفحة.

(٢) أبو شامة المرجع السابق والصفحة. وابن واصل، المرجع السابق والصفحة.

(٣) دول الإسلام ٩٠/٢.

(٤) حول حملة ارناط هذه انظر: المقرئ، السلوك، ٧٨/١-٧٩ وخطط المقرئ ٣٤٧/١، ورحلة ابن جبير ص ٢٩-٣٠، والكامل لابن الأثير حوادث سنة ٥٧٧هـ/ ١١٥٩-١٦٠، ومفرج الكروب ١٣٠/٢، ٣١٧/٣-٣١٨، وأبو شامة، الروضتين ٢/٢٥، وابن خلدون، تاريخ ٥/٢٩٩، والخطلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢٨٠/١، سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان ٢٣٦/٨، وفيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ص ٢٣٧،

أثارت هذه الحملة مشاعر وحماس المسلمين فدعوا إلى الجهاد المقدس لتخليص منطقة أيلة من خطر الفرنجة، وتبدو هذه المشاعر واضحة في الرسائل التي كتبها القاضي الفاضل إلى الخليفة في هذه الفترة^(١).

أرسل صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب بمصر أمراً بمواجهة الحملة الصليبية الجديدة، فعهد هذا بدوره إلى القائد البحري حسام الدين لؤلؤ^(٢)، بالمهمة، فأعد لؤلؤ أسطولاً في الإسكندرية ومصر ونقله إلى أيلة براً، وهناك أعاد تركيبه وشحنه بالمقاتلة من المغاربة البحرين. وكان مقاتلو جزيرة فرعون المحاصرون قد تضايقوا من طول الحصار الصليبي فانقطع الماء عنهم حتى شعروا بقرب الهلاك، فأرسل الله عليهم أمطاراً غزيرة في شهر شعبان سدت حاجتهم وأنقذتهم بعد يأس، فقويت معنوياتهم وخنزوا من الماء ما يكفيهم لشهرين وصمموا على الصمود للحصار. بدأ حسام الدين أول أعماله العسكرية ضد المحاصرين فأنزل بهم ضربة قاصمة وذلك في شعبان من سنة ٥٧٨هـ/ كانون الأول ١١٨٢م، فأحرق السفن الصليبية بالنار الإغريقية واسر وقتل عدداً كبيراً منهم^(٣) وأما من تمكن من الهرب إلى البر فقد أدركهم العربان في تلك الشعاب وقبضوا عليهم ولم ينج منهم أحد. وبعد جزيرة فرعون توجه حسام الدين جنوباً لملاحقة الأسطول الصليبي فمر على ميناء

ورانسما، تاريخ الحروب الصليبية ٧٠٦/٢، وانظر أيضاً: Conder, the Latin Kingdom, p. 140, 381. Stevenson, W.D, The Crusaders in the east, p. 229. King, Knight, p. 115. Lane poole, Saladin, p. 176.

(١) جمع الدكتور الشيال رسائل القاضي الفاضل المتعلقة بهذه الحملة في آخر كتاب ابن واصل، مفرج الكروب ج ٣ من رقم ٧-١١، ص ٣١٢-٣١٨. انظر يوسف غوانمة، المرجع السابق، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) حسام الدين لؤلؤ: كان من كبار قواد صلاح الدين الأيوبي، وعرف بأنه أشجع الشجعان وأفرس الفرسان، فهو الذي حطم الفرنج في بحر أيلة وبر الحجاز وكان كثير المرات واسع الخيرات اشترك في معارك كثيرة ضد الصليبيين، وفيه يقول الرضي بن أبي حصينة المصري مخاطباً الفرنج:

عدو لكم لؤلؤ والبحر مسكنه والدرفي البحر لا يخنق من القبر
فأمر حسامك أن يحظى بنحريهم فالدر من كان منسوباً إلى البحر

توفي في القاهرة سنة ٥٩٦ هـ. انظر أبو شامة، الروضتين ٢/ ٢٤٠ عاشور، المرجع السابق، ويوسف غوانمة، المرجع السابق ص ١٣٢.

(٣) حول هذه الحملة انظر: مصادر حملة ارنات السابقة وسعيد عاشور، الحركة الصليبية ٧٨٧/٢ وما بعدها. ويوسف غوانمة، المرجع السابق ص ١٣١-١٣٢.

عذاب ولم يجد به أثراً لهذا الأسطول^(١) اللهم إلا الدمار الذي ألحقه الصليبيون بالميناء والسفن التي كانت به، وتابع حسام الدين مطاردة الأعداء فوجدهم قد بلغوا ميناء رابغ^(٢) الحجازي حيث اعترضوا تجاراً فنهبوا بعضهم واسروا آخرين وأشاعوا الذعر في سواحل الحجاز، وتوجهوا نحو ساحل مكة وفي نيتهم الاستيلاء على المدينة المنورة، فتركوا مراكبهم في الميناء المواجه للمدينة بحراسة عدد من جنودهم، وسار ارناط ومعه فرسان الداوية وعددهم نحو ثلاثماية مقاتل يساعدهم بعض الأعراب المرتزقة من أهالي تلك الجهات، وساروا جميعاً حتى قربوا من المدينة، وقد انهكتهم حرارة الشمس المحرقة وصعوبة الطريق الوعرة، ومع ذلك كله صمم ارناط على الوصول إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

أدرك لؤلؤ مراكب أعدائه في الحوراء^(٣) فأحرقها وأطلق الأسرى من التجار ورد إليهم ما أخذ منهم، ونزل إلى البر بقسم من قواته حيث قدم لهم كثير من الأعراب المساعدة، كما قدموا لهم الخيل للركوب، وتبعوا آثار ارناط مسرعين حتى لا يتمكن الأخير من تحقيق أهدافه. وبعد خمسة أيام تمكنوا من اللحاق به على بعد يوم من المدينة، أدرك ارناط أن لا سبيل للعودة إلى أسطوله في البحر الأحمر، وفر جنده إلى الجبال، وفر هو نحو الشمال متخفياً يبغي العودة إلى منطلقه، وتمكنت قوات حسام الدين من قتل وأسر معظم جند ارناط الذي استطاع الوصول إلى قواته في تبوك والعودة بهم وبمن نجا معه إلى الكرك^(٤).

وعاد لؤلؤ بأسراه وكانوا مائة وسبعين أسيراً، فأرسل اثنين منهم إلى مكة المكرمة حيث نحرأ في منى في موسم الحج ليكونا عبرة لمن يعتبر^(٥) وأما البقية فقد حملهم معه إلى

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ١٥٩/٩-١٦٠. وتاريخ ابن خلدون ٢٩٩/٥.

(٢) رابغ: مدينة على ساحل البحر الأحمر منها بحر الحجاج، وهي تقع إلى الشمال من جدة.

(٣) الحوراء: مدينة على ساحل وادي القرى، بها مسجد جامع وبها ثمانية آبار عذبة وبها ثمار ونخل وأهلها عرب من جهينة ويلي. انظر المقرئ، خطط ٣٤٧/١، وصبح الأعشى ٣٨٩/٣.

(٤) انظر حول هذه الحملة أيضاً: الخبيلي، الأنس الجليل ٢٨١/١. ابن واصل مفرج الكروب ٣١٦/٣، ٣١٨/٣. Conder, OP. cit, p. 147. وأبو شامة، الروضتين ٣٥/٢، والذهبي، دول الإسلام ٩٠/٢. وسبط ابن الجوزي، ومرة الزمان ٢٣٥/٨. وتاريخ ابن خلدون ٢٩٩/٥.

(٥) سبط ابن الجوزي، مرة الزمان ٢٣٥/٨، وأبو شامة، الروضتين ٣٥/٢. وابن واصل مفرج الكروب ١٣٨/٢. وأبو

مصر، وكان دخولهم مصر عظيماً، ثم وزعوا على سائر المدن المصرية ليقتلوا بها، وقد شاهد ابن جبير عددًا منهم في الإسكندرية أثناء وجوده بها^(١) عام ٥٧٨هـ/١١٨٣م، وقد اركبوا على الجمال بالمقلوب وطيف بهم في شوارع الإسكندرية بين قرع الطبول والنفخ في الأبواق، ثم قتلوا، ولقد استغرقت حملة ارناط وعيثة في منطقة البحر الأحمر فساداً زهاء أربعة أشهر من شعبان حتى ذي القعدة من العام ٥٧٨هـ/١١٨٢-١١٨٣م. وفي حملة ارناط هذه قال ابن الوردي^(٢):

لقد طمع البرنس بمستحيل فجر لقومه سفك الدماء
ولو ترك النبي بالادفاع لدافع عنه املاك السماء

ومما يجدر ذكره أنه في الحصار الثاني لأيلة وقلاعها دمرت حصون الجزيرة وهدم جانب من المدينة، ولكن سرعان ما استعادت مجدها في عهد حكام حصن الكرك من بني أيوب ومن المماليك من بعدهم، وكانت الغش التي مشبت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر سبباً في القضاء على تجارة أيلة، وفي دمار المدينة نفسها وبقي منها فقط القلعة الموجودة على أرض القارة لتحمي العقبة طريق الحجاج الوافدين من مصر، وسميت المدينة بعد ذلك باسم العقبة فقط وأسقط من التسمية اسم "أيلة"^(٣). وبعد هزيمة الصليبيين لم نعد نجد في المصادر أخباراً ذات قيمة عن أيلة، فقد ذكر أن فئة من اليهود كانت تسكنها، كما بقيت أيلة محطة لقوافل الحجاج، ثم أصبحت ملجأً للمتمردين على الدولة أو الراغبين في العصيان، أو سجنًا للخصوم في العهد المملوكي والعثماني^(٤).

لقد رافق، جلدن Gildden بعثة المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية التي نقبت في موقع تل الخليفة، وذلك تحت إدارة نلسون جلك في ربيع ١٩٤٠، درس جلدن النقوش

الفداء، المختصر في أخبار البشر ٦٩/٣. ورائسمان، الحروب الصليبية ٧٠٧/٢ و Lane poole, Saladin p.176. ويوسف غوانمة، إمارة الكرك ص ١٣٤-١٣٥.

(١) ابن جبير، الرحلة، ص ٣١. انظر رسالة القاضي الفاضل إلى الخليفة يصف فيها فتح أيلة في صبح الأعشى في صناعة الانشا ٢٧/٧ - ٢٨.

(٢) تنمة المختصر في أخبار البشر ١٤٠/٢.

(٣) موسل، دائرة المعارف الإسلامية (أيلة)، ص ٢٠٨.

(٤) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٨٧. والمقريري، خطط ١٨٤/١ ومحمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص ٢٩.

الموجوة على جدران مدخل حصن العقبة ونشرها^(١)، وأورد النص على النحو التالي:

أ - الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليمنى من مدخل الحصن تقول:
القلعة المباركة السعيدة مولانا المالك الملك الأشرف أبو النصر قانصوه
الغوري سلطان الإسلام والمسلمين قاتل (الكفرة والمشركين).

ب- الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليسرى من المدخل تقول:
محبي العدل في العالمين ... السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه
الغوري أعز الله أنصاره بمحمد وآله وكان (Sic) بنى هذه القلعة المباركة
ذات الأمير خاير بك العلاي (العلائي For) المعماري ... بتاريخ (سنة) عشر
(.....).

وقد استخلص جلدن أن باني القلعة هو السلطان المملوكي قانصوه الغوري، وأكمل
الفراغات المطموسة في الجزء الثاني من الكتابات مصححاً النص كما يلي:
بتاريخ سنة عشرين وتسعمائة أو تسعمائة وعشرين، أي ما يساوي ١٥١٣-١٥١٥م.
وقد ذكر ابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) اسم الأمير خاير بك
العلاي المعروف بالمعمار في آخر أسماء الأمراء المقدمين الستة والعشرين في زمن
السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٢٢هـ وقال: "والأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين
وكان مقيماً بشعر رشيد بسبب عمارة الأبراج التي هناك والصور"^(٢) وكما هو واضح
من النص الذي نشره جلدن فإن خاير بك هو باني قلعة أيلة كما هو الباني للعديد من
المنشآت العمرانية في أواخر العهد المملوكي وبخاصة عهد السلطان قانصوه الغوري.
وذكر ابن إياس أن خاير بك هذا لم يوافق قانصوه الغوري في حملته إلى شمال سورية^(٣)
لمواجهة السلطان سليم العثماني في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦م. وإنما تخلف مع
مجموعة الأمراء التي بقيت في القاهرة. وبعد معركة الريدانية ودخول الجيش العثماني

(١) Glidden, M.W. The Mamluk Origin of the Fortified Khan At Al Aqaba, Jordan, Archaeologica (١) Orientalian memoriam, E. Hery Feld, New York, 1952, p.116-118.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٥، ص ٣٩.

(٣) وذلك على غير ما ذهب إليه جلدن اعتماداً على ابن إياس، أن خاير بك رافق قانصوه الغوري سنة ٩٢٢هـ، ويمكن أن يكون قد قتل في تلك المعركة. انظر مقالة جلدن السابقة.

القاهرة، تعرض بيت خاير بك المعمار للنهب على ايدي الجند العثمانيين الذين نهبوا بيوت الأعيان المصريين، ولم يذكر ابن اياس عن نهاية خاير بك شيئاً. بالإضافة إلى ترميم القلعة فقد اصلح قانصوه الغوري الطريق إلى العقبة وبنى فيها الخان السالف الذكر تحيط الأبراج بواباته، وخصص له الخواصل لمنفعة الحجاج^(١).

٤- بدأت أسماء الايليين تظهر منذ عهد مبكر (القرن الأول الهجري). ولا عجب أن وصف السمعاني أيلة بقوله: خرج منها جماعة من العلماء والفضلاء من كل نوع^(٢) فقد شغل عبد الله بن سعد الايلي القضاء في عهد عمر بن عبد العزيز^(٣) وذكر الأصفهاني أن عبد الله بن يونس صاحب أيلة كان ملحنًا، وأورد له لحنا في أخباره عن الوليد بن يزيد^(٤). وحل بأيلة العديد من الخلفاء ورجال الدولة وهم في طريقهم إلى الحج أو في انتقالهم من قطر إلى آخر، ولهذا ما له من تأثير في الحياة العامة لمدينة أيلة^(٥) التي أصبحت مركزاً من مراكز الثقافة في بلاد الشام نسب إليها عدد من العلماء والمحدثين نذكر منهم^(٦).

١. أبو زيد، يونس بن زيد بن أبي النجاد الأيلي، المتوفى في بضع وخمسين ومائة وهو من موالي معاوية بن أبي سفيان، وهو من أبرز تلاميذ ابن شهاب الزهري، روى عن أخيه أبي علي بن يزيد، ونافع مولى ابن عمر، وهشام بن عروة وعمارة بن عزة وعكرمة وغيرهم.

وروى عنه كثيرون منهم جرير وعمرو بن الحارث وابن أخيه عنبسه بن خالد الأيلي، والليث والاوزاعي وسليمان بن بلال، وطلحة بن يحيى الزقي وابن المبارك

(١) انظر ابن اياس، بدائع الزهور، المرجع السابق، ج ٥، ص ٢٩، وما بعد. وانظر أيضاً، الحميري الروض المعطار، ص ٧١.

(٢) أنساب السمعاني، ٤٠٩/١ رقم (٢٩٠).

(٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٧٦.

(٤) الأغاني، ٦٩/٧. نسب لأيلة أكثر من واحد بهذا الاسم ولم نتبين أيهم الذي عناه أبو الفرج الأصفهاني. انظر: البسوي، المعرفة والتاريخ ٦١٢/٢.

(٥) انظر على سبيل المثال، المحب، ص ٣٧، والنجوم الزاهرة ٢٠٦-٢٠٨.

(٦) اكتفينا بالتعريف بالمشهورين من العلماء الذين نسبوا إلى أيلة، وذكرنا أسماء الآخرين ذكرًا فقط. ولا ندعي أن هذه الأسماء هي كل ما نسب إلى أيلة من علماء ومحدثين.

وابن وهب والقاسم بن مسرور ومفضل بن فضال وشبيب بن سعد سعد الحبطي، وبقية بن الوليد، وحسان ابن ابراهيم الكرماني، وعبد الله ابن رجاء المكي، وأبو صفوان عبد الله بن سعيد الأموي وعبد الله بن عمر النميري وعثمان بن عمر بن فارس وآخرون. وقيل فيه أنه ثقة حلو الحديث كثيره، كما قيل فيه غير ذلك^(١).

٢. عقيل بن خالد الايلي القرشي الأموي مولى آل عثمان بن عفان، قيل توفي بمصر سنة إحدى أو اثنتين وأربعين ومائة. ويكنى أبو خالد، روى عن الزهري، وعن أبيه وعمه زياد ونافع مولى ابن عمر وعكرمة والحسن وسعيد ابن أبي سعيد الخدري وسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت وسلمة بن كهيل وغيرهم. وكان عقيل في الشرطة فلازم الزهري الذي كان بدوره أميراً للجدد وروى عنه، وكان الزهري إذا ما رأى عقيلاً أصيب بالنعاس من السهر خاطبه قائلاً: "ما أنت من سمار قريش الذين قال الله فيهم: ﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [الزمنون: الآية (٦٧)]"^(٢).

٣. هارون بن سعيد الايلي. روى عن ابن عيينة وابن وهب وأبي ضمرة وخالد بن أبي نزار ومؤمل بن إسماعيل وبشر بن بكر، وعنه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأبو حاتم ومحمد بن وضاح وبقي بن مخلد والمعمري وزكريا الساجي وعاصم بن رازح وعمر بن محمد البحيري وعلي بن أحمد بن علان وابن أخيه مسعدة بن حازم المصري وأسامة بن يحيى التجيبي وأبو جعفر الطحاوي وأبو بكر بن أبي داود، وآخرون منهم أبو العباس الشيباني النسوي محدث خراسان في عصره. وهو ممن تعرض للمحنة في خلق القرآن في زمن الوائق سنة ٢٢٧هـ ووصف بالجرأة في القول، وقيل أنه كان مقدماً في الحديث ثقة فاضلاً وتوفي سنة ٢٦٣هـ وقيل بل سنة ٢٥٣هـ^(٣).

(١) انظر طبقات ابن سعد ٥٢/٧، وطبقات ابن خياط، ص ١٩٦، ويحيى بن آدم، كتاب الخراج، (انظر يونس بن يزيد الايلي في فهرس الاعلام)، والبسوي، المعرفة والتاريخ ١٣٩/١. وأنساب السمعاني ٤١٠/١ رقم (٢٩٠) والذهبي، العبر ٢١٨/١. وابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٥٠/١ وما بعدها، رقم (٧٦٩).

(٢) عن عقيل انظر: طبقات ابن سعد ٥١٩/٧. وطبقات ابن خياط، ص ٢٩٥. والبسوي، المعرفة والتاريخ ١٢٤/١ و ٦٢٦/١ وصفحات متفرقة - انظر الفهرس. والذهبي، سير اعلام النبلاء ٢٤١/٥ (يذكر أن الزهري كان أمير جند). وابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٥٥/٧ وما بعدها رقم (٤٦٧).

(٣) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ١٩٩، ٣٠٣، ٣٠٤، ٤٥١، ابن الجوزي، المنتظم ١٧٢/٦. الذهبي، تذكرة الحفاظ رقم (٥٤٨)، ابن حجر، تهذيب (١٢) ٦/١١-٧. أنساب السمعاني ٤١١/١.

٤ . محمد بن عزيز بن عبد الله بن زياد بن خالد بن عقيل بن خالد الأيلي، أبو عبد الله العقيلي مولى بني أمية توفي سنة ٢٦٧ هـ بأيلة. روى عن ابن عمه سلامة بن روح وسليمان بن سلم الجنائزي ويعقوب بن زهدم بن الحارث. وعنه النسائي وابن ماجه وأبو داود في غير السنن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهو من أقرانه ويعقوب ابن سفيان ومحمد بن مسلم بن واره وأبو حاتم وابن أبي عاصم وجعفر الغرياني وحرمي بن أبي العلاء وبكر بن سهل الدمياطي وزكريا الساجي وابن خزيمة وأبو عوانة وعمرو بن أبي الطاهر المصري وعلي بن اسحاق بن زياد وعبد الله بن محمد بن مسلم الأسفرائيني وأبو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يحيى عن يعقوب بن سفيان قال: دخلت أيلة فسألت عن كتب سلامة بن روح ووجدت له فيها حديثاً^(١).

٥ . أبو عثمان عنبسه بن خالد بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي من موالي بني أمية. روى عن عمه يونس بن يزيد الأيلي، وابن جريج وابن المبارك ورجاء بن جميل. وروى عنه، عبد الله بن وهب وهو من أقرانه، ومحمد بن مهدي الأحميني وهاشم بن محمد الربيعي وأبو محمد الأموي وأحمد بن صالح المصري، وقيل أنه كان على خراج مصر، توفي بأيلة في جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين ومائة (سنة ١٩٨ وقيل سنة ١٩٧) وقيل عنه ثقة كما قيل ضعيف الحديث. وأتهم بأنه كان يعلق النساء بالثدي عندما كان على خراج مصر^(٢).

٦ . زريق بن حكيم الأيلي، وقيل بن الحكم، وهو الذي كتب إليه الخليفة عمر بن عبد العزيز: "إنك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ... إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا تقض إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين". وروى عن عمرة بنت عبد الرحمن وسعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وروى عنه

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ١٥٣/٢. ابن حجر، تهذيب التهذيب ٩/٣٤٤ رقم ٥٦٧.

(٢) البسوي، المعرفة والتاريخ ٦/١٧٥، ٤/٣، ٣٣٣/٣، ٣٦٧/٣. أنساب السمعاني (٢٩٠) ١/٤١٠، تهذيب ابن حجر (٢٧٦) ٨/١٥٤.

ابنه ومالك وابن عيينه ويونس بن يزيد الأيلي وعقيل الأيلي، وسعيد بن أبي أيوب وغيرهم وقيل عنه ثقة^(١).

٧. طلحة بن عبد الملك الأيلي روى عن القاسم بن محمد وزريق بن حكيم، وروى عنه أخوه القاسم بن سرور والأوزاعي، ومالك بن أنس، وعبيد الله وعبد الله ابنا عمر ويحيى القطان وقيل عنه ثقة^(٢)، فقد روى خبر معاملة عمر بن عبد العزيز لأهل أيلة^(٣).

٨. عبد الجبار بن عمر الأيلي ويكنى أبا الصباح وهو من موالي بني أمية. روى عن الزهري وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وربيعه ويحيى بن سعيد الأنصاري وإسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وغيرهم، وعنه رشد بن سعد وابن المبارك وابن وهب وأبو عبد الرحمن المقرئ وسعيد بن أبي مریم وغيرهم، قيل عنه ضعيف، وذكره البخاري في فصل من مات من الستين إلى السبعين ومائتين^(٤).

٩. أبو صخر يزيد بن أبي سمية الأيلي كان من العباد يصلي ليله أجمع ويكي وكان يوافي المواسم كل عام على محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم ويزيد بن خصيفة وسليمان بن سحيم وأبي حازم فيلقون عمر بن ذر فيقص عليهم ويذكرهم أمر الآخرة فلا يزالون كذلك حتى ينقضي الموسم، ثم لا يلتقون بعد إلا في كل موسم. روى عن أبي عمر وعمر بن عبد العزيز وأبي بكر بن عبد الرحمن وهشام بن اسماعيل، وروى عنه هشام بن سعد المدني وأبو الصباح سعدان بن سالم الأيلي وعبد الجبار بن عمر الأيلي، وقيل عنه صالح الحديث ثقة^(٥).

١٠. سعد بن عبد الله بن سعد الأيلي توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة، روى عن محمد بن

(١) ابن سعد، الطبقات، ٥٢٠/٧، ابن خياط، ص ٢٩٥، البوي، المعرفة والتاريخ ٦٩٢/١، تهذيب ابن حجر (٥١٥) ٢٧٣/٣.

(٢) ابن سعد، المرجع السابق، ٥١٩/٧. ابن خياط، ص ٢٩٦، تهذيب ابن حجر (٤٧) ١٩/٥-٢٠.

(٣) البلاذري، فتوح، ص ٧١.

(٤) طبقات ابن سعد ٥٢/٧، البسوي، المرجع السابق ٤٤/٣، الذهبي، ميزان الاعتدال رقم (٤٧٤٣) ٥٣٤/٢. تهذيب ابن حجر (٢٠٩) ١٠٣/٦.

(٥) طبقات ابن سعد، ٥١٧/٧. تهذيب ابن حجر (٦٣٨) ٣٣٤/١١.

كعب القرظي والقاسم بن محمد وعنه صخرة بن ربيعة وقيل عنه ثقة ولا بأس به^(١).

١١. سعدان بن سالم الأيلي ويكنى أبو الصباح، كان أحد النفر الذين وفدوا على عمر بن عبد العزيز، روى عن يزيد بن أبي سمية أبي صخر الأيلي وسهل بن صدقة مولى عمر بن عبد العزيز وذكر في الثقات^(٢).

١٢. يحيى بن صالح الأيلي روى عن اسماعيل بن علي وعنه يحيى بن بكير المصري وذكر أن ابن بكير لقيه بأيلة سنة سبع وتسعين وذكر له أحاديث وقال كلها غير محفوظة وذكر من الضعفاء^(٣).

١٣. شيان بن فروح، وهو شيان بن أبي شبة الخطمي مولا هم أبو محمد الأيلي. ولد في حدود سنة ١٤٠ ومات سنة ست وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين. روى عن جرير بن حازم وأبي الأشهب العطاردي وأبان بن يزيد العطار وحماد بن سلمة وسلام بن مسكين ومهدي بن ميمون وعبد الوارث بن سعيد وسليمان بن المغيرة والصعق بن حزن وعبد العزيز بن مسلم وأبو داود. وعنه أبو داود والنسائي بواسطة أبي بكر الأحمد بن إبراهيم العطار وابن علي بن سعيد المروزي وزكريات بن يحيى السجري وأبو يعلى والحسن بن سفيان وبقي بن مخلد وجعفر بن محمد الغرياني وعبد الله بن أحمد وعبدان الأهوازي وعثمان الدارمي وموسى بن هارون وأبو القاسم البغوي وغيرهم. قيل كان ثقة صدوقاً^(٤).

١٤. خالد بن نزار بن المغيرة بن سليم الغساني مولا هم الأيلي. وقال ابن سعد مات سنة ٢٢٢هـ. روى عن إبراهيم بن طهمان وسفيان بن عيينة وعنه مالك والقاسم بن مبرور والاوزاعي ونافع بن عمر الجمحي وابن أبي الزناد ومحمد بن إدريس الشافعي وهو من أقرانه وغيرهم. وعنه أحمد بن صالح المصري وأبو الطاهر بن السرح وابنه طاهر بن خالد ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهارون بن سعيد

(١) البسوي، المعرفة والتاريخ ١/١٦٣. ابن حجر، تهذيب رقم (٨٨٥) ٣/٤٧٦.

(٢) البسوي، المعرفة ١/٥٨٤، ٢/٦٩٠. ابن حجر، تهذيب رقم (٩٠٨) ٣/٤٨٧.

(٣) ابن حجر، تهذيب (٣٧٢) ١١/٢٣١.

(٤) ابن حجر، تهذيب (٩٢٦) ٤/٣٧٤-٣٧٥.

الاييلي وجماعة. وذكر في الثقات^(١).

١٥. الحكم بن عبد الله بن سعد بن عبد الله الايلي، مولى الحارث بن الحكم بن أبي العاص، قيل أنه سمع الحديث من أنس بن مالك وحدث بدمشق وغيرها عن الزهري ونافع وغيرهما وروى عنه يحيى بن حمزة والليث بن سعد وغيرهما، وثقه جماعة وضعفه وكذبه آخرون^(٢).

١٦. الحسين بن محمد بن الحسن بن عامر بن أحمد أبو طاهر الأنصاري الخزرجي المقرئ المعروف بابن خراشة الايلي من أهل أيلة كان امام المسجد الجامع بدمشق قرأ القرآن على المظفر الأصبهاني وأقرانه وحدث عن الحنائي وطبقته توفي سنة ثمان وعشرين وأربعمائة وكان ثقة نبيلًا مامونًا أشعري المذهب^(٣).

١٧. داود بن أيوب بن سليمان بن عبد الأحد ويقال بن عبد الواحد الإيلي حدث عن أبيه وهشام بن عمار وإبراهيم بن المنذر وروى عن ابن الأعرابي وغيره^(٤).

١٨. اسحاق بن اسماعيل بن العلاء وقيل ابن عبد الأعلى الايلي كنيته أبو يعقوب. روى عن سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد وسلامة بن روح وغيرهم. وعنه النسائي وابن ماجه وابن واره ومكحول البيروني وعبد الله بن مسلم المقدسي وغيرهم. توفي بأيلة سنة ٢٠٨ هـ^(٥).

١٩. احمد بن عبد الله بن زكريا الايلي^(٦).

٢٠. اسماعيل بن حفص بن عمر بن دينار ويقال ميمون الايلي^(٧).

(١) ابن حجر، تهذيب (٢٢٦) ١٢٣/٣.

(٢) ابن عساكر التهذيب تاريخ دمشق ٣٩٧/٤.

(٣) ن.م. ٣٥٩/٤.

(٤) ن.م. ١٩٨/٥.

(٥) ابن حجر، تهذيب (٤١٧) ٢٢٥-٢٢٦.

(٦) الاسنوي، طبقات الشافعية ١٢٣/١ رقم (١٠١).

(٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٢٨/١ رقم (٥٣٨).

٢١. عمر بن سعيد الأيلي^(١).
٢٢. حسين بن رستم الأيلي^(٢).
٢٣. شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عمر الأيلي^(٣).
٢٤. أبو عبد الله الأيلي^(٤).
٢٥. عبد الله بن سعد الأيلي ت ٢٢٩هـ^(٥).
٢٦. عبد الله بن يونس الأيلي^(٦).
٢٧. سعيد بن الهيثم الأيلي^(٧).
٢٨. حسان بن أبان بن عثمان أبو علي الأيلي ت ٣٢٢هـ^(٨).
٢٩. مره بن عمرو الأيلي^(٩).
٣٠. أحمد بن الحسين المصري الأيلي ت ٢٩٢هـ^(١٠).

هذا وزار العديد من العلماء أيلة وأقاموا فيها فترات متقطعة أذكر من بينهم عبد الرحمن بن اسحق أبو القاسم الزجاجي النحوي من أهل بغداد وسكن طبرية وأيلة

-
- (١) البسوي، المعرفة والتاريخ ٦٩٩/١.
 - (٢) طبقات ابن سعد ٥٢٠/٧.
 - (٣) شذرات الذهب ٣٥/٧.
 - (٤) الهمداني، الاكليل ٢٣٢/٨.
 - (٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٧٦.
 - (٦) الأغاني ٦٩/٧.
 - (٧) الكندي، الولاة والقضاة، ص ٤٠٧.
 - (٨) باقوت، معجم البلدان (أيلة).
 - (٩) الاكليل ٢٠٥/٨.
 - (١٠) النجوم الزاهرة ١٥٧/٢.

وحدث بدمشق وصنف في النحو مختصراً^(١)، وكذلك حل بها عبد الله بن المبارك المحدث المشهور حيث جعله ابن سعد فيمن حل فيها^(٢) وقد ترك المدينة بعض العلماء ونزلوا أيلة طلباً للعزلة، فقد قيل الزهري، يا أبا بكر: "طلبت العلم حتى إذا كنت وعاء من أوعيته تركت المدينة وخرجت عنها" قال: "انما كنت أنزل المدينة والناس إذ ذاك اناس"^(٣) وكان الزهري قد حل في أيلة.

(١) المرجع السابق ٣/٣٠٢-٣٠٣.

(٢) الطبقات الكبرى ٧/٥٥٤.

(٣) البسوي، المعرفة والتاريخ (عن العباس بن عبد العظيم) ١/٦٢١.

طريق الحج الشامي في العهد الأموي

(قراءة في المصادر)

تعيد دراسة طرق الحج الشامي في الفترة الإسلامية المبكرة إلى الأذهان الدور البارز الذي لعبته هذه المنطقة الجغرافية العربية الممتدة ما بين دمشق والحجاز، في حركة المواصلات العالمية عبر العصور التاريخية الموعلة في القدم. والصلات بين الحجاز والشام لم تنقطع طيلة الفترات التاريخية بحكم الاتصال الجغرافي ووحدة المصالح المتمثلة بالقيام بدور الوسيط في مبادلة السلع التجارية العالمية.

فمنذ أن قامت الكيانات السياسية اليمنية - معين، وسبأ، وحميز - والكيانات السورية المتعاقبة - منذ أيام الفنيقيين ومرورا بالأنباط والرومان وحتى قيام الإسلام - ظل الطريق التجاري الواصل بين عدن وسواحل البحر الأبيض المتوسط، وإلى مدينة غزة بخاصة، مزدهراً تعبّره القوافل المحملة بالسلع العربية المحلية والعالمية جيئة وذهاباً، فقد كان يشكل طريق البحور في العصور الكلاسيكية، حيث كانت الجمال تحمل البخور إلى البتراء ومنها إلى سوريا متبعة طريق مآدبا وعمون وبصرى إلى دمشق^(١).

وقد أدرك الرومان أهمية الطرق الواصلة بين الحجاز والشام، ومنحوها اهتمامهم فأنشأ تراجان (٩٨-١١٧م) طريقاً يصل بين بصرى والعقبة مرورا بفيلا دلفيا (عمان الحالية) وكابتلاياس (أم الجمال) متجنباً البتراء، وأطلق عليه الطريق الجديد^(٢) (Via nova). ومن الجدير ذكره أن الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام كانت تحتازها ثلاث طرق من الشمال إلى الجنوب في العهد الروماني والبيزنطي (القرن الخامس للميلاد) وهي:

(١) Andrew D. Petersen, Early Ottoman Forts on the HAJJ Road in Jordan Thesis Pembroke College (١) Oxford, Trinity Term 1986, p.7.

(٢) نقولاً زيادة، التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب، مجلد بلاد الشام في العهد البيزنطي، الندوة الأولى من أعمال المؤتمر الرابع لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت ومحمد عصفور، عمان ١٩٨٦ م. صص ٩٥-١٣٧، ص ١٦-١٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: نقولاً زيادة، التطور الإداري.

١ - طريق دمشق - بصرى - فيلادلفيا - أيلة.

٢ - اللجون (الفلسطينية) - نيبوليس (نابلس) - ايليا (القدس) - بئر السبع - الوسا (الخلصة) - البتراء.

٣ - قيسارية - ديوسبوليس (اللد) - غزة - رفح (١).

وكان يطلق على الطريق الذي يمر بمنطقة البحر الميت: الطريق الملكي، الذي كان التجار المصريون يستخدمونه. ومن العراق النبطية المهمة، تلك التي تصل "بترا" عبر وادي عربة والنقب إلى البحر الأبيض المتوسط^(٢). وقد ورد في كتابات القدماء عدد من المدن كمحطات تجارية مثل: بتراء، حابيل، الجوف، تيماء، تبوك، خير، ددان، مدائن صالح، "الحجر" غزة، عسقلان، ادوم، مآب، بالإضافة إلى معظم المدن الموجودة شرق الأردن^(٣).

ازدهرت مكة في القرون الميلادية القريبة من الإسلام، بفضل موقعها المتوسط على الطريق التجاري الهام بين جنوب الجزيرة العربية والبحر المتوسط. وقد استغل أهل مكة موقعهم هذا، كما مهرروا في الدبلوماسية التجارية مستفيدين من الظروف الدولية المواتية،
(١) نقولا زيادة، التطور الإداري، ص ١٢٠.

N.Gluck, (Deities and Dolphins), New York, 1965, p.44.

(٢)

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: N.Gluck

(٣) ولزيد من المعرفة حول الطرق القديمة في هذه المنطقة انظر:

Y.Aharoni, (The Roman Roads to AILA), I.E.J, IV, 1954, pp 9-16.

سيشار إليه عند وروده فيما بعده هكذا: Aharoni

Ph, Grant, "The Syrian Desert Caravans, Travel and Exploration", New York, The Macmillan Company, 1938.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Grant

R.G, Goodchild, "The Coast Road of Phoenicia and its Roman Milestones, Archaeological Studies " Berytus IX, 1949, pp. 91-127.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Goodchild

Ph, Mayerson. The Desert of Southern Palestine according to Byzantine Sources, P.A. Ph. S. C VII, 1907, pp. 79-80.

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Mayerson

R. F. Burton, Personal Narrative of apiligrimage to Al-Madinah abd Mecca, 2 Vols. (Dover Edition, 1964).

سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Burton

G.A. Smith, The Historical Geography of the Holy Land, Fontana Library, 1968.

G.W. Bowersock, Roman Arabia, Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1983.

جواد علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠م، دار العلم للملايين، ط ١، مكتبة النهضة، بيروت، بغداد، ١٩٧١م، ص ٣٣١، ٣٦٤. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: جواد علي، الفصل.

إذ أن الحروب في بلاد ما بين النهرين كانت تجعل طريق ساحل البحر الأحمر أكثر أهمية من غيرها. كذلك كانت تردد أهمية هذا الخط كلما اندلعت الحروب بين الساسانيين وبيزنطة، ويعود السبب في ازدهار مكة إلى هذا الخط، وفي ذلك قال تريس (Tresse). "إن موقع مكة في منتصف الطريق التجاري بين عدن وغزة جعل منها جمهورية اوليغارشية مزدهرة في القرن السادس الميلادي"^(١).

وقد ابتكر المكيون (قريش) الايلاف، وتخطوا بهذا الأسلوب - من التعامل المحلي والدولي - معظم المشاكل التي كانت تعترض حركة التجارة في داخل بلاد العرب وخارجها. ومنَّ الله على قريش بالايلاف - الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف - وذكرهم بفضلهم في سورة خاصة من سور القرآن الكريم^(٢). وبفضل الايلاف: "أصبح المقيم رابحا والمسافر محفوظا"، كما يقول الجاحظ^(٣).

وقد دلت الفتوحات الإسلامية على خبرة قريش بجغرافية الشام وشمال الحجاز بشكل خاص وبقية الأقاليم المجاورة بشكل عام. فقد كانت دروب هذه المنطقة واضحة تمامًا في أذهان قادة الدولة الإسلامية، واستخدموها بكفاءة عالية تدل على خبرتهم الطويلة ومعرفتهم الواسعة بجغرافية المنطقة.

وإذا قيل أن الفتوحات الإسلامية لسوريا والعراق سببت تراجعًا في تجارة القوافل المكية، فإن الحج أدى إلى تزايد أهمية مكة الدينية^(٤)، ذلك أن الإسلام وحد المنطقة وأصبحت تخضع لإدارة واحدة، مع ما رافق حركة الفتوح وانتشار الإسلام من أمن واستقرار. كما تزايدت العناية بالطرق بعامة والطريق الشامي بخاصة، لأسباب كثيرة منها^(٥):

(١) Petersen, p. 8

(٢) سورة قريش، رقم (١٠٦) وآياتها أربع.

(٣) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٢٥هـ/ ٨٩٦م) (كتاب رسائل الجاحظ) جمع حسن السندوبي، القاهرة ١٩٣٣، ص ٧١. ولمزيد من المعلومات حول الإيلاف، انظر: صالح الدرادكة، (إيلاف قريش: ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الإسلام)، مجلة دراسات تاريخية، ع ١٧-١٨، أب، تشرين الثاني، ١٩٨٤م، ص ٥١-٧٢.

(٤) Perersen, p. 8

(٥) انظر: صالح العلي، (طرق المواصلات في الحجاز)، مجلة العرب، ج ١١، السنة الثانية، جمادي الأول، ١٣٨٨هـ أب ١٩٦٨م، ص ٩٦٣-٩٦٦، ٩٧١. وسيسار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: صالح العلي، طرق المواصلات.

١ - حركات الجيوش: منذ أن انطلقت جيوش الفتح الإسلامية من المدينة (قاعدة الحجاز) نحو بلاد الشام في عهد الخليفة أبي بكر، والقوات العسكرية الإسلامية لا تنقطع ذهاباً إلى الشام ومنها، ورافق حركة الجيوش حركات انتقال قبلية بدأت قبل الإسلام، ونشطت مع حركة الفتح^(١).

٢ - الحاجات الإدارية: اقتضى قيام الدولة الإسلامية ربط الأطراف بالعاصمة، فاعتنى بطرق البريد بشكل زائد، واستمر موظفو الدولة بالانتقال على هذه الطرق لتبليغ الأوامر الإدارية والعسكرية والمالية، ومنها جمع الصدقات. مما ترتب عليه نشوء طرق خاصة للمصدقين، نجد وصف بعضها عند البكري وياقوت^(٢).

٣ - حركة التجارة وارتفاع مستوى المعيشة: بعد انصواء بلاد الشام في الدولة الإسلامية زالت الحواجز السياسية التي كانت معروفة قبل الإسلام، حيث كانت تتعدد الكيانات، ففي بلاد الحجاز كانت المدينة الواحدة وحدة سياسية وإدارية قائمة بذاتها، كما كان الحال في بلاد الشام بالإضافة إلى تدخل القوى الأجنبية منذ الإسكندر المكدوني وسيطرة السلوقيين والبطالمة على المنطقة، ومن ثم وقوع هذه المنطقة في معظم أجزائها تحت النفوذ الروماني أو الفارسي. إن الوضع الجديد الذي ترتب عليه وحدة سياسية وإدارية، ساهم أيضاً تجانس فكري وثقافي، مما ساعد على انتشار الأمن وأسباب الاستقرار، تحت مظلة اللغة العربية الواحدة، ونج عن هذا كله ارتفاع في مستوى المعيشة وازدياد الحاصلات وازدهار حركة التجارة، وحركة الرحلات طلباً للعلم والمعرفة أو لغرض الهجرة والاستقرار في البلاد المفتوحة.

٣ - الحج: يضم إقليم الحجاز مركزين مقدسين هما: مكة والمدينة، أما مكة فقد حظيت بتقديس العرب منذ أقدم أقيم فيها أول بيت للناس (الكعبة) فكانت محج العرب من كل مكان وظلت

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن الاهتمام ببلاد الشام والتطلع لتحريره من السيطرة الرومية بدأت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومعركة مؤتة (٦٢٩هـ/٦٢٩م) خير شاهد على ذلك. ولزيد من المعلومات حول محاولات الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح بلاد الشام، انظر: مقدمات في فتح بلاد الشام، في هذا الكتاب.

(٢) انظر: صالح العلي، طرق المواصلات، ص ٩٧١. حول طرق البريد عند ابن فضل الله العمري، والقلقشندي، وابن شاهين الظاهري، وبوبر (Popper, William).

انظر: محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط ١، عمان ١٩٧٦، ص ٦٦-٦٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعده هكذا: محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك،

كذلك بعد أن أودعوها معبوداتهم وأقاموا لها المواسم. لهذا كانت الكعبة من العوامل المهمة التى هيات لنجاح الوحدة الثقافية والسياسية للعرب، التى تحققت بالإسلام. وفى الإسلام أصبح الحج إلى مكة ركناً من أركانه الخمسة، ومن شعائره الظاهرة، المتعلقة فعله بالأبدان والأموال، كما نص على ذلك العلماء والفقهاء. وأما المدينة فكانت تعرف بـ (يثرب) قبل الهجرة، وفيها قامت أول دولة إسلامية فى التاريخ، وأصبحت بذلك عاصمة الإسلام الأولى، وقضى الرسول الكريم فيها السنوات العشر الغنية والأخيرة من حياته، وفيها دفن، وترتبط فيها حياة الصحابة الأول وأعمالهم^(١).

إن كون الحج فرض عين على كل قادر فى الإسلام، لم يجعل الأمر مقصوراً على عدد محدود من العرب، فتوجه المسلمون من كل صوب ركباناً ومشاة نحو مكة، يتزايدون فى كل عام تبعاً لتوسع العالم الإسلامى وتزايد أعداد المسلمين. وفى العهد الأموى انتقلت عاصمة الخلافة من المدينة المنورة إلى دمشق قاعدة بلاد الشام، لذلك أصبح ركب الحج ينطلق من العاصمة فى موعد محدد وموكب مهيب كل عام لتأدية فريضة الحج.

ونظراً للمكانة الكبيرة للحج وارتباطه الوثيق بالدين الإسلامى، سعى الخلفاء والأمراء والحكام طيلة التاريخ الإسلامى إلى العناية بطرق الحج وتمهيدها والتخفيف من قسوتها بحفر الآبار وبناء القصور والقلاع وشحنها بالحراس ووضع العلامات، وجلب كل ما فيه راحة الحجاج، إما طلباً للأجر والثواب وخدمة للمسلمين، أو طلباً لرضا المسلمين من باب الدعاية والكسب. ونظراً لأهمية طرق الحج ومنازله، وما يرافق ذلك من نشاط ثقافى وتجارى وسياسى، فقد توسع المتقدمون من العلماء والمتأخرون فى دراسة طرق الحج ومنازله كجزء من دراساتهم الجغرافية، فأفردوا قسمًا من مؤلفاتهم فى وصف طرق الحج ودعوة كتب (المنازل) أو (منازل الحجاز) أو (منازل الحج)، ضمنوه فى أول الأمر كتب: (المناسك) أى المؤلفات التى خصصت لبيان أحكام الحج ووصف أعماله، ثم أفردوه فى مؤلفات خاصة تنفرد بها حضارتنا العربية الإسلامية، التى أغنت التراث الإنسانى وغطت جميع جوانب المعرفة فى زمانها. وكما اختصت حضارتنا بكتب الجغرافيين ووصف المسالك والممالك، فقد اختصت بكثرة كتب الرحلات التى لا تقف عند وصف المواضع وتحديد المسافات

(١) انظر: صالح العلى، طرق المواصلات، ص ٩٧١.

بينها، بل تشمل وصف جميع جوانب الحياة في هذه البلاد على اختلافها^(١).

وقد أسهم بعض الباحثين المحدثين في دراسة الجغرافيين العرب من أمثال: ماینورسكي، ودي غويه، وكراشكوفسكي، وصالح العلي، وحسين ناصر، وحمد الجاسر^(٢) الذي يجب علينا الوقوف عنده، فقد أغنى هذا العلامة المكتبة العربية بعامة والجغرافية بخاصة، بدراساته الكثيرة والمركزة على جغرافية الجزيرة العربية، والتي كان منها: المعجم الجغرافي لبلاد العربية السعودية، إن منجزات الشيخ الجاسر في هذا الميدان تستدعي منا كل تجلة واحترام.

ومن باحثينا المعاصرين الذين اهتموا بدراسة طرق الحج والتعريف بها، الدكتور عبد الله الوهيبي الذي أنجز دراسة قيمة حول شمال الحجاز في كتابات الجغرافيين العرب (من ٨٠٠-١٥٠٠م)^(٣).

ونذكر بالتقدير بحث الدكتور سعد الراشد: (درب زبيدة - طريق الحج من الكوفة إلى مكة)^(٤). هذا بالإضافة إلى الرحلات والدراسات التي قام بها عدد من الرحالة الأوروبيين في هذه المنطقة وتبعوا طريق الحج الغربي. من أمثال: بيركهاردت (Burckhardt) وفريدولين (Fridolin) ودوتي (Doughty) وأ. موسل (Musil) وكاستيو (Castiau) وغيرهم^(٥).

وفي هذا المقام لا يفوتنا أن ننوه بالجهود الخيرة التي تبذلها دوائر وأقسام الآثار في المملكة العربية السعودية، لدراسة الطرق والمعاظم القديمة في شمال وشمال شرق الجزيرة. أما الجغرافيون العرب الأوائل الذين تعتمد هذه الدراسة على أعمالهم في الدرجة الأولى فهم أكثر، منهم من نشرت مؤلفاتهم ومنهم من ما زالت مؤلفاتهم مخطوطة، تنتظر التحقيق، ونذكر هؤلاء الذين وصلتنا مؤلفاتهم، وتعرضوا لتسجيل طرق ومنازل الحج.

(١) حمد الجاسر، كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية (٢ ج)، الجزء الأول، جامعة الرياض ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م، ص ٢٢٩-٢٤٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: حمد الجاسر، كتب المنازل.

(٢) Abdullah Al-Wohaibi, The Northern Hijaz in the Writings of the Arab Geographers 800 - 1150. Al-Risalah Ets. Publishers and Book sellers, p.15.

(٣) Al-Wahabi, The Northern, p.15. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Al-wohaibi

(٤) Saad A. Al-rashid, Darb Zubaydah, The Pilgrim Road From Kufa to Mecca. Riyadh University Libraries. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا:

(٥) Grant, p.223.

ونعذر عن ذكر الآخرين (وهم أكثر) الذين ساهموا ببحوثهم في هذا الميدان، إذ اكتفينا بالمثل لا بالخصر.

فأقدم من سجل لنا طرق الحج الشامي ومنازله هو ابن خرداذبة خول (ت ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م)^(١)، واليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م)^(٢)، وابن رسته (ت ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م)، والحربي (ت ١٩٨ هـ / ٨١٣ م)^(٣)، ووكيع (ت ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م)^(٤)، وقدامة بن جعفر (ت ٣٢٨ هـ / ٣٣٧ هـ - ٩٣٩ م - ٩٤٨ م)^(٥)، وابن الفقيه الهمداني (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م)^(٦)، والمسعودي (٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م)^(٧)، والاصطخري نبع في (٩٥١ م)^(٨)، وابن حوقل (كتب عام ٩٧٧ م)^(٩)، والمقدسي (ت بعد ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م)^(١٠)، والهمداني (ت بعد ٣٤٤ / ٩٤٥ م)^(١١)، والبكري

- (١) هو أبو القاسم، عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة، كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، مطبعة بريل ١٩٦٧، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة.
- (٢) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي، كتاب البلدان، ملحق بكتاب الأعلام النفيسة، تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رسته، بعناية دي غويه، مطبعة بريل ١٨٩١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، البلدان. وابن رسته: الأعلام.
- (٣) أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحربي البغدادي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الحربي، المناسك.
- (٤) وكيع بن محمد بن خلف بن حيان القاضي، منازل طريق مكة، مخطوط في إحدى المكتبات الفارسية، استخدمه وأفاد منه الوهيبي. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا وكيع، المنازل.
- (٥) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج.
- (٦) أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمداني (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م)، مختصر كتاب البلدان، بعناية دي غويه، بريل ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، البلدان.
- (٧) المسعودي أبو الحسن بن علي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٦ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد ويحيى الدين عبد الحميد، ط ٤، مصر ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م. وكتابه التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المسعودي، مروج أو التنبيه.
- (٨) أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي، كتاب المسالك والممالك، وهو معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، بعناية دي غويه، بريل ١٩٢٧ م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الأصطخري، المسالك.
- (٩) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن حوقل، صورة الأرض.
- (١٠) المقدسي المعروف بالبخاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بعناية دي غويه، بريل ١٩٠٦ م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.
- (١١) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٤٤ هـ / ٩٤٥ م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوخ، ط ٣، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت، لبنان ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

(ت ٨٧٤هـ/ ١٠٩٤م)^(١)، والإدريسي (٩٤٩هـ- ٥٦٢هـ/ ١١٠٠ - ١١٦٦م)^(٢).

ويتبع هذه المجموعة مجموعة أخرى من الجغرافيين من أبناء القرنين الثامن والتاسع الهجريين، نذكر منهم: أبو الفداء صاحب حماة (٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)^(٣)، وياقوت الحموي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)^(٤)، والحميري (ت حول ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)^(٥)، ومن ثم الرحالة ابن بطوطة (٧٠٣هـ/ ١٣٠٤م - ٧٦٧هـ/ ١٣٧٧م)^(٦)، وابن فضل الله العمري (٧٠٠-٧٤٩هـ/ ١٣٠١ - ١٣٤٩م)^(٧)، والقلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)^(٨).

وتأتي بعد ذلك مجموعة كبيرة من كتب المنازل والرحلات يضيئ المكان عن حصرها،

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم.

(١) البكري، أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (٨٧٤هـ/ ١٠٩٤م)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، تحقيق مصطفى السقا، ط ٣، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: البكري، معجم.

(٢) أبو عبيد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (ت ١١٦٦م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، النسخة الإيطالية، بريل ١٩٧٤م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الإدريسي، نزهة المشتاق.

(٣) عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، تقويم البلدان، بعناية رينود، والبارون ماك كوكين ديسلان باريس، ١٨٥٠م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أبو الفداء، البلدان.

(٤) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ياقوت، معجم.

(٥) محمد عبد المنعم الحميري (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م)، الروض المعمار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٤م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الحميري، الروض المعمار.

(٦) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٦٧هـ/ ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان، دار الكتاب المصري، القاهرة. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن بطوطة، تحفة النظار.

(٧) شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق أبن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، والجزء الخاص بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن فضل الله العمري، المسالك والممالك.

(٨) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

ومعظمها دون العهدين المملوكي والعثماني نثرًا وشعرًا. وهذه الدراسات علاوة على تخصصها في وصف الرحلة إلى الحج وذكر المنازل وما فيها من موارد للمياه أو القلاع وأوصافها، والمغازات وأحوالها، فإنه لا يستغنى عنها كمصادر معاصرة للفترات التي ألُفت فيها، ففيها الكثير من المعلومات الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية. ورغم أن هذه الدراسات متأخرة عن الفترة الأموية - موضوع بحثنا - ففيها الكثير من الإشارات المفيدة، لا سيما أن الطريق الرئيسي للحج الشامي لم يتغير كثيرًا منذ العهد الأموي وبعده.

وقد أضاف الشيخ الجاسر إلى الدراسات المتعلقة بالحج أو في كتاب عن أخبار الحج والحجاج في خلال عشرة قرون هو: (الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحجاج وطريق مكة المعظمة) تأليف: عبد القادر بن محمد الجزيري الحنبلي^(١)، من أهل القرن العاشر الهجري، وقبل أن تنتقل من استعراض المصادر لا بد من التذكير بأن ما عرضه هو قليل من كثير. إذ المنحأ إلى تلك التي تمس موضوعنا مسًا مباشرًا، ولم نذكر المصادر الأولية في التاريخ والأدب كالحوليات وكتب الفتوح والتراجم والمدن والموسوعات والمعاجم، على اعتبار هذه المصادر أولية لا بد من الرجوع إليها لأنها تشكل الأساس في كل دراستنا التاريخية والجغرافية.

وقد أوردت كتب السيرة تفصيلات واسعة عن الدروب وما عليها من مواقع في منطقة الحجاز، وبعض هذه المواقع تعرض لغزو الرسول صلى الله عليه وسلم مثل: ودان، وثنية المره، ومر الظهران، وسيف البحر، وبواط، والخرار، وعسفان، والهده، وتيماء، وتبوك وغيرها، وكلها مواقع على الطريق القديم بين الشام والحجاز^(٢).

(١) صدر في ثلاثة مجلدات تضم ٢٣١٣ صفحة، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الجزيري، الدرر.

حول الدراسات المتأخرة انظر: حمد الجاسر، كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب، والجاسر أيضًا، (في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج)، مجلة العرب، ابتداء من العام ١٩٦٨ وما بعده. فقد نشرت المجلة مجموعة من كتب الرحلات. وقد وصفت طريق الحج شعرًا. وأصبحت هذه الأشعار مصدرًا للباحثين في طرق الحج وتحديد المواضع، حول ذلك انظر: حمد الجاسر، الشعر في وصف منازل الحج، مجلة العرب، ج ٤٤، السنة الثالثة، شوال ١٣٨٨هـ. كانون الثاني، يناير ١٩٦٩م.

عبد الكريم رافق، (قافلة الحج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية)، مجلة دراسات تاريخية، ج ٦٤، ذي الحجة ١٤٠١هـ وتذكر مصادر أخرى في الحواشي.

(٢) انظر على سبيل المثال: ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ/٨٣٣م)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وزميله، ط ٢، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، مصر،

وذكرت كتب السيرة طريق الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في السنة التاسعة للهجرة، وورد فيها ذكر فذك، ووادي القرى، وتيماء وأيلة وغيرها^(١).

وهذه الطرق التي سلكتها الغزوات في شمال وغرب المدينة هي نفسها الطرق التي كانت تسلكها القوافل القرشية، ثم سلكتها جيوش الفتح، وقوافل الحج الأموية. فقد ذكرت المصادر أن أبا بكر رضي الله عنه عندما سير الجيوش لفتح الشام، أمر بعضها بسلوك الطريق الساحلي من المدينة إلى أيلة (العقبة)، وأمر البعض الآخر بسلوك الطريق الداخلية من المدينة إلى شرق الأردن مروراً بتبوك. وأطلق على الطريق الأول اسم (المعرفة) والثانية اسم (التبوكية)^(٢) وهذان الطريقان الرئيسان في منطقة الحجاز يصلان الشام بكل من المدينة ومكة، وكانت غير قريش تسلك هذين الطريقين إلى الشام، ولما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم اعتراض قافلة قريش أثناء عودتها من الشام على الطريق الداخلية، تجنب أبو سفيان قائد القافلة الاعتراض باتخاذ الطريق الساحلية (المعرفة)^(٣). وفي حديث عمر أنه قال لسلمان: (أين تأخذ إذا صدرت، أعلى المعرفة أم على المدينة)^(٤)؟ وطريق المعرفة تختصره العرب إلى الشام وإلى مكة، (وهو يمر بين جبلي رضوى وعزور)^(٥).

١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م. ٦٠٨/٢ - ٦٠٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن هشام، السيرة.

الواقدي/ محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونز، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص ٢، ٣، ٤، ٥، ١٢، ٦٨، ٣٨٨، وانظر فهرس الأماكن والغزوات. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الواقدي، المغازي.

ابن سعد، محمد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، دار صادر ودار بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م. ٢م، ص ٥-١٦٨ (المغازي والسرايا). وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن سعد، الطبقات.

وانظر: محمود شيت خطاب، الرسول القائد، دار الفكر، ط ٤، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ملحق أ، ص ٩٥-٩٦، ملحق د. ١٦٦، ملحق ز، ص ٢٦٤، ملحق ط، ص ٣٢١-٣٢٢، ملحق ن، ص ٤١٩-٤٢٦.

(١) انظر: ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ٥١٥-٥٣٥. الواقدي، المغازي، ص ٩٨٩-١٠٢٥.

(٢) حول المعرفة والتبوكية انظر: الطبري، محمد بن جرير (٢٢٤-٣١٠هـ/ ٨٣٨-٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م، ج ٣ ص ٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٥. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الطبري، تاريخ.

(٣) ابن هشام، السيرة، ج ١، ص ٦١٨.

(٤) صالح العلي، طرق المواصلات، ص ٩٦٨.

(٥) البكري، معجم، ص ٦٥٦.

هذا وقد انتبه المسلمون منذ وقت مبكر إلى العناية بطرق الحج والحجاج، وفي العهد النبوي والراشدي كان مصدر إمرة الحج وموردها مكة المكرمة والمدينة المنورة، والبدء منها ثم من مكة المعظمة، إذ كان الخلفاء إذ ذاك يجهزون الحجيج ومن ثم كانت ولايتهم الحاج، ثم لما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، وكانت الشام دار ملكهم، كانت الأمرة منها، والحجيج المعنى به الركب السلطاني الذي تصحبه الكسوة الشريفة^(١)، وتعلقات الحرمين من جانب الإمام الأعظم، وأما الركوب القاصدة للحج من الأقاليم المشهورة فمفردة كالكوكة ومصر وغيرها، فإنها كالقوافل الواردة من البلاد^(٢)، أي أن الركب القادم من العاصمة كان أهم الركوب.

وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينتدب لإمارة الحج أحد الصحابة المشهورين بالعلم والورع والسابقة والكفاية، وكذلك فعل الخلفاء الراشدون من بعده، بل أن قافلة الحج كانت تسير في الغالب تحت قيادة الخليفة نفسه. ومنذ ذلك التاريخ أصبح حرص الخلفاء على إمارة الحج تقليداً يحافظون عليه، أو ينيبون أحد كبار رجال الدولة من خاصتهم.

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين وطرق الحج تلقى العناية من الخلفاء والمسؤولين والوجهاء والموسرين، فيحرصون على إنشاء المنازل وإصلاح الطرق، ولما قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بأداء العمرة من المدينة إلى مكة سأل أصحاب المياه أن يسمح لهم بإنشاء المنازل على طول الطريق بين مكة والمدينة، وسمح عمر بذلك على أن يكون ابن السبيل أحق بالظل والماء^(٣). وقد حث القرآن الكريم في عدد من الآيات^(٤) على رعاية ابن السبيل وتولييه بالمساعدة المادية والمعنوية ليصل إلى بغيته، وفي هذا ما يشير إلى كثرة عدد المسافرين من جهة، واهتمام المسلمين الأوائل بالطرق من جهة ثانية. وتنافس أغنياء المسلمين في خدمة الطرق ووقف

(١) وكسوة الكعبة خطة قديمة، عرفت قبل الإسلام، ويقال بأن أول من كسا الكعبة من العرب التبع أسعد الحميري. انظر الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى (ت ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م تقريباً). (كتاب أخبار مكة) شرفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار، رواية أبي محمد اسحق بن نافع الخزاعي، غنتقة/ الهند، ١٣٧٥هـ/ ١٧٣١م. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الأزرقى، أخبار مكة.

(٢) الجزيري، الدرر، ج ١، ص ٣٩٨-٤٠٠.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٦٩.

(٤) لآيتان ١٧٧، ٢١٥، سورة البقرة، الآيتان ٣٦، ٤٤ سورة النساء، الآية ٤١ سورة الأنفال، الآية ٦٠ سورة التوبة، الآية ٢٦ سورة الإسراء، الآية ٣٨ سورة العنكبوت، الآية ١٧ سورة الحشر.

المشاريع الخيرية عليها، لتوفير الراحة للمسافرين، ويروي الشافعي بسند عن جعفر بن محمد عن أمية أنه كان يشرب من سقايات كان يضعها الناس بين مكة والمدينة^(١).

ومن الطبيعي أن يهتم خلفاء بني أمية بالطرق بعامة وطريق الحج الشامي بخاصة، ذلك أن القوافل المنظمة والمحمية والمشمولة برعايتهم بدأت تخرج من دمشق إلى الحجاز في أيامهم، فهذا الطريق هو طريقهم سواء إلى الحجاز أم إلى قصورهم ومنتجعاتهم التي أكثروا من إنشائها في بادية الشام وعلى طول طريق الحج الشامي، الذي كان في الوقت نفسه طريق التجار والرحالة والجيوش والقبائل. ويمكن القول بأن طرق المواصلات الإسلامية استقرت في العهد الأموي نتيجة لاستقرار الأوضاع العامة في البلاد.

ولم نقصح لنا المصادر المتقدمة عن أخبار القافلة الشامية في العهد الأموي، وتنظيمها وأسلوب تجهيزها وإدارتها وحمايتها وخدمات منازلها، من دمشق إلى مكة المكرمة. ولكن المصادر ذكرت حج الخلفاء والأعيان من بني أمية، وذكرت الحرص على توجيه الحج في موعده واختيار أميره^(٢)، دون أن تفصل في واجبات أمير الحج، ولكن يمكن تصور هذه الواجبات من خلال ما أورده بعض المصادر المتأخرة، وهذه الواجبات ما هي إلى امتداد لما ابتكره الأمويون، لأن القافلة الشامية نشأت نشأة أموية. وقد جعل الجزيري واجبات أمير الحج عشرة، تدور حول توفير شروط الأمن والراحة والتموين من نحو تأمين الماء والطعام للركب، والعبادة وتأدية الشعائر، وتحديد المنازل للراحة والإقامة^(٣).

وتصف لنا المصادر المتأخرة موكب الحاج وكأنه دولة متكاملة متحركة، تضم جميع الأجهزة اللازمة للدولة من موظفين وقضاة ورجال حسبة وحماة ورجال مال، وطعام وشراب، وحملة مشاعل وعلافين، وشعراء وخطباء ورحالة وطلبة علم وغير ذلك^(٤). وقد

(١) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م) الأم، كتاب الشعب، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج ٣، ص ٢٧٩.

(٢) حول حج خلفاء بني أمية وأعيانهم، انظر خليفة بن خياط (ت ٤٠هـ/٨٥٤م) تاريخ خليفة ابن خياط، ط ١، مطبعة الآداب في النجف الأشرف ١٤٨٦هـ/١٩٦٧م، رتب خليفة كتابه على نظام الحوليات وذكر في نهاية كل سنة من قام للحج، وكذلك فعل اليعقوبي في تاريخه، والطبري. انظر أيضا الجزيري، الدرر، ج ١، ص ٤٢٢-٤٥٩.

(٣) انظر: الجزيري، الدرر، ج ١، ص ٢١٧-٢٧٤.

(٤) عقد الجزيري فصلا خاصا في ذكر المناصب التابعة لأمرة الحاج، ج ١، ص ٢٧٥-٣٧٦.

قدر بيركهاردت في وصفه لإحدى القوافل التي شاهدها أن عدد الحجاج الحقيقيين لم يكن يتجاوز عشر عدد الموجود^(١).

وذكرت المصادر أن معاوية بن أبي سفيان (٤٠-٦٠هـ) أول من طيب الكعبة بالخلوق والمجمر وأجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت مال المسلمين^(٢). وروى الطبري أن الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م) كتب في السنة الثالثة من ملكه إلى عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة المنورة بتسهيل الثنايا في الطرق، وحفر الآبار بالمدينة، وخرجت كتبة إلى البلدان^(٣). وكتب الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري، يمثل ذلك^(٤).

وبلغ من شغف الوليد بن عبد الملك بالعمارة أن طلب مهندسين رومان لبناء مسجد المدينة، وجلب من هناك مواد البناء مثل الفسيفساء^(٥). ويحكي ابن الفقيه أن الخليفة الوليد بن عبد الملك قد حفر المياه في مختلف المنازل الواقعة على هذا الطريق كما أنشأ عليه البيمارستانات للمرضى^(٦). وذكر القلقشندي أن الوليد (هو أول من بنى الأميال في الطرقات)^(٧). وقد أثنى الطبري على الخليفة الوليد لكثرة أعماله العمرانية قائلاً: "كان عند أهل الشام أفضل خلائفهم، بنى المساجد، مسجد دمشق، ومسجد المدينة، ووضع المنار، وأعطى الناس"^(٨). وتابع الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ/٧١٧-٧٢٠م) أعمال الوليد في إصلاح الطرق وتوفير أسباب الراحة فيها، وعمر من الأوائل الذين بنو الخانات

(١) Selah Merrill, East of the Jordan: A record of Travel and observation the Countries of MOAB, GILEAD, (١) and BASHAN. London, 1988, 1. pp. 330347-

وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: S. Merrill

(٢) ابن الفقيه الهمداني، البلدان، ص ٢٠.

(٣) تاريخ، ج ٦، ص ٤٣٧، وانظر: Al-Rashid: Darb Zubayda. P. 8-9.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٦، ص ٤٣٧.

(٥) اليعقوبي، تاريخ، ج ٣، ص ٣٠.

(٦) البلدان، ص ١٠٦.

(٧) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، صورة بالإوفست. عن ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠م، ج ١، ص ١٣٦. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، مآثر الإنافة. وانظر: صالح العلي، طرق المواصلات، ص ٩٧٤.

(٨) تاريخ، ج ٦، ص ٤٩٦، وانظر حول اهتمام خلفاء بني أمية بالعمارة والطرق، ابن الفقيه، البلدان، ص ٢٠، ١٠٢، ١١٣.

في الطرقات للمسافرين، فقد كتب إلى والي خراسان سليمان بن أبي السري، ليني البيوت بالطرقات ويطعم المسافرين، ويقوم بخدمة المرضى منهم، ويدفع النفقات لتأمين سفرهم إلى أهلهم إذا اقتضى الأمر ذلك^(١).

ويذكر الكليني عن أبي عبد الله قال: وأي شيء البريد؟ قال: ما بين ظل غير إلى فيئ وغيره. قال ثم غيرنا زمانا، ثم رأى بنو أمية يعملون أعلامًا على الطريق وأنهم ذكروا ما تكلم به أبو جعفر، فذرعوا ما بين ظل غير إلى فيئ وغيره، ثم جزأوه إلى اثني عشر ميلا، فكان ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع كل ميل، فوضعوا الأعلام، فلما ظهر بنوهاشم غيروا أمر بني أمية غيره، لأن الحديث هاشمي، فوضعوا إلى جنب كل علم علما^(٢). ويعلق الدكتور صالح العلي على هذه الرواية قائلا: (ان هذا النص يتحدث عن حدود حرم المدينة ولكننا نرجح أن الأمويين لم يكتفوا بوضع الأعلام حول المدينة، بل على الطرق أيضا، كما يروي القلقشندي ويشير الطبري، ولكن إزالة العباسيين آثارهم كما تحدث الكليني أدى إلى ضياع تفاصيل ما عملوه، ولعل العباسيين تابعوا الأمويين ولم يكن عملهم إلا إصلاحات وتعديلات لما وضع في زمن الأمويين^(٣)).

ويعتبر الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م) من أعظم الخلفاء في الاهتمام بالطرق، إذ بنى عليها القصور والحدائق المزودة بالماء والمنافع، كالسدود والمخازن والأقنية والآبار، وأبنية أخرى لا يزال بعضها مشاهداً في الأردن والبادية السورية. وقد أولى هذا الخليفة بنفسه عناية فائقة للطريق بين سورية ومكة^(٤).

ومن مآثر الأمويين العمرانية هذه القصور والقلاع والبرك المنتشرة في البادية الأردنية على طول طريق الحج الشامي وهي تقف شاهداً على جهودهم^(٥). ويجدر التذكير بأن

(١) ابن الأثير، أبي الحسن عز الدين علي ابن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م). الكامل في التاريخ ١٣ ج، ج٥، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م. ص ٦٠، ويشير إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الأثير، الكامل.

(٢) أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، (ت ٣٢٨-٩٣٩م تقريباً)، الفروع من الكافي، ج ٣. طبعة طهران، ص ٤٣٢. وانظر: صالح العلي طرق المواصلات، ص ٩٧٤-٩٧٥.

(٣) طرق المواصلات، ص ٩٧٤-٩٧٥.

(٤) انظر: Al-Rashid, Darb Zubayda, p. 9.

(٥) حول القصور والقلاع في الأردن انظر: لانكستر هاردنج، آثار الأردن، تعريب سليمان الموسى، أخرجه (مجلة

(الحير) نوع من القصور الصحراوية، وهي فكرة عربية أموية أشاعها الأمويون في صحارى الشام لزيادة الخصوبة فيها^(١).

وقد ذكر التنوخي أن خلفاء وأمراء بني أمية شغفوا بالبادية وحياتها (ولم يذكر صاحب الأغاني، وابن عساكر ملكاً أموياً، إلا ذكر تبديده، فكان خالد بن يزيد يسكن قصر (فدين) في البلقاء - لعله قصد قصر شبيب في الزرقاء - وروى صاحب العيون والحدائق، ص ١٢٠، أن الوليد بن يزيد كان يستوطن قصر الأزرق في البرية^(٢). وذكر الأصفهاني في أغانيه (٢٠/١٨) أنه كان ليزيد عدة قصور ينتقل إليها ويتعبد بها كالزيزاء وفدين (المفرق) والأزرق والأغدق والنجاء، وقصر الأبيض في الرحبة^(٣).

كانت دمشق القاعدة والمنطلق لقافلة الحج، فهي قاعدة بلاد الشام، وفيها يجتمع الركب وتحصل الاستعدادات للخروج تحت أمرة الخليفة أو من ينوب عنه في أمرة الحج. وطبقاً لرواية ابن خرداذبة^(٤) يخرج الحاج من دمشق إلى منزل ثم إلى منزل ثم إلى ذات المنازل. وتابعه في تحديد هذه المنازل ابن رسته^(٥). ومما يجدر قوله أن ابن خرداذبة هو أقدم جغرافي عربي سجل لنا المنازل على الطرق بعامة، وطرق الحج الشامي بخاصة^(٦)، من دمشق وحتى مكة. ثم جاء من بعده اليعقوبي والحربي وابن رسته وقدامة بن جعفر والإدريسي، أما بقية الجغرافيين، فلم يتبعوا المنازل من دمشق وإلى النهاية، ولكنهم فصلوا في طرقات الحجاز

رسالة المعلم) في العدين (٢-١) من السنة الثامنة، ط ١، كانون الثاني ١٩٦٥م، ص ١٥٣-١٦٨. وجعفر الحسني، قصور الأمويين في الديار الشامية، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، م ١٧، الجزء الخامس والسادس، آيار وحزيران (١٩٤٢م) جمادى الأولى والأخرى (١٣٦١هـ) ص ٢١٤-٢٣١ وفواز طوقان: القصور الأموية الصحراوية لما نبت به حولية مديرية الآثار العامة، م ١٤ (١٩٦٩) عمان، ص ٤-٢٥.

(١) فواز طوقان (الخائر في العمارة الأموية الإسلامية) كتاب المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، بيروت، م ١٩٧٤، ص ٦٩-١٣٨، ص ١٠٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: طوقان، الخائر.

(٢) عز الدين التنوخي، (ت ١٩٦٦م) الرحلة التنوخية، من الزرقاء إلى القريات، جمع وتحقيق يحيى عبد الرؤوف جبر، ط ١، ١٩٨٥، سلسلة الأقطار العربية، ص ١٨-١٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: الرحلة التنوخية.

(٣) الرحلة التنوخية، ص ١٨-١٩.

(٤) المسالك، ص ١٥٠.

(٥) الاعلاق النفيسة، ص ١٨٣.

(٦) ذكر الجغرافيون سبع طرق كان يسلكها الحجاج من مختلف الجهات إلى مكة المكرمة، انظر Al - Rashid, Darb Zubayda, p. 4-7. A. Petersen, p. 6-7.

وما بين المدينة ومكة بخاصة. وسنجد تبايناً بين الجغرافيين القدامى في تسمية المنازل، ويعود السبب في ذلك إلى تغير الطرق عدة مرات في القرن السابع الميلادي، إذ كانت الطريق تبدأ من دمشق إلى الجنوب من عمان حيث يختار الحجاج إحدى ثلاث طرق تقع إلى الشرق من وادي الأردن وأودية البحر الميت، واستمر تغير الطرق واختلاف المنازل حتى القرن السادس عشر حيث توحدت الطريق عندما ابتنى العثمانيون القلاع على طول الطريق الشامي. وأنشأوا المستودعات المحفوظة للمياه العذبة فاستقر الطريق منذ ذلك الوقت^(١). ولعل تغير موسم الحج من فصل إلى آخر سبب تغيراً في الطريق شرقاً وغرباً.

وسبب آخر يعود إلى خلاف الجغرافيين في مواصفات المنزل، إذ رأى بعضهم شرط توفر الأهل والمياه والسوق والعشب في المنزل حتى يعد منزلاً، إذ كانت بعض المواضع أماكن استراحة مؤقتة أو متعشيات يحط فيها الركب لتناول العشاء ومن ثم يستأنف المسير^(٢). ويستنتج مما أورده بعض الجغرافيين أن المسافة بين المنزل والذي يليه تتراوح ما بين (٤٥-٦٥) كيلاً، بينما المسافة بين محطات الاستراحة أو المتعشيات قد لا تصل إلى عشرين كيلاً^(٣).

ويعتقد موصل أن المنزل الأول عند ابن خرداذبة بعد الخروج من دمشق هو الكسوة، أما الثالث (ذات المنازل) فهو أذرعات (درعا الحالية)^(٤) الواقعة على مسافة مائة وخمسة كيلات تقريباً إلى الجنوب من دمشق. وتسمية درعا بذات المنازل يشير إلى أهميتها، ويبدو أن درعا أزدهرت بعد تراجع بصرى على أثر ذبول الطريق الشرقي وتحركه نحو الغرب ليكون

(١) Grant, The Syrian Desert, p. 223.

(٢) انظر: ابن رسته، العلاقات النفيسة، ص ١٧٨-١٧٩. موصل، ص ١٥٧، Grant, p. 157.

(٣) أ. موصل، شمال الحجاز، نقله إلى العربية عبد المحسن الحسيني، الإسكندرية، ١٩٥٢، ص ١٥٦، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: موصل، شمال الحجاز.

(٤) موصل، شمال الحجاز، ص ١٥٦.

(٥) خلطت بعض المصادر بين أذرعات والبثينة، فذهب ابن فضل الله العمري مثلاً إلى أن أذرعات هي البثينة (المسالك، تحقيق أنس فؤاد سيد ص ١١٩)، وفعل مثله الإدريسي، في نزهة المشتاق، ص ٣٧٦-٣٧٧. ولكن ما تفيد المصادر الأقدم خلال ذلك، فالبثينة كورة وأذرعات (درعا) قاعدتها، وكذلك حوران كورة مثل البلقاء، ولم تبق حدود الكور على حالها، فكانت تتسع وتضيق، كما كانت تتغير مراكزها أحياناً، انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار السعادة، مصر ١٩٥٩، ص ١٣٢-١٣٣. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: البلاذري، فتوح، الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٤٣، ج ١٠، ص ١٢٢. ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٣٣. أفادت النصوص أن بصرى قاعدة

قريباً من العمران، فقد كانت بصرى أحد المراكز المشهورة والمزدهرة في العهد الروماني، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بها وهو صبي مع قافلة التجارة القرشية. وأفادت المصادر المتأخرة أن القافلة تستريح في بصرى ثلاثة أيام أو أربعة ... حتى يلتحق بها الحجاج الذين فاتهم الالتحاق بالركب قبل ذلك^(١). وكذلك تراجعت مدن عمان وأذرعان ومعان وأذرخ إلى بلديات أو مدن صغيرة في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي^(٢).

ولعل هذا التراجع يعود إلى انعدام الأمن وانتشار الاضطراب ونفاد الماء والقحط، واختفاء الأسواق، وهذا ما يفسر ذكر كل من بصرى وأذرعان والمزيريب في المصادر المتباعدة^(٣). أما صرخد، فقد ذكر الجزيري أن للحجاج طريقاً أقصر من الطرق السابقة، وهو الذي يمر على صرخد ثم على تيماء إلى المدينة النبوية، وهو أقرب بنحو ستة أيام^(٤). ولم تذكر المصادر طريق صرخد إلا نادراً بعده عن العمران وتوغله في الصحراء، مما يعرض المسافرين إلى المشاق من قلة الماء وانعدام الأمان.

والمنزل بعد أذرعان هو (سرغ) عند ابن خرداذبة وابن رسته وقدامة بن جعفر والإدريسي. وقد تعرض لفظ (سرغ) إلى التحريف كزرع أو زرعة أو ازرعة التي هي (ازرع) الحالية في حوران، فقليل فيه شرغ وسرع والأصح (سرغ) وهي بلدة المدورة الأردنية التي تقع على الحدود الأردنية السعودية الداخلية. وقد ذكرتها المصادر كإحدى محطات الطريق الشامي، وجاءها عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما توجه إلى الشام في جمادي الأولى من السنة السابعة عشرة للهجرة، وفيها بلغه أن الوباء قد وقع بالشام^(٥). وحدد ياقوت موقع سرغ

كورة حوران، وأذرعان قاعدة البثنية، وعمان قاعدة البلقاء، انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٤، ١٦٢، ١٧٥. اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٥، ابن خرداذبة، المسالك، ص ٧٧. الاضطخري، المسالك، ص ٦٧. الهمداني، صفة، ص ٢٤٣، ٢٤٥، البكري، معجم، ص ٢٣٦.

(١) انظر: هورست كلينكل، آثار سورية القديمة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٥، ص ٧٨-٨٤.

(٢) نقولاً زيادة، جغرافية الشام عند جغرافي القرن الرابع الهجري، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان ١٩٧٤. من ص ١٣٩-١٧٩. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: نقولاً زيادة، جغرافية الشام.

(٣) الجزيري، الدرر، ص ١٢٣٤.

(٤) الجزيري، الدرر، ص ١٢٣٤.

(٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٣، ص ٢٨٣، الطبري، تاريخ، ج ٤، ص ٥٧، البكري، معجم، ج ٢، ص ٧٣٥، الحميري، الروض المعطار، ص ١٣.

بأنها أول الحجاز وآخر الشام، وجعلها بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام^(١). ولكن المسافة بين درعا (أذرعات) والمدورة (سرغ) تزيد على ثلاثمائة كيل، ومن غير المعقول أن يقطع الركب هذه المسافة مرة واحدة دون النزول والاستراحة في منازل سابقة.

وقد ذكر الحربي سبعة منازل ما بين درعا (أذرعات) والمدورة (سرغ) وهذه المنازل هي: الزرقاء والقسطل وقيال وبالعه والحفير ومعان وذات المثار والمغيثة ثم إلى سرغ^(٢). وما ذكره الحربي يبدو أنه أكثر وضوحاً ودقة لأن ما ذكر من منازل يتناسب مع المسافات المقدره بين المنزل والآخر من جهة^(٣)، وأن بعض هذه المنازل ما زال يحتفظ ببعض الآثار الأموية من جهة أخرى^(٤). وكل هذه المنازل تقع في شرقي الأردن، فالزرقاء هي المدينة الثانية بعد عمان العاصمة، وتقع على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلاً إلى الشمال الشرقي من العاصمة، وعلى حافة نهر الزرقاء (سيل الزرقاء) وفيها بقايا قلعة (قصر) شبيب التبعي الحميري^(٥)، وهي اليوم إحدى محطات سكة الحديد الأردنية الحجازية.

أما القسطل فهي بلدة تقع إلى الجنوب من عمان في وسط الطريق المؤدي إلى مطار الملكة علياء الدولي، ولا يزال هذا الموقع يحتفظ باسمه حتى اليوم، وذكر القسطل مع الموقع القريب منه، وبعده بقليل يقع قصر المشتى، ولكنها قصور أموية لا تزال تحتفظ بالآثار الدالة على ذلك رغم طغيان التوسع العمراني على الأماكن الأثرية^(٦).

وقد ذكر ياقوت القسطل على طريق المدينة وقال (هي في لغة العرب الغبار الساطع، وفي لغة أهل الشام الموضع الذي تفرق منه المياه، واستشهد فيها بما قاله كثير.

(١) معجم البلدان (سرغ) وقد ابنتى فيه العثمانيون قلعة المدورة في القرن السادس عشر، انظر A. Petersen، p. 108.

(٢) المناسك، ص ٦٥٣.

(٣) انظر: أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٣٢هـ - ١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ٧٢-٧٤. يذكر أنه في حجه من حماة، مر بالكرك في ذهابه، وأقام في العلا وفي بركة زيزا ودمشق في العودة إلى حماة. وذكر بأن مسيره من حماة إلى مكة استغرق خمسة وعشرين يوماً، أقام منها نحو ثلاثة أيام، فيكون مسيره الفعلي دون اثنين وعشرين يوماً. والمسافة بين حماة ومكة أكثر من تسعمائة ميل، فلا بد أن يكون قد قطع أكثر من خمسة وأربعين كيلاً في اليوم الواحد. انظر: موصل، شمال الحجاز، ص ١٥٨.

(٤) انظرها في مصادر القصور الأموية التي ذكرناها سابقاً.

(٥) ياقوت، معجم، (الزرقاء).

(٦) انظر المصادر المشار إليها سابقاً.

سقى الله حيا بالموقر دارهم إلى قسطل البلقاء ذات المحارب
سوارى تنحى كل آخر ليلة و صوب غمام باكرات الجنائب^(١)

أما يقال التي يذكرها الحربي بعد ذلك فلم نعث لها عل وجود في الجزء الأردني من الطريق، ولكن سكان المنطقة يطلقون أحيانا اسم (قيال) على موقع خان الزبيب اليوم محطة من محطات القطار وفيها مسجد يعود إلى العهد الأموي، حيث تكثر المخلفات الأثرية الأموية في هذه المنطقة، فعلى بعد تسع كيلات ونصف غرب زيزياء يقع مسجد أم الوليد^(٢). ولا عبرة بما ذكره ياقوت حول قيال^(٣)، لأن ما ذكره يقع خارج المنطقة المعينة. كذلك لا توجد حاليًا مواقع باسم بالعه أو الحفير، مع أن ياقوت ذكر بالعه على أنها من قرى البلقاء^(٤). ويغلب على الظن أن هذه المواقع اما أصابها الخراب والدمار وإلا ندراس فلم يعد لها وجود، أو أنه أصاب أسماءها التحريف والتبديل، أو أن النساخ اخطأوا في رسمها لسبب أو لآخر. والأمكنة الحالية - بعد القسطل - المثبتة في الخرائط الأردنية، وهي: الجيزة (زيزياء) وهي إحدى محطات القطار، وقرية من القسطل، لذلك لا تصلح منزلا إذا اتخذت القسطل منزلا، وبعدها خربة أبو عليق وقلعة ضبعة وهي محطة قطار أيضًا، وكذلك خان الزبيب (قيال فرضا) بعدها، ثم رجم الكيال، والسويقة ومن ثم القطرانة، وهي من محطات القطار، وبعدها الرجم الأبيض ثم الحسا، وجرف الدراويش وبعده الدجينة ثم عنيزة ثم معان^(٥)، والمسافة بين القسطل ومعان حوالي مائة وخمسة وسبعين كيلا، فيلزم أن يكون فيها من ثلاثة إلى أربعة منازل. وقد كانت الجيزة (زيزياء) من المنازل المشهورة في العهد الأموي.

ذكر الطبري أن الوليد بن يزيد سنة ١٢٥ هـ كان يطعم من صدر عن الحج بمنزل يقال له زيزياء ثلاثة أيام، ويعلف دوابهم، ولم يقل في شيء يسأله: لا، فقيل له: ان في ذلك قولك:

(١) معجم البلدان (القسطل). وذكر: الطبري، ج-٣، ص ٣٨٩، ج-٧، ص ٢٣٧، ٣١٥. وابن الأثير، الكامل، ج-٥، ص ٢٨٣، أن الموقر والقسطل كانتا من منازل الأمويين.

(٢) انظر: فواز طوقان، الحائر، ص ١٢١.

(٣) ذكر ياقوت جبلا بهذا الاسم قرب دومة الجندل. واستشهد بيت شعر يفيد أنها واد. انظر المعجم (قبال).

(٤) معجم البلدان (بالعه).

(٥) انظر هذه المواقع على الخرائط الأثرية للمملكة الأردنية الهاشمية ١: ٢٥٠,٠٠٠، المركز الجغرافي الملكي الأردني ١٩٨٠.

انظر، عدة ما، يقيم عليها الطالب، فقال: لا أعود لسانی شیئا لم اعتده^(١). ومن الجدير ذكره أن زيزياء تقع إلى الغرب من قصر المشتى على الطريق بين عمان والقطرانه، في المنطقة التي تكثر فيها الآثار الأموية، وزيزياء إحدى مواقع الآثار الأموية الماثلة للعيان، خصوصاً البركة الشبيهة ببركة الموقر^(٢). وذكر الطبري ما يفيد أن آبل وزيزاء والقسطل تقع على خط واحد^(٣). وعدم ذكر زيزياء من قبل الجغرافيين القدامى يدل على أنها تراجعت بعد العهد الأموي، غير أنها ما لبثت أن عاودت ازدهارها كمنزول للحجاج، فقد ذكرها ياقوت^(٤)، والصلاح الصفدي^(٥)، ومر بها ابن بطوطة في حجه عام ١٣٢٦م^(٦)، مما يشير إلى أنها كانت مزدهرة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وظلت مغمورة حتى بناء الخط الحديدي الحجازي في أواخر الحكم العثماني، فأصلحت بركتها وأصبحت محطة على طريق القطار، والطريق المعبد الصحراوي.

أما المقدسي فيذكر أن الطريق إلى تبوك يبدأ من عمان، وبعد منهلين يصل إلى معان ثم إلى تبوك مثلهما ثم إلى تيماء أربعاً ثم إلى وادي القرى أربعاً^(٧). والمنازل بعد معان أو سرغ إلى وادي القرى عند ابن خرداذبة^(٨) والحربي^(٩) وابن رسته^(١٠)، وقدامة بن جعفر^(١١) هي: تبوك - المحدث - الأقرع - الجنينة - الحجر ومن ثم إلى وادي القرى. ويذكر الإدريسي نفس المنازل السابقة، إلا أنه حصل خطأ في ذكر البثنية بعد سرغ، وذكر دمة (دماً أو دمنة)

(١) تاريخ، ج ٧، ص ٢١٧-٢١٨. تعرف الآن بـ (زيزياء) أو الجيزة، وسمتها المصادر زيزاء، وبركة زيزي.

(٢) فواز طوقان، الحائر، ص ١٢٢.

(٣) تاريخ، ج ٣، ص ٣٨٩.

(٤) معجم البلدان (زيزاء).

(٥) الجزيري، الدرر، ج ٢، ص ١٢٥٦.

(٦) تحفة النظر، ص ٧٧.

(٧) أحسن التقاسيم، ص ٢٥٠.

(٨) المسالك والممالك، ص ١٥٠.

(٩) المناسك، ص ٦٥٣.

(١٠) الاعلاق النفسية، ص ١٨٣.

(١١) الخراج، ص ٨٥.

بعدها^(١)، وحصل عنده تحريف لاسم الجنيبة فذكرت الحنيقية، وذلك أن البنية هي أذرعان كما أسفلنا وذكر ذلك الإدريسي نفسه^(٢). ويقول موسل أن دمة (دمنة) محلة عامرة يجب أن نجعل موضعها عند المنزل المعروف بذات الحج على مسافة أربعين كيلا تقريباً إلى الجنوب من سرغ، وبالقرب منها ينتهي شعيب دمنة الذي يأتي من العين المعروفة بالاسم نفسه. وهذا الترتيب الذي يبدأ بسرغ ثم دمنة يستقيم مع اسم المنزل الذي يذكر بعد ذلك وهو تبوك. وتختلف المنازل في المصادر المتأخرة كما هو مبين في الملحق رقم (٥). ومنازل الطريق بين وادي القرى والمدينة المنورة عند ابن خرداذبة، والحربي وابن رسته والإدريسي تكاد تكون متطابقة لولا أن الحربي يزيد في المنازل بعد وادي القرى منزلاً باسم (السقيا) ويذكر أن هذا الموقع مكان التقاء الطريق للحجاج المصري والشامي، ويسميتها حمد الجاسر في معجمه^(٣) بسقيا الجزل وهي سقيا يزيد، وهي جزء من وادي القرى، لأن الأخير ليس علماً على مكان واحد، وإنما يدل على عدد من القرى المتناثرة على هذا الوادي^(٤). ويضيف الحربي أيضاً منزلاً آخر بعد السقيا اسمه (عتاب)، كذلك يضيف (الأراك) بعد السويداء. وطبقاً لما جاء عن ابن خرداذبة ومن تابعه تكون المنازل على النحو التالي: وادي القرى - الرحيبه وهي عند ابن رسته (الرحبة) - ذو المروة - المر - السويداء - ذي خشب - المدينة. ولم يذكر قدامة بن جعفر منازل بين وادي القرى والمدينة. ووادي القرى هو مجتمع الحجاج المصري والشامي^(٥)، ومن قصد الشام من المدينة على الطريق الداخلية لا بد من أن يمر بوادي القرى، فقد ذكر الطبري أنه عندما خرج محمد بن عبد الله في المدينة على الخليفة أبي جعفر المنصور، استشار هذا أحد أصحابه حول خروج محمد بن عبد الله، فنصحه قائلاً: ظهر حيث لا مال ولا رجال ولا سلاح ولا كراع، ابعث مولى تثق به، فليسر حتى ينزل بوادي القرى، فيمنعه ميرة الشام، فيموت مكانه جوعاً^(٦). ولما خرج أبو عبيدة والمسلمون إلى

(١) نزهة المشتاق، الطبعة الإيطالية، بريل ١٩٧٤م، ص ٣٧٦.

(٢) نزهة المشتاق، ص ٣٠.

(٣) المعجم الجغرافي، القسم الثاني (ح-ظ)، ص ٦٧٣، يذكر الجاسر بأن هذه البلدة درست ويعرف موقعها الآن باسم (أم فقور).

(٤) انظر: ياقوت، معجم (وادي القرى).

(٥) Al - Wohaibi, p. 293.

(٦) تاريخ، ج ٧، ص ٥٧٨، وانظر ج ٥، ص ٤٨٥.

الشام مروا بوادي القرى ثم أخذوا على الحجر أرض صالح النبي عليه السلام، ثم على ذات المنار، ثم على زيزاء، ثم ساروا إلى مآب بمعان^(١). ووادي القرى مكان تردد ذكره في المصادر قبل الإسلام وبعده، وصالح الرسول صلى الله عليه وسلم أهل وادي القرى في عودته من تبوك في السنة التاسعة للهجرة^(٢) وذكر في الشعر كثيراً، ومما قيل فيه:

أبلغ أبا بكر إذا الأمر انبرى وجازت الخيل على وادي القرى^(٣)

ولم يذكر وكيع وادي القرى وإنما ذكر بدله (السقيا)^(٤) ثم بعدها (عتاب) التي جعلها الحربي أيضاً بعد وادي القرى. أما منازل اليعقوبي فهي: السقيا وذى المروة وذو خشب ثم المدينة^(٥). وتتطابق المنازل عند ابن خرداذبة وابن رسته ووكيع وقدامة والإدريسي، بعد الرحبة (الرحبية) أي: ذى المروة، والمر، والسويداء وذى خشب، ولكن قدامة يسقط من قائمته منزل (المر)^(٦) والحربي يجعل بعد السويداء منزلاً جديداً هو (الأراك)^(٧).

وتذكر الرحبة والسقيا والجندل كمواقع متقاربة^(٨)، والرحبة واد (فرتاح) الذي لا يزال معروفاً^(٩). والمروه (ذو المروة) مدينة لها شهرتها التاريخية، نقل السهمودي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل بها حينما ذهب إلى غزوة تبوك، ونقل عن ابن زبالة قول الرسول فيها: (اللهم بارك فيها من بلاد، واصرف عنهم الوباء، واطعمهم من الجنى، اللهم اسقهم الغيث، اللهم سلمهم من الحاج، وسلم الحاج منهم)^(١٠).

(١) انظر، الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٧. ويبدو أن الناسخ اخطأ حين ذكر مآب بمعان.

(٢) حمد الجاسر، الشعر في وصف منازل الحج، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٣) ابن خرداذبة، المسالك، ص ١٥٠، حمد الجاسر، الشعر، ص ٣٣١-٣٣٢.

(٤) بلدة كثيرة الآبار والعيون والبرك، وبنى فيها الرسول صلى الله عليه وسلم مسجداً، وهي قرية من قرى وادي القرى، البكري، معجم، ج ٢، ص ٧٤٢-٧٤٣.

(٥) البلدان، ص ٣٤١.

(٦) الخراج، ص ٨٤.

(٧) المناسك، ص ٦٤٩.

(٨) البكري، معجم، ص ٢٨، ٦٤٤، ٧٩٣، ١٢٨١.

(٩) لغدة الأصفهاني، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، ص ٦١. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكنا: لغدة، بلاد العرب.

(١٠) السهمودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م). وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط ١، بيروت. ١٣٩٣هـ/ ١٩٧١م، ج ٢، ص ١٣٠٥. وسيشار إليه عند وروده

وتعد ذو المروة من وادي القرى والمسافة بينها وبين ينبع مرحلتان^(١). وذكر الأسدي، أن المروة بعد وادي القرى بنحو ثلاث مراحل لجهة المدينة الشريفة^(٢). وجعل الهمداني بين المدينة ووادي القرى خمس مراحل على طريق المروة^(٣). ومن المروة إلى المدينة مرحلتان، السويداء وفيها الماء ثم المدينة^(٤). وإذا جاء حاج مصر والشام من السويداء إلى المدينة مال إلى (أوال) ثم خرجوا منها إلى السبالة^(٥). وذو خشب واد على مرحلة من المدينة على طريق الشام^(٦). وكان به قصر لمروان بن الحكم ومنازل لغير واحد، وبه نزل بنو أمية لما أخرجوا إلى الشام قبيل وقعة الحرة^(٧).

والطريق من المدينة إلى مكة عشر مراحل كما يقول اليعقوبي^(٨)، وأول مكان على هذا الطريق بعد المدينة يدعى الشجرة، وهو ليس بمنزل وإنما هو ميقات أهل المدينة للإحرام، على ست أميال من المدينة. وقد ذكرت المصادر المسافات بين المنازل ومصادر المياه فيها مما يشير إلى وضوح أكثر لهذا الجزء من الطريق في المصادر الجغرافية الأولية.

ومنازل هذا الطريق طبقاً لما أورده ابن خرداذبة^(٩) هي: ملل - السبالة - الروثة - السقيا - الأبواء - الجحفة - قديد - عسفان - بطن مر ثم إلى مكة. ويوافق ابن رسته ابن خرداذبة في تعداد المنازل وضبط أسمائها، غير أنه لم يذكر (ملل) بين المنازل^(١٠)، كذلك تتطابق المنازل

فيما بعد هكذا: السهمودي، وفاء. وانظر: حمد الجاسر، بلاد ينبع، لمحات تاريخية، وانطباعات خاصة، ص ٢١٢. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: حمد الجاسر، بلاد ينبع.

(١) حمد الجاسر، بلاد ينبع، ص ٢١٣. وانظر ياقوت، معجم (ذو المروة).

(٢) السهمودي، وفاء، ص ١٣٥.

(٣) صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٤.

(٤) صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٤.

(٥) صفة جزيرة العرب، ص ٢٤٤.

(٦) البكري، معجم، ج ١، ص ٥٠٠.

(٧) السهمودي، وفاء، ج ٢، ص ١٢٠١.

(٨) البلدان، ص ٣١٣.

(٩) المسالك، ص ١٣٠-١٣١.

(١٠) الاعلاق النفيسة، ص ١٧٧-١٧٨.

عند قدماء^(١) مع ما ورد عنه ابن خرداذبة. أما الحربي فيضيف المنازل التالية إلى قائمة ابن خرداذبة: الروحاء بعد السيالة - والعرج بعد الرويثة، وأمج بعد قديد ثم سرف والتنعيم قبيل مكة^(٢). وأضاف اليعقوبي أيضاً الروحة (الروحاء) والعرج وجعل الرويثة بينهما^(٣). أما المقدسي فبدأ منازل الرويثة ثم الروحاء بعدها العرج ثم سقيا بني غفار (السقيا)، وبعدها الأبواء والجحفة ثم الخيم وبعدها خليص وأمج وبعدها عسفان وبطن المر ثم إلى مكة^(٤) ونلاحظ أن قوائم المنازل عند^(٥) الجغرافيين تزداد وتنقص ويعود ذلك إلى حرص البعض على إيراد كل الأماكن التي يمر بها الحاج حتى وأن لم تكن من المنازل كالمساجد والأماكن المقدسة أو مصادر المياه، وتمسك بعض الجغرافيين بذكر المنازل فقط. كما يجدر بنا أن ننوع بكثرة الطرق والأماكن حول مكة.

وقد ذكر السهمودي المساجد التالية على هذا النطاق: مسجد الشجرة (ذى الخليفة) والخليفة الميقات المدني ويعرف اليوم (بئر علي)^(٦). ومنها مسجد المعرس، ثم مسجد شرف الروحاء وهو على ميلين من السيالة في رواية الأسدي^(٧). ثم مسجد عرق الطيبة، وذكر الأسدي أنه يقع على تسعة أميال من السيالة^(٨)، ثم مسجد المنصرف الذي تغير اسمه إلى مسجد الغزالة، وهو على ثلاث أميال من الروحاء^(٩)، وبعده مسجد الرويثة، وبين الروحاء والرويثة ثلاثة عشر ميلاً. وبعد مسجد ثنيه ركوبة ثم مسجد الأنثاية، وبعده مسجد العرج، وبعده مسجد المنبجس ثم مسجد يحيى (لحي جمل)^(١٠). والمنبجس وادي العرج (المدارج اليوم)، ومسجد (لحي الجمل) على ميل من الطلوب، والطلوب: بئر غليظة الماء بعد العرب

(١) الخراج، ص ٤٠.

(٢) المناسك، ص ٤٢٥-٤٦٨.

(٣) البلدان، ص ٣١٣.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٠٦.

(٥) انظر الملاحق.

(٦) السهمودي، وفاء الوفاء، ج ٢، ص ١٠٠٢.

(٧) السهمودي، وفاء الوفاء، ص ١٠٠٧-١٠٠٨.

(٨) السهمودي، وفاء الوفاء، ص ١٠٠٨-١٠٠٩.

(٩) السهمودي، وفاء الوفاء، ص ١٠١٠.

(١٠) انظر: وفاء الوفاء، ج ٢، ص ١٠١٠-١٠١٤.

بأحد عشر ميلاً والسقيا بعد الطلوب بستة أميال وفيها مسجد^(١). وبعد ذلك يذكر عدداً من المساجد منها مسجد الأبواء، وذكر الأسدي في الأبواء آباراً وبركاً، وبعده مسجد يسمى بمسجد البيضة، ومسجد عقبة هرثى وهو على ثمانية أميال من الأبواء، وبعد ذلك يذكر مسجد الجحفة، والجحفة بعد الأبواء بثلاثة عشر ميلاً، وفي الجحفة آبار وبرك وعيون^(٢). ثم مسجد غدير خم - ربما حدث تحريف عند الجغرافيين فلفظوه الخيم - ثم مسجد قديد، وخليص ثم مسجد مر الظهران. ويقول المطري: ومر الظهران هو بطن مر المعروف^(٣)، ويطلق عليه اليوم (وادي فاطمة) أحد أودية مكة الغنية. وقبل الدخول في مكة يأتي مسجد سرف على سبعة أميال من مر، وهو على قبر ميمونة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم مسجد التنعيم وراء قبر ميمونة بثلاثة أميال^(٤).

وتذكر المصادر الأولية طريقين رئيسين من أيلة (العقبة) إلى كل من المدينة ومكة. وأيلة إحدى منازل الحج المصري والمغربي والشامي^(٥)، وذلك أن حجاج فلسطين ومن يردونها كانوا يمرون بأيلة أحياناً، ومن أيلة كان الركب يأخذ أحد طريقين، أما الداخلية وأما الساحلية. والأولى هي التي أطلقت عليها مصادرنا اسم التبوكية، والثاني هي المعركة التي تتبع الساحل، وكانت قريش قبل الإسلام تسلك الطريقين، ورأينا في أحداث معركة بدر كيف أن أبا سفيان تحول بالقافلة من الطريق الداخلية (التبوكية) إلى الطريق الساحلية (المعركة) لينجو بالقافلة من اعتراض المسلمين.

وذكر ابن خردادبة^(٦) خمسة عشر منزلاً على الطريق الداخلي من أيلة إلى المدينة هي: حقل - مدين، الإغراء - منزل - الكلابة - بدا - السرحتين - البيضا - وادي القرى - الرحيبة (الرحبة) - ذي المروة - المر - السويداء - ذي خشب - المدينة^(٧). أما وكيع فقد

(١) السمهودي، وفاء الوفاء، ص ١٠١٤-١٠١٥.

(٢) السمهودي، وفاء الوفاء، ص ١٠١٦-١٠١٧.

(٣) لسمهودي، وفاء الوفاء، ص ١٠١٨-١٠١٩.

(٤) السمهودي، وفاء الوفاء، ص ١٠٢٠.

(٥) لمسالك، ص ٤٩.

(٦) Ibid, p 327.

(٧) Ibid.

قدم بعض المنازل وآخر أخرى، فبدأ بشرف البعل ثم مدين - قالس - الإغراء - الكلابنة (الكلابات) - بدا - الشغب - السرحتين - السقيا ثم تتبع طريق الحاج السوري إلى عناب (عتاب) والمروة ثم المر والسويداء إلى اراك أو (أوال)^(١).

أما اليعقوبي فقد جعل بعد الإغراء: قالس وبعدها شغب، وجعل بعد بدا - السقيا ثم المروة وذي خشب^(٢).

وتطابق قائمة المنازل عند ابن رسته قائمة ابن خرداذبة، ما عدا البيضاء وحقل، فلم يذكرهما ابن رسته في قائمته^(٣)، وبدأ بشرف النمل (شرف البعل) التي جعلها معظم الجغرافيين المنزل الأول بعد أيلة.

أما الحربي فترتب منازل على النحو التالي: شرف البعل - مدين - قالس - الأغر - الكلابية - بدا - شغب - السرحتين - السقيا وبها يلتقي طريق الشام الداخلي مع الطريق المصري، والسقيا جزء من وادي القرى، ثم إلى عناب، المروة - المر - السويداء وبعدها الاراك ثم إلى ذي خشب والمدينة^(٤).

يبدأ قدامة قائمته بمنزل شرف ذي النمل (البعل) ثم يتابع ترتيب ابن خرداذبة إلا أنه يذكر منزل الكلابية بعد الإغراء مباشرة ثم يجعل بعدها شغب بني السرحتين، ثم يسقط بدا ويذكر بعد ذلك وادي القرى، ويتابع موافقا ابن خرداذبة دون أن يذكر منزل المر^(٥).

وبدا المقدسي قائمته بشرف ذي النمل (البعل) ثم يطابق ترتيبه ما ورد عند ابن خرداذبة حتى وادي القرى^(٦). ويتابع بعد ذلك المقدسي منازل الطريق الساحلي، ويقول بأنه الطريق المستعمل اليوم. وبعدها يورد قائمة جديدة من المنازل للطريق الداخلي هي: شرف البعل - الصلا - النبك - ضبة - عونيد - الرحبة - منحوس - البحيرة - الاحساء - الإغراء -

(١) Ibid

(٢) البلدان، ص ٣٤١.

(٣) الأعلام النفيسة، ص ١٨٣.

(٤) المناسك، ص ٦٤٩.

(٥) الخراج، ص ٨٤.

(٦) حصل تحريف لأسماء المنازل عند المقدسي، فذكر الأعراء بدلاً من الإغراء، والكلابية بدل من الكلابية.

الكلابة - شغب - بدا - السرحتين - البيضاء - قرح - سقيا يزيد المدينة^(١). وللبكري قائمة يبدأها بأتملة - حقل - وادي الغراب - وأشرف البعل - مدين - عينوته - النبك - الصلا - ظبة - بدا يعقوب - سقيا يزيد - ثم المروة - السويداء - نقع ذو خشب^(٢).

والإدريسي له قائمته الخاصة، إلا أنها وصلتنا مضطربة ومشوشة، أصابها يد التحريف والتصحيف فهو يذكر: حقل ثم بعدها مدين ثم الاعراء بدلا من الأغراء ثم منزل والكلابة بدلا من الكلابة، وسعب بدلا من شغب ثم البيضاء ثم وادي القرى وبعدها الرحبة ثم ذو المروة وبعدها المر والسويداء وذو خشب^(٣).

لم يذكر الاصطخري، وابن حوقل ترتيبا للمنازل بين أيلة والمدينة كما فعل من سبقهم، مع أن كلا منهما صرح بوجود مثل هذه القائمة. ويمكن جمع الكثير من المعلومات المتناثرة في ثنايا مؤلفيهما حول الموضوع. وقد أشاروا إلى أن حجاج المغرب ومصر وفلسطين يجتمعون في أيلة، ثم يأخذون الطريق الداخلي إلى مدين وشغب وبدا والمروة إلى المدينة، وأشاروا إلى الطريق الساحلي وقالوا بأن الطريقين يلتقيان عند الجحفة^(٤).

وذكر اليعقوبي أن الطريق الساحلي كان مستعملا في أيامه أي أواخر القرن التاسع الميلادي، ويبدو من حديثه أن الذين يريدون مكة دون المرور بالمدينة يفضلون الأخذ على ساحل البحر المالح، وأعطى اليعقوبي أهمية أكثر للطريق الساحلي، ويظهر بأنه كان على ثقة أكبر بالمنازل التي يحددها هذا الطريق من تلك التي ذكرها على الطريق الداخلي. وجاء ترتيب المنازل عند وكيع على النحو التالي: عينوناً (عينونه) - المصلى (الصلا) - النل (النبك) - طيبة (ظبة) المددة - عيونند (عونيد) - الرجة القصيبة (الوجة) - منحوس - الحوراء - قصيبة - البحره - يلبا (ينبع) - (مستولان) - الجار - المدينة^(٥).

وإذا تجاوزنا ما لحق أسماء بعض المواقع من تحريف، فإن هذه المواقع معروفة باستثناء

(١) أحسن التقاسيم، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) نقلا عن كتاب المسالك والممالك، انظر Al-Wohaibi, The northern, p. 328.

(٣) نزهة المشتاق، النسخة الإيطالية، بريل، ١٩٧٤، ص ٣٤٥.

(٤) Al-Wohaibi, p. 323.

(٥) Al-Wohaibi, p. 335-336.

(مستولان) الذي ذكره قدامة أيضاً بعد ينبع^(١).

ويبدو لي أن قائمة الحربي أكثر دقة ووضوحاً، إذ سلمت من التحريف الذي لحق بقائمة وكيع، مع أنها تكاد تطابق منازل وكيع. وهي عند الحربي: عينونا - المصلى - النبك - ظبة - المرة - الوجه - منخوس - الحوراء - قصيبة - البحرة - ينبع ثم إلى الجار وبعدها المدينة. وعلى ضوء قائمة الحربي يمكننا تخلص قائمة وكيع مما لحقها من تحريف^(٢). ولم نهتد إلى ضبط أو تحديد المنزل الذي ورد عند وكيع وقدامة باسم (ماسولان أو مستولان)؟.

إن قائمة قدامة قريبة من قائمة الحربي باستثناء ابتداء قدامة بمنزل شرف البعل بدلا من عينونا (عينونة) ولم يذكر منزل المرة، وأضاف منزلا جديداً بعد منخوس أطلق عليه اسم (التحريم) ولا شك أنه اسم محرف، وبعد ذلك يذكر الاحساء ثم ينبع ومستولان والجار ثم المدينة^(٣). أما قائمة المقدسي فقريبة من قائمة قدامة، والمقدسي يسمى أيلة (ويلة) ويسمى شرف البعل، شرف ذو النمل، وتقابل الوجه، الرحبة عند المقدسي، وجعل البحرة بعد منخوس، ثم ذكر الحسا وبعدها العشيرة ثم الجار فبدر ثم المدينة^(٤). ويختصر الإدريسي عدد المنازل إلى مكة ثم يستأنف تعداد منازل طريق المدينة، فأما منازلها إلى مكة فهي: الحقل - مدين - الحوراء - الجار - قديد - عسفان - بطن المر - مكة. ومنازلها إلى المدينة: عويند - صبة - العطوف - الحوراء - وادي السرف - القريفة - الجار - المدينة^(٥).

نكتفي بما ذكرناه عن دروب الحجاز، ولم يتعرض البحث إلى التفصيلات والتحقيقات الواسعة للمنازل وما تشتمل عليه من مياه وآثار، وما بينها من مسافات، وما كان يكابده الحاج من صعوبات في الصحارى والمفاوز. وذلك لأن هذه المنطقة حظيت وتحظى بدراسات جادة من قبل المستشرقين والرحالة، وتحظى الآن بعناية أبناء البلاد المختصين من أمثال الشيخ حمد الجاسر، وأساتذة التاريخ والآثار في الجامعات السعودية، وفي أقسام الآثار المختلفة. وهذه المكانة التي حظيت وتحظى بها منطقة الحجاز، تعود إلى أهمية

(١) الخراج، ص ٨٥.

(٢) ضبطنا أسماء المنازل التي حرفت عند وكيع ووضعناها داخل أقواس صغيرة، كما لم يذكر اسم منزل عند ابن خرداذبة فتركناه فراغا داخل معقوفتين.

(٣) الخراج، ص ٨٤.

(٤) أحسن التقاسيم، ص ١٠٩.

(٥) نزهة المشتاق، ص ٢٠، ٣٤٥.

موقعها كحلقة وصل على الطرق العالمية القديمة، ومن كونها قبلة المسلمين ومحجهم، تهفو لزيارتها قلوب الملايين من المسلمين مصداقا لقوله تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [ابراهيم]. صدق الله العظيم.

ملحق (١)

منازل الحج الشامي عند الجغرافيين العرب الأوائل من دمشق إلى المدينة المنورة

ابن خردادبة	الحربي	ابن رسته	قدامة بن جعفر	المقدسي	الإدريسي
دمشق	دمشق	دمشق	دمشق	دمشق	دمشق
					منزل (الكسوة) (دعه) أزرع
منزل	الصنمين	منزل			
منزل		منزل			
ذات المنازل	أذرعاع	ذات المنازل	ذات المنازل		ذات المنازل
	الزرقاء			عمان	(ينوع) ينوع
سرغ	القسطل	سرغ	سرغ		البشة
	قبال				دمه
تبوك	بالعة	تبوك	تبوك	معان	تبوك
المحدثة	الحفير	المحدثة	المحدثة		المحدثة
	معان			تبوك	الأقارع
الأقارع	ذات المنار	الأقارع	الأقارع		
الجنينة	المغينة	الجنينة	الجنينة	تيماء	الحنيفية
الحجر	سرغ	الحجر	الحجر		الحجر
	تبوك				
وادي القرى	المحدثة	وادي القرى	وادي القرى		وادي (القرى)
الرحبة	الأقارع	الرحبة			الرحبة
ذي المروة	الجنينة	ذي المروة			ذي المروة
المر	الحجر	المر			المر
السويداء	وادي القرى	السويداء			السويداء
دي خشب	السقيا	ذي خشب			ذي خشب
المدينة	عتاب	المدينة			المدينة (يثرب)
	المروة				
	المر				
	السويداء				
	الاراك				
	ذي خشب				
	المدينة				

ملحق (٢)

منازل الطريق من المدينة إلى مكة عند الجغرافيين الأوائل مع ذكر المسافات بالأميال

ابن خردادبة	اليقوي	الحري	ابن رسته	قدامة
الشجرة	ذو الحليفة ٤	ذو الحليفة ٥	الشجرة ٦	الشجرة ٦
ملل ١٢	الحفيرة	الحفيرة ٦	السيالة ٣١	ملل ١٢
السيالة ١٩	ملل	ملل ٦	الروثة ٣٤	السيالة ١٩
الروثة ٣٤	السيالة	السيالة ٧	العرج =	الروثة ٣٤
السقيا ٣٦	الروحة	الروحاء ١١	السقيا ٣٦	السقيا ٣٦
الابواء ٢٩	الروثة	الروثة ١٣	الابواء ١١	الابواء ٢٩
الجحفة ٢٧	العرج	العرج ١٤	الجحفة ٢٧	الجحفة ٢٧
قديد ٢٧	سيق بني غفار	السقيا ١٧	قديد ٢٩	قديد ٢٦
عسفان ٢٤	الأبواء	الأبواء ١٧	عسفان ٢٤	عسفان ٢٤
بطن مر ٣٣	الجحفة	الجحفة ٢٣	بطن مر ٣٤	بطن مر ١٦
مكة ١٦	قديد	قديد ٣٤	مكة ١٦	مكة ١٦
	عسفان	أمج		
	مر الظهران	عسفان ٢٣		
	مكة	بطن مر ٢٤		
		سرف ٧		
		التنعيم -		
		مكة ١٣		

ملحق (٢)

الهمداني	المقدسي	الإدريسي	الأسدي كما جاء عند السهري	البكري
السيالة ٢٣	رويته	الشجرة	الشجرة ٥	ذو الخليفة ٦
			مجموعة مساجد	
الروحاء ٢٤	الروحاء	ملل ١٢	الحفيرة	الحفير ٨
الروثة ١٣	العرج	السيالة ١٧	ملل	ملل ٨
العرج ٢٤	سقا بني غفار	الروثة ٣٤	السيالة ٧	السيالة ٧
السقا ٢٤	الابواء	السقا ٣٦	الروحاء ١١	الروحاء ١١
الابواء ١٩	الجحفة	الابواء ٢٧	الروثة ١٣	الروثة ٢٤
الجحفة ٢٣	الحيم	الجحفة ٢٧	الحيم	الأثاية ١٢
قديد ٢٤	خليص	قديد ٢٦	العرج ١١	العرج ٢
				الطلوب -
عسفان ٢٣	عسفان	عسفان ٢٤	السقا ١٧	القاحة ٦
مر الظهران ٢٣	بطن مر	بطن مر ٢٣	الابواء ٢١	السقا ١
مكة ١٣	مكة	مكة ١٦	الجحفة ١٣	تيهان ٣
			قديد ٢٤	ابواء ١٦
			خليص ٧	الجحفة ٢٣
				الكلاية ١٢
			بطن مر الظهران ٣٧	المشلل ٩
				قديد ٣
			مكة ١٧	خليص ٧
				أمج ٢
				الروضة ٤
				قديد ٢
				وادي غزال ٥
				عسفان ١
				الجنابذ ٥
				بئر العدني ٢
				كورا الغميم ١
				بطن مر ١٥
				سرف ٧
				مكة ٦

ملحق (٣)

الطريق الداخلية من أيلة (العقبة إلى المدينة)

ابن خرداد ذبة	اليعقوبي	الخريزي	ابن رسته	وكيع
حقل	شرف البعل	شرف البعل	شرف النمل	شرف البعل
مدين	مدين	مدين	مدين	مدين
الأغراء	الأغراء	فالس	الأغراء	فالس
منزل	فالس	الأغراء	منزل	الار (الأكبر)
الكلابة	شغب	الكلابة	الكلابة	الكلابة (الكلابية)
شغب	بدأ	بدأ	شغب	بدأ
بدأ	السقيا	شغب	بدأ	الشغب
السرحتين	ذو المروة	السرحتين	سرحتين	السرحتين
البيضاء	ذو خشب	السقيا	البيضاء	السقيا (السقيا)
وادي القرى	المدينة	عتاب	وادي القرى	عتاب
الرحية		المر	الرحية	المروة
ذي المروة		السويداء	ذو المروة	المر
المر		الاراك	المر	السويداء
السويداء		ذو خشب	السويداء	الاراك (أوال)
ذو خشب	المدينة	ذو خشب		
المدينة			المدينة	
قدامة	المقدسي	البكري	الإدريسي	
شرف ذي النمل	شرف البعل	أتملة	حقل	
مدين	الصلا	حقل	مدين	
الأغراء	النيك	وادي الغراب	الأغراء	
منزل الكلابة	ضبة	شرف البعل	منزل	
شعب بني السرحتين	عونيد	مدين	الكلابة	
البيضاء	الرحية	عينونه	شغب	
وادي القرى	منخوس	النيك	البيضاء	
الرحية	البحيرة	(الصلا)	وادي القرى	
ذو المروة	الاحساء	ضبة	الرحية	
السويداء	الأغراء	بدأ يعقوب	ذو خشب	
خشب	الكلابة	سقيا يزيد	مر	
المدينة	شغب	المروة	السويداء	
	بدأ	السويداء	ذو خشب	
	السرحتين	نقع ذو خشب	المدينة	
	البيضاء			
	قرح			
	سقيا يزيد			

ملحق (٤)
الطريق الساحلي من أيلة إلى المدينة

اليقوي	الحربي	وكيع	قدامة	المقدسي	الادريسي
شرف البعل	عينونا	عينونا (عينونه)	شرف البعل	شرف البعل	الحقل
مدين	المصلى	المصلى (الصلا)	الصلا	الصلا	مدين
عينونا	النبك	النيل (النبك)	النبك	النبك	الخوراء
العويند	ظبة	طيبة (ظبة)	ظبة	ضبه	الجار
الصلا	المره	المده (المره)	عونيد	عونيد	كديد
النبك	عونيد	عونيد (عونيد)	الوجه	الرحبه	عسفان
القصبه	الوجه	الرجه القصبيه	منخوس	منخوس	بطن مر
البحره	منخوس	(الوجه)	الجره	البحيره	مكه
المغيثه	الخوراء	منخوس	الاحساء	الاحساء	(٢)
ظبه	قصبيه	الخوراء	ينبع	الأغراء	أيلة
الوجه	البحره	قصبيه	مستولان	العشيره	عونيد
منخوس	ينبع	البحره	الجار	الكلايه	ضبه
حوراء	(٠٠)	يلبا (ينبع)	المدينه	شغب	العطوف
الجار	الجار	مستولان		بدا	الخوراء
الجحفه	عمقه (٩)	الجار		السرحتين	وادي السرف
قديد	الكن (٩)	المدينه		البيضاء	القريفة
عسفان	المدينه			فرح	الجار
بطن مر				سقيا يزيد	
مكه					

ملحق (٥)

طريق الحج الشامى عند بعض المتأخرين من دمشق وإلى المدينة ومكة

الجزيري ت ٩١١-٩٩٧هـ/١٥٠٥-١٥٦٩م	ابن بطوطه ت ٧٩٧/١٣٧٧	الصلاح الصفدي ت ٧٦٤/١٣٦٢م	ابن فضل الله العمري ت ٧٤٩/١٣٤٩م
دمشق	دمشق	دمشق	دمشق
الكسوة	زرعه (أزوع)	قلعة بلبغا	الكسوة
الصنمين	بصرى	الكسوة	الصنمين
درعا	بركة زيزي	الصنمين	زرع
بصرى	اللجون	المليحة	بصرى
الزرقاء	حصن الكرك	بصرى	الزرقاء
زيزاء	معان	رأس وادي عنتر	معان
الكرك	ذات حج	الازرق	عقبة الصوان
الثنية	تبوك	زيزا	ذات حج
الحسا	الاخضر	الكرك	تبوك
معان	بركة المعظم	الحسا عقبة الصوان	العلا
العقبة (عقبة الصوان)	بئر الحجر		هدبه
	العلا	القطارانه	عيون حمزه
ذات الحج	العطاس	معان	المدينة
تبوك	هدبه	تبوك	ذى الحليفه
المفاضة العظمى	المدينة المنورة	المفاضة	بئر علي
العلا	الروحاء	العلا	الصفراء
الاخضر	الصفراء	وادي الاخضر	بدر
بركة المعظم	بدر	هدبه	مكة
سيل الصافي	رايح	عيون حمزه	
الحبيب	خليص	المدينة	
فويق	عسفان	ذى الحليفه	
العلا	بطن مر	الصفراء	
هدبه	مكة المكرمة	بدر	
اكرى		مكة	
عيون حمزه			
العقبة السوداء		يتبع رواية الجزيري عن مقدم الحج الشامى في أيامه	
وادي العظام			
أرض النخلتين			
ذى الحليفه			
		وادي العقيق	دمشق
		آبار حمزه	قبة بلبغا

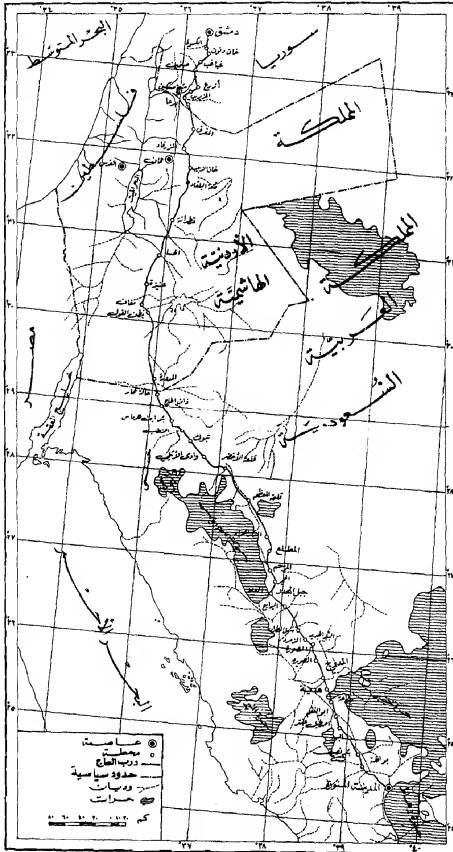
قبة الخنج	عيون حمزه	بئر علي
جسر الكسوه	المدينة المنورة	العقيق
خان ذى النون	آبار علي	الصفراء
كنيه	ذو الحليفه	بدر
المزيريب	قبور الشهداء	ثم يلاقي الطريق
أذرعات	الجدیده	المصرية
خان المفرق	بدر وحنين	
الزرقاء	قاع الزوه	
رأس بلاطه	اليزواء	
خان قياد	رابغ	
خان القطراني	طارق قديد	
الملجون	خليص	
الكرك	وادي المنحنا	
الحسا	وادي الزاهر	
خان عنيزه	سيل الجوخى	
معان	مكة المشرفه	
عقبة الصوان		
الطبيليه		
ذات حج		
قاع بسيطه		
بركة تبوك		
عقبة الاخضر		
ابي خبيب		
بركة المعظم		
الاقيرع		
شق العجوز		
ابيار الحجر		
مدائن صالح		
الاعلا		
مطارين		
شعب النعام		
هديه		
الفحلتين		
نقب علي		
وادي القرى		

يتبع ملحق (٥)

عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣/١٧٣١م)	محمد عبد الله (كبريت) (ت ١٠١٢-١٠٧٠هـ/١٦٠٣-١٦٥٩م)	الطريق من أبله إلى مكة- رواية الجزيري
دمشق	دمشق	حقل
	الكسوة	مدین
الكسوة	الصنمين	عيون القصب
خان الكشك	المزيريب	النبك
وعرة الغباغب	وادي القديم (القدین)	المويلحه
قرية الكتيبه	الزرقاء	الازلم
قلعة المزيريب	البلقاء	الوجه
الرمثا	القطراني	اكرى
المفرق	الحساء	الحوراء
الزرقاء	عنيزه	نبط
القلايات	معان	ينبع
البلقاء	عقبة الصوان	الدهنا
وادي النصور	عبادان	بدر
قلعة القطرانه	الطبيليات	الجار
الحسا	بطن الغول	رايغ
عنزه	قاع البسيطة (العرايد)	الجحفه
عقبة الحلاوة	تبوك	خليص
جخيجمات	المعر	بطن (مر)
قلعة معان	الاخيضر	عسفان
ذات صبح	الاقيرع	بطن مكة
الزلاقات	المبرك	
القاع	مدائن صالح (الحجر)	
الارحاء	الغلا	
قلعة تبوك	أبار الفقير	
مغاير شعيب	بئر الزمرد	
الأخضر (الأخضر)	شعب النعام	
جنانين القاضي	ذى الخليفة	
قلعة المعظم	خيف	
الأقيرع	رايغ	
آبار ثمود (مدائن صالح)	قديد	
شعيب النعام	خليص	
بئر الزمرد	عسفان	
بئر الحديد	البرقاء	
دار الظرافة	مكة	
هدية		
العقبة السوداء		
الفحلتن		
واد القرى		
الجرف		
المدينة		

درب الحاج الشامي

نقلا عن سيد عبد المجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ط ١ / الكتاب الجامعي (٦) (مطبوعات تهامة) ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ص (١٩٤ - ١٩٥).



البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي على ضوء كتابات الجغرافيين والرحالة العرب

تعتبر المنطقة التي أطلق عليها اسم بلاد الشام - سورية ولبنان والأردن وفلسطين - واحدة من أقدم البلدان الحضارية في العالم، وتضيف أعمال البحث والتنقيب الدليل تلو الدليل على عراقة هذه المنطقة، والدور المتميز لها في رقد الحضارات الإنسانية. ونظرًا لهذه الأهمية فقد تكثفت حولها الدراسات المختلفة.

وعلى الرغم من كثرة الدراسات المشار إليها، وأهميتها في تغطية جوانب متعددة لحضارة بلاد الشام، فإن دراسة طرق المواصلات والبريد فيها في الفترة الإسلامية، لم تحظ باهتمام الدارسين، مع أن هذه الطرق كانت من أهم الركائز الحضارية في بلاد الشام.

وقد كانت دروب بلاد الشام منذ أقدم العصور حلقة وصل في شبكة المواصلات العالمية، سلكها الناس من مختلف الاصقاع عبر القرون، وتلاقت في هذه المنطقة المسالك القادمة من مختلف الجهات.

ولا تزال بلاد الشام تحتفظ بالكثير من الدلائل التي تقف شاهداً على وجود هذه الطرق وتراكمها منذ أقدم العصور، كهذه الآثار التي خلفتها على الطبيعة، والنصوص الجغرافية التي تحدثت عنها، وكذلك قصص الرحالة والمسافرين^(١).... إن النقوش الادومية والنبطية المكتشفة تفيد أن الطريق القديم من (بثرا) والمار بمدينة (معان) ووحدات (الجفر) في الأردن الحالي كان مستعملاً على الأقل منذ أيام الفينيقيين^(٢).

(١) انظر: نكيثا اليسيف، (طرق المواصلات في بلاد الشام، ما بين القرنين السادس عشر والعشرين)، ترجمة بدر الدين قاسم الرفاعي، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٩٢٢هـ - ١٣٥٨هـ / ١٥١٦م - ١٩٣٩م، ج١، جامعة دمشق، ص ٢٩١-٢٩٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليسيف، (طرق المواصلات).

(٢) C.P. Grant, The Syrian Desert: Caravans, Travel and Exploration, London, 1937, p.35. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: Grant, The Syrian Desert.

ومن حسن الطالع أننا نملك وثائق عن الدروب والمسالك في العصر العباسي، ويعود الفضل في ذلك إلى مجموعة من الجغرافيين والبلدانيين الذين زودونا بقوائم للطرق والمنازل والمسافات، وقد فتح الجاحظ (٢٥٥هـ/٨٦٨م) للبلدانيين باب التأليف في تقويم البلدان وخصائصها، وشرع لهم هذا المنهج فاقتفوا أثره وقلدوه، وتوسعوا من بعده في معلوماتهم، دون أن يغمطوه حقّه، فهذا المقدسي (ت بعد ٣٧٨هـ/٩٨٨م) يقول: "وكتاب ابن الفقيه في معنى كتاب الامصار للجاحظ"^(١).

ومع ذلك ينتقد المقدسي من تقدمه ممن ألف في البلدانات فيقول: "ولكن من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها، ولا طلب الفوائد التي أردتها"^(٢).

ومن الأوائل الذين ألفوا في مسالك البلاد الإسلامية ابن خرداذبه (ت ٢٧٢هـ/٨٨٥م) الذي كان رئيس ديوان البريد في إقليم الجبال، وقد اشتمل كتاب "المسالك والممالك: على معلومات تاريخية لها قيمتها العلمية، ولا سيما الطرق بعامة وما يختص بطرق البريد وسككه بخاصة، ويعتبر ابن خرداذبه ثم معاصره قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) الذي كان عاملاً للخراج - من الرواد الذين تخصصوا في الطرق والمسافات وقوائم المنازل والمحطات، وبحكم عملهما في الإدارة العباسية، أصبح لمعلوماتهما قيمة خاصة. أما اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧م) فوصف بأسهاب طوبغرافية بغداد، واعتنى ابن رسته (ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م) على وجه الخصوص بطريق خراسان والطريق الذي يمتد من بغداد جنوباً إلى الكوفة والبصرة وشيراز. وهؤلاء الأربعة من جغرافيين القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي. ثم حدث تطور في علم الطرق وظهر في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي الجغرافيون القياسيون الذين أعطونا الأبعاد بالميل لكل إقليم على حدة، فعد هذا تقدماً كبيراً في حقل الكتابة الجغرافية. ومن مشاهير هؤلاء الاصطخري (نبغ في سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م) وابن حوقل (كتب مؤلفه عام ٣٦٧هـ/٨٧٧م) والمقدسي البشاري

(١) المقدسي، محمد بن أحمد (ت ٣٧٥هـ/٩٨٥م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن، مطبعة بريل ١٩٠٦، ص ٥ وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: المقدسي، أحسن التقاسيم.

(٢) المصدر السابق، ص ٣.

(ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) والأول فارسي الموطن يعطينا وصفا حقيقيا مسهبا عن فارس، والثاني لا يضيف إليه بالنسبة لبلاد الشام من حيث المادة الجغرافية. أما المقدسي فتميز عن غيره، لأنه كتب جغرافيته بأسلوب خاص يختلف عما سبقه، فجاء كتابه عظيما جمع فيه ملاحظاته الشخصية عن كل ولاية، ووصف الأماكن والعادات وأحوال السكان وحرفهم. فلعل كتابه أعظم من كل ما صنعه البلدانون العرب وأكثرهم أصالة. فوصفه للأمكنة والعادات والطبائع والتجارات والصناعات وتلخيصه لخصائص كل إقليم، يعدان خيرا ما كتب في سلسلة مصنفات العرب في العصور الوسطى^(١).

ونحن ندين في موضوعنا للمعلومات التي أوردتها المقدسي عن بلاد الشام إذ أن الحديث عن بلاد الشام جاء مختصرا ومبتسرا عند غيره، ذلك أن منبت معظم الجغرافيين الأوائل هو الأقاليم الشرقية من البلاد الإسلامية، فأولوها جل عنايتهم ومرورا مرور الكرام على الأقاليم الأخرى. كما أن الثقل السياسي والإداري تحول إلى بغداد والأقاليم الشرقية في العهد العباسي، فاستأثرت بغداد وما حولها باهتمام الجغرافيين أكثر من غيرها كما جرت عليه العادة.

أما المقدسي بحكم أصله ونشأته فقد توسع في الحديث عن إقليم الشام بحكم معرفته به وسياحته فيه، وارتكزت معلوماته التي جمعها بنفسه على ما شاهده بعينه، أو جمعه من الثقات، أو ما أخذه من المصنفات. وحتى يحصل المقدسي على أدق المعلومات، اختلط بجميع طوائف السكان، ومارس مختلف أنواع المهن، وتعرض في كثير من الأحوال إلى المحن والأهوال، وقد جاء وصفه لحاله هذه في مقدمة كتابه^(٢).

ولم يكن هؤلاء هم كل الجغرافيين العرب، فالذين كتبوا عن المسالك والممالك الإسلامية كثر، ومنهم من قام بالرحلات ليجمع معلوماته بنفسه، نذكر منهم المسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) وناصر خسرو (ت بعد ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) وابن جبیر (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) وأخيرا الرحالة

(١) لستراخ، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية بشر فرنسيس وكوركيس عواد، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: لستراخ، بلدان الخلافة الشرقية.

(٢) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٣. وحول هؤلاء الجغرافيين انظر: «طرق الحج الشامي» في هذا الكتاب.

ابن بطوطة (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٤م).

وتعتبر التجارة من أسباب حركة المواصلات، وقد نشطت في العصر الأموي في بلاد الشام، وأصبحت دمشق مركزاً للثروة والحضارة العربية الإسلامية، وشهدت الفترة العباسية ازدهاراً زائداً من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وحتى الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث أعيد النشاط التجاري بين سوريا وبلاد ما بين النهرين^(١).

وكان لليهود شأنهم في النشاط التجاري العالمي، وكانوا أحياناً يظهرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط وفي أنطاكية والجابية في بلاد الشام^(٢). ثم يركبون في الفرات إلى بغداد. ثم يركبون في دجلة إلى (الابلة) ومن الابلة إلى عُمان والسند والهند والصين، كان ذلك متصل ببعضه ببعض^(٣)، وكانوا سادة فيما عرف بتجارة (الكارمي).

لقد اعتاد الباحثون وسم الإسلام بطابع تجارة القوافل منذ القديم، واستمرت هذه الحالة حتى دخلت وسائل النقل الحديثة، فعبدت الطرق، ومدت السكك الحديدية في بلاد الشام، ويعود الفضل في شق هذه الطرق إلى مساعدة القوافل القديمة، وترسم أثرها والسير على هديها الخالد^(٤). كانت القوافل أكثر وسائل التجارة والسفر شيوعاً في القرون الإسلامية الزاهرة، وتشير كميات النقود الإسلامية الكبيرة المكتشفة إلى مدى توسع تجارة المسلمين في العالم، فقد عثر على هذه النقود في أماكن متعددة من روسيا وفنلندا والسويد والنرويج هذا بالإضافة إلى بعض المكتشفات المتفرقة في الجزر البريطانية وإيسلنده وكذلك عثر على مثل هذه النقود في واسط حوض الفولغا بإقليم قازان، إلا أن

(١) Grant: The Syrian Desert. p.65

(٢) هذا يعني أنها ليست المكان المعروف والمشهور في حوران الذي ينسب إليه باب الجابية أحد أبواب دمشق، فقد ذكر الحميري في الروض المعطار: أنها قنسرين وقال بين الجابية ومنبع أربعة فراسخ ومن حلب إليها ستة فراسخ. الحميري، محمد عبد المنعم، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط ٢، ١٩٨٤م، ص ١٥٣.

(٣) ابن خرداذبة، عبيد الله بن أحمد (ت ٣٠٠هـ/٩١٣م)، كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غوييه، مطبعة بريل، ١٩٦٧، ص ١٥٣-١٥٤. وسيفشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن خرداذبة، المسالك والممالك. وانظر: الخرائط الملحقه.

(٤) جي. أ.ج. كرامرز، (الجغرافية والتجارة)، تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس، أرنولد تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٨، ص ١٢٥-١٢٥، ص ١٥٤. وسيفشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كرامرز، الجغرافية والتجارة.

ما عثر عليه في منطقة البلطيق يفوق ما ذكرنا بكثير^(١).

ولا شك في أن بلاد الشام شاركت في النشاط التجاري في العصر العباسي نظرا لاتساع رقعة البلاد ووحدها، وارتفاع مستوى المعيشة، ووحدة النقد في البلاد الإسلامية، وشيوع الأمن والاستقرار في سائر الأنحاء في الفترة العباسية الأولى بخاصة، بالإضافة إلى الاهتمام بالطرق وتمهيدها، وحفر الآبار، وبناء المحطات والاستراحات عليها منذ العهد الأموي وخلال العصر العباسي.

ويمكن للمرء أن يدرك شيئا عن الثروة التي حازها أمراء المال في ذلك العصر والسعة التي كانوا فيها من قصة ابن الجصاص الجوهري ببغداد، فقد ظل غنيا موسرا بالرغم من أن المقتدر صادر منه ستة ملايين دينار، وكان أول من عرف من هذه الأسرة التي نبغ فيها بعده كبار تجار الجواهر^(٢).

وقد ذكر الطبري: "أنه لما استتبت الخلافة للعباسيين أولوا الطرق أهمية ووضعوا عليها المنائر والأميال والبرك"^(٣)، ثم أن المهدي في سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م أمر بإقامة البريد بين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين مكة واليمن بغالا وابلا ولم يبق هناك بريد قبل ذلك^(٤).

وقد ذكر المقدسي السلع التجارية لبلاد الشام في زمنه فقال: والتجارات به مقيدة: يرتفع من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم^(٥)، والصابون والقوط^(٦)، ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوري غاية، والتفاح وقضم^(٧) قريش الذي لا نظير له، والمرايا وقدور القناديل والابر، ومن أريحا نيل غاية، ومن صغر وبيسان

(١) المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٢) الكشي، محمد بن شاهر (ت ٧٦٣هـ/١٣٦٢م) فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ج ١، ص ٣٧٢.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ الرسل والملوك المشهور الطبري، ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ج ٨، ص ١٣٦.

(٤) الطبري، تاريخ، ج ٨، ص ١٦٢.

(٥) من الصناعات الغذائية.

(٦) القوط: نوع من النسيج.

(٧) قضم قريش: هو حبوب الصنوبر.

النيل والتمور، ومن عمان الحبوب والخرفان والعسل، ومن طبرية شقاق^(١) المطارح والكاغد وبز ومن قدس ثياب المنيرة والبلعيسية والحبال، ومن بيسان الرز، ومن دمشق المعصور والعلعيس وديباج ودهن بنفسج دون الصفريات، والجوز، ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة، ومن بعلبك الملاين... وأعلم أنه قد اجتمع بكورة فلسطين ستة وثلاثين شيئاً ولا تجتمع في غيرها، والسبعة الأولى لا توجد إلا بها، والسبعة الثانية غريبة في غيرها، والاثنتان والعشرون لا تجتمع إلا بها وقد يجتمع أكثرها في غيرها^(٢). وقال ناصر خسرو أن الواحد من أهل بيت المقدس يملك خمسين ألف من^(٣) من زيت الزيتون ويحفظونها في الآبار والأحواض ويصدرونها إلى أطراف العالم^(٤).

وكما نشطت التجاره البرية في بلاد الشام، فقد نشطت كذلك التجارة البحرية فقد ذكر اليعقوبي في آواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أن ميناء طرابلس الشامل "عجيب يحتمل ألف مركب"^(٥) وكانت مدينة صور هي الميناء الحربي الإسلامي المواجه لبيزنطه، إذ كان بها دار للصناعة، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم وكانت حصينة جليلة^(٦) وأما انطاكية "سلوقية" فكانت في أثناء القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أهم ميناء تجاري في الشام^(٧). وذكر ابن خرداذبه أن الخليفة المعتصم حصنها^(٨).

(١) شقاق المطارح: جنس من الثياب المستطيلة.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٠-١٨١.

(٣) المن الشرعي زنة ٢٦٠ درهما في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. انظر: فالتز هنتس، المكايل والأوزان الإسلامية، ترجمة الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ١٩٧٠، ص ٤٦.

(٤) ناصر خسرو، (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) سفرنامه (رحلة ناصر خسرو) إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، ط ٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣، ص ٥٦.

(٥) اليعقوبي، احمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) كتاب البلدان، ملحق بكتاب الاعلاق النفسية لابن رسته، لندن، مطبعة بريل سنة ١٨٩١م، ص ٣٢٧. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: اليعقوبي، البلدان.

(٦) اليعقوبي، بلدان، ص ٣٢٧؛ وانظر كذلك آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢ ج، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده، ط ٤، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ٢ م، ص ٤٣٢. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: آدم متز الحضارة الإسلامية.

(٧) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ٢م، ص ٢٥٥، ٤٣٢.

(٨) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ١٥٣.

وكانت بلاد الشام تزود البلاد الإسلامية الأخرى بالثلج. فقد ذكر العسكري في الأوائل، أن أول من حمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف الثقفي^(١). وكانت هجن خاصة تقوم بنقل الثلج إلى مصر مستخدمة طرق البريد، كما كان ينقل أيضا بواسطة المراكب من السواحل الشامية^(٢).

ويعتبر الحج إلى الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين من العوامل الهامة المنشطة لحركة المواصلات في العالم الإسلامي بعامه وبلاد الشام بخاصة. ذلك أن هذا العامل يرتبط بالعتيدة الدينية عند المسلمين والنصارى واليهود، فالحج هو ركن من أركان الإسلام الخمسة، وتأتيه فرض عين على كل مسلم ومسلمة، كما تحتضن مدينة بيت المقدس مقدسات لاتباع الديانات السماوية الثلاث يحرص الجميع على زيارتها وإقامة الشعائر الدينية فيها.

ومع امتداد العالم الإسلامي وتزايد عدد المسلمين، أصبح توافد الحجاج من كل فج إلى المدن المقدسة في الحجاز ظاهرة سنوية تتميز بكثافة المسافرين وكبر حجم قوافلهم. وشهدت طرق الحج كذلك حركة وإعمارا واهتماما من لدن المسؤولين في الدولة، أو أهل الخير من أثرياء المسلمين، وقد بنيت على طول طرق الحج المحطات وحفرت الآبار والبرك لحفظ المياه، كما وضعت العلامات الدالة على المسافات أحيانا بين المحطات. وكان يرافق موسم الحج حركة اقتصادية نشيطة ساهم فيها الحجاج والتجار وسكان المناطق التي تمر فيها الطرق، لهذا نشأت المراكز والمدن في المواقع الهامة من الطريق. ولقد علق آدم متر على الطرق المتجهة صوب مكة بقوله: "وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يقدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء العالم الإسلامي. ولم تكن فريضة الحج وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها أمان الطريق أيضا في حماية قوافل الحج الكثيرة، التي كانت تنهال إلى هناك من شتى النواحي، فمن ذلك أن كثيرين من تجار

(١) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) الأوائل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨م، ص ٢١٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العسكري، الأوائل.

(٢) ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م) التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، بيروت، ص ٢٥٧-٢٥٨. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: العمري، التعريف.

بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة (٢٣١هـ/٩٤٢م) إلى الشام ومصر، وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتوافر المحن عليها من السلطان، وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البيزنطيين، ففي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م التحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج، وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارين بمكة، وكان فيهم قاضي طرسوس ومعه مائة وعشرون ألف دينار^(١).

وقد استفادت مدينة بيت المقدس بوجه خاص في بلاد الشام من المزايا الدينية والتاريخية، مما جعلها تأخذ نصيباً من جموع الحجاج، وكان الذين لا يستطيعون الذهاب إلى مكة من أهل الولايات الشامية يذهبون إلى القدس في موسم الحج، ويقدمون فيها بعض الشعائر، فقد ذكر ناصر خسرو أنه في بعض السنين كان يجتمع فيها أكثر من عشرين ألف شخص، يقدمون إلى بيت المقدس وفيهم من ديار الروم كثير من النصارى واليهود لزيارة كنيسة القيامة والكنيس^(٢). ومن الجدير ذكره أن قافلة الحج الشامي كانت أبرز قوافل الحج في العهد الأموي، من حيث حجمها وتنظيمها، ورعاية الدولة لها، وفي العهد العباسي بقيت واحدة من أشهر وأهم القوافل، لذلك كان درب الحج الشامي من أكثر الدروب حيوية ونشاطاً.

وهناك علاقة وطيدة بين طرق المواصلات ونظام البريد في العصر العباسي وغيره في بلاد الشام، فمنذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) استفاد العباسيون من أنظمة البريد التي كانت معروفة منذ القدم في سوريا وبلاد ما بين النهرين، والتي كان الفرس والرومان قد استخدموها لايصال رسائل الدولة، وزاد اهتمام الرومان بالبريد، وانشأوا له طرقاً جديدة في بلاد الشام، بنوا فيها المحطات ووضعوا فيها الحاميات.

وكانت هذه الخدمات في الغالب مرافقة للخدمات العسكرية والتجارية ولم تنفصل عنها، وكان اهتمام الرومان والبيزنطيين بالخدمات البريدية مركزاً في حواضر بلاد الشام،

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج-٢، ص ٣٥٣؛ نظير حسان سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية، مكتبة مصر بالقاهرة، ١٣٧٢هـ/٩٥٣، ص ١٠٥٢. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: سعداوي، نظام البريد.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص ٥٥.

وقانون ثيودوسيان (Theodosian Code) يحدد وظائفهم^(١).

ونظر التوحيد بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين في الدولة الإسلامية، فقد انتعشت خطوط المواصلات ما بين هذين الإقليمين، وأصبحت الطرق تقطع الصحراء الفاصلة بينهما، ومع هذه الوحدة بدأت الخدمات البريدية الصحراوية مع بداية قيام التنظيمات في الدولة العباسية.

ولم يكن البريد ابتكاراً عربياً، وإنما اقتبس عن الأمم السابقة، فهناك من يدعي أن أصل الكلمة مستمد من اللفظة اللاتينية (Veredus) أو اليونانية (beredos) وربما جاءت هذه الكلمة من أصل آشوري (Posr horse) وتدل على خدمات البريد والمخابرات في الدولة الإسلامية بما في ذلك الركوبة والساعي ومحطة البريد^(٢). والبريد في اللغة مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً، ومعناه في الاصطلاح، أن تجعل خيل مضمرات في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وهكذا حتى يصل البريد إلى المكان المقصود^(٣).

وذهب ابن الأعرابي إلى أن لفظة البريد فارسية أصلها "بريد دم" وتعني محذوف الذنب لأن بغال البريد كانت عند الفرس محذوفة الأذنان كالعلامة لها، فعربت وخففت ثم سمي الرسول الذي يركبها بريداً، والمسافة التي بين السكنتين بريداً، والسكة موضع كان يقيم فيه الفيوج المرتبون من بيت أوقبة، أو رباط وكان يرتب في سكة بغال، وفي هذا المعنى جاء قول الشاعر امرئ القيس^(٤):

على كل مقصوص الذنابي معاود بريد السرى بالليل، من خيل بربرا

وكذلك قول مزرد أخي الشماخ بن ضرار يمدح الأوسي:

فدتك عراب اليوم أمني وخالتي وناقتي الناجي إليك بريدها^(٥)

(١) Grant: The Syrian Desert: p. 235.

(٢) D.Sourdel: «Barid», E.I., Vol. 1 pp. 1045-1046.

(٣) انظر: حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ط ٤، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٧٠، ص ٢٢٦، وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية.

(٤) لسان العرب، ج ٣، ٨٦، مادة «برد».

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٨٧.

ويستفاد من هذا الشعر كما هو واضح أن العرب استخدموا في بريدهم البغال المقصوص الأذنان والجمال.

واستخدم الجمل (سفينة الصحراء) في البريد والأسفار الصحراوية منذ هذه الفترة، وتابع العباسيين على ذلك المماليك والأتراك العثمانيون كما استفاد الإنجليز في العصر الحديث من بريد الجمال (dromedary post) ليكون جسرا بين سوريا والعراق^(١).

وأول من وضع البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان، أما عبد الملك بن مروان فقد أحكمه ونظمه وأولاه عنايته واهتمامه، فمهد طرقه ومحطاته^(٢).

وقد اهتم خلفاء بني العباس منذ البداية بجهاز البريد، فلما ظهر أبو العباس السفاح على الأمويين، وجه موسى بن كعب في ثلاثين رجلا على البريد إلى عبد الله بن علي^(٣). ومنذ عهد الخليفة المنصور تطور نظام البريد، وأصبح البريديون بالإضافة إلى أعمالهم المعتادة، عيون الخليفة في الأقاليم والولايات وحيشا وجدوا، على عمال الدولة وموظفيها وكل ما يتعلق بشؤون البلاد، يبعثون بأخبارهم على عجل إلى الخليفة بواسطة رؤسائهم^(٤). وقد اعتبر المنصور أن الملك لا يقوم إلا بأربعة أركان هي: القضاء والشرطة وجهاز بيت المال والبريد الذي جعله أخطرها لأنه عينه على العاملين فيها^(٥).

كذلك أولى كل من المهدي والرشيدي البريد عنايتهما، ووصل البريد في عهد المأمون درجة متقدمة، فقد جيء بالرطب الأزاز من العراق وهو في بلاد الروم في يومه الذي طلبه فيه^(٦). ورغم اهتمام بني بويه بالبريد بشكل عام إلا أنهم قطعوه عن الخليفة حتى لا يعلم من الأمور

(١) Grant: The Syrian Desert, p.235

(٢) انظر: العمري، التعريف، ص ٢٣٩، والقلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ١٤، نسخة مصورة عن الطبعة الميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ج ٤، ص ٢٦٨. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القلقشندي، صبح الأعشى.

(٣) الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٤٣٢.

(٤) حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٢٨.

(٥) لمرجع السابق نفسه.

(٦) العمري، التعريف، ص ٢٤١.

شيئا. وقد اهتم المماليك بإحياء نظم البريد والعناية بها حتى عادت إلى سابق عهدها^(١).

ويستنتج من النظام الإداري العباسي أن مؤسسة البريد كانت أكثر مؤسسات الدولة أهمية، وأن بناء الخانات وحفر الآبار على طول الطرق الصحراوية، وكذلك الحفاظ على الأمن فيها، مما شجع السفر على هذه الطرق لمختلف الغايات، وقد تحقق الأمان على هذه الطرق لدرجة أن المرأة كان بإمكانها السفر على أي طريق من هذه الطرق ماشية أو راكبة. وكان السعاة العاملون في مصلحة البريد يختارون من العرب العسكريين ممن يتمتعون باللياقة الجسدية، والقدرة على الخدمة ليلاً ونهاراً، بالإضافة إلى الذكاء والرشد والبراعة، وقد اعتبر هؤلاء في العصر المملوكي من خير رجال الدولة المقربين من السلطان^(٢).

واستخدم العرب وسائل أخرى في مراسلاتهم، منها الحمام الزاجل الذي استخدم أولاً في الموصل ثم استخدمه الفاطميون بمصر وبالعوا في العناية به، حتى جعلوا له ديواناً وألفوا الكتب في أنسابه، فقد صنف في الحمام أبو الحسن بن ملاعب الفوارس البغدادي كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي، كما صنف فيه أيضاً الفاضل محي الدين البغدادي بن عبد الظاهر، كتاباً سماه: "مئثم الحمام"^(٣).

والمراسلة بواسطة الحمام الزاجل عرفت منذ أيام الرومان، واستخدمها القرامطة على نطاق واسع في العراق وسوريا، في القرن الثالث الهجري، والأيوبيون في فترة صراعهم مع الصليبيين^(٤)، وقد ذكر العمري ما يزيد على خمسة وعشرين مركزاً للحمام في الديار الشامية في زمنه^(٥).

واستخدم المسلمون في مراسلاتهم أيضاً النار والدخان، وكانت تباشر من على منابر خاصة أقيمت في المرتفعات ليشرّف بعضها على بعض، وفي الغالب كانت هذه المناظر تقع على طرق المواصلات أو قريها. ويستخدم الموكلون بها النار في الليل، والدخان

(١) المصدر نفسه.

(٢) Grant, The Syrian Desert, p. 239

(٣) العمري، التعريف، ص ٢٥٤ - ٢٥٥، وانظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٤، دمشق، ١٩٨٤، ج ١، ص ٣٩٠.

(٤) متز، الحضارة الإسلامية ج ٢، ص ٤٢١ - ٤٢٢.

(٥) العمري، التعريف، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

في النهار، وللقائمين عليها رموزهم ومصطلحاتهم التي يفهمونها، واعتبرت هذه أسرع أنواع المراسلات^(١).

ومن العوامل التي ساهمت في تنشيط حركة المواصلات ورسم الطرق، حركة الجيوش والمقاتلة بأعدادهم الكبيرة، فبلاد الشام منذ أوائل الفتح الإسلامي أصبحت مسرحاً لتحرك الجيوش في مختلف الجهات واستفاد الجند من طرق البريد والطرق الأخرى، كما استخدموا قوافل البريد وسعاته كأدلاء نظراً لخبراتهم في معرفة الطرق.

وقبل أن نتحدث عن طرق المواصلات في بلاد الشام لا بد من التعرض لشبكة الطرق القديمة في هذه المنطقة وذكر أشهر خطوطها، لأن هذه الخطوط قديمة جداً وبعضها يعتبر امتداداً لطرق تجارة البخور التي استخدمها المكيون في رحلة الشتاء والصيف بين اليمن وبلاد الشام، أو جزءاً من طريق الحرير القادم من الصين والذي كان يمر من إيران عبر سوريا إلى البحر الأبيض المتوسط.

وقد اعتمد الأنباط على التجارة في الدرجة الأولى، لأن معظم بلادهم كانت صحراء لا تصلح للزراعة، لذلك احتلت تجارة القوافل المقام الأول في حياة الأنباط، وكان خير ما يعين حدود الأنباط هي الطرق التجارية، فكانت السلع العربية الجنوبية والهند تصل إما عن الطريق القديم (طريق البخور) الموازي براً للبحر الأحمر، حيث كانت المدينة الحدودية إجرا (Egra) (الحجر)، فيم ييدو، وإما بحرًا حيث تنزل السلع في الحوراء (Leuce Come) أو أيلة (العقبة) وكتلتهما ميناءان نبطيان، ومن أيلة قد تحمل عبر شبه جزيرة سيناء إلى غزة. وأن لم تذهب تلك القوافل نحو تلك الوجهة، اتجهت شمالاً باتجاه الشرق إلى بترأ، التي كانت مركزاً تجارياً مزدهراً في القرن الرابع قبل الميلاد، وربما كانت بترأ تتلقى السلع مباشرة أيضاً من القوافل القادمة من الخليج العربي، ومن بترأ كانت الطريق تتجه صوب الشمال شرقي البحر الميت، وهذه الطريق تمر أيضاً في أرض نبطية حتى حسيبان (Esbus) ومن ثم تسلك الطريق المباشرة إلى الموايئ الفنيقية خلال أرض رومانية مارة بفيلاذلفيا (عمان) وجرش (Gerasa). وهناك طريق بديلة تتجه شمالاً شرقاً على طول حافة الصحراء ملتفة حول أرض رومانية إلى بصرى (Bostra) وهي مدينة نبطية، وهناك كانت الطريق تتشعب

(١) انظر: العمري، التعريف، ص ٣٥٦-٢٦١. ذكر العمري مجموعة المناظر التي بين دمشق وغزة في عهده.

فيؤدي فرع إلى الساحل مخلفا المنطقة النبطية عند اخراجات (درعا الحالية). ويدور الثاني حول جبال حوران من الشرق ويصل في النهاية إلى دمشق، وكان هذا الفرع الثاني تحت سيطرة الأنباط. ومن بترا كانت تتفرع عدة طرق منها ما يتجه إلى غزة فسيناء إلى مصر، ومنها ما يتصل بالطريق الملكي الذي يمر بمنطقة البحر الميت. وقد دلت الحفريات التي أجريت في تل الخليفة (عصيون جبر) وإيلات، على وجود طريق قديم بين فلسطين وبلاد العرب. ومن الضروري أن نعرف أن الطرق التجارية النبطية المهمة هي تلك التي تصل بترا عبر وادي عربة والنقب إلى البحر الأبيض المتوسط. ومن بترا تخرج البضائع الثمينة إلى سوريا وفلسطين ومصر وأوروبا محمولة برا أو بحرا كما ذكرنا^(١).

ومن المعلوم أن الرومان استولوا على بلاد الشام، وقاموا بتطوير الطرق في أنحاء بلاد الشام كافة، وبنوا فيها طرقا جديدة رئيسية، ورفعوا مستواها عما هو محيط بها، وهي معلمة جيدا بالحجارة المليية (Mile Stones) ورصفوها وجعلوا الخدمات الضرورية على طولها.

كانت شبكة الطرق الرومانية كثيفة في بلاد الشام تربط جميع المدن والمواقع الداخلية والساحلية والصحراوية، لا بل أصبحت كل مدينة ملتقى لعدد من الطرق القادمة من مختلف الاتجاهات. ومن أبرز الطرق الرومانية في بلاد الشام الطريق الذي يخترق سوريا من الشمال إلى دمشق ثم إلى بصرى ودرعا، حيث تخرج فروع من دمشق إلى البحر الأبيض، وكذلك من درعا إلى البحر الأبيض غربا، وجنوبا إلى جرش ومن بصرى إلى عمان ومنها إلى مؤاب وبترا والبحر الأحمر. وكان يطلق عليه طريق تراجان الجديد (Via Nova Traiana) وتتشعب من الخط الرئيسي فروع كثيرة تربط معظم مدن بلاد الشام، ولا تزال معالم هذا الطريق وفروعه واضحة في أجزاء كثيرة من بلاد الشام^(٢).

(١) انظر: ذلك عند Nelson Glueck, Deities and Dolphins, New York, 1965, pp. 44-69 وأ. هـ. م. جونز، مدن بلاد الشام، ترجمة احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط ١، عمان، الأردن 1987، ص 117-118. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: جونز، مدن بلاد الشام.

(٢) حول الطرق الرومانية انظر:

1. Aharoni (Y), The Roman Roads to Aila, I.E.J., IV, 1954, pp. 1-16.
2. Good Child (E.G.), The Cost Road of Phoenicia and Its Roman Milestones, Berytus, IX, 1949, pp. 91-127.
3. S. Mittmann, The Old Roman Road From Gerase to Adraa, ADAJ, XL, 1966, pp. 56-88.
4. H.C. Butler, Trajan Road From Basra to the Red Sea, Ancient Architecture in Syria, Leyden. 1907. pp. 1-28.

واعتمادا على ما جاء عند جغرافي العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين) نجد أن بلاد الشام في العصر العباسي كانت تغطي بشبكة من الطرق الكثيفة والمنظمة لدرجة تبعث على الإعجاب، وبخاصة في الأجزاء الغربية المكتظة بالسكان. وقد قسم الجغرافيون بلاد الشام عند حديثهم عن دروبها ومسالكها إلى كور، بدأوها في الغالب بكور الثغور الشامية والجزيرية، ثم كورة حلب وما يتبعها، وكورة حمص، وكورة دمشق وكورة الأردن، وكورة فلسطين. وقد أوجز هؤلاء الحديث عن الطرق العرضية التي تقطع الصحراء الفاصلة بين إقليمي الشام والعراق. ومن أشهر الطرق في الشمال تلك التي تخرج من منبج إلى الثغور الشامية، لتربطها بكل من حلب وقنسرين وانطاكية والإسكندرية على البحر الأبيض المتوسط^(١).

وقد أورد كل من ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر أسماء مدن الثغور ومقدار المسافات بين كل مدينة وأخرى وقدروها بالسكك (البرد)^(٢)، وقد قدرها المقدسي بالأيام والمراحل والبرد^(٣). ويستدل من التقاء الطرق في حلب أن هذه المدينة كانت عقدة المواصلات التي تربط مناطق الثغور وشمال بلاد الشام وجنوبها والبحر الأبيض المتوسط^(٤)، وقد قال الاصطخري عنها، أنها على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات^(٥)، ولعل الأبواب السبعة لحلب تشير إلى كثرة الطرق المؤدية إليها والخارجة منها، وأسماء هذه الأبواب تشير إلى ذلك مثل باب حمص، باب الرقة، باب قنسرين، باب اليهود - لعله كان يفضي إلى حي اليهود في المدينة - باب العراق، باب دار البطيخ، باب انطاكية، ومن ثم باب الأربعين^(٦) وقد مر بهذه المدينة الرحالة ناصر خسرو في القرن الخامس

5. C.P. Grant, The Syrian Desert, Caravans, Travel and Exploration, pp. 33-72.

(١) قدامة بن جعفر (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م) وقيل ٣٣٧هـ/٩٤٨م) الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر ١٩٨١، ١٢٩٢. وسيسار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: قدامة، الخراج.

(٢) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٩؛ قدامة، الخراج، ص ١٢٩.

(٣) أحسن التقاسيم، ص ١٩٠.

(٤) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ٥ ج، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩، ج ٢، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ (مادة حلب).

(٥) أبو اسحاق إبراهيم بن محمد، (المسالك والممالك) ص ٦١.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٥.

الهجري (الحادي عشر الميلادي) ووصف سورها وقال أنه يرتفع خمسة وعشرين ذراعاً، كما وصف قلعتها العظيمة المنيعة، وقال أنها مدينة عامرة، وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد^(١). ويلاحظ أن القوافل اتخذت الطرق القديمة ما بين حلب والفرات، وذلك إما باتباع نهر الفرات بالاتجاه الشمالي الغربي إلى مسكنه وهي ثباسكوس القديمة (The ancient Thapascus) ثم تتجه غرباً لتعبر الواحات القديمة لمدينة الطيبة (Taiyiba) ثم إلى حلب. وتوجد طريق أخرى أبعد شمالاً كانت مستعملة قبل الفترة الرومانية وتصل ما بين أعالي الفرات عابرة الفرات في زيوقما (Zeugma) أو التل الأحمر، وتعبر إلى شمال غرب حلب مباشرة إلى إنطاكية (Herapolis)^(٢) بطريق منبج، وكان الرشيد أول من أفرد العواصم وجعل مدينتها منبج^(٣). وقد اعتبر خسرو هذه المدينة أول مدن الشام^(٤)، أما الاصطخري فقد ذكر أن قسبة العواصم هي انطاكية^(٥).

وتخترق بلاد الشام شبكة من الطرق شمالاً وجنوباً، تعتمد على طريقين دوليين قديمين استخدمهما الإنسان منذ أقدم العصور وحتى الآن. وهذان الخطان هما الخط الساحلي الذي يربط الثغور الجزيرية في الشمال وبلاد الروم بالإسكندرية على البحر المتوسط وانطاكية واللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وقدس وقيسارية ويافا وعسقلان واسدود وغزة، ثم يستمر جنوباً حتى يدخل الأراضي المصرية. وتفرع من هذا الخط فروع متعددة تصل المدن الداخلية، وتلتقي بالخط الرئيسي الثاني الداخلي الموازي للطريق الساحلي. وأهم هذه الخطوط الفرعية: الخط الذي يصل طرابلس على البحر المتوسط بمدينة بعلبك ثم بدمشق، وكذلك خط آخر يصل طرابلس بمدينة طبرية، حاضرة جند الأردن، ويخرج من طبرية ليرتبط بالخط الساحلي مروراً باللجون والرملة ومن ثم

(١) خسرو، سفرنامه، ص ٤٤-٥٥.

(٢) Grant, The Syrian Desert, pp. 40-41

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٠٥.

(٤) خسرو، سفرنامه، ص ٤٤.

(٥) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٦٧.

إلى غزة حيث يستمر الطريق إلى مدينة الفسطاط في مصر^(١). وهذا الخط - من حيث المبدأ - يحاذي ساحل البحر الأبيض المتوسط ما لم يكن الشاطئ شديد الوعورة فتبعد عنه الطريق. وإذا كانت المنطقة الخلفية مؤلفة من تضاريس عالية متعامدة مع البحر كان لا بد من اختراق هذا الحاجز بممرات داخلية. ذلك من شأن الجبال في شمال هذا الخط كجبال طوروس. وإذا تألف الساحل من كتبان رملية أو مستنقعات جانبته الطريق أيضا. ومن هذا الطريق الساحلي تتفرع الخطوط باتجاه الداخل^(٢). وتعتبر غزة آخر مواقع بلاد الشام على هذا الطريق وكانت متجرا للسلع المختلفة القادمة من جنوب الجزيرة العربية ومن سوريا ومصر^(٣) وسميت غزة هاشم، لأن هاشم بن عبد مناف شيخ قريش وصاحب أيلانها توفي في غزة في إحدى رحلاته التجارية ودفن فيها^(٤). وقد سلك عمرو بن العاص الطريق الساحلي من المدينة إلى فلسطين مروراً بميناء أيلة (العقبة) عندما بعث أبو بكر الجيوش لتحرير بلاد الشام من الروم، وكان يطلق على هذا الطريق اسم (المعرفة)^(٥). وتذكر الرملة كواحدة من مراكز المواصلات، فقد كانت مدينة فلسطين، على الجادة، فحاج الشام والثغور ينزلونها^(٦)، وهي همزة وصل ما بين الخطوط الداخلية والساحلية، ومن بين المدن الداخلية الهامة بيت المقدس التي كانت ولا زالت محجاً لاتباع الديانات السماوية الثلاث، ونظراً لأهميتها أصبحت عقدة مواصلات بين الداخل والساحل كما تشير إلى ذلك أبوابها الثمانية وهي: باب صهيون، باب التيه، باب البلاط، باب جب ارميا، باب سلوان، باب أريحا، باب العمود، وباب محراب داود^(٧).

(١) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٨؛ وقدامة، الخراج، ص ١١٩.

(٢) انظر: اليعاقبة، «طرق المواصلات في بلاد الشام»، ص ٢٩٤.

(٣) انظر: محمود الخولي، «غزة في نقوش جنوب جزيرة العرب». المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)، ج ٣، الجامعة الأردنية، وجامعة اليرموك، ١٩٨٣، ج ١، ص ٣٦٧-٣٧٦.

(٤) انظر: القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م)، كتاب ذيل الامالي وال نوادر، ج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص ٢٠٤. وسيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: القالي، الامالي.

(٥) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٨٧.

(٦) ابن الفقيه الهمداني، أبي بكر احمد بن محمود (ت ٣٤٤هـ/٩٤٥م) مختصر كتاب البلدان، ليدن، مطبعة برييل ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، ص ١١٦. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، وقارن ياقوت معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٩.

(٧) انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦٧.

أما الخط الداخلي فيبدأ من الحدود الرومية شمالاً ثم يتجه نحو الجنوب، إلى منبج وحلب ويتجه فرع آخر إلى الرقة، وهذه المدن الثلاث تعتبر مراكز مواصلات، ومن الرقة يسير طريق إلى حمص ودمشق على الرصافة، حيث يتفرع الطريق إلى فرعين أحدهما إلى دمشق في البرية، والآخر يتجه إلى حمص في العمران، ومن حمص تتفرع مجموعة طرق إلى بعلبك وقارا والنبك ثم إلى دمشق. والطريق الذي يمر ببعلبك هو طريق البريد^(١).

ونظراً لموقع الرقة واتصالها بالعراق عن الطريق الذي يتبع شاطئ الفرات الأيمن المتجه نحو الشمال الغربي، فقد أصبحت معلماً بارزاً في الطريق السورية الصحراوية. ولكن طريق البريد الرئيسي هو الذي يصل الرقة بالطريق الدائري المتجه من الموصل. وكذلك كانت تتجه من الرقة ثلاث طرق بريد نحو الجنوب والغرب وكلها تمر من المدينة البيزنطية القديمة الرصافة، وكان بإمكان ساعي البريد أن يسافر رأساً من الرصافة إلى حمص، أو إلى دمشق أو أي مكان آخر بواسطة الطريق الروماني المسمى (ستراتا ديوكليتينا Strata Diocletiana) سواء إلى دمشق أو إلى بصرى اسكشام، عن طريق الطيبة، السخنة، وتدمر^(٢).

وتعتبر مدينة دمشق قلب شبكة المواصلات في بلاد الشام، ففيها تلتقي الطريق الطولية والعرضية القادمة من داخل بلاد الشام أو من خارجها. لذلك أسهب الجغرافيون والمؤرخون في وصفها وذكر فضائلها، وخططها وجمالها ومسجدها وقلعته ومآثرها^(٣). فقد قال ابن حوقل: "وهي أجل مدينة بالشام، في أرض مستوية"^(٤). ويستمر سير الطريق الدولي الداخلي من دمشق جنوباً إلى بصرى أو أذرعات (درعا الحالية) ثم إلى الزرقاء وعمان وسرخ (المدورة) ثم إلى تبوك والمدينة المنورة ومكة^(٥). والطريق من

(١) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٢١٨، ٩٨؛ قدامة، الخراج، ص ١١٧؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٩٠.

(٢) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٨، ٢١٨؛ ٢٢٨. قدامة، الخراج، ص ١١٧-١٢٧. Grant, The Syrian Desert. P. 237

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٦-١٦٠.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠.

(٥) انظر: ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٠؛ قدامة، الخراج، ص ٨٥؛ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م) الأعلام النفيسة، ليدن، مطبع بريل سنة ١٨٩١، ص ١٨٣. سيشار إليه عند

دمشق إلى المدن الحجازية هو طريق الحج الشامي المشهور، وهو يتبع في الأقاليم الشامية طريق تراجان (Triana Nova Via) الروماني وهو الطريق الذي عرف بالتبوكية في صدر الإسلام سلكته جيوش الفاتحين وهي تتجه لتحرير الأردن ودمشق وحمص من سلطان الروم^(١). ويرتبط هذا الجزء من الطريق مع فلسطين وجنوب سوريا يمر ببترا متبعا أثر القوافل القديمة، ولا تزال بعض المعالم لهذا الطريق الذي يتفرع إلى فرعين ابتداء من بصرى ودرعا، فخط درعا يصل جرش ثم عمان، وخط بصرى يصل خربة السمرا (قرب المفرق)، والزرقاء ويمر شرق عمان، ليلتقي الخطان جنوب عمان، ويستمر الخط إلى بترا حيث يتفرع إلى الحميمة وخط يتابع سيره إلى أيله (العقبة). كانت قوافل الحجاج تحط رحالها في بصرى في الذهاب والإياب، ولكن عندما وهنت الدولة الإسلامية في العهود المتأخرة، انعدم الأمان على طريق بصرى وأصبح الحجاج يسلكون طريقا يبعد إلى الغرب منها^(٢) إلى درعا والمزيريب. وترى آثار خط آخر يمر من شرق البترا مخترقا معان والجفر يصل إلى واحة الجوف، وتلاحظ خطأ ثالثا يتجه من الصحراء السورية شمالا نحو الأزرق ثم يتابع مسيره في منخفض وادي السرحان نحو تيماء وحاليل في الجزيرة العربية^(٣).

وتعود أهمية الطرق في جنوب بلاد الشام إلى كونها تعبر بين منطقتين قاحلتين تعيقان التجارة. فالجوف تقع في الزاوية الشمالية لصحراء النفوذ - من المناطق الرملية العميقة التي تعيق حركة الجمال المحملة إضافة إلى ندرة المياه في هذه المنطقة - وإلى الشمال من الجوف يوجد شريط أقل صحراوية ولكنه صخري وجبلي تتخلله ممرات من الأراضي البركانية والأحجار البازلتية. وتتجنب القوافل المرور من الممرات لأن الحصص الصوانية كثيرا ما تغطي سطحها مما يؤثر أيضا على سير الجمال فوقها. وتمتد منطقة الالفا (البركانية) في حوران نحو الشرق لأكثر من ستين ميلا. وهذا لا يعني أن الممرات لم تكن تعبر من قبل المسافرين^(٤).

وروده فيما بعد هكذا: ابن رسته، الأعلاق النفيسة.

(١) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٣٨٧، ٣٩١، ٤٠٥.

(٢) هورست كلينكل، آثار سورية القديمة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٥، ص ٩٧. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: كلينكل، آثار سورية.

(٣) Grant, The Syrian Desert. P.37

Ibid, p.38 (٤)

هذا ولم يتحدث جغرافيو العصر العباسي إلا قليلا عن الطريق العرضية التي تصل غرب بلاد الشام بالمراكز الصحراوية الشرقية وبلاد العراق. وقد ذكروا الطريق الواصل من الكوفة إلى دمشق مروراً بأذرعاً^(١). وكذلك الطريق من عين التمر إلى بصرى^(٢). وهذا هو الطريق الذي سلكه خالد بن الوليد من العراق إلى اليرموك مروراً بمدينة تدمر بناء على أمر الخليفة أبي بكر^(٣).

وتذكر المصادر الإسلامية أن الطريق الرئيسي ما بين بغداد ودمشق تمر بمدينة هيت على الفرات^(٤) ولعله هو نفسه الطريق الذي عرف منذ العهد الروماني^(٥). وهذا الطريق عصب المواصلات في شرق سوريا، فمنذ العصور الشرقية القديمة، يسلك التجار الطريق القادم من الفرات على ظهور الدواب، ولا بد من المرور بتدمر إذا كانت وجهتهم بلاد الشام^(٦)، وعليه فقد ازداد عدد الطرق التي تمر بتدمر في الذهاب والإياب، وتحولت هذه المدينة بفضل الطرق التجارية إلى قلب مملكة مترامية الأطراف تستحوذ على شبكة واسعة من طرق المواصلات التي كانت تمتد إلى الشمال من صحراء جزيرة العرب وبادية الشام. وقد استفاد المسافرون في العهد الإسلامي من الطرق الرومانية وبخاصة تلك المعبدة في أيام الشتاء، إذ كانت الدواب تتجنب الوحل والأراضي الرخوة لهذا توسع في استخدام الجمل في هذه الأسفار الطويلة بفضل ما تميز به هذا الحيوان على غيره^(٧).

واعتماداً على ما أورده الجغرافيون العرب الأوائل من وصف لشبكة الطرق في بلاد الشام نجد أن كثافة هذه الطرق تزداد إلى درجة كبيرة في المناطق العامرة الآهلة بالسكان. ومجمل القول أن نظام البريد والعناية بالطرق وتنظيم كل متطلبات الراحة والأمن

(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٧.

(٣) أ.ي. أكرم، سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة صبحي الجابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م. ص ٣٣٣-٣٤٠. سيشار إليه عند وروده فيما بعد هكذا: أكرم، سيف الله.

(٤) انظر: الطبري، تاريخ، ج ٥، ص ٦٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١٠، ص ٢١٩.

(٥) انظر: ياقوت، معجم البلدان، ١٨/٢، ٤٢٠/٥ - ٤٢١.

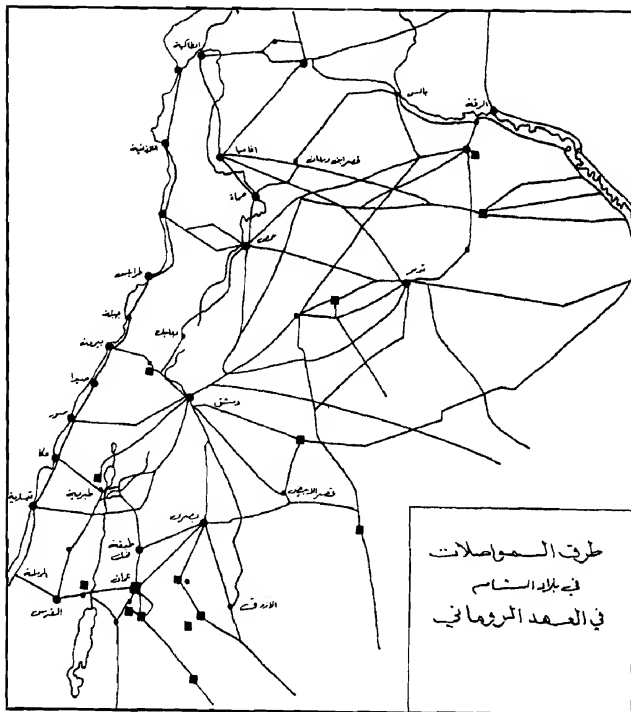
(٦) كلينكل، آثار سورية القديمة، ص ٩٧.

(٧) المرجع نفسه، ص ٩٨. وانظر: Grant, The Syrian Desert. P.46.

عليها بلغت درجة تأثير الإعجاب، حتى يمكن أن يقال وبحق في عاصمة العباسيين بغداد ما قيل من قبل عن روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية وهي في أوج ازدهارها "كل الطرق تؤدي إلى روما" ويشير إلى هذه الحقيقة قول ابن خرداذبة: "أن مجموع سكك البريد في العراق بلغ في عهده (تسعمائة وثلاثين) سكة^(١)" والاستثناء الذي يخرج هذه القاعدة عن صدقها هي الفترات التي كانت بلاد الشام وأي جزء من الإمبراطورية العباسية تتعرض فيه إلى الفتن والحروب المحلية والخارجية، وما ينجم عن مثل هذه الأحوال من اضطراب حبل الأمن وتقطع شرايين البريد وتمزيق طرقه ونسف سككه. وقد استفاد من نظام الطرق هذا كل المسافرين من جند وحجاج ورحالة وطلبة علم وتجار. ولعل الفضل يعود إلى هذه الطرق في نشأة وتطور العلوم الجغرافية عند العرب.

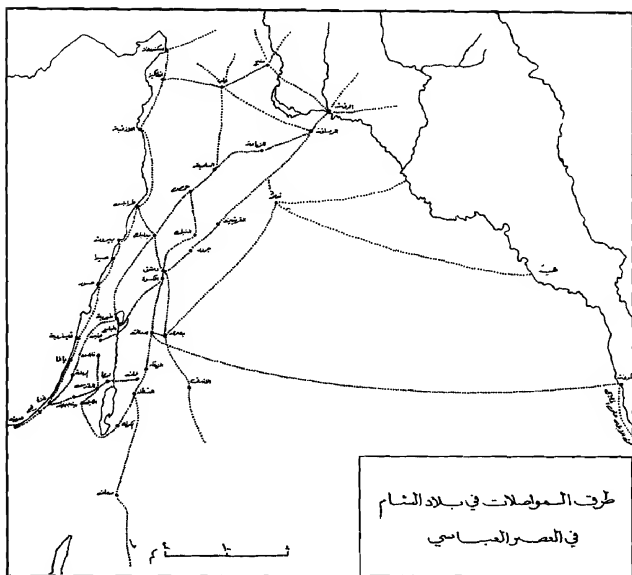
(١) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٥٣؛ وانظر: سعداوي، نظام البريد في الدولة الإسلامية، ص ٨٠-٨١.

طرق المواصلات في بلاد الشام في العهد الروماني

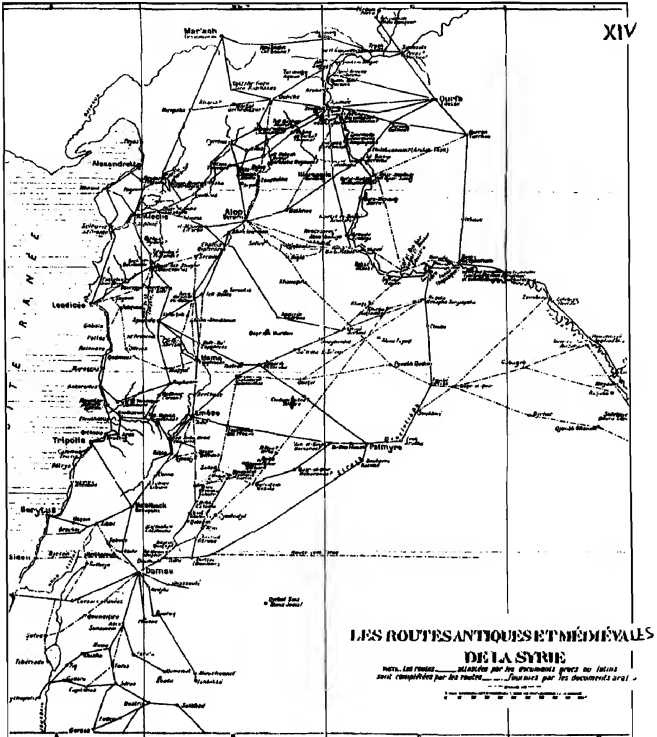


”عن باتريشا، القسطل - ١٩٨٤“

طرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي



رينوديسو، الطرق القديمة في سورية في العصور الوسطى



نقلا عن RENE DUSSAUD من كتابه
 TOPOGRAPHIE. HISTORIQUE DE LA SYRIE ANTIQUE I I MEDIEVALE I

سكة حديد الحجاز

في القرن الرابع عشر الهجري/ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أخذت الدولة العثمانية تواجه هزائم كثيرة في الخارج كما تواجه ثورات في الداخل وكان أقصى ما يخشاه عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٦/١٨٧٦-١٩٠٨) أن يفقد سلطانه على البقاع المقدسة في الحجاز، لأن ذلك سيفقده لقب حامي الحرمين الشريفين ويضعف موقفه الديني في نظر المسلمين.

وتصور السلطان انه لا بدّ من تحقيق برنامج يشتمل على تقوية مركزه ومركز الدولة معاً، فتبنى حركة الجامعة الإسلامية، وحرص على تحديث الجيش، وظن أنه بإمكانه الحصول على القوة المادية وكسب التكنولوجيا الغربية إذا فتح باب الامتيازات أمام الشركات الأجنبية لاستثمار أموالها وخبراتها في مشاريع داخل الإمبراطورية، ورأي أيضاً أن يقيم تحالفاً غير مكتوب مع ألمانيا لخلق حالة توازن بين القوى الأوروبية. ويرتبط بهذا البرنامج مشروع سكة حديد الحجاز، التي تتألف من الخط الرئيسي ما بين دمشق والمدينة المنورة والخط المتفرع منه عند درعا إلى حيفا، وما تفرّع منهما بعد ذلك (مجلة الهلال).

وأراد السلطان عبد الحميد أن تكون سكة حديد الحجاز مشروعاً إسلامياً يربط استانبول ودمشق بالديار المقدسة تجسيدا لفكرة الجامعة الإسلامية، وتيسيراً لوصول المسلمين إلى الحجاز بسرعة وأمن وراحة. وتحقيقاً لهذه المقاصد وغيرها، صدرت الإرادة السنية في محرم ١٣١٨/ الأول من أيار - مايو ١٩٠٠ ببناء هذا الخط (محمد كرد علي). وقد أثار هذا القرار حماسة المسلمين وفرحتهم لأنه سيخلص الحجاج مما كانوا يعانونه من مصاعب وأهوال، وتولّى بعض المفكرين المسلمين الدعاية للمشروع وتبيان منافعه الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية (محمد عارف الحسني)، وانبرت صحف عديدة في العالم الإسلامي تمجد حركة الجامعة الإسلامية والقائمين عليها، وعلى رأسهم خليفة المسلمين ومنقذهم عبد الحميد الثاني، وتحدث بإكبار عن المشروع (محمد كرد علي).

وصدر في ذلك العام مرسوم سلطاني يقضي بتشكيل لجنة عليا في استانبول وأخرى دونها في دمشق، على أن تتولى الأولى الإدارة العامة للمشروع، وجمع التبرعات، وعقد الصفقات التجارية، وتذليل الصعاب، وتأمين المواد اللازمة للبناء، وكانت هذه اللجنة بيد السلطان ومستشاره وسكرتيره الثاني عزت باشا العابد الدمشقي (التقارير الفرنسية). وتتولى لجنة دمشق تنفيذ المشروع، واختار السلطان أعضائها الأساسيين، وراعى فيهم أن يمثلوا مصادر القوة في الولاية السورية. فكان الوالي كاظم باشا رئيس اللجنة حتى سنة ١٣٢٦/١٩٠٨، (عين بعدها واليًا على الحجاز لكفاءته في لجنة دمشق)، وكان أديب ناظم-سكرتير مجلس المدينة ومحرر جريدة سورية الرسمية-سكرتير اللجنة (ثمرات الفنون). واختير عبد الرحمن باشا يوسف أمير الحج السوري عضوًا في اللجنة لتأكيد الصفة الدينية للمشروع، وكان من أعضائها محمد فوزي العظم، وهو من عائلة دمشقية ذات نفوذ. وقد قامت لجنة دمشق بمسؤولياتها على أكمل وجه رغم التقارير القليلة التي تشير إلى سوء الإدارة المالية. وأما المسائل المعقدة فكانت لجنة استانبول تتولى حلها، وكان لعزت باشا-العقل المدبر للمشروع-أكبر الأثر في التعاون بين اللجان المختلفة واتخاذ القرارات وتوصيلها بسرعة (التقارير الفرنسية).

كانت المرحلة الأولى من العمل تعتمد المسح والاستكشاف والدراسات اللازمة، وقام بهذا العمل أولاً علي رضا الركابي، ثم تولته هيئة الجيش الخامس في دمشق برئاسة المهندس مختار بك (ثمرات الفنون).

وقد صادف المشروع صعوبات ومشاكل جعلت أكثر المتفائلين يتنبأون بإخفاقه، وقابلته الدوائر الأوروبية بالسخرية نظرًا لافتقار الدولة العثمانية إلى الخبرة في بناء الخطوط الحديدية، ولعجزها المالي وفساد جهازها الإداري (عيساوي). وكانت أكبر المشاكل تتمثل في تأمين المال الكافي من خارج موازنة الدولة المثقلة بالديون للشركات الأجنبية وبالنفقات اللازمة للجيش. ووجهت اللجنة العليا نداءً إلى المسلمين أينما كانوا تشرح فيه الدوافع الدينية التي تستدعي النهوض ببناء السكة الحجازية، وتحث على التبرع لإنجاح هذا المشروع (أنطونيوس). وبثت اللجنة الوعظ والمرشدين في جميع الأقطار للدعوة للفكرة، وجمع الإعانات. فلقبت الدعوة كل تجاوب في كل الأقطار الإسلامية، وتشكلت اللجان في كل مكان. وقامت اللجنة العليا بسك الميداليات الذهبية والفضية، وعملت الأوسمة لتمنح للمترعين وفقًا لحجم

تبرعاتهم. وكانت أسماء المتبرعين تنشر مع مقادير تبرعاتهم في الصحف الإسلامية والعالمية (مجلة المنار). وافتتح السلطان عبد الحميد حملة التبرعات بمبلغ ٣٢٠ ألف ليرة تركية من ماله الخاص، وتبعه في ذلك الملوك والأمراء والهيئات والأفراد داخل الدولة وخارجها. وتعهّد خديوي مصر عباس حلمي الثاني بإرسال كمية كبيرة من مواد الإنشاء والبناء، وتبرع الشيخ مبارك الصباح، وسلطان المكلا والشحر بمبالغ نقدية وكان موسم الحج مناسبة عظيمة لجمع التبرعات وشرح أخبار السكة وكل ما يتعلق بها، وساهم الجيش العثماني بالتبرعات فقدم (سنة ١٣٢٠-١٣٢١/١٩٠٢-١٩٠٣) مبلغ (٨٥٣٢) ليرة تركية. وقام بتقديم التبرعات، البلديات وحكومات الولايات ومحرموا الصحف ورجال الدين (التقارير البريطانية). وجاء في قائمة المتبرعين التي نشرتها جريدة ثمرات الفنون أسماء الذين تبرعوا في ولاية بيروت، وكان مجموعهم (٦٤٠) شخصاً يتوزعون على سبع مدن أغلبهم من بيروت، وكان منهم محرر ثمرات الفنون: عبد القادر القباني رئيس بلدية بيروت والتاجران عبّود وحببوني اللذان تعهّدا بدفع (٢٠٠٠) ليرة تركية بعد استكمال كل (١٠٠) كيلومتر من السكة. وبلغت الحماسة لدى بعض المسلمين لدرجة أنهم أوصوا بتركائهم كاملة، أو بنصيب منها بعد الوفاة إعانةً لسكة حديد الحجاز، وأوقف بعضهم العقارات لصالح السكة (أو كسنوالد). ولم يقتصر التبرع على المسلمين فقد نشرت صحيفة (لبنان) نداءً للمطران الأرثوذكسي جرامسيوس حثّ فيه الرعايا النصارى على التبرع للسكة حفاظاً على قوة الدولة (ثمرات الفنون).

وعلى الرغم من حماسة المسلمين للتبرع أيقنت الدولة أن التبرعات غير كافية ولا تشكل مورداً ثابتاً يمكن رصده للإنفاق. لذلك فرضت الحكومة مجموعة من الضرائب الإلزامية بدأنها بمرسوم سلطاني يقضي بحسم راتب شهر من الأجرة السنوية للمستخدمين المدنيين والعسكريين، وأتبع ذلك بتخصيص عشر راتب شهر أيار (مايو) من كل عام من رواتب المستخدمين الذين تريد مرتباتهم عن خمسمائة قرش، واخترعت طوابع وأوراق للاستعمال في بعض الأحوال والأشغال، وفرضت ضرائب جمركية على المعادن والأراضي الأميرية التي تباع، وعلى الموانئ (محمد كرد علي). وفرضت ضريبة خمسة قروش على كل رب أسرة عثماني قادر، وهذه الضريبة توفر حوالي (١٠٠) ألف ليرة تركية في السنة. وفرض على كل حاج مبلغ ريال يدفعه قبل مغادرة مكة. وفرضت ضرائب على جوازات السفر

وعلى بعض المهن والمصنوعات اليدوية والمناسبات، كما فرضت رسوماً على الحمامات المعدنية (محمد كرد علي). وقامت الحكومة بنقل مخصصات دائرة الحج السابقة والبالغة (١٥٠) ألف ليرة في السنة لتمويل المشروع، وكذلك خصصت مبلغ ستين ألف ليرة، هي عطايا السلطان السنوية، وكانت تدفع سابقاً لإرضاء شيوخ القبائل البدوية الذين تكرر طريق الحج إل أراضيهم (عبد العزيز عوض).

وأوعزت الحكومة إلى البنك الزراعي بتقديم قرض للمشروع في السنة الأولى بمقدار ١٥٠ ألف ليرة ليكون رصيلاً لإدارة السكة تستخدمه في الإنفاق الأولي (اوكنوالد). وفرضت مبالغ محدّدة على المدن والقرى، وعلى بعض الموسرين (تريس) ومنحتهم شهادات تعفيهم من التبرع إذا ما طلب منهم ثانية.

أما التبرعات خارج حدود الامبراطورية فقد حمل لواءها الدبلوماسيون الأتراك، وبعض الشخصيات الإسلامية، وأصحاب الصحف الموالية لحركة الجامعة الإسلامية، وبعض الحركات الدينية مثل الحركة النقشبندية، وكانت الهند ومصر أوسع الأقطار الإسلامية نشاطاً لإعانة السكة. وقد قاد الحملة في الهند مجموعة من الرجال منهم: سيد عبد الحق الأهرري، إمام مسجد المنارات في بومبي، وعبد القيوم من حيدر آباد، وقد أُنئت عليه صحيفة (لسان الحال) التي تصدر في بيروت نظراً لجهوده في جمع التبرعات (ثمرات الفنون)، وهناك شخص ثالث ارتبط اسمه أيضاً بسكة حديد الحجاز، وهو محمد إنشاء الله، الذي أصدر صحيفة الوكيل في أمّرتسار، ثم أصدر صحيفة الوطن في لاهور. وكان محمد إنشاء الله يعتبر نفسه صاحب فكرة سكة حديد الحجاز وقائد حملة التبرعات في الهند، وألف لهذه الغاية كتاب: «تاريخ السكة الحميدية الحجازية» باللغات الأوردية والعربية والانجليزية، وقد افتتح باب الاكتتاب في صحيفة الوطن للتبرع للسكة، وأرسل خمسة آلاف ليرة تركية - دفعة أولى - من التبرعات التي انهالت عليه من قراء جريدته في الهند والصين والترانسفال (محمد كرد علي). وتأسس في الهند أكثر من مائة وستين جمعية لجمع إعانات السكة. ومع أن مجموع تبرعات الهنود غير معروفة، فقد أوردت المصادر أسماء بعض كبار المتبرعين مثل: الميرزا علي في كلكتا الذي قدّم خمسة آلاف ليرة تركية، وقدّم تاجران أخوان من كشمير، هما: حبيب الله وغلام الدين من أمّرتسار مبلغ ألفي ليرة تركية، وتبرع عريف إسماعيل بهرام، وهو تاجر من كلكتا، بحوالي

ألف ليرة تركية. وارسل أهالي لكهنو مبلغ اثنين وثلاثين ألف ليرة تركية، وتبرع أهالي رانكون ومدراس بمبلغ ثلاثة وسبعين ألف ليرة (الوثائق البريطانية).

وفي مصر تزعم حملة جمع الإعانات في الأوساط الشعبية الزعيم الوطني مصطفى كامل، وقد أثنى السلطان عليه ومنحه لقب «ميرمران». وتولت الصحف المصرية مثل اللواء، والمؤيد، اللتان يحررهما مصطفى كامل في القاهرة. والصبا التي يحررها أحمد عبد الله حسين في الزقازيق، بالإضافة إلى صحيفة الأهرام، ومجلات المنار والمقتطف والهلال وغيرها - الحملة الإعلامية اللازمة لشرح أبعاد كل من حركة الجامعة الإسلامية وسكة حديد الحجاز، وكان محمد رشيد رضا - صاحب المنار - يعتبر التبرع للسكة دليل محبة الله ورسوله المفروضة على كل مسلم (الصحف المصرية).

وأخذت التبرعات تنهال من مناطق أخرى، فأسهم المسلمون في ناتال بمبلغ ألف ليرة تركية، وتبرع أمير بخارى عاصمة طشقند بمبلغ ٤٠٠ ألف جنيه استرليني، وساهم في التبرعات شاه إيراه بمبلغ خمسين ألف ليرة، وسلطان مرآكش الذي بعث لجنة برئاسة «سي الحاج الطالب بنيسى» أمين الخزانة إلى الأستانة لتسليم السلطان عبد الحميد مبلغ ٧٥٠ ألف فرنك فرنسي حصة مرآكش في تكاليف بناء الخط الحديدي الحجازي (التقارير الفرنسية). ويبين الجدول التالي (عن أوكسنوالد) الأموال التي جمعت من أجل سكة حديد الحجاز للسنوات ١٣٢١-١٣٢٦هـ/١٩٠٣-١٩٠٨م.

١٩٠٨/١٣٢٦	١٩٠٧/١٣٢٥	١٩٠٦/١٣٢٤	١٩٠٥/١٣٢٣	١٩٠٤/١٣٢٢	١٩٠٣/١٣٢١	مصادر الدخل بالليرة التركية
١,١٢٧,٨٩٤	١,٠٢٨,٧٧٣	٨٨٤,٤٨٢	٧٣٨,٦١٦	٧٤٢,١٥٣	٦٥١,١٨٤	التبرعات الطوعية
٤٨٥,٩٩٢	٤١٩,٩٩٢	٣٠٣,٩٩٣	٢٥٣,٧٧٧	١٥٠,٤٤٦	١٥٠,٠٠٠	البنك الزراعي
٤٠٢,٨٩٣	٣٩٣,٠٧٨	٣٦٩,٩٩١	٣٥٩,٦٦٥	٢٥١,٤٣٩	١٦٥,٥٣١	الحساب المدور
١,٦٤٨,٦٩٢	١,٢٣٦,٩٠٥	٩٢٠,٥٤٨	٥٥١,١٢٠	١٩٢,٢١٧	-	الضرائب
٢٢٥,٣١٠	١٣٣,٤٢٨	٦١,٩٠٣	٣٤,٦٩٠	-	-	عوائد العمل بدل الضريبة
٢٤,١٣٣	١٩,٢٣٧	١٤,٦٧٥	١٢,٢٣٤	-	-	عوائد السخرة
٣,٩١٤,٩١٥	٣,٢٣١,٤١٣	٢,٥٥٥,٥٩٢	١,٩٥٠,١٠٢	١,٣٣٦,٢٥٥	٩٦٦,٧١٥	المجموع

اشتدت مخاوف بريطانيا من الحملة التي أثارها هذا المشروع بين المسلمين وبخاصة بين سكان مستعمراتها، وخشيت من تحوّل المسلمين في تلك المستعمرات إلى سلاح بيد العثمانيين يمكن استخدامه في الوقت المناسب، لهذا عملت جاهدة على عرقلة جمع التبرعات وتأسيس الجمعيات، كما حدثت من حركة بعض الشخصيات الإسلامية في الهند ومصر، وحرّضت الحكومة المصرية على رفض دفع ضريبة الخمسة قروش المفروضة على العثمانيين، كما تفاهمت مع الدول الأوروبية الأخرى على عدم عمل أي شيء من شأنه تقوية الدولة العثمانية، وأثارت هذه الدول الاحتجاج على إلزام النصارى في الامبراطورية العثمانية باستعمال طوابع سكة حديد الحجاز، ومنعت بريطانيا المتبرعين الهنود من حمل الأوسمة والميداليات الممنوحة لهم لقاء تبرعاتهم (التقارير البريطانية).

وبهذا دخلت سكة حديد الحجاز حلبة المنافسة الدولية، فقد اعتبرت بريطانيا هذا المشروع تهديداً لمصالحها، وأدخلت معها في الصراع، الإدارة المصرية (بعد ١٣٠٠/١٨٨٢)، وأدخلت في روع الحكومة المصرية أن الدولة العثمانية تبني السكة باتجاه حدودها تمهيدا للهجوم على مصر. وهكذا افتعلت بريطانيا أزمة (طابا) مع الحكومة العثمانية كما سنرى. وقد شكّا السلطان عبد الحميد في مذكراته من بشاعة التنافس وتدخلات سفراء بريطانيا وفرنسا، وقال: «إن بريطانيا وفرنسا قد مزّقتا أثواب وقارهما»، ويبدو أن إصراره على تنفيذ سكة الحديد الحجازية كان أحد ردوده على هذه الأطماع. وقد ازدادت مخاوف بريطانيا بشكل خاص بعد التقارب العثماني الألماني، وحصول ألمانيا على امتياز خط حديد بغداد (التقارير البريطانية).

ثم واجهت السكة مشاكل أخرى خطيرة، منها تأمين المياه إلى مواقع العمل، ومشكلة العمالة الفنية، ومشاكل البدو الذين اتخذوا منذ البداية موقفاً معادياً للمشروع، ومشكلة السيول والرمال المتحركة. وكانت مشكلة تأمين المياه أصعب هذه المشاكل للحاجة إلى الماء ليس لغايات الشرب وحسب، بل أيضاً لعمل الخلطات الترابية والاسمنتية، وثبتت الرمال المتحركة. ولهذا لجأت إدارة السكة إلى استصلاح الآبار والبرك القديمة، وحفر آبار جديدة، واستخدام الصهاريج المعدنية المنقولة بواسطة القطار وتوزيعها في مواقع العمل (التقارير البريطانية).

أصدر السلطان أمره بالشروع في العمل في جمادى الأول ١٣١٨ اليوم الأول من أيلول - سبتمبر ١٩٠٠، ويصادف هذا اليوم الذكرى الخامسة والعشرين لاعتلائه العرش. وبدأ المهندسون والعمال المسلمون بالإضافة إلى كتيبتين من الجيش العمل باتجاهين من درعا إلى المزريب، ومن درعا باتجاه عمان جنوباً. وكانت المفاوضات جارية بين إدارة السكة الحديدية والشركة الفرنسية لشراء فرع دمشق - المزريب الذي بني سنة ١٣١٢/١٨٩٤ لإخفاقه بالخط الحجازي. وطلبت اللجنة العليا من المعامل المختلفة داخل الامبراطورية، وبخاصة مصانع البحرية، لصناعة ما يلزم السكة الحجازية من عربات وقضبان وعوارض حديدية، وتقرر تأمين الأخشاب عن طريق عمال الغابات والمتعهدين داخل الامبراطورية، وتعهدت وزارة الحربية بصناعة ما طوله خمسة كيلومترات من القضبان الحديدية يومياً، كما طلب من حكام الأقاليم تقديم المواد الأولية المتوفرة في أقاليمهم، وقام صادق باشا بدوره بتمديد خطوط البرق بين دمشق والمدينة (ثمرات الفنون). وكانت لجان المسح والاستكشاف قد حددت مسار الخط والمحطات وعددها ومعدل المسافات بينها، وتضمن المخطط العناصر التالية: أن يبنى الخط من النوع الضيق بعرض متر واحد، وأن تكون القضبان وفق نظام فغنولا (Vignola System) أي بطول ثمانية أمتار، ووزن خمسة وعشرين كيلوغراماً، وأن تكون العوارض من الخشب والفولاذ، وأن تبنى قناة واحدة بين الزرقاء وعمّان، وقدّرت المنعطفات بمائة متر، والانحدارات في حدها الأعلى بـ ٢٠٪. وقدر متوسط تكاليف بناء الكيلومتر الواحد بما في ذلك أثمان العربات بخمسين ألف فرنك، أي حوالي ١٧٥٠ ليرة تركية. وكانت تكاليف الكيلومتر الواحد في فرع حيفا - درعا، ضعف المبلغ السابق إذا أضيفت أثمان عربات الشحن.

وبعد فترة من سير العمل اتضح أنه لا يمكن الاعتماد على الموارد المحلية لتأمين المواد اللازمة لبناء السكة، إذا أريد إنجازها بالسرعة المطلوبة، وتبين أن استيراد هذه المواد من أوروبا أقل كلفة وأفضل نوعية من صناعتها محلياً، لذلك حصل التحول إلى أوروبا والولايات المتحدة لتأمين هذه المواد عن طريق صفقات تجارية تتولى اللجنة العليا في استانبول عقدها، وكانت معظم هذه الصفقات مع الشركات الألمانية والبلجيكية، وبلغ حجم الإنفاق عند نهاية حكم عبد الحميد الثاني ١,٤٠٣,٨٠٥ ليرات تركية (التقارير البريطانية).

وبعد ثورة ١٣٢٦/١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد عن العرش، وجّهت اتهامات للسلطة السابقة بقبول الرشاوي وتبذير أموال الدولة، غير أن ذهني باشا وزير الأشغال العامة، وأحد أعضاء اللجنة السابقة البارزين، دحض هذه الافتراءات، وأوضح القواعد والأسس التي اتبعتها اللجنة في مشترياتهما، وقال: "إن مفوضين عثمانيين مختصين كانوا يعاينون البضاعة قبل شحنها للتأكد من مطابقتها للشروط والمواصفات المتفق عليها" (ثمرات الفنون). وتبيّن من خلال العمل أيضًا أنه لا يمكن الاستغناء عن العمالة الأجنبية، وبناءً عليه اتخذ القرار باستخدام العمال الفنيين من أوروبا، وتقرر تعيين مسنر (Meissner) - المهندس والخبير الألماني المشهور ببناء السكك الحديدية - كبيراً للمهندسين ومديرًا فنيًا في لجنة دمشق، وقد دلت خدمات هذا المهندس على الخصائص الرفيعة التي كان يتمتع بها، مما كان له الأثر الكبير في إنجاح هذا المشروع.

لكن المفاوضات مع الشركة الفرنسية لشراء خط دمشق - المزيّرب تعثرت بسبب تعنت تلك الشركة وطلبها ثمنًا باهظًا مع تخصيص نصيب لها في سكة حديد الحجاز، لهذا تقرر على الفور بناء خط مواز من دمشق إلى درعا، وبدأ العمل فيه من دمشق ودرعا في آن واحد. وكان المهندس مسنر يشرف على العمل بنفسه، وفي نفس الوقت لا ينقطع عن استخدام العمال والمهندسين من أوروبا وبخاصة من ألمانيا (هكر). وكان عدد المهندسين العاملين في الخط ما بين ١٣٢١-١٣٢٥/١٩٠٣-١٩٠٧ أربعين مهندسًا نصفهم من المسلمين، والنصف الآخر من الأجانب، وقد اتبع مسنر أسلوب تدريب العمال المحليين أثناء العمل، وطلب السلطان من طلاب مدرسة الهندسة في استانبول القيام بتدريباتهم العملية في مشروع سكة حديد الحجاز لتأهيلهم للعمل فيه مستقبلاً. وقد أشادت مجلة المقتطف في بعض مقالاتها بكفاية المهندس العثماني وتنبأت بقرب الاستغناء عن الأجانب، وذكرت أسماء بعض المهندسين الأجانب والمسلمين ممن برزوا خلال العمل.

وكانت العمالة في الخط الحجازي تقسم إلى قسمين: الجند النظامي الذي سُخر للعمل، وكان يشكل الحجم الأكبر من العمالة الكلية. وعلى الرغم من عدم التدريب الأولي ألف الجند العمل الجماعي المنضبط. وكان عدد الجند في البداية (١٣١٨-١٣١٩/١٩٠٠-١٩٠١) يقدر بألفين وستمائة جندي ثم زيد العدد في السنة التالية إلى خمسة آلاف وستمائة

وخمسين، ثم ارتفع إلى سبعة آلاف وخمسمائة (١٩٠٧/١٣٢٥) ووصل إلى تسعة آلاف وخمسمائة جندي (١٩١٣/١٣٣٢). (التقارير البريطانية). وكان الجند والعمال المحليون غير المهرة يقومون بالأعمال الأرضية وتحضير المسار والأساسات لمد القضبان الحديدية، وقد اختير الجنرال كاظم باشا رئيساً للجنة دمشق، وكان يملك خبرة في التكنولوجيا الغربية العسكرية، ومن المؤيدين لاستخدام الفنيين الأجانب في بناء الجسور والمنعطفات والأمور الفنية الأخرى، وقد منحة السلطان ثقةً كاملةً، وكان هو بدوره يعتمد على مسر في اتخاذ قراراته. وتمكن الأخير بلباقة وكياسته تجنّب أي صدام مع كاظم باشا أو مع لجنة دمشق، كما نجح في توجيه معظم الصفقات التجارية الرابعة وعقود استخدام المهندسين والفنيين نحو بلاده ألمانيا (التقارير البريطانية). ونظرًا لنجاح مسر في إدارة العمل حظي بشرف مقابلة السلطان، كما كوفيء بطرق متعددة، ومنح مرتبًا عاليًا (التقارير الفرنسية).

أما القسم الثاني من العمالة فيتكون من عامة المستخدمين غير العسكريين من وطنيين وأجانب، وكان معظم هؤلاء يعملون بالأجرة اليومية والباقي يتقاضون أجورًا شهرية، وكانت الإدارة تلجأ إلى المناطق التي يعبرها الخط الحديدي لتأمين حاجاتها من العمال إذا كان ذلك متوفرًا، ولا توجد أية معلومات تفيد استخدام البدو في بناء الخط الحديدي (محمد كرد علي). وجاء في قائمة تعود إلى ١٣٣١/نهاية عام ١٩١٢ أن عدد المستخدمين المدنيين بلغ ثلاثة آلاف وثمانمائة شخص يعمل قليل منهم في القطاعات الفنية، ويعمل سائرهم في الأعمال المتفرقة الأخرى. وهذا العدد يبدو لطول الخط ضئيلاً، لكن يجب أن لا ننسى دور الجند (التقارير البريطانية).

وكانت وزارة الحربية تتولى الإنفاق على الجنود، كما أن الجيش كان يمنح العاملين النشيطين في السكة امتيازات وحوافز، كالتقنيات الاستثنائية والأوسمة والنياشين والتعويضات عند الوفاة، والتأمين الصحي، والسفر المجاني بعربات السكة واعتبار خدمة ثلاث سنوات في السكة مساوية لخدمة أربع سنوات في أي مكان آخر. وإذا ما أضفنا إلى هذه الحوافز العامل الديني أدر كنا سبب إقبال الجند على العمل تحت ظروف غاية في القساوة. حتى كان أحدهم يعمل عمل الجماعة من الأوروبيين كما جاء في شهادة أحدهم. فكان هؤلاء العمال يمدّون ما طوله كيلومتر ونصف من القضبان في اليوم الواحد. ثم ارتفع

الإنجاز إلى كيلومترين، ثم إلى ثلاثة كيلومترات، مما أدهش الأهالي فشبهوا الخطوط الحديدية في سرعة تمديدها بأنها: "سيل من حديد" (محمد كرد علي). وبلغت أجرة عامل المياومة حوالي عشر ليرات تركية في السنة، وقد كان دخل العامل الماهر يصل إلى عشرين أو ثلاثين ليرة، أما العامل الأجنبي الماهر فكان يبلغ دخله السنوي ستين ليرة تقريباً، وهذا المبلغ كبير بالمقارنة مع أجور ضباط الجيش من ذوي الرتب المتوسطة.

وقد تعرض الجند والعمال لمشاكل المناخ وقلة المياه وضعف الرعاية الصحية، وتفشت بينهم الأمراض، وكانت نسبة الوفيات عالية بينهم في السنوات الأولى، كما لجأ بعض الجند إلى الهرب من الخدمة العسكرية. ومن أجل ذلك أرسل حوالي ألفي جندي من الجيش السادس من بغداد لتعزيز قدرة العمل (١٩٠٦/١٣٢٤) بينما كان سبعة آلاف وخمسمائة جندي يعملون في الخط الرئيسي (١٩٠٧/١٣٢٥) منهم ألف وثمانمائة من حامية المدينة (التقارير البريطانية).

ويدخل في حجم العمالة فئة المقاولين والمتعهدين المحليين والأجانب وكان هؤلاء يتعهدون ببناء أجزاء من الخط، أو إنجاز بعض المنشآت التابعة له بعقود محددة. وفي سنة (١٩٠٤/١٣٢٢) كان سدس العمال في خط حيفا-درعا من العاملين بعقود (أو كسنوالد)، وقد أنجز هؤلاء الأعمال الموكولة إليهم بكفاءة عالية وفي الوقت المحدد.

وبينما كان عدد العمال الأجانب في السنوات الأولى حوالي ستمائة، فإن عددهم تناقص في المراحل الأخيرة من المشروع بشكل ملحوظ (أو كسنوالد)، فقد ذكرت التقارير البريطانية أن عدد العاملين في هيئة السكة في دمشق (سنة ١٩٠٩/١٣٢٧) كان مائة وثلاثة وستين شخصاً، منهم فقط ثلاثة عشر عاملاً أجنبياً ينتمون إلى جنسيات فرنسية وإنجليزية وألمانية وإيطالية ويونانية، وذلك لأن سياسة التدريب وإعداد العمال الفنيين المحليين كانت تجري على قدم وساق، للتخلص من الأيدي العاملة الأجنبية. وكان المهندسون يرسلون في بعثات إلى أوروبا لاكتساب الخبرة واللغة معاً، ومن هؤلاء المهندس ناطف الخالدي (١٢٩٢-١٣٣٥/١٨٧٥-١٩١٦) الذي عمل فترة في الأراضي الأردنية (أو كسنوالد).

وصل الخط إلى عمّان (١٩٠٣/١٣٢١) وإلى معان (١٩٠٤/١٣٢٢) وإلى قلعة المدورة (١٩٠٦/١٣٢٤) وإلى مدائن صالح وصلت القاطرات في السنة التالية، وذلك

أبعد مكان سمح للعاملين من النصارى بتجاوزه، وأنيطت إدارة العمل بعد ذلك بالمهندسين المسلمين. وفي شعبان ١٣٢٥/الأول من أيلول -سبتمبر ١٩٠٧ أقيم احتفال مهيب في العلما بمناسبة الانتهاء من إنجاز ما طوله ألف كيلو متر من السكة، وفي التاريخ نفسه من السنة التالية افتتح خط المدينة - دمشق باحتفال كبير ارتفعت فيه الهتافات مطالبة باستمرار العمل حتى مكة، وهكذا وصلت سكة الحديد إلى المدينة المنورة بعد ثماني سنوات. وبلغ طول الخط ١٤٦٥ كم، وكان إنجازاً مثيراً ونصراً كبيراً للسلطان العثماني على الرغم من كثرة المضاعف التي اعترضت ببناءه. وكانت إدارة الخط تختار اليوم الأول من أيلول -سبتمبر ذكرى عيد الجلوس السلطاني لافتتاح أجزاء الخط المختلفة، كما طلب السلطان إطلاق اسم: "السكة الحميدية" على هذا الخط إمعاناً في ربطه باسمه، وأصبح البدو في الحجاز يطلقون على عربات السكة اسم: "جحشات السلطان" (لاندאו).

غير أن الخط انتهى إلى رابع ولم يصل إلى مكة. ويرجع الإخفاق في استكمالها إلى عوامل أربعة، الأول: يتمثل بقيام الانقلاب وخلع السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٦/١٩٠٨، والثاني: يتصل بموقف القبائل البدوية المقيمة على طول الخط من المدينة إلى مكة، فقد كانت هذه القبائل وغيرها تقاوم بناء السكة لأنها ظاهرة افرنجية نجسة من جهة ولأنها من جهة أخرى تهدد موارد رزقهم الناتجة عن تأجير الجمال وأخذ الأعطيات السلطانية مقابل خدمة الحجاج. والثالث: يتعلق بموقف أمير مكة الذي كان يتعاطف مع موقف القبائل البدوية وكان يخشى كذلك من ازدياد سلطة الدولة في الحجاز مما يهدد استقلاله النسبي ويسلبه الامتيازات المتوارثة، (العمرى). ويدخل في إطار هذا العامل مساعي بعض الموظفين الكبار في استانبول الذين حسدوا عزت باشا على مكانته لدى السلطان، وعملوا على إفشال مشروع السكة. أما العامل الرابع: فله علاقة بموقف الإنجليز الذين كانوا يرون أن المنطقة تقع ضمن دائرة نفوذهم، وأن السكة تهدد مصالحهم في المنطقة، فلجأوا إلى استخدام كل ما يمنعها من الوصول إلى مكة، والاقتراب من البحر الأحمر.

وبينما كانت المحاولات تجري لاستكمال الخط، انفجرت الحرب العالمية الأولى فصرفت النظر عن هذا المشروع وغيره (الذقن). وللأسباب السابقة نفسها لم ينفذ فرع جدة - مكة (البتوني)، أما فرع معان - العقبة فكان من المقرر إنجازُه سنة

(١٩٠٥/١٣٢٣)، إلا أن الدراسات التي جرت حول الموضوع رأت أن يبدأ الخط من المدوّرة على الخط الرئيسي وينتهي بقرية طابا على الجانب الآخر من خليج العقبة، وذلك لأسباب أمنية وعملية. وكانت لا تزال قوات مصرية في طابا من أيام حملة محمد علي باشا على الجزيرة العربية وسورية، وبالرغم من أن القوات المصرية انسحبت تحت ضغط الدول الأوروبية التي قررت ذلك في مؤتمر لندن (١٨٤٠/١٢٥٦) فإن مصر تجاهلت القرارات وأبقت على قواتها في عدة نقاط على ساحل البحر الأحمر بحجة حماية طريق الحج المصرية. ولما لم تستجب القوات المصرية لطلب الدولة العثمانية بالانسحاب من طابا، قامت القوات العثمانية تأكيداً لسيادتها على طابا بطرد القوات المصرية، مما أثار غضب بريطانيا، فأرسلت بقواتها لاستعادة طابا، كما حركت أسطولها في البحر الأبيض المتوسط، وهددت استانبول وأنذرت السلطان، مما دعا الحكومة العثمانية إلى التراجع، وسحبت قواتها من سيناء في (ربيع الآخر ١٣٢٤/الحادي عشر من أيار - مايو ١٩٠٦) (أو كسنوالد). وكانت بريطانيا لا تنفك تحرض الإدارة المصرية على تحديد حدودها الشرقية مع الدولة العثمانية، كما كانت تعتبر طابا من سيناء، وسيناء من مصر، لثمنع الدولة العثمانية من الاقتراب من قناة السويس. وهكذا توقف العمل في فرع المدوّرة "العقبة" بعد أزمة طابا لأن السلطان تحقق بعدها انه لا يمكن حماية أي خط يمتد جنوباً قرب البحر الأحمر بدون قوة بحرية نظراً لسيطرة القوات البريطانية التي تستطيع إغلاق هذا الخط في وجه القوات العثمانية متى شاءت (التقارير البريطانية).

وكان مفروضاً أن يلحق بسكة حديد الحجاز عدد من الفروع، أهمها فرع درعا-حيفا الذي يبلغ طوله حوالي ١٦٠ كم، ويدخل وادي اليرموك الضيق المسالك، ثم يمر فوق نهر الأردن قرب جسر المجامع. ونظراً لطبيعة المنطقة الجغرافية، فقد تطلب بناء العديد من الجسور والأقنية والسدود، وعهد بالقسم السهل من بنائه إلى المهندسين الأتراك برئاسة المهندس مختار بك، أما القسم الصعب ما بين بحيرة طبرية ودرعا فقد وزع بين المتهندين الأجانب والمسلمين، وفي شعبان ١٣٢٣/تشرين الأول-أكتوبر ١٩٠٥) كان الخط جاهزاً تقريباً للاستعمال. وأثناء العمل في الخط الرئيسي أرسلت بعثة من المهندسين لاستكشاف إمكانية بناء فرع صغير من نقطة متوسطة بين الزرقاء وعمّان إلى منطقة قرب السلط كان

يعتقد بوجود الفوسفات فيها، ولكن ما لبث أن صرف النظر عن هذا الفرع، عندما تبين أن كميات الفوسفات الموجودة قليلة (التقارير البريطانية). ونفذ خط من درعا إلى بصرى سنة (١٩٠٩/١٣٢٧)، ومن حيفا إلى عكا (بين ١٣٣٠-١٣٣٢/١٩١١-١٩١٣) بطول ثمانية وعشرين كم، ومن عكا إلى بلد الشيخ بطول سبعة عشر كم، ومن العفولة إلى اللد بطول مائة كم وغيرها (EI) وفي سنة (١٩١٤/١٣٣٣) كان قد أنجز ما طوله ١٥٨٥ كم من الخط الحجازي، ووضع قيد الاستعمال.

وكانت تكاليف بناء سكة حديد الحجاز منخفضة جداً بالمقارنة مع تكاليف الخطوط الأخرى في الامبراطورية، وسبب ذلك يعود إلى أن معظم العمل أنجز بالسخرة، كما أن أجور العمال المحليين كانت رخيصة. ويعزى ارتفاع التكاليف في بعض الحالات إلى صعوبة التزود بالماء، وإلى أجور نقل التجهيزات لمسافات بعيدة، وإلى تكاليف الإنشاءات التي أقيمت على خط حيفا-درعا) لتسهيل مرور الخط في المناطق الوعرة. وطبقاً للتقرير المالي لسنة (١٩١٠/١٣٢٨) المنتهية في (ربيع الأول ١٣٣١/شباط - فبراير ١٩١٣) كان مجموع التكاليف حتى ذلك التاريخ ٣,٢٥٠,٠٠٠ ليرة تركية، أي حوالي ٢١٢٠ ليرة لكل كيلو متر واحد، وإذا أضيف ثمن العربات فيكون المبلغ الإجمالي ٤,٢٨٣,٠٠٠ ليرة تركية، أو ٢٨٠٠ ليرة لكل كيلومتر، ويقابل هذا المبلغ ٧٤٤٠ ليرة تركية لكل كيلو متر من الخطوط العريضة في الأناضول، و ٧٠٠٠ ليره لخط رياق-حماة العريض التابع للشركة الفرنسية لخط دمشق-حماة-وامتداداته (D.H.P.)، و ٤٧٨٠ ليره لخط حيفا-القدس الضيق. وبلغ مجموع الأموال المدفوعة للسكة حوالي ١١٪ من مجموع المبالغ المصروفة على الخطوط الأخرى، مع أن طول سكة حديد الحجاز يساوي ٢٨٪ من مجموع أطوال الخطوط الحديدية في كافة أنحاء الامبراطورية خارج الديار المصرية. وجدير بالذكر أن سكة حديد الحجاز هي من النوع الضيق الأقل كلفة (التقارير البريطانية).

وقد بدأ تشغيل الخط كاملاً من دمشق إلى المدينة فور انتهائه (عام ١٩٠٨/١٣٢٦). وفي عام (١٩١٤/١٣٣٣) استعمل لأول مرة جدول مطبوع يبين حركة القطارات، فكان القطار يسير ثلاث مرات في الأسبوع بين دمشق والمدينة وبالعكس. قاطعا المسافة في حوالي ٥٦ ساعة، وكان يسير قطار كل يوم بين دمشق وحيفا وبالعكس قاطعاً المسافة في

حوالي ١٢ ساعة. وقبل وصول السكة إلى المدينة كان الحجاج يقطعون المسافة من دمشق في أربعين يوماً، فأصبحوا بفضل السكة يصلون إلى المدينة في ثلاثة أيام (المرواني). واستمر نقل الحجاج بواسطة القوافل كما كان في السابق بين مكة والمدينة، ومكة وجدة. وحسب المعلومات المتوفرة فإن الحجاج الذين استخدموا سكة الحجاز باستمرار، هم على الترتيب من: روسيا وأواسط آسيا والأناضول وسورية ومصر وإيران والعراق. وكان معظم المسافرين من ركاب الدرجة الثالثة، ولم يشكل ركاب الدرجة الأولى والثانية أكثر من ٥,٧٪ من عدد المسافرين. وكانت أجرة الراكب تتراوح ما بين ليرتين إلى ثلاث ليرات ونصف تركية. وهو عشر المبلغ الذي كان يتكلفه الحاج قبل السكة (أو كسنوالد).

وكان يقوم بالخدمات داخل القطارات وفي المحطات عمال مسلمون، أصبحوا بفضل الخبرة والدربة في مستوى كاف للقيام بواجباتهم. أما الشحن فكان حجمه ضئيلاً إذا ما استثنينا فرع حيفا-درعا (هكر). وكان يشرف على تشغيل الخط أربعة أقسام للإدارة والشحن والسير والصيانة، وكان القسم الأخير يتولى استكمال المباني والتجهيزات وصيانة الآليات، وإصلاح ما يلحق الخط وملحقاته من أضرار.

ونظراً للدور المهم الذي أداه خط حديد الحجاز أثناء الحرب وقبلها أصبح هدفاً عسكرياً للإنجليز الذين كانوا يتحينون الفرص للقضاء عليه، فقاموا بتحريض القبائل العربية الثائرة على الحكم العثماني، وانتدبوا للمنطقة الضابط العسكري (لورنس)، فقام هذا بتنظيم الهجمات على الخط الحديدي في الأجزاء ما بين معان والمدينة المنورة، فنزعت القضباني في بعض المناطق، كما دمرت بعض المحطات وبعض القاطرات وأصبحت هذه الأجزاء غير صالحة للاستعمال.

وبعد انتهاء الحرب وانسحاب العثمانيين من بلاد الشام، ودخول جيوش الحلفاء، قسم الخط الحجازي في ثلاثة أقسام: فاستولت بريطانيا على فروع الخط في فلسطين، كما تسلمت الحكومة العربية الفيصلية القسم الواقع في الأراضي السورية، وظل القسم الباقي في حوزة الحكومة الهاشمية في الحجاز. وعلى الرغم من أن الجزء الحجازي هو أطول الأجزاء، فإن نصيبه من المعدات كان الأقل، بالإضافة إلى ما لحق أجزائه من تخريب بين معان والمدينة. وعلى أي حال فقد كانت حالة الخط عند دخول الحلفاء جيدة، وأما حالته من حيث المعدات

فقد وصفت بأنها أفضل من مثيلاتها لدى الدول التي دخلت الحرب (محمد كرد علي). وقد حاولت الحكومة الفيصلية في دمشق إصلاح الخط، فأنشأت مديرية عامة له، قامت ببذل الجهود لإصلاحه، وعلى الرغم من قلة الموارد المالية الكافية لهذه الغاية فإن الفنيين تمكنوا من ترميم الأجزاء المعطلة بصورة سطحية ومؤقتة، ووصل القطار من المدينة المنورة إلى دمشق لأول مرة بعد الحرب في (١٣٣٨/١ أو آخر ١٩١٩)، وقد استغل هذا القطار الأمير علي بن الحسين - الذي تولى ملك الحجاز بعد أبيه فيما بعد - أثناء زيارته لأخيه فيصل في دمشق، ولكن سير القطار لم يكن منتظماً بعد ذلك، لعدم إتمام عملية الإصلاح بصورة فنية. وبقي الحال على ذلك حتى انتهاء الحكم العربي الفيصلي ودخول الجيش الفرنسي لسورية (ذي القعدة ١٣٣٨/٢٠ تموز - يولييه ١٩٢٠) (الخيمي).

وفي سنة (١٣٤١/١٩٢٢) جرت محاولة ثانية لإصلاح الخط الحجازي، فقد بذل الملك الحسين بن علي جهوده لإعادة تسيير الخط واستثماره، ووصل إمارة الأردن بمملكة الحجاز، فأمر بتأليف لجنة يعهد إليها النظر في شؤون الخط، وعمل الترميمات اللازمة، فباشرت اللجنة عملها في شرق الأردن أولاً، وتبرع الملك حسين بمبلغ أربعة آلاف جنيه مصري للقيام بالإصلاحات الأولية، وقامت اللجنة بالفعل بإصلاح الجسور والمنافذ واستمرت في عملها إلى أن تمكنت من إيصال الخط إلى المدينة المنورة، إلا أن هذه الإصلاحات لم تكن كافية نظراً لقلة الأموال المتوفرة لذلك، ولهذا فرضت بعض الضرائب وخصصت بعض الموارد للتمكن من القيام بالإصلاحات الأساسية، فاقطعت إعانات إجبارية من رواتب الموظفين، وخصصت واردات الطوابع الحجازية التي تستوفي داخل المنطقة لهذا الغرض، وقد بلغت جملة هذه الموارد خلال مدة إصلاح الخط أربعة آلاف جنيه بالإضافة إلى تبرع الملك حسين. وكانت الإصلاحات تحتاج إلى ١٠٠ ألف جنيه على الأقل ليستأنف الخط سيرته الأولى (الذقن). وبالفعل استأنفت القطارات سيرها بين دمشق والمدينة وبالعكس، وتمكنت في فترة وجيزة من نقل أكثر من أربعة آلاف زائر إلى المدينة المنورة ذهاباً وإياباً، وقد بلغت الواردات من الزوار وعمليات النقل التجاري أربعين ألف جنيه مصري (محمد كرد علي). ونظراً لحاجة الخط للإصلاحات وعدم وجود فنيين ماهرين، تراجع السير على الخط شيئاً فشيئاً حتى توقف بعد ذلك.

وقد توالى الجهود في أعقاب الحرب العالمية الثانية لإصلاح الخط، وشجع على ذلك قيام الجامعة العربية، وحصول بعض الدول العربية على استقلالها، وعقدت عدة اجتماعات بين ممثلي سورية والأردن والسعودية في السنوات (١٣٦٧/١٩٤٧ و ١٣٧١/١٩٥٣، ١٣٧٤/١٩٥٤). وفي (جمادى الآخرة ١٣٧٤/ كانون الثاني - يناير ١٩٥٥) عقد مؤتمر في الرياض ضمّ وزراء مواصلات الدول الثلاث المعنية، وتبرعت السعودية بمبلغ مليوني ليرة سورية للبدء بالدراسات اللازمة لإعادة تشغيل الخط، وقدرت النفقات الكلية بأربعين مليون ليرة سورية، وتعهّدت كل دولة بدفع حصتها من هذا المبلغ، غير أن الجهود تعطلت ثم جاءت كارثة (١٣٨٧/١٩٦٧) فانشغل العرب بنتائجها، وصرف النظر عن المشروع، ثم عادت المباحثات في أعقاب حرب (١٣٩٣/١٩٧٣) واتفق على مدّ خط من النوع الواسع بدلاً من الخط الضيق، وطرح العطاء أمام الشركات للقيام بالدراسات اللازمة، فوقع الاختيار على شركة (دوش كنسول)، وقامت هذه الشركة في مدى سنتين بإعداد دراسة مطبوعة في عشرين مجلداً كاملة الخرائط والتخطيطات والمصورات وسلّمت منها نسخة للهيئة العليا للخط الحديدي الحجازي - التي كانت الدول الثلاث قد شكلتها سابقاً - وعقدت اللجان اجتماعات بعد ذلك، أُطلعت فيها على الدراسة المذكورة، ثم انعقد اجتماع في (جمادى الأول ١٤٠١/ آذار ١٩٨١)، قرر المجتمعون فيه اعتماد الدراسة السابقة وطلب من كل دولة تنفيذ الجزء المار من أراضيها وفقاً لما جاء في الدراسة السابقة وهكذا عادت الأمور من حيث بدأت.

ولقد كان لإنشاء سكة حديد الحجاز نتائج معنوية وأخرى مادية، ففي المجال المعنوي يمكن أن نرى في المشروع أداةً لبعث الحيوية في جسم مريض. كما أن مدّ السكة عزز الثقة في نفوس المسلمين، وحوّل حركة الجامعة الإسلامية إلى برنامج عمل أدى إلى التفاف بعض المسلمين حول شخص عبد الحميد الثاني، فأقبلوا على التبرع للمشروع باعتباره تجربة تبيّن مدى قدرة المسلمين والدولة العثمانية معاً في الرد على أوروبا وتكنولوجيايتها الحديثة (أنطونيوس). وأما النتائج المادية فتجدها ظاهرةً في الأقسام الشمالية من الخط، أي من دمشق إلى معان، ومن دمشق إلى درعا وحيفا، أكثر من الأقسام الجنوبية لكون الأجزاء الشمالية أكثر سكاناً وعمراناً، وأرضاً صالحة للزراعة، وربوعها تشتمل على كثير من المواقع

الأثرية والسياحية. وقد ازداد النشاط التجاري لمدينة دمشق، إذ هي مركز تجمع الحجاج ومنطلقهم إلى الأماكن المقدسة، وساهمت محطاتها والمرافق الكثيرة التابعة لها في عملية الانتعاش الاقتصادي للمدينة. وكان للسكة أثر بارز في نمو وتطور جميع المدن الواقعة عليها مثل درعا مركز حوران الغني بالحبوب، فقد سهلت السكة تصدير هذه الحبوب عن طريق ميناء حيفا، وكان لطريق السكة فضل في تشجيع الزراعة، وبخاصة في المناطق المجاورة للخط وحول المحطات، حيث كان السكان قادرين على تسويق منتوجاتهم الزراعية والحيوانية. وكذلك نمت وتطورت مدن المحطات مثل الزرقاء وعمّان ومعان وتبوك والعلا وغيرها (محمد كرد علي). وقد بني (فيما بين ١٣٢٦-١٣٢٧/١٩٠٨-١٩٠٩) المحجر الصحي في تبوك بالتعاون مع المكتب الصحي الدولي في استانبول، وكان يتسع لأربعة آلاف حاج دفعة واحدة، وكان لسعة هذا المركز ورخصه أثر في زيادة عدد المسافرين بواسطة سكة حديد الحجاز (أوكسنوالد). وقد رافق هذا النمو والتطور حركة عمرانية تمثلت في المباني العامة كالمدارس ومراكز الصحة ومرافق المحطات بالإضافة إلى الخانات والمساجد والمطاعم والمتاجر ومراكز البريد وغيرها. وأحسن مثال على ذلك ما شهدته مدينة حيفا التي بلغت قيمة وارداتها لسنة ١٣٣١/١٩١٢ مبلغ ٣٧٥,٠٠٠ جنيه استرليني (EI). وكان للسكة أثر بارز أيضًا في المدينة المنورة، فلا تزال محطاتها الكبرى وبعض المنشآت الملحقة بها، شاهدًا على دور سكة حديد الحجاز في نمو المدينة وتقدمها الاقتصادي والعمراني والاجتماعي، وقد أنيرت المحطة والمسجد النبوي بالكهرباء قبل أي مكان آخر. وساهم الخط الحديدي في تنشيط الحركة السياحية وبخاصة إلى المواقع الأردنية حيث تكثر الأماكن الأثرية والسياحية، وساهمت السكة في استقرار الأمن، وتحول كثير من البدو نحو الحياة الحضرية، واستقر عدد كبير من مهاجري الشركس الذين كانوا هائمين في شمال بلاد الشام، فأسسوا القرى والمزارع في عدد كبير من الحواضر الأردنية مثل: عمّان وصويلح ووادي السير وجرش والسخنة. وكان للسكة نتيجة ربما لم تخطر على بال المسؤولين الأتراك، وتمثل في دور السكة في نقل الأفكار بسرعة وسهولة، مما كان له أثر سلبي على نظام الحكم العثماني. وقد أسهمت السكة في استقرار الأمن فأصبح الثوار والمتمردون يخشون أن تبلغهم يد الدولة أينما كانوا. أما دور السكة في الحرب فقد ألمحنا إليه سابقًا، ويكفي القول بأن الفضل في صمود القوات العثمانية جنوب

فلسطين لمدة ستين يهود لهذه السكة التي سهلت نقل التعزيزات والإمدادات إلى جبهات القتال في زمن يسير، كما يهود إليها الفضل في صمود الحامية التركية في المدينة المنورة إلى ما بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بشهرين (أوكسنوالد). ورغم كل ما يمكن أن يقال حول الخط الحديدي الحجازي، فإن دواعي توثيق الروابط العربية والإسلامية، وكل ما من شأنه خدمة المصالح القومية والوطنية تتطلب العمل الجاد المخلص لإعادة بناء هذا الخط وتفريعاته بصورة جديدة تستوعب كل جديد في تكنولوجيا المواصلات الحديثة.

المصادر والمراجع:

- محمد عارف بن السيد أحمد المثير الحسيني الدمشقي: السعادة النامية الأبدية في السكة الحجازية الحديدية، نشرة لاندau (Landau) في كتابه: سكة حديد الحجاز.
- وجيه الخيمي: الخط الحديدي الحجازي، ماضيه وحاضره ومستقبله، مجلة الفيصل عدد (٣٨) السنة الثالثة يناير ١٩٨٠.
- سيد محمد الذقن: سكة حديد الحجاز، المقتطف (مج ٢٩)، ١٩٠٤ (٩٧٠-٩٨٠).
- أحمد المرواني: الخط الحديدي الحجازي، جامعة دمشق ١٩٥٩.
- سعيد الأفغاني: قصة الخط الحديدي الحجازي لم تتم فصولاً، الباحثون الغربيون يخفون أن إنجلترا وفرنسا وليس العرب هم الذين ضربوا الخط وأوقفوه، مجلة العربي ٢٨٠ (١٩٨٢).
- ابراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية (١-٢)، القاهرة ١٩٢٥.
- عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية ١٨٩١-١٩٠٨، ط ٣، بيروت ١٩٨٢.
- عبد العزيز محمد عوض: الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤)، القاهرة ١٩٦٩.
- محمد كرد علي: خطط الشام (١-٥)، ط ٢، بيروت ١٩٧١.
- الملك عبد الله بن الحسين: حقبة من تاريخ الأردن، الآثار الكاملة، بيروت ١٩٧٣.
- جورج انطونيوس: يقظة العرب، تاريخ الحركة القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت ١٩٦٦.
- ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، ط ٣، بيروت ١٩٦٥.
- سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحج، الكتاب الجامعي ٦، ط ١، جدة ١٩٨١.
- محمد لبيب البتنوني: الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني، خديوي مصر، ط ٢، القاهرة ١٣٢٩.
- بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط ٥، بيروت ١٩٦٨.
- سعد أبو دية: الدور التاريخي للخط الحديدي الحجازي، مجلة المؤرخ العربي ٣٤ (١٩٨٨) ص (٥٨-٦٦). مجلة المنار، الأعداد (٣) ١٩٠٠، و (٥) ١٩٠٣، و (٦) ١٩٠٣. الهلال، العدد (من أول تشرين الأول - أكتوبر ١٩٠٤ - آب - أغسطس ١٩٠٥) الأهرام، القاهرة تموز - يولييه ١٩٠٤. ثمرات الفنون، بيروت ١٨٩٨-١٩٠٨.

- Durham, University, School of Oriental studies: Sudan Archives, Reports and Papers relating to the Hijaz Railway including a secret report by H. Channer, June 1909 (5pp.) 1906-1909.
- Insha Allah, Muhammad: The History of Hamidian Hedjaz Railway project, Lahore, Central Printing works,
- n.d. Landau, Jacob M: The Hejaz Railway and the Muslim Pilgrimage: a case of Ottoman political propaganda, Detroit; Wayne State Univ. Press 1971.
- Ochsenwald, William: The Hijaz Railroad, University Press of Virginia, U.S.A. 1980.
- Zaidi, Z.H.: The Hidjaz Railway, E12 1971. vol.III, pp. 364-65
- India office Archives (London) Political and Secret Department L/P and S. 10/12, 3142/1903 «Arabia; The Hedjaz Railway, 1901-1912» and associated papers.
- Lawrence, T.E.: Seven Pillars of Wisdom, Gardencity, N.Y. Double day, 1935.
- Tresse, Rene: Le Pelerinage Syrien aux villes saintes de l'Islam, Paris Chaumette 1937.
- Dominan, L. Rail Roads of Turkey, American Geographical Society of New York Bulletin, (47) 1915, pp. 934-40.
- Great Britain, Foreign Office: F.O., No. 78/5452, 368, 371, 618/3, 882/25-28.
- France Minister des Affaires Etrangères: Turquie. Chemins de Fer:

Reseau Asiatique, 1898-1918.

- Indes, Politique interieure; Arabie- Yemen, 1806-1914.
- Turquie, Politique interieure; Syrie, Liban 1899-1914.
- Grant, C.B. The Syrian Desert, Caravans, Travel, and Exploration, London 1937.
- Hecker, M:Die Eisenbahnen in der asiatischen Turkei, Archive fur Eisenbahn wesen (Berlin), xxxvii (1914), 789-91, 797-98, 1062-69, 1306-7,1310-11,1315-16.
- Issawi, Charles: The Economic History of the Middle East 1800-1914. Chicago, 1966.
- Al-Amr, Saleh Mhammad: The Hijaz under Ottoman Rule 1869-1914; Ottoman Vali, The Sharif of Mecca, and The Growth of British Influence, Riyadh University Publications, 1978.
- Ali Vahbi Bey, Comp. Avent la debacle de la Turquie Pensees et souvenirs de l'ex Sultan Abdul- Hamid, Paris. Attinger freres, 1922.
- Bidwell R: (ed) correspondence respecting the Affairs of Arabia, 1905-1906, London, 1971.

أهمية حلب بين المتوسط والفرات

على طريق التجارة العالمية

نظراً لأهمية حلب عبر التاريخ، فقد حظيت بعناية الباحثين قديماً وحديثاً وتناولت الكتب والمقالات تاريخ هذه المدينة العريقة ومعالمها المختلفة^(١). وبالإضافة إلى عناية الباحثين بأنشطة المدينة ودورها في الحضارة العالمية، فقد تناول التأليف عبر العصور ذكر أعلامها ومن ذاع صيته فيها^(٢)، ومما يلفت النظر أن معظم المؤلفات عن حلب تحمل ألفاظ الذهب والدرر، مثل كنوز الذهب في تاريخ حلب أو نهر الذهب في تاريخ حلب، أو معادن الذهب، أو الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، أو در الحبيب في تاريخ أعيان حلب أو اليواقيت والضرب في تاريخ حلب وغير ذلك كثير، ولعل ذلك يعكس الصورة الجليلة لمدينة حلب في عيون ناظرها. وحلب مدينة عريقة من أقدم مدن العالم، ويعود تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد في بعض الأقوال، حيث كانت إحدى أكبر ممالك الأموريين في الشرق، كما كانت مركزاً لعبادة الآلهة (حدد)، وفي سبب تسمية حلب بهذا الاسم روايات متعددة، فقد ورد ذكرها في رقم مملكة إبلا باسم (أرمان) كما ورد اسمها (حلبا) في رقم ماري (١٧٥٠ ق.م) عاصمة لمملكة يمحاض (يمحد)، وقيل بأن كلمة حلب تعني في اللغة الأمورية، معادن الحديد والنحاس، أما في الآرامية، فاسم حلب محرف من (حلبا) التي تعني البياض نسبة إلى بياض تربتها وحجارتها، وقد ذكر خير الدين الأسدي أن كلمة حلب مؤلفة من كلمتين (حل-لب) أي مكان التجمع، وفي الأساطير ذكر أن المدينة أخذت اسمها من تكرار إبراهيم الخليل عليه السلام لحلب غنماته

(١) أنظر سبط بن العجمي الحلبي (ت ٨٨٤هـ/١٩٧٩م) كنوز الذهب في تاريخ حلب، ج ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار القلم العربي، حلب ص ص ٧-٤٠. سيشار إليه عند ورود: سبط بن العجمي، كنوز. شوقي شعث، حلب في كتب البلدانين العرب من القرن الثالث الهجري حتى الخامس عشر الهجري، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٧-١٥. سيشار إليه عن ورود شعث: حلب.

(٢) أنظر محمد راغب الطباخ، إلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية بحلب (عدة أجزاء). سيشار إليه عند ورود: الطباخ، إلام. كمال الدين ابن العديم، بغية الطلب بتاريخ حلب (عدة أجزاء)، كامل الغزي نهر الذهب في تاريخ حلب، قدم له وصححه وعلق عليه. د. شوقي شعث، والأستاذ محمود حريتاوي، دار القلم، العربي بحلب، (عدة أجزاء). سيشار إليه عند ورود: الغزي، نهر الذهب.

وبقراته، وتوزيع هذا الحليب على المحتاجين^(١)، وقيل أنها إنما سميت حلب باسم من بناها، وهو حلب بن المهر بن حيص بن عمليق من العمالة^(٢). وسميت بالشهباء والبيضاء لبياض أرضها، لأنها محاطة بسهل أبيض طباشيري^(٣).

ذكرت حلب لأول مرة في القرن العشرين قبل الميلاد بنفس الاسم Khalap في الحثية وفي المصرية Khrrb وفي الأكادية Khalman ، Khalwan ولعلها تعود إلى عهود سابقة لهذا التاريخ^(٤). لذلك عاصرت هذه المدينة حضارات: الآراميين، والأكاديين، والحثيين، وحضارات الغرب، اليونانية، والهلنستية والرومانية.

وكانت نقطة لقاء بين حضارات الشرق والغرب، وساحة تلاقي بين هذه الحضارات، ورغم قساوة عوادي الزمان التي مرت بهذه المدينة، فقد كانت إرادتها للحياة أقوى من كل التحديات، فهي إن سقطت تنهض بسرعة، فارعة الطول بهية الطلعة، هذه حلب الشهباء المدينة المعطاءة عبر الزمان.

تقع مدينة حلب على درجة طول ٣٧,٦٨,٥ شرقاً و ٣٦,٢٠ شمالاً في الهضبة الداخلية السورية، على ضفة نهر قويق الذي ينحدر من منحدرات جبال طوروس^(٥).

(١) ياقوت، معجم البلدان، «حلب» The Encyclopedia of Islam, New Edition, Prepared by A Number of Leading orient lists, volume III, Leiden-London, 1971, Halab, p. 85-91. 284/2.

سيشار إليه E.I.، وانظر محمود الحريتاوي، حلب أسواق المدينة من الفلكلور الشعبي (٣) منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١، ص ٥، ٩. سيشار إليه: حريتاوي، حلب. وانظر خير الدين الأسدي، حلب، الجانب اللغوي من الكلمة، وأحياء حلب وأسواقها. عبد الفتاح رواس، قلعه جي وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٦م. سيشار إليه عند وروده: الأسدي، حلب.

(٢) رضى الدين محمد بن إبراهيم بن الحنبلي الحنفي (ت ٩٧١هـ/١٥٦٣م) الزيد والضرب في تاريخ حلب، تحقيق الدكتور محمد التوبجي، الكويت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م. سيشار إليه: رضى الدين، الزيد، انظر شوقي شعث، مرجع سابق، ص ١٦٥، وفي تسميتها وبنائها أقوال كثيرة.

(٣) رضى الدين الحنبلي، المرجع السابق. وأنظر شوقي شعث، المرجع السابق، ص ١٦٥. E.I.Halab.P. 85.

(٤) اعتماداً على ما كتبه: E.I.J. Sauvaget, Alep. P. 85.

(٥) Ibid وقويق نهر صغير يجري في الشتاء والربيع ويقطع في الصيف، وقد ذكره الشعراء في أشعارهم كثيراً، خصوصاً أبا عبادة اليعتري، فإنه كرر ذكره في عدة قصائد، أنظر ابن خلكان، أبي العباس محمد بن محمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق يوسف علي الطويل ومريم قاسم الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م. ج ٥، ص ٩٦-٩٧، سيشار إليه: وفيات الأعيان.

بنيت حلب في مكان تحققت فيه كل عوامل القوة والنماء، حيث توفر الماء والتربة الخصبة، مما أدى إلى ازدهار زراعتها، كما كانت ملتقى طرق القوافل بين الشرق والغرب، فنشطت تجارتها وعظمت ثرواتها، وزادت حسناً على حسن بطيب هوائها، وقد قيل إن الاسكندر الكبير مر بها وبصحبه الفيلسوف اليوناني أرسطو، فلما عرف الأخير صحة هوائها استأذن الاسكندر بالإقامة فيها^(١). أما الموارد الأساسية لهذه المدينة في القديم فتأتي من الزراعة، ورعي المواشي، ففي أرضها يزرع التين والزيتون والعنب الذي تتعدد أنواعه، ثم جادت في حلب زراعة القطن والفسق المعروف باسمها «الفسق الحلبي» وهاتان المادتان أسهما بالتجارة الحلبية^(٢). ذكر ياقوت بعد مشاهدات في حلب قائلاً: واستدللت أن الله خص حلب بالبركة، وفضلها على جميع البلاد، فمن ذلك أنه يزرع في أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والشمش والتين والتفاح عذباً لا يسقى بماء المطر، ويحيى مع ذلك غصناً رويًا يفوق ما يسقى بالماء والسيح في جميع البلاد، وهذا لم أره فيما طوفت من بلاد في غير أرضها^(٣)، وقد اشتهرت حلب بخزن زيت الزيتون في حباب كبيرة، ولما بلغ الروم إلى هذه المدينة عام ٣٥١هـ/١٩٦٢م عمدوا إلى هذه الحباب فصبوا فيها الماء حتى فاض الزيت على وجه الأرض^(٤). ونظراً لتقدم تاريخ حلب وموقعها الهام فقد شهدت صراعات وخضعت لأقوام شتى، وقامت فيها مملكات وإمارات، وهدمت أسوارها مرات، وخربت مساكنها وشرد سكانها، فقد مر بها الحيثيون والميتان والأشوريون والمقدونيون والفرس والرومان حتى جاء الإسلام، فأصبحت قلعة من قلاعهِ وترساً من تروسهِ تذود بما استطاعت عن شماله حتى عرفت بعاصمة الثغور^(٥).

(١) شوقي شعث، حلب، ص ٦.

(٢) E.I. O.P.Cit. P. 85

(٣) معجم البلدان، ٢/٢٨٤-٢٨٥ (حلب). القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر - بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ١٨٣. سيشار إليه: القزويني، آثار البلاد.

(٤) مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٢١هـ) تجارب الأمم. حققه وقدم له: أبو القاسم أمامي، طبعة طهران، ٢٠٠٢م، ج ٦، ص ٢٣٥. سيشار إليه: مسكوية تجارب الأمم. آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقلة إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريذة، دار الكتاب العربي ط ٤، بيروت ١٣٨٧/١٩٦٧، ص ٣١٠/٢. سيشار إليه: متز، الحضارة الإسلامية.

(٥) E.I.O.P.Cit.P.85-86

إن تكالب الأمم على حلب له ما يبرره فهي مدينة غنية في محيط جاف، ومن هنا نجد أنها كانت سوقاً للقبائل البدوية الكثيرة والكبيرة التي كانت ترداد السهول الشاسعة في شمال سوريا.

خضعت حلب للرومان وأصبحت جزءاً من الولاية السورية، وتمتعت بفترة من السلم، مما ساعدها في بناء سوق كبيرة، وتحولت إلى مجتمع مسيحي، وتمتعت بنشاط اقتصادي خلال العهد البيزنطي، حيث استوطنتها عدد من اليهود ثم تناموا بسرعة وانتشرت مساكنهم داخل المدينة. كانت القوافل التنوخية ذات الأصول العربية، والتي اتخذت مدينة (الحضر) قاعدة لها، لا تنقطع عن حلب لجلب حاجاتها وبيع منتجاتها^(١).

تعرضت حلب لهجوم فارسي سنة ٥٤٠م بقيادة الملك خسرو الأول أسفر عن سقوطها وحرقتها، ثم أعيد بناؤها على يد الإمبراطور الروماني جستنيان، الذي أقام كاتدرائية جميلة، لكن أطماع انتيوخس وتهديد الفرس حالت دون انتعاش المنطقة^(٢).

في سنة ١٦هـ/٦٣٦م ظهرت القوات الإسلامية بقيادة خالد بن الوليد أمام حلب، ثم تبع ذلك جيوش أخرى بقيادة أبي عبيدة الذي أعطى أماناً لأهل حلب على حياتهم وحصونهم وكنائسهم مقابل دفع الجزية^(٣).

وأقيم أول مسجد في داخل حلب في الشارع الرئيسي، ثم سورت ساحاته، وتبعث حلب إلى جند حمص ثم إلى جند قنسرين، ولم يكن لها أي دور إداري أو سياسي في العهد الأموي، لكن تزايد سكانها دعا الخليفة الوليد بن عبد الملك أو أخيه سليمان أن يبني فيها مسجداً عظيماً، لا زال قائماً حتى أيامنا هذه^(٤).

وفي العصر العباسي الأول، ظلت كباقي سورية، لم تلق العناية اللازمة ثم وقعت بيد أحمد

(١) E.I, Ibid. P.85.

(٢) Op. cit. P. 85-86.

(٣) الأزدي، محمد بن عبد الله، (ت حوالي ١٧٨هـ/٧٩٤م) فتوح الشام، تحقيق عصام عقله ويوسف بني ياسين، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، اربد-الأردن، ٢٠٠٥م، ص ٣٤٦. سيشار إليه: الأزدي، فتوح. البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، فتوح البلدان بعناية رضوان محمد رضوان المكتبة التجارية، مصر، ص ١٥١. سيشار إليه: البلاذري، فتوح.

(٤) E.I.P.86.

بن طولون، ثم أخذت من قبل القرامطة. سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م، وفي سنة ٣٢٥هـ/٩٣٦م تبعت لمحمد الإخشيد الذي عين شيخاً لقبيلة كلاب، الأمر الذي شجع أفراد هذه القبيلة القدوم، إلى شمال سورية، والتغلغل داخل المدينة. استولى الحمدانيون على حلب سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م على يد الأمير الشهير سيف الدولة الحمداني، وهذا أول تاريخ تصبح فيه حلب عاصمة دولة ومركزاً للحكم، كما أصبحت مركزاً مزدهراً للأدب بفضل الأمير الحمداني، ولا يذكر سيف الدولة إلا ويذكر معه: المتنبي، وأبي فراس الحمداني، وابن نباتة، وابن خالوية، وابن جني، وكثير غيرهم ممن هم أقل شهرة^(١).

ومن ترتبط أسماؤهم بحلب الشاعر كشاجم الذي وصف بأنه بحر ماله شط، وقد تغنى كثيراً بحلب^(٢)، واعتماداً على ما جاء عند الجغرافيين العرب في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، نجد أن بلاد الشام في العصر العباسي كانت تحظى بشبكة من الطرق الكثيفة والمنظمة لدرجة تبعث على الإعجاب، وبخاصة في الأجزاء الغربية المكتظة بالسكان، وقد قسم الجغرافيون بلاد الشام عند حديثهم عن دروبها ومسالكها إلى كور، بدأوها في الغالب بكور الثغور الشامية والجزيرية، ثم كورة حلب وما يتبعها، وكورة حمص وكورة دمشق وكورة الأردن، وكورة فلسطين وقد أوجز هؤلاء الحديث عن الطرق العرضية التي تقطع الصحراء الفاصلة بين إقليمي الشام والعراق، ومن أشهر الطرق العرضية التي تقطع الصحراء نحو البحر المتوسط تلك التي تخرج من منبج إلى الثغور الشامية، لتربطها بكل من حلب وقنسرين وأنطاكية والاسكندرونة على البحر الأبيض المتوسط^(٣). ولقد أورد كل من ابن خردادبة وقدامة بن جعفر أسماء مدن الثغور ومقدار المسافات بين كل مدينة وأخرى وقدروها بالسكك (البرد)^(٤). وقد قدرها المقدسي بالأيام والمراحل والبرد^(٥)، ويستدل من التقاء الطرق في

(١) E.I. O.P.Cit. P. 86

(٢) ديوان كشاجم، طبعة بيروت، ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، ص ١١٦. سيشار إليه: كشاجم، الديوان.

(٣) قدامة بن جعفر (٣٢٨هـ/٩٤٨، ٩٣٧/٣٣٧)م الخراج وصناعة الكتاب، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١، ص ١٢٩. سيشار إليه، قدامه، الخراج. وانظر في هذا الكتاب، البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي.

(٤) البريد وطرق المواصلات، المرجع السابق.

(٥) المقدسي، محمد بن أحمد (٣٧٥هـ/٩٨٥م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع في مدينة ليدن، بريل

حلب أن هذه المدينة كانت ملتقى المواصلات التي تربط مناطق الثغور وشمال بلاد الشام وجنوبها والبحر الأبيض المتوسط^(١).

وقال الأصطخري عنها، أنها على طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات^(٢).

ولعل الأبواب السبعة لحلب تشير إلى كثرة الطرق المؤدية إليها والخارجة منها، مثل باب حمص وباب الرقة وباب ففسرين، وباب اليهود - لعله كان يفضي إلى حي اليهود في المدينة - وباب العراق، وباب دار البطيخ، وباب أنطاكية، ومن ثم باب الأربعين^(٣).

مر بالمدينة الرحالة ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي ووصف سورها، وقال أنه يرتفع خمسة وعشرين ذراعاً، كما وصف قلعتها العظيمة المنيعة، وقال إنها مدينة عامرة، وفيها تحصل المكوس عما يمر بها من بلاد الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق، ويذهب إليها التجار من جميع هذه البلاد^(٤).

ويلاحظ أن القوافل اتخذت الطرق القديمة، ما بين حلب والفرات، وذلك إما بإتباع نهر الفرات بالاتجاه الشمالي الغربي إلى مسكنه. وهي (ثياسكوس القديمة The Ancient Thapascus) ثم تتجه غرباً لتعبر الواحات القديمة لمدينة الطيبة (Taiyiba) ثم إلى حلب^(٥).

وتوجد طريق أخرى أبعد شمالاً كانت مستعملة قبل الفترة الرومانية وتصل ما بين أعالي الفرات عابرة الفرات في زيوقما (Zeugma) أوتل الأحمر، وتعبر إلى شمال غرب

١٩٠٦، ص ٥. سيشار إليه: المقدسي، أحسن التقاسيم. صالح درادكة، المرجع نفسه.

(١) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) معجم البلدان، بيروت، ١٩٧٩م ٢/٢٨٣-٢٨٤.

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) المسالك والممالك، تحقيق محمد عبد الجابر ومراجعة محمد شفيق غربال، دار القلم، ١٣٨١هـ/١٩٦١م. ص ٤٦. سيشار إليه: الحربي، المسائل.

(٣) البريد وطرق المواصلات، المرجع السابق، ص ٢٠٣، وهناك خلاف حول عدد الأبواب وأسمائها.

(٤) ناصر خسرو (ت ٣٧٥هـ/١٩٨٥م) سفرنامه، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، ط ٣، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م، ص ٥٦، سيشار إليه: خسرو، سفرنامه، البريد وطرق المواصلات، المرجع السابق نفسه.

(٥) المرجع السابق.

حلب مباشرة إلى أنطاكية بطريق منبج (Herapolis)^(١).

لقد أصبحت حلب بعد خراب فنسرين هي المركز التجاري المتوسط بين الشرق والغرب، ومنه تخرج القوافل إلى العراق المتصلة ببلاد فارس ثم بالهند ثم بالصين ثم باليابان وإلى الشام والحجاز واليمن وعمان والبحرين وإلى مصر وما وليها من إفريقيا وغيرها من الممالك الغربية^(٢). ولعظم تجارتها في الزمن السابق، كان يلقبها الفرنج بتدمير الجديدة. وكنت تجد فيها أنفس بضائع هذه البلاد.

ولم تزل حلب بهذه الحالة من النشاط والثراء إلى أن اكتشف البرتغال طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند وجنوب آسيا سنة (٩٠٣هـ/١٤٩٧م)، ولذلك تراجعت التجارة الحلبية، ولم تعد تجني تلك الأرباح السابقة. وتشير الخانات الكثيرة التي أقيمت في حلب والتي لا تقل عن أربعين خاناً، إلى حجم الوجود الأجنبي في عصرها الذهبي، فقد وصف أحد الرحالة هذه الخانات وقال إنها كانت تخص بالهنود والفرس والترك والفرنج وغيرهم^(٣).

وقد ذكر ياقوت الحموي أن من عجائب حلب أن في قيسارية البز عشرين دكاناً للوكلاء يبيعون فيها كل يوم متاعاً قدره عشرون ألف دينار، مستمر ذلك منذ عشرين سنة وإلى الآن^(٤).

تأتي أهمية حلب من كونها تتوسط رقعة زراعية خصبة تمنح المواد التموينية اللازمة لسكانها وللسكان المحيطين بها، وبخاصة البدو، مما شكل نواة للحركة التجارية المحلية، ثم نشأت فيها مجموعة صناعات لتلبي حاجات الناس من ملابس مستفيدة من محصولها من القطن وصناعات المواد الغذائية، بالإضافة إلى صناعة الزجاج وغير ذلك من الصناعات الأولية. ذكر القزويني أن من عجائبها سوق الزجاج، فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة ما يرى

(١) C.P.Grant, The Syrian Desert; Caravans, Travel and Exploration, London, 1937, p.35

سيشار إليه: Grant

(٢) كامل ألفري، نهر الذهب، ١/١٢٣.

(٣) كامل ألفري، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٤) معجم البلدان، ٢/٢٨٤.

فيها من الطرائف العجيبة، والآلات اللطيفة تحمل إلى سائر البلاد التحف والهدايا، وكذلك سوق المزوقين ففيها آلات عجيبة مزوقة^(١)، وأصبحت هذه الصناعات بالإضافة للمنتجات الزراعية قاعدة للحركة التجارية، ثم جاء موقع حلب على الطريق التجاري العرضي الذي يربط بين العراق والشام لينقل التجارة الحلبية إلى مستوى إقليمي، ونظراً لنشاط أبنائها، نمت المدينة بسرعة وأصبحت مركزاً عالمياً للتجارة العابرة، حتى أن سلع الغرب والشرق والشمال والجنوب أصبحت ترد إليها وتصدر منها.

وقد أجمل ألفري ما يدخل حلب وما يخرج منها من سلع تجارية، فقال: «أما ما يدخل حلب من غيرها من البضائع والسلع في هذه الأزمان فهو جميع بضائع أوروبا والهند والصين واليمن والحجاز والعراقيين والروم والأناضول وأفريقية والسودان والحبش وغير ذلك من بقية الممالك»^(٢).

أما ما يخرج منها إلى غيرها فكثير أيضاً منه: (الحنطة وبقية الحبوب والحرير والصوف والقطن والكتان والقنب والزيت والسمن والتين والزبيب والجوز واللوز والجلود والفسق والدبس والعسل، وغالب أنواع الحيوان كالغنم والبقر والخيول وأنواع الأقمشة والمنسوجات الحريرية المعروفة بالجتارة التي تضاهي جتارة الهند، ونوع منها منقوش بالحرير والقصب على أنواع وأشكال بديعة يعرف الآن بالدوناتو نسبة إلى أسرة دوناتو التي اشتهرت بهذه الصنعة أكثر من سواها، وأنواع الغزلية المعروفة بالالاجة، والشال والنعال الحلبية والجلود والصباغ، وأنواع العقاقير كالسحلب والأفيون والسقمونيا والخشخاش والشفوفيز والكسبرة واليانسون والسمسّم والصابون والملح والعصفر والصنوبر والمناديل المطبوعة المعروفة بالبصمة، والشريط الفضّي المعروف بالثيل)^(٣).

وقد أثبت ألفري جدولاً يبين قيمة الأموال الواردة إلى ميناء الإسكندرون سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م باعتباره ميناءً مختصاً بولاية حلب، ومنه يمكن للدارس أن يتبين مقدار

(١) آثار البلاد وأخبار العباد، ص ١٨٣-١٨٤.

(٢) نهر الذهب، ١/١٢٤.

(٣) ألفري، المرجع السابق، ص ١٢٤-١٢٥.

تجارة حلب من خلال الواردات والصادرات^(١):

القيمة بالقروش	اسم البلد
١٢٤٣٤٨٠٠	من أوسيريا
٠٢٤٠٩٩٧٥	من روسيا
٠٣٨٢٥٩٠٠	من إيطاليا
٠٢٥٨٠٤٢٣٧	من فرنسا
١٠٠٠٨٢٦٥٢٥	من إنكلترا
٠٤٣٣٩٦٣١٢	من البلاد العثمانية
١٨٧,٩٥٧,٧٤٩ قرش	المجموع

الليرة العثمانية = ١٠٠ قرش

وأثبت الغزي جدولاً آخر لنفس السنة بالصادرات.

القيمة بالقروش	اسم البلد
٤٨٣٣٠٠٠	إلى أمريكا
٠٠٤٣٣١٢	إلى اليونان
٠٠٦٣٠٠٠	إلى أوسيريا
٠٠٨٤٨٢٥	إلى إيطاليا
٠٦٤٢٦٠٠	إلى فرنسا
٠٥٣٤٣٧٥	إلى إنكلترا
١٣٤٦٧٩٤٢	إلى الممالك العثمانية
١٩٦٦٩٠٥٤ قرش	المجموع ^(١)

(١) نهر الذهب ١/١٢٦.

ومن المجموع الكلي للواردات والصادرات يتبين أن الواردات أكبر بكثير من الصادرات، وهذه الأموال هي غير الأموال الوطنية للصادرات من حلب عن طريق البر إلى بر الأناضول والجزيرة والعراقين، وبقية سوريا وفلسطين والحجاز واليمن، وغير الأموال المستهلكة في حلب وبرها، الواردة برأ من الجهات المذكورة مما يعجز القلم عن إحصائه^(١).

هذه المعلومات تعطينا صورة عن الوضع الاقتصادي لمدينة حلب، وهي ولا شك صورة جيدة. لا بد من أن يقوم العمل التجاري بتهذيب طباع أصحابه، فيعرفون بتسامحهم مع الآخرين. وهذه صورة المجتمع المتحضر، ولهذه الأسباب نجد في مدينة حلب عبر العصور أناس من مختلف الطوائف. ولعل وجود هذه الهيئات تعطي المدينة طابعاً خاصاً، إذ كان منها أحياء خاصة باليهود، ويقدر بنيامين التطيلي عدد سكان الحي الخاص باليهود بخمسة آلاف يهودي^(٢)، وهذا رقم كبير في زمن التطيلي. وأحياء أخرى خاصة بالنصارى حسب مذاهبيهم.

نبغ في المدينة عدد من العلماء في كل المعارف والفنون، كما استقطب العلماء لزيارتها أو الإقامة فيها، حيث كان يجد هؤلاء التكریم من حكام حلب، ولما كان المجال يضيق عن ذكر من ينسب إلى حلب من العلماء، أو من زارها وأقام بها، نكتفي بذكر وثيقة طبية (منشور سلطاني) لأحد أطباء حلب، توضح المستوى الطبي الذي بلغته حلب إبان فترة الحروب الصليبية، وهو من إنشاء القاضي عماد الدين الأصفهاني الكاتب، جاء فيه:

«لما كان الحكيم فلان حرسه الله متفرداً بصناعة الطب متوحداً في علمه، منطلقاً في تديره بدرأيته وفهمه، مجرباً لمداواة الأمراض ومداراتها، واقفاً على أدلتها في مبادئها وغاياتها، عارفاً بإماراتها، ماهراً في تشريح الأعضاء وحالاتها، عالماً بالعناصر الأربعة واستقصاءاتها ومتفطناً على الأمزجة على اختلافها، في أوقات انحرافها واعتدالها، متمرنأ بالوقوف على ما يجب وينبغي لها في حفظ صحتها وإمالة اعتلالها، فارقاً بين الطبائع الغريزية والغريبة، ناظراً في القوى الآتية منها والمجبية، متوسلاً في تسقيم السقيم وتقسيم

(١) المرجع السابق

(٢) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، ٨٢/١. بينما نجد عددهم ألف وخمسمائة في رحلة بنيامين، ترجمة عزرا حداد، بغداد ١٣٦٤/١٩٤٥ م.

الأدوية بحسب العوارض على القانون المستقيم، وحماية الناقه بانقائه بالحمية حتى يعود بمفور حصّة الصحة حالي الهجة بهيج الحلية، ذا دراية بالجواهر وأعراضها والأجسام وأمراضها، صناعة طيبة اكتسبها بتجريبه، ومهر فيها بحسن تديره وترتيبه. وأمرناه بأن يواظب على الخدمة بقلعة حلب المحروسة لمداواة أهلها وحيازة مرضاة مرضاها، ومعالجة كل حالة بمقتضاها، ومداواة أهل البلد على حسب ما يكون فيه من الجلد، لمن لا بد من ملازمته، ولمن تتوفر الرغبات على حفظ صحته. وقد قرر له ما يعينه على استثمار صناعته، ويغنيه عن سواه بمواظبته. فليتولّ هذه الخدمة متوفراً على حفظ الصحة حاصلّة، واسترجاعها بمشينة زائلة، مقابل كل مرض بوزانه من قوة الدواء، مستقلاً معرفة الأدوية المركبة والمفردة على تغاير الأدوية، صائغاً في تركيبها ودفع ضرر بعضها ببعض، فارقاً بين السريع والمتواتر والمتخلف والمنتظم في النبض، مشفقاً على الأعضاء الرئيسة والأجزاء النفيسة بإمالة الخلط عنها قبل استفراغه، والإضافة إلى الدواء ما يعين على إيصاله وإبلاغه، وترجيح الأمر في العرض الهائج هل يستفرغ أو يبدّل مزاجه، والفرق بين ما يدارى فلا يحرك ساكنه وبين ما يبادر فيعاجل علاجه، ومعرفة الدواء الذي تنحل قوته بالطبخ أو الدق وما يصلح كفيته بالتصويل والسحق، والإطلاع على ما يسهّل ويمسك أو يؤخذ أو يترك، والنظر في زيادة الخلط على مقداره الذي ينبغي بتنقص ضده عما ينبغي بفطنته وذكائه، والاجتهاد في ملاطفة أخلاق المريض في دوائه وغذائه، مؤدياً لأمانته في كفايته موفياً بالمحافظة على القوانين الصحيحة حق صناعته»^(١).

وتعايش اليهودي والنصراني والسني، والنصراني والسني والشيعي والاسماعيلي والدرزي والماسوني وكل الطوائف في المدينة في جو من التسامح والإخاء^(٢).

ولعل هذا الجو هو الذي أفرز العديد من العلماء، حيث وصفها ابن خلكان عند زيارته لها سنة (٦٢٣هـ) بأنها كانت أم البلاد. مشحونة بالعلماء والمشتغلين^(٣). ولا بد من لفت النظر إلى أن أسواق حلب ظلت من الأسواق العالمية المرموقة، وهي نموذج للأسواق المتشابهة

(١) البرق الشامي، ج ٥، تحقيق د. فالح حسين، عمان ١٩٨٧م، ص ١٣٨-١٣٩. سيشار إليه، الأصفهاني، البرق الشامي.

(٢) نظر ألفري، المرجع السابق، ص ١٦٢-١٧٧.

(٣) وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٤١١.

والتميزة بذات البنية العمرانية، والتي تتميز بكونها مركزاً للمدن القديمة في العالم الإسلامي، وبخاصة في منطقة الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط، وقد اعتبرها الجغرافي الألماني (أوجين فيرت) تمثل الصلة الوحيدة بين عناصر الحضارة العربية الإسلامية وبين الأسس السامية والطابع الهلنستي القديم^(١).

ونظام الأسواق في شرق البحر المتوسط خضع لمؤثرات السياسة والحرب والتقلبات الاقتصادية، والسوق رهن بأمان الطرق المؤدية إليها، لذلك كانت السوق الحلبية تخضع لهذه العوامل فهي تخبو وتذبل في أوقات الحروب والفن وتنهض وتردهر في حالات السلم والاستقرار، وهذه حالات تكررت في تاريخ المدينة، وخصوصاً في أيام الصراع بين المماليك والعثمانيين الأتراك ثم عادت إلى حالة الاستقرار بعد سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الشام.

تعتبر سوق مدينة حلب سوقاً دائمة محلية ودولية، وأخذت صنعة التخصيص منذ وقت مبكر في العصور الوسطى، فهذا سوق البزازين، وذلك سوق العطارين، وسوق الفرائين، وسوق الحريريين، وسوق العنبريين ... الخ^(٢).

جاء في وصف ابن جبير لحلب ولأسواقها قوله: بلد واسع الأسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها سقف بالخشب، فكأنها في ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً^(٣).

ويصف ابن جبير قيسارية حلب وصفاً ينم عن التعجب بجمالها وسعتها وطواها بالجامع البديع، ويذكر بأن أكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة^(٤).

وللأهمية الفائقة للسوق في نظم التجارة كآخر مكان تصل إليه البضائع والسلع الشرقية

(١) محمود حرثاوي، مرجع سابق، ص ٩. الباحث لا يوافق على المصطلح السامي وما يعنيه عند المستشرقين، وساقه هنا للتدليل على دور حلب في عملية التفاعل الحضاري.

(٢) فهمي، طرق التجارة الدولية، ص ٢٨٢.

(٣) رحلة ابن جبير، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص ٢٠٣. سيشار إليه: رحلة ابن جبير.

(٤) المرجع السابق نفسه.

المصدرة للغرب وبالعكس، كان لا بد من نظام ضبط وربط دقيقين للأسواق منعاً للتلاعب في الموازين أو الأسعار أو جباية الرسوم أو غش السلع، وقد أوكل هذا العمل للمحتسب وعماله، ويسير نظام الحسبة والقائمين عليه في الأسواق وفق قوانين عامة وثابتة وقوانين متطورة حسب ما يستجد، والمحتسب وأعوانه يشرفون على عمليات السوق ويفضّون النزاعات، ويضربون على أيدي المتلاعبين بقوانين السوق^(١).

ولما زادت الوكالات الأجنبية في حلب، وحصل التنافس بين الدول على أملاك الدولة العثمانية، وحرصت كل وكالة على الحصول على امتيازات تجارية، وأخذت المعاهدات تعقد بين حكام حلب، أو الدولة العثمانية، وبين الدول الأوروبية، توضيحاً للعلاقات التجارية وتثبيتاً قانونياً لامتيازات هذه الدولة أو تلك، وبناء عليه أخذ دور القناصل الأجانب يتعاظم في كل مدن الدولة، في العهدين المملوكي والعثماني، وأصبح دورهم الاستعماري مألوف ومعروف، وكان قناصل جنوة والبندقية وفلورنسا أكثر القناصل نفوذاً في العهد المملوكي.

وقد اقتضى تطور الأعمال المالية والمصرفية في العصور الوسطى وما بعدها، تأكيد أهمية وجود المصارف التي سرعان ما أصبحت بنوكاً ضخمة لها فروع في كل المراكز ذات النشاط التجاري، وقد أسهمت جنوة والبندقية في هذا المجال منذ القرن الثاني عشر الميلادي^(٢). وكان أن تقدمت أساليب العمل التجاري نتيجة لهذا التفاعل بين تجار الشرق والغرب، وترتب على ذلك التقدم في طرق المحاسبة والضرائب وعمل الموازنات، ونظم الصرف والمعاملات التجارية، ونظام العملات وسبل مراقبتها وحمايتها من التزييف، وقد وقعت عدة اتفاقيات منذ سلاطين المماليك، وسلاطين الدولة العثمانية وحتى قيام الحرب العالمية الأولى وإنهيار الدولة العثمانية، ووقوع بلدان العالم العربي تحت النفوذ الأوروبي، وكانت هذه الاتفاقيات عبارة عن ذرائع لتدخل الدول الغربية في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، واستغلال ثرواتها.

وقد أورد الدكتور نعيم زكي فهمي، في كتابه طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين

(١) فهمي، المرجع السابق، ص ٢٨٣.

(٢) فهمي، المرجع السابق، ص ٣٤٠.

الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) مجموعة من الوثائق الهامة، تمثل اتفاقيات وملاحق لها، ما بين المدن التجارية الأوروبية كالبندقية، وجنوه، وفلورنسا وغيرها، وهذه الاتفاقيات وملاحقها تعطينا معلومات وافية عن السياسات الاقتصادية الأوروبية، وعن مواقف سلاطين المماليك والعثمانيين (الأوائل) من هذه السياسات كما تبين لنا القوانين والأنظمة التي تحكم هذه العلاقات بالإضافة إلى الأساليب التجارية وأنواع السلع المتبادلة. ونظراً لأهمية هذه الوثائق واتصالها بموضوع البحث رأيت إيراد الملحق رقم (٩ ج) وهو اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب^(١).

(١) انظر الصفحات ٤٢٦-٤٢٩.

ملحق رقم (٩ ج)

اتفاقية خاصة بالتجار البنادقة المقيمين في حلب

١. القاضي كاتب السر في حلب الزمنا في الرسوم الأولى المطلوبة منا بما قيمته ٢,٥٠٠ دوكات وأجبرنا على دفعها بالقوة ... ولكن لا نقبل بعد الآن أن ندفع أموالاً من هذا النوع وبهذه الطريقة.
٢. يجب أن يقف دائنونا أمام القاضي أو الحاكم بلا استثناء لأي فرد مهما كان مركزه.
٣. يحق لنا توزيع سكر قبرص في سوريا دون اعتراض مع مراعاة القوانين المحلية.
٤. ترد للسيد زينو القنصل (زانون Zanon) والذي كان قد اتهم في حادث التجسس لصالح الشاه إسماعيل أصفوي، الـ ٣٠ بالة قطن التي أخذت منه لضمانة أحد الفرنجة الذي مات، ولا يدفع على هذا القطن أي رسوم لأنه من العدل ألا يدان فرد بسبب خطأ غيره، وفي بلادنا لا يسأل الأب عن خطأ ابنه ولا يؤخذ الابن بجريمة الأب.
٥. تبقى لنا حسب المعتاد حرية وأمان كاملين داخل فندقنا طالما أننا لا نقلق ولا نثير غيرنا.
٦. قد يحدث أحياناً أن يفلس بعض المدينين لنا ويعلن الإفلاس أمام القاضي الوطني فيلزم من الآن أن يتم ذلك بحضور صاحب المال ألبندقي وإلا فإن هذا الإعلان يصير لا قيمة له بالنسبة لنا، ويصبح مالنا لا يزال في عنق المدين.
٧. منذ عامين فقد أحد تجارنا مبلغ ٢,٠٠٠ دوكات وبما أن الحكام ملزمون بحماية وسلامة الأقطار التي يحكمونها ومسؤولون عن الأمن فيها فإننا نطالب برد هذا المبلغ من الحاكم المتصرف في مقاطعتنا وإلا فجميع السكان في المنطقة مسؤولون عن سداد هذا الدين.
٨. الدار صيني-القرفة-لا نشتره إلا مغربلاً-أما غير المغربل فلا ندفع عنه إلا ٥٠ أشرفياً لكل عبوة في كميات احتكار السلطان، أما الباقي من السوق الحر فالبائع مسؤول عن غربلته أولاً.
٩. نصف عوائد الدلالة أو السمسة للسمسار والنصف الآخر لترجمان السلطان.
١٠. لا يسمح للأجانب من العرب أو المغاربة أو الفرنج المسموح لهم بإقامة دائمة في البلاد أن يحوزوا محلات لبيع الجوخ.

١١. لا يمكننا أن نزيد من عوائد الخنزير أكثر من ٤ دراهم للفرد الواحد.
١٢. لا يحق لأي فرد وطني أو يهودي أن يقوم ببيع التوابل إلا إذا كان مصرحاً له بذلك من قبل.
١٣. إذا أدين أحد الفرنجة لأمر من الأمور فلا القنصل ولا باقي البنادقة مسؤول عن أخطائه أو عقابه.
١٤. إذا أدين أحد الفرنجة لأمر بالقضاء المحلي هو المسؤول عن محاكمته.
١٥. يصرح للبنادقة بإقامة الصلاة في منزل القنصل على أساس أنها عادتهم من قبل.
١٦. لا تجبر سفننا على حمل السلع لتجار آخرين أو أقطار أخرى كما يسمح لنا بالسفر وقتما نشاء.
١٧. إذا حدث أن غرقت إحدى السفن للبنادقة أو السفن التابعة لإحدى الدول التي تعتمد في تجارتها على البندقية فيصير إنقاذها وإنقاذ حمولتها وردها لأصحابها. (منذ وقت طويل وغنائم الغرق ملك للأمر التي تحدث الحادثة في حدوده).
١٨. لا يؤخذ الوالد بجزيرة الابن ولا الابن بجزيرة الوالد إلا إذا كانت هناك صلة بين جريمتهم.
١٩. يحق لتجارنا أن يبيعوا السكر كسابق عهدهم.

المياه والزروع في رقعة الأردن الحالي عند الجغرافيين والرحالة العرب

يشكل الأردن الحالي الجزء الشرقي من جنوب بلاد الشام، ويمكن تقسيم هذه الرقعة إلى ثلاثة أقسام طبوغرافية طولية تمتد متوازية من الشمال إلى الجنوب. ففي الغرب يمتد إقليم الغور من بحيرة الحولة شمالا وحتى البحر الميت جنوبا، ومن ثم يتابع هذا المنخفض أمتداده باسم وادي عربة حتى البحر الأحمر.

ويطل على الغور من الشرق سلسلة جبال متصلة، هي امتداد لسلسلة جبال بلاد الشام الشرقية، وتسمى هذه الجبال في الشمال "جبال عجلون" وفي الوسط "جبال البلقاء" و"جبال موأب" وفي الجنوب "جبال الشراه" وتشكل هذه المرتفعات الإقليم الثاني من الأردن "موضوع الدراسة".

أما الإقليم الثالث فهو بادية الشام والبادي المتصلة بها، والممتدة إلى الجنوب والشرق من المرتفعات الوسطى.

وهذا التقسيم يطابق إلى حد ما تقسيم المقدسي (ت بعد ٣٧٨/٩٨٨م) لفلسطين حيث جعلها أربعة صفوف طبوغرافية طولية أولها: الساحل، ثم الجبل "الشجر". والثالث الأغوار، والصف الرابع هو "سيف البادية"^(١). ومن المعروف أن فلسطين الإسلامية كانت تعني زمن المقدسي النصف الجنوبي لفلسطين والأردن الحاليين تقريبا.

علل الاصطخري (نبغ سنة ٩٥١م) سبب تسمية الغور بهذا الاسم لكونه غائر ما بين جبلين في الأرض، وذكر أن فيه عيونا وأنهارا ونخيلا، ولا تستقر به الثلوج، وبعض الغور من حد الأردن إلى أن تجاوز "بيسان". فإذا جاوزته كان حد فلسطين، وأضاف: أن هذا البطن إذا أمتد فيه السائر أداه إلى "أيله" العقبة^(٢).

(١) المقدسي المعروف بالبشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، بعناية دي خويه، بريل ١٩٠٦م، ص ١٨٦.

(٢) الأصطخري، أبي اسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي، كتاب المسالك والممالك وهو معول على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غربال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار القلم، مصر ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ص ٤٥.

أما ابن حوقل (كتب عام ٩٧٧م) فذكر أن في الغور فاكهة وأب، ونخيل وعيون وأنهاراً، ويضيف قائلاً: "وكان الغور من بين البلاد لحسنه، وتدد نخيله وطيبه ناحية من نواحي العراق الحسنة الجليلة"^(١).

وذكر ياقوت (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) وغيره أن أكثر ما يزرع في الغور قصب السكر^(٢). وإذا ذكر الغور ذكر معه البحر الميت وزغر "صغر". وسمي البحر الميت، لأنه لا شيء فيه من الحيوان، كما سمي ببحيرة لوط. وديار قوم لوط: هي الأرض الملعونة، وليس بها ضرع ولا زرع ولا نبات^(٣). ويسمى البحر الميت أيضاً البحيرة المنتنة بسبب الروائح الكبريتية المنبعثة منه. يقذف البحر الميت مادة تعرف "بالخُمريّة" يلقيح بها أهل "زعر" والمناطق المجاورة كرومهم كما يلقيح النخل بالطلع الذكر، وكما يلقيح أهل المغرب تينهم بذكارهم^(٤).

وأول وصف لدينا عن زغر "صغر" هو الذي خلفه لنا الاصطخري وابن حوقل في النصف الثاني من القرن العاشر وقد جاء فيه: "أن زغر مدينة حارة قرب الصحراء، ولكنها مليئة بالأشياء الجيدة، إذ تكثر فيها النيلة التي تستعمل في الصباغة، ولكنها لا تعادل في جودتها تلك التي تنتجها كابل. وزغر شهيرة بتجارها وأسواقها العامرة، وفيها نوع من التمر الجيد يدعى الانقلا، وهو نوع لا يشبه له حتى في العراق وغيرها من البلدان، وذلك لحلاوة طعمه، وجمال منظره، ويشبه لونه لون الزعفران، وهو من النوع اللذيذ الفاخر، ويبلغ طول أربع حبات منه شبراً، ويبلغ وزنها رطلاً إنجليزيّاً"^(٥).

أما المقدسي (ت ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م) الذي جاء بعد الاصطخري وابن حوقل، فقد ذم زغر وقال إن ماءها كرية وليس في الإسلام مدينة تشبهها في سوء مناخها، ولكنه أثني على

(١) ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص ١٦٠.

(٢) ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ج ٤، ص ٢١٧.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض ص ١٦٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) ابن حوقل، المرجع السابق، ص ١٦٩. الاصطخري، المرجع السابق، ص ٤٧. وانظر لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمالي، ط ١ / ١٩٧٠، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الثقافة والفنون، عمان / ١٩٧٠، ص ٢٤١.

ازدهارها التجاري، وأطلق عليها "صغر البصرة الصغرى والمتجر المربع"^(١).

وأورد البكري (ت بعد ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) "عين زغر" في معجمه مستشهدا ببيت الشعر التالي:

سقا الله رب الناس سحا وديمة جنوب الشراة من مآب إلى زغر^(٢)

ومن المواقع التي اشتهرت في الغور بزراعة قصب السكر قرية قراوي^(٣)، وكان في قرية قصير معين، قرب بلدة الشونة الشمالية في الغور، معاصر لقصب السكر^(٤). وذكر ياقوت إن أكثر مستغلات أهل الغور السكر الذي يحمل إلى سائر بلاد الشرق^(٥).

إن تركيز صناعة السكر في الغور يدل على إن زراعة القصب السكر كانت واسعة في غور الأردن في المنطقة الممتدة من نهر اليرموك شمالا حتى غور الصافي غرب الكرك جنوبا. فقد وجدت على امتداد هذه المنطقة آثار واضحة لمعاصر السكر الكثيرة، وتدل أسماء التلال والأودية التي تحمل أسماء مثل: تل السكر أو وادي السكر وحتى يومنا هذا على غنى هذه المنطقة بزراعة قصب السكر وتصنيعه^(٦). وقد كشفت المسوحات الأثرية عن العديد من معاصر السكر، ويعتقد أن تاريخ هذه المعاصر يعود إلى الفترة ما بين القرنين الثاني عشر وحتى الرابع عشر للميلاد، وقليل منها تعود إلى فترة متأخرة من هذا التاريخ، وجدير بالذكر أن واحدة من هذه المعاصر بقيت تستعمل حتى سنة ١٩٦٧، حيث تم تحويلها من معصرة للسكر إلى مطحنة للقمح^(٧).

وفي منطقة الغور الحارة شاع استعمال القمح من النوع النعيمية البرقاء والسوداء

(١) أحسن التقاسيم، ص ١٧٨.

(٢) البكري، أبي عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، تحقيق مصطفى السقا، ط ٣، عالم الكتب - بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، جلدان ١/ ٦٩٩.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٣١٩.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٤/ ٣٦٧ (القصير) وانظر لي سترانج، فلسطين ص ٤٤٢.

(٥) معجم البلدان، ١/ ١٤٧، والأردن.

(٦) صالح الحمارة، زراعة قصب السكر وصناعاته عند العرب والمسلمين، حولية دائرة الآثار الأردنية، عدد ٢٢، (١٩٧٧-١٩٧٨)، ص ١٢-١٩، ص ١٥.

(٧) المرجع السابق.

والنورسي، فالأول (النعيمية) ذو حجم كبير وشكل طويل ولون البرقاء أحمر فاتح، والسوداء أحمر قاتم، النوري طويل وأسود^(١).

وتنبت في الغور أشجار حرجية ونباتات برية لا حصر لها، وتدل الظواهر النباتية على أن الغور كان مليئاً بأشجار السدر^(٢).

يشق نهر الأردن الغور من شماله إلى جنوبه، وينبع من قمم جبل الشيخ الثلجية البيضاء، وينحدر من سفوحه بغزاره لتشكل مجموعة من الينابيع التي تتجمع بدورها لتكون نهر الأردن. وقد قيل الكثير عن أصل تسمية نهر الأردن وتاريخه^(٣).

وصف مؤرخوا اليونان والرومان وجغرافيوهم نهر الأردن وتعرضوا لجغرافيته، ومنهم تاسيتوس الذي قال: "لا يصب نهر الأردن في بحر وإنما يعبر البحيرة الأولى والثانية فتحبس مياهه في الثالثة"^(٤).

وصف الجغرافي اليوناني سترابون (٥٨-٢٥ ق م)، كيف ينساب هذا النهر في أعماق انحدار في المنطقة التي تتواجد فيها البحيرات السابقة، وذكر المستنقعات وشجر القصب حول مجرى النهر.

ولم ينس الذي رسم خارطة مآدبا - التي يعود تاريخها إلى القرن السادس الميلادي - نهر الأردن فذكره في خارطته، ورسم معديتين لاجتياز هذا النهر، أحدهما عند مصب نهر الزرقاء، والثانية في المكان الذي يقوم عنده جسر الملك حسين الآن. وفي هذا إشارة لأهمية نهر الزرقاء وقوة مائه في القرن السادس الميلادي^(٥).

(١) أحمد وصفي زكريا، كتاب زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام وأمثالها، ٢ ج، دار الطباعة العربية دمشق، ج ١، ص ٦٦.

(٢) الشهابي، الأشجار والأشجار المثمرة، المطبعة الحديثة، دمشق ١٩٢٤، ص ٤٢٥. وانظر فالح حسين، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، عمان، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م، ص ١١٦.

(٣) أ. لويس مخلوف، الأردن تاريخ وحضارة آثار، ط ١، المطبعة الاقتصادية، عمان ١٩٨٣، ص ٩٧.

(٤) ن. م، ص ٩٨، ويقصد بالبحيرة الأولى، بحيرة «الحولة» التي جففها الإسرائيليون، والثانية بحيرة طبرية، والثالثة البحيرة الميتة، أو المنتنة، أو لوط.

(٥) مخلوف، المرجع السابق، ص ٩٨.

وقد أشار معظم الجغرافيين العرب لمجرى نهر الأردن ووصفوه، كما وصفوا منابعه والبحيرات التي يمر فيها مع إشارة إلى المياه والمناخ^(١). ذكر ابن فضل الله العمري أن النهر لا يتسمى بالأردن إلا حيث خرج من بحيرة طبرية، ويسمى الآن الشريعة (مكان الشرب)، وقال بأن أصل هذا النهر من مرج عيون والهرماس وكلاهما تحت الشقيف وتل القاضي والملاحه، وهي عين بعيدة العمق جدًا، ونهر بانياس وتسمى هذه الأمواه كلها الشريعة الشمالية، وعمر تحت جسر يعقوب، وتجتمع في بحيرة طبرية، ثم تمتد فتتلاقى هي والشريعة بقرية تعرف بالبقارية "الباقورة الآن". ويأتیان إلى جسر الصغيرة إلى الجسر العادلي، وهي تحت عقبة فيق قرب الدير الأسود، ثم تأتي الأمواه إلى جسر شامه المقارب لقرية المجامع، وعمر فيالقيها نهر الزرقاء دون دامية، وتمتد لتصب في البحيرة المنتنة^(٢) أو بحيرة لوط، أو البحر المقلوب، نظرًا لأن مدن قوم لوط قلبت في أعماقه، كما عرف هذا البحر، ببحر زغر نسبة إلى المدينة الشهيرة الواقعة على شواطئه، والاسم "البحر الميت"، لم يرد قط في الكتاب المقدس، وورد هذا الاسم للمرة الأولى على لسان جوستين Justine وبوسانياس Pausanias^(٣). يقول اليعقوبي: يقع البحر الميت (البحيرة الميتة) في قضاء بيت جبرين ومنها يؤخذ الاسفلت (الحمّر) والذي يدعى أيضًا المومية. كما يقول اليعقوبي^(٤)، كانت بعض السفن الصغيرة تسير فوق مياه البحر الميت وتقوم برحلات فيها، ناقلة القمح وأنواع التمور من زغر والدارا إلى أريحا وغيرها من مناطق الغور، أما مساحة البحر الميت فهي ستون ميلا طولاً واثنا عشر عرضاً^(٥).

ويرفد نهر الأردن من الشرق مجموعة روافد من الأنهار والأودية والينابيع، وسنفصل

(١) انظر على سبيل المثال: ابن الفقيه الهمداني (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، مختصر كتاب البلدان بعناية دي غويه بريل، ٣٠٢هـ، ص ١٢٣. المقدسي أحسن التقاسيم، ص ١٨٤، الدمشقي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي شيخ الرتبة، كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بعناية A. Mehren. ليزغ عام ١٩٢٣، ص ١٠٧.

(٢) مخلوف، المرجع السابق، ص ١٠٠.

(٣) ي سترانج، فلسطين، ص ٧٨.

(٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب (٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، كتاب البلدان، ضمن كتاب الإعلاق النفسية، تصنيف أبي علي أحمد بن عمر بن رسته (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م). بريل ١٨٩١، ص ٣٢٩.

(٥) الادريسي، نزهة المشتاق ٣٦٤/٤. الديومنيكي، بلدانية فلسطين/ ص ١٩، لي سترانج، فلسطين، ص ٨٠.

الحديث عن أهم هذه الروافد وغيرها من مصادر المياه، ونحن نستعرض المناطق الطبوغرافية الأردنية الواحدة بعد الأخرى. وأهم رافد لنهر الأردن هو نهر اليرموك الذي يشكل الحد الشمالي للأردن مع سورية. ظهر هذا النهر لأول مرة في التاريخ في مؤلفات المؤرخ الروماني "بليونيوس" Plinius باسم هيرومشيش Hieromices وهي لفظة يونانية تعني الهوة المقدسة، وأطلق عليه العرب اسم "نهر اليرموك"، وأشتهر هذا النهر بالمعركة التي فيها هزم العرب البيزنطيين، في ٢٠ من آب سنة ٦٣٦م^(١). وينبع النهر من الأراضي السورية - شمال الأردن - الواقعة في محافظتي درعا والقنيطرة من مجموعة ينابيع تتحد كلها عند بلدة المزيريب السورية ثم تواصل سيرها في مجرى واحد جنوباً حتى تلتقي بمنخفض اليرموك فتحول سيرها غرباً في مجرى عميق ووعر إلى أن تلتقي مع نهر الأردن قرب بلدة الباقورة.

ورغم صعوبة مسالك اليرموك، يعتبر طريقاً يربط ما بين منطقة حوران وطبرية التي كانت عاصمة لجند الأردن في صدر الإسلام. وتنتشر حول بحيرة طبرية القرى الجميلة، وأشجار النخيل، كما توجد في هذه المنطقة حمامات ساخنة، وهي غير حمامات طبرية المشهورة، وأعني الحمامات الأردنية حالياً، وهما في الحقيقة حمتان قامت عليهما قريتان هما (المخبية الفوقا) بجانب الحمة الفوقا، والمخبية التحتا، بجانب الحمة التحتا أو (السورية)، (وقد وقعت الأخيرة تحت الاحتلال الإسرائيلي) ويؤم الحمة كثير من الناس الذين يعانون من الأمراض الجلدية وأمراض المفاصل، وقد دأبوا عبر الزمان على الاستحمام بالمياه الساخنة، وكانوا يعتقدون أنهم إذا ما مكثوا بضعة أيام يتناوبون النزول في المياه الساخنة ثم يذهبون إلى نبع بارد قريب يختمون به استحمامهم، يشفون بإذن الله^(٢). ونقل لنا لي سترايخ رواية غريبة حول هذه الحمامات فقال: "ولكن من العجيب حقاً في العالم هو الحمام الواقع في أحد الأماكن التابعة لطبرية، والذي يقع في الجهة الشرقية منها، في قرية تدعى الحسينية في وادي اليرموك يوجد في هذا المكان مياه قديمة، وكان أحد هذه المباني هيكلًا في الأصل، وينبثق الماء من مقدمة البناء من اثنتي عشرة فتحة، ويقال إن مياه كل فتحة تشفي نوعاً معيناً من الأمراض"^(٣).

(١) مخلوف، الأردن، ص ١٠١.

(٢) انظر المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٥، الادريسي، نزهة المشتاق ٣٦٤/٤، لي سترايخ، فلسطين، ص ٢٧٥.

(٣) فلسطين، ٢٧٨.

ذكر ناصر خسرو (زار طبرية سنة ٣٣٨هـ/١٠٣٧م) أن حصر الصلاة تصنع في طبرية من عيدان القصب وهي تباع في المكان نفسه بسعر القطعة "الحصيرة" خمسة دنانير مغربية "أكثر من جنيهين"^(١)، وذكر الإدريسي صناعة هذه الحصر المسماة "السامانية"، وهي غربية الصنع وقال: "أن ما يصنع منها خارج المدينة قليل جداً"^(٢).

وفي شمال الأردن مجموعة روافد لنهر الأردن بعد اليرموك، مثل وادي العرب ووادي الطيبة ووادي زقلاب الذي أقيم عليه حديثاً سد عرف باسم "سد زقلاب"، وتزرع على طول هذا الوادي الأشجار المثمرة ولا سيما الرمان. وبعد زقلاب جنوباً يذكر وادي اليابس (الريان حالياً)، ثم بعده وادي كفرنج، ثم وادي راجب. وبعد هذه الأودية الفقيرة التي تسيل في فصل الشتاء يأتي نهر الزرقاء.

ذكر ياقوت الزرقاء وقال بأنها موضع بالشام بناحية معان، وهو نهر عظيم في شعاري ودحال كثيرة، وهو أرض شبيب التبعي الحميري وفيه سبع كثيرة مذكورة بالضراوة، وهو نهر يصب في الغور^(٣). وتشير المصادر إلى أن هذا النهر كان في الماضي غزير المياه تكثر حوله النباتات الملتفة وشجر القصب. ويشكل هذا الوادي الآن الحد الفاصل بين جبال عجلون في الشمال وجبال البلقاء جنوباً، وتسمى مدينة الزرقاء الواقعة على بعد نحو ٢٥ كم شمال شرق عمان باسمه.

لم يعد لوادي الزرقاء غزارته السابقة ولا أدغاله وحيواناته التي ذكرها الجغرافيون العرب، فقد استغل ماء هذا النهر في أعمال الزراعة والصناعة حتى أصبح شأنه شأن غيره من الأودية التي تسيل فقط في فصل الشتاء. وبعد وادي الزرقاء جنوباً تأتي مجموعة أودية تصب في نهر الأردن أهمها: (وادي شعيب، والكفرين، وحسان). أما وادي شعيب فيبدأ من سفوح مدينة السلط، وينحدر غرباً، وتكثر الأشجار المثمرة المختلفة حول مجراه، كما تكثر النباتات البرية.

(١) سفر نامته، رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين، ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري نقلها إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، ط ٣، بيروت ١٩٨٣، ص ٥٣. وانظر لي سترانج، فلسطين، ص ٢٧٦.

(٢) الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (١١٠٠-١١٦٦م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، النسخة الإيطالية، نابولي-روما. عام ١٩٧٤، ج ٤، ص ٣٦٣، لي سترانج، ص ٢٧٧.

(٣) معجم البلدان، ١٣٧/٣.

وكان هذا الوادي في العهد الإسلامي موردا هاما لسكان المنطقة يعتمدون عليه في شربهم وشرب حيواناتهم، كما كانوا يعتمدون عليه في زراعتهم. أما وادي الكفرين فقد أقيم عليه سد حديثا لتغذية مشروع الري الكبير المسمى "قناة الغور الشرقية" في فصل الصيف.

وإلى الجنوب من وادي الكفرين ينساب وادي حسان، الذي يرتبط اسمه باسم "حسان" البلدة التاريخية التي أقيمت على تلة ترتفع نحو ٨٨٣ متراً عن سطح البحر حيث تواجد الإنسان منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، تاركا وراءه ذكريات حضارية خالدة. ومن هذا الارتفاع تنساب مياه وادي حسان العذبة نحو الغرب لتثمر من الرامة وتواصل سيرها إلى نهر الأردن مشكلة الحد الفاصل لحدود دولة مؤاب الشمالية في أحيان كثيرة^(١).

لقد وصف أبو الفداء حسان قائلا: "بحسان أودية وأشجار وارية وبساتين وزروع، ويتصل هذا الوادي بغور زغر"^(٢). وهناك مجموعة أودية تصب في البحر الميت مثل وادي الزارة، والهيذان "الواله" والموجب والكرك، وبعدها يأتي وادي الحسا الهام الذي يصب جنوب البحر الميت.

وذكر إقليم في الغور يسمى "الخيط" يقع في الأردن الأعلى، وهو يشبه العراق في زراعة الأرز، وبطيوره وينابيعه الحارة وجودة محاصيله^(٣). وذكر ياقوت عمّتا وقال: "إنها بلدة في وسط الغور فيها قبر أبي عبيدة وهي تشتهر بصنع النبال"^(٤).

وإذا ما انتقلنا إلى المنطقة الطبوغرافية الثانية في الأردن، فنأتي إلى المرتفعات الجبلية وما يتخللها من أحواض وسهوب وسهول.

أما سهولها فتتصل بسهول حوران في الشمال وتشكل جزءا منها. وكانت حوران والبثينة من الكور العظيمة التي كانت تتبع جند دمشق^(٥). وفي شمال الأردن قام الرومان

(١) فان زابل A.H. Vanzil المؤيرون، تعريب وأعداد د. خير ياسين، عمان ١٩٩٠م، ص ٩٩.

(٢) لويس مخلوف، الأردن ١٠٢-١٠٣، في سترانج، فلسطين، ص ٦٠. أبو الفداء (٧٣٢هـ/١٣٣١م) عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بابي الفداء صاحب حماه، تقويم البلدان، اعتنى به وصححه: رينود، والبارون ماك كوكين وسلان، دار الطباعة السلطانية، باريس ١٨٥٠، ص ٢٢٧.

(٣) في سترانج، فلسطين، ص ٣٧٧.

(٤) معجم البلدان / ٤ / ١٥٣ / «عمتا».

(٥) بن حوقل، صورة الأرض، ص ١٧٠.

يعمل هندسي عبكري بإنشاء قناة توصل المياه إلى مدينة إربد من تل الرميث الواقع على مسافة كيلو مترين جنوب مدينة الرمثا^(١).

ويمكن تقسيم المرتفعات الأردنية من الشمال إلى الجنوب إلى: جبال عجلون، جبال البلقاء، جبال مؤاب، وجبال الشراة. وتشكل جبال عجلون المرتفعات ما بين الحدود السورية شمالاً ونهر الزرقاء، جنوباً، وهي استمرار لجبل الشيخ حيث منابع نهر الأردن، وسمي الجزء المقام عليه قلعة الربض (جبل عوف). ويقول أبو الفداء عن هذه الجبال: "وجميع أراضي المنطقة خصبة جداً، ومغطاة بالأشجار، وتروى جيداً بمياه الأنهار"^(٢). وكرر الدمشقي وصف عجلون بالمياه الجارية والفواكه المتنوعة والحاجيات الرخيصة الكثيرة، أما قلعتها فتقع على مكان مرتفع يمكن رؤيته عن بعد أربعة أيام^(٣).

وفي عام ١٣٥٥م زار عجلون ابن بطوطة (٧٦٧هـ/١٣٧٧م) وذكر أنها بلدة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر صغير مأؤه عذب^(٤).

وتقع في جبال عجلون مجموعة كبيرة جداً من المدن والقرى العامرة، كما تغطي الجبال أشجار كثيفة هي حتى الآن أكثف الغابات الحرجية في الأردن، وتتخلل هذه الجبال مجموعة كثيرة من العيون والينابيع^(٥). ومن مدن منطقة عجلون المهمة ذات التاريخ العريق نذكر من الشمال إلى الجنوب مدينة "أم قيس" جداراً، بيت رأس وإربد وفحل، وهذه كانت من اتحاد المدن اليونانية العشرة "الديكابولس". وذكر ياقوت عن بيت رأس، أن هذا الاسم لقريتين، في كل واحدة منهما كروم كثيرة ينسب إليها الخمر^(٦). وفي ثنايا جبال عجلون تتناثر مئات القرى العامرة أيضاً معظمها يعود تاريخه إلى بداية استقرار الإنسان في هذا البلد، نذكر منها على سبيل المثال قرية "ريسون" (رأسون حالياً) التي كان يقيم فيها محمد بن مروان الأموي، ولما ولاه أخوه هشام مصر اشترط محمد على أخيه أنه متى ما كرهها عاد

(١) أ.ل. مخلوف - الأردن، ص ١١.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤٥، لي سترانج، فلسطين، ص ٨٩، الدومنيكي، بلدانية فلسطين، ص ١٥٤.

(٣) نخبة الدهر، ص ٢٠٠.

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر خارطة المملكة الأردنية الهاشمية، المركز الجغرافي الأردني ١٩٧٩، أربعة لوحات بمقياس ١: ٢٥٠,٠٠٠.

(٦) معجم البلدان، ١/ ٥٢٠ (بيت رأس).

إلى مكانه، فلما ولي شهرين جاءه ما كره، فترك مصر وقدم إلى ريسون (راسون) ضيعته وكتب إلى أخيه: "ابعث إلى عملك واليا" فكتب إليه أخوه هشام:

أتترك لي مصرًا لريسون حسرة؟ ستعلم يوما أي بيعيك أربح

فقال محمد: انني لا أشك أن أربح البيعين ما صنعت^(١). وكانت محافظات الشمال في العهد العثماني جزءًا من لواء عجلون، وهي على العموم مناطق زراعية مجزية تزرع فيها الأشجار والحبوب، فقد ذكر المقدسي أن الشعير ينمو في هذه الجبال وأن السكان يخلطونه بثمر البلوط ويعملون منه الخبز^(٢). ومن الجدير بالذكر أن معظم الأشجار الحرجية هي من نوع شجر البلوط (السنديان).

ومن بين المواقع الأثرية في شمال الأردن موقع أم الجمال الموغلة في البادية الشمالية. ولا تزال خرائبها قائمة تشهد على الدور التاريخي الذي لعبته عبر التاريخ، فبالإضافة إلى أنها مركز هام على الطريق الروماني الشهير Via Nova Trijana والذي يربط بين بصرى في الشمال والبحر الأحمر في الجنوب، فقد كانت معسكرًا رومانيًا تتولى حماية المناطق المأهولة في الغرب من الغارات البدوية. لا توجد في أم الجمال عيون وينابيع ولكن استعيض عن هذه بعمل السدود والمستودعات والصهاريج الأرضية لحفظ مياه الأمطار وتخزينها لوقت الحاجة.

وجرش إحدى المدن التاريخية الهامة التي تقع على الأطراف الجنوبية لجبال عجلون، وهي مدينة عريقة في التاريخ، ولا تزال آثارها العظيمة تشهد على ازدهارها في الفترة الرومانية، ومن جملة آثارها الباقية الشبكة المائية التي كانت تمد المدينة بحاجتها من الماء. كانت المياه تصل بركتيها الرئيسيتين بواسطة قناة من (عين قيروان) الواقعة في شمال المدينة على بعد كيلو متر ونيف من البوابة الشمالية للمدينة، ومن البركة الجنوبية كانت المياه تتدفق متجهة إلى المدينة الأثرية الغربية. وتمتاز مياه عين القيروان بغزراتها وعذوبتها^(٣).

(١) المرجع السابق ١١٢/٣.

(٢) أحسن التقاسيم، ص ١٨٩، لي سترانج، فلسطين، ص ٨٩.

(٣) انظر مخلوف، الأردن، ص ٢٧-٣٥.

وتقع جبال البلقاء جنوب جبال عجلون دون انقطاع اللهم أن سيل الزرقاء يكون وادياً مميزاً بين الكتلتين، وهذه الجبال مكسوة أيضاً بالأشجار الحرجية وسهولها تزرع من غير سقي، وليس فيها أنهار، وإنما تتخللها بعض السيول وتتناثر هنا وهناك العيون والينابيع. وفي هذه الجبال مدينة عمان ذات التاريخ الطويل، وهي عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية حالياً، كما كانت عاصمة البلقاء سابقاً، وسميت ربة عمون في الفترة العمونية، كما سميت فيلادلفيا في الفترة الرومانية. كتب عنها المقدسي عام ٩٨٥م ما يلي^(١) : «تقع عمان على سيف البادية، وتكثر حولها القرى وحقول القمح وتشتهر منطقة البلقاء بالحبوب وقطعان الماشية، وجداول المياه التي تدير طواحينها، وهي رخيصة الأسعار. وفاكهتها كثيرة، وجميع سكانها من الأمويين، وعلى الرغم من وعورة طرقها فهي تشبه ميناء في الصحراء، أو منتجعا يلجأ إليه بدو الصحراء». وأضاف أبو الفداء إلى وصفها السابق قوله: «يكثر حولها شجر البطم وأنواع الأشجار الأخرى، وتحيط بها الحقول من جميع الجهات وترتبتها خصيبة جداً»^(٢).

كانت المياه تتدفق من رأس العين (وهو المكان الذي لا يزال يحتفظ باسمه) ويتجه إلى شمال شرق المدينة. وفي الموقع الذي كانت تصل إليه المياه إلى ما وراء سوق الخضار القديم في وسط منطقة السيل، بنى الرومان الحمامات الفخمة التي لا تزال آثارها شاهدة على فخامتها^(٣).

ومدى (مكيال) عمان ست كيالج، وقفيزهم نصف كيلجة، وبه يبيعون الزبيب والقطين^(٤).

ومن بين المدن الكثيرة في جبال البلقاء تذكر مدينة الصلت الواقعة على بعد عشر كيلو مترات إلى الغرب من عمان.

(١) أحسن التقاسيم، ص ١٧٥، وأنظر اليعقوبي، البلدان (ملحق بالاعلاق النفيسة)، ص ٤٨، وقارن لي سترانج، ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٢) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤٧، لي سترانج، فلسطين، ص ٤٢٦.

(٣) انظر مخلوف، الأردن، ص ٨١.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨١.

وقد ذكرها أبو الفداء (٧٣٢هـ/١٣٣١م) وقال أن الصلت بليدة من جند الأردن وهي في منطقة جبلية في الغور الشرقي جنوب عجلون، وعلى مرحلة منها، وفيها قلعة حصينة، ينبع من تحتها عين غزيرة يجري ماؤها ويدخل بلدة الصلت، وللصلت بساتين كثيرة وحب الرمان المجلوب منها مشهور في البلاد، ويصدر إلى جميع المناطق^(١). وإلى الشمال الغربي من عمان تقع مدينة صويلح، وهي من المواقع المشهورة بمياهها وأشجارها، وتتصل بها من الشمال أيضا بلدة «عين الباشا» التي تجمعت مساكنها ابتداء حول ينبوع الماء^(٢).

وإلى الجنوب الغربي من عمان على نحو ثلاثين كيلو مترا تقع بلدة مادبا المشهورة، ومادبا لفظة آرامية مركبة من كلمتين هما: (ميا ودابيا). فالأولى تعنى المياه، والثانية «أيا» تعنى الفاكهة، وحرف الدال هو أداة الإضافة، فيكون معناها. مياه الفواكه، ونظرا لعدم وجود ينابيع في مادبا فقد حفر الرومان فيها بركة كبيرة، كما حفرت آبار كثيرة^(٣). وعلى بعد نحو اثني عشر كيلو مترا غرب مادبا توجد بلدة ماعين المطللة على البحر الميت، واسمها بعل ماءون، يعنى إله الينابيع أو إله المياه، وهي قرية من مجموعة المياه الحارة في بلاد العرب، وتقع عند الحجر الألفي التاسع على بعد ثلاثة عشر كيلو متر ونصف إلى الجنوب من حسبان. وتحدّر المياه المعدنية الحارة من قمة جبل بازلي وتصل سخونتها من (٥٥-٦٠) درجة مئوية مكونة حمامات ماعين الشهيرة. وعلى بعد أربعة كيلو مترات إلى الجنوب من حمامات ماعين وفي وسط سهل صغير على شاطئ البحر الميت، توجد عين زارة التي تقذف بمياهها المعدنية الساخنة إلى البحر، وقد أسماها الأقدمون كاليرو Kalliroe ورسمها الفنان المادبي على خريطة مادبا^(٤).

ومن المواقع التي توحى اسمائها بارتباطها بالمياه في منطقة البلقاء توجد بلدة القسطل، ويقول ياقوت^(٥) أن كلمة قسطل تعني بلغة سكان سورية مكان توزيع المياه وأورد قول الشاعر:

(١) تقويم البلدان، ص ٢٤٥، مخلوف، الأردن، ص ٨٦، لي سترانج، فلسطين، ص ٤٠١.

(٢) مخلوف، الأردن، ص ٩٤.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٢-١٢٦.

(٤) انظر مخلوف، الأردن، ص ١٥٢.

(٥) معجم البلدان، ٣٤٧/٤.

سقى الله بالموقر دارهم إلى قسطل البلقاء ذات المحارب
سوارقي تنحى كل أضر ليلة و صوب غمام باكرات الجنائب

لا شك أن أهم سيل أو نهر يصب في البحر الميت من جهة الشرق هو نهر الموجب، كما أن هناك عددًا من الينابيع والسيول التي تلتقي مع نهر الموجب قادمة من الجنوب الشرقي والشمال الشرقي للبلاد التي تصب فيه مكونة جميعها وادي الموجب العظيم. من المحتمل أن وادي السلطاني وهو أحد فروع وادي الموجب العظيم هو الذي ذكر في العهد القديم باسم وادي زرد (فحل زرد)^(١). ويعتقد ترسترام وآخرون غيره أن اسم وادي الموجب اشتق من اسم الأعشاب التي تنمو على طرفي الوادي^(٢). وصفه الادريسي (١١٠٠-١١٦٦م) بقوله: «ان نهر الموجب واد عظيم عميق القعر ويمر فيما بين هذين الشعين، ليس بمتباعدين وذلك يمكن أن يكون بمقدار ما يمكن أن يكلم إنسان إنسانًا وهما واقفان على ضفتي النهر، فيسمع بعضهما بعضا ينزل فيه السالك ستة أميال ويصعد ستة أميال»^(٣). والوادي الآن يكتظ بزراعة الأشجار والخضار، ولكنه ضعيف الجريان بفعل استغلال مياهه في الزراعة والري^(٤). وبعد أن نجتاز وادي الموجب السحيق جنوبًا نأتي أرض مؤاب، التي تشمل الآن محافظة الكرك. وهذه المرتفعات الجبلية هي الحلقة الوسطى في الإقليم الثاني الأردني. وجبال مؤاب شأنها شأن غيرها من حيث تسرب مياه الأمطار من على قمم الجبال عبر التربة الجيرية الهشة المخلخلة إلى الفجوات الداخلية، ثم تعود لتخرج منصبة فوق المنحدرات الغربية مكونة هذه الينابيع^(٥). تنساب هذه المياه في الشعاب الأخرى حتى تصل نهر الأردن في الشمال وإلى البحر الميت من مؤاب. ولما كانت هذه المياه تسير في هذه المنطقة الشديدة الانحدار، لذا يصعب استخدامها في الأغراض الزراعية، باستثناء وادي الواله، لأن مياهه تنحدر عبر واد واسع. أما مصادر المياه الواقعة عند سواحل البحر الميت فإنها غير صالحة للزراعة بسبب سخونها ولاحوائها

(١) فان زایل، المؤابیون، ص ٩٦، وأنظر: Musil, A.P.I, pp. 1-9.

(٢) فان زایل، المؤابیون، ص ٩٤.

(٣) الادريسي، نزهة المشتاق، ٣٥٨/٤.

(٤) لي سترانج، فلسطين، ص ٧١.

(٥) فان زایل، المؤابیون، ص ٩٤.

على كمية عالية من أملاح السلفر. لهذه الأسباب أحجم الناس عن سكنى هذه المناطق^(١). ومدينة الكرك من أشهر المواقع في مواب (مآب) قال عنها أبو الفداء: الكرك بلد مشهور، وله حصن عالي المكان، وهو أحد المعاقل بالشام التي لا ترام، وعلى بعد مرحلة منه مؤتة التي حصلت فيها الوقعة المسماة باسمها، وفيها قبر جعفر الطيار وأصحابه، وتحت الكرك واد فيه حمّام وبساتين كثيرة وفواكة مفضلة من المشمش والرمان والكمثرى وغير ذلك^(٢).

وذكر الدمشقي أن في الكرك رطبًا شبيه بالبرني والازاد بالعراق^(٣). يعتبر وادي لحسا الواقع إلى أقصى الجنوب من مواب الحد الفاصل ما بين مواب وإيدوم. وبما أن سلسلة الجبال الواقعة على هذا الوادي تنحدر تدريجيًا باتجاه وادي الحسا، لذا فإن مصادر مياه الوادي تقتصر على المياه المنحدرة من منطقة إيدوم. والمياه المنصبة من الينابيع القليلة الواقعة في الزاوية الجنوبية الغربية من وادي الطيبة، حيث تصب هذه الينابيع في وادي الجديرة (والمعروف الآن باسم سيل النمرة) الواقع عند مصبة الأسفل^(٤).

ويطلق على الجبال الواقعة جنوب الحسا اسم جبال الشراة، وهي نهاية السلسلة الجبلية في الأردن، وتستمر حتى تتصل بجبال الشراة في منطقة الحجاز. ذكر الإدريسي الشراة، وقال أن مدينتها تسمى أذرح، وأما الجبال فإن مدينتها تسمى دراب (رواث عند الجغرافيين الآخرين)، وهما بلدان في غاية الخصب وكثرة أشجار الزيتون واللوز والتين والكروم والرمان وعمامة سكانها من قيس^(٥).

ومن المدن المشهورة في المنطقة الجنوبية والتي كانت عامرة في التاريخ، مدينة «معان» التي قيل إنها حصن من الشراة^(٦) وقال الدمشقي إنها اليوم منزل الحجاج يقام بها سوق في غدوهم ورواحهم^(٧).

(١) فان زایل، المؤابون، ص ٩٤.

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٦، أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤٧، مخلوف، الأردن، ص ٢١٨.

(٣) نخبة الدهر، ص ٢١٣. وانظر (س) مرمرجي الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية، مطبعة جان دارك، بيروت-لبنان ١٩٤٨، ص ٥٤.

(٤) فان زایل، المؤابون، ص ٩٤-٩٥.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق ٣٥٧/٤، وانظر ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٦٠.

(٦) البكري، معجم ما استعجم ١٢٤١/٢.

(٧) نخبة الدهر، ص ٢١٣.

وفي الحد الجنوبي من الأردن تقع مدينة أيلة «العقبة» على طرف خليج العقبة، وهي بلدة عامرة جليلة ذات نخل وأسماك، فرضة فلسطين وخزانة الحجاز^(١).

وذكر الجغرافيون منطقة حسمى في الجنوب من الشراة، وقالوا بأنها موضع من أرض جذام، وقيل أن الماء بقي بحسمى بعد نضوب الماء في الطوفان ثمانين سنة، وحسمى بلاد جبلية بين أيلة وصحراء التيه وأراضي أذرح^(٢)، وقد دلت المسوح الأثرية التي أجريت فيها حديثاً أنها كانت غنية بالمياه والزروع^(٣). ومن جبال حسمى جبل «رم» المشهور بعلوه وجماله، ويزعم أهل البادية أن فيه كروماً وصنوبراً^(٤).

وأخصب جبال الشراة جبال الشوبك ذات العيون والجداول المناسبة بين بساتين الأشجار والفواكه المختلفة^(٥). ويمثل ذلك وصفها أبو الفداء فقال: أن في الشوبك قلعة مشهورة في أسفلها نبعان الأولى إلى يمين القلعة والثاني إلى يسارها^(٦). تجرى مياهها وسط البلدة، وتروي الحقول والبساتين الواقعة في الوادي في الجهة الغربية منها. ومن فواكه هذا الوادي المشمش وغيره، وهي ذات طعم لذيذ جداً. وهي تصدر إلى مصر^(٧).

ومن بين المواقع المهمة في هذا الإقليم مدينة الحميمة (الحمام الصغير) التي كانت قاعدة الدعوة العباسية السرية، وذكرت بخصبها وكثرة أشجار الزيتون فيها^(٨). ويذكر في هذه المنطقة حمامات «عفري» التي يقال بأن فروة بن عمرو بن النافرة الجذامي صلب من قبل الروم عندها لما أظهر إسلامه للرسول صلى الله عليه وسلم^(٩). ووادي موسى من الأودية الخصيبة قال عنه ياقوت: هو واد حسن كثير الزيتون، وللتسمية علاقة بسيدنا موسى، الذي

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٨.

(٢) البكري، معجم المستعجم ٤٤٦/٢. ياقوت، معجم البلدان ٢٥٩/٢.

(٣) انظر حولية دائرة الآثار الأردنية - عدد ٢٠ لعام ١٩٧٥، ص ٩٣، وعدد ٢٣ لعام ١٩٧٩، ص ١٢١-١٢٧، وعدد ٢٦ لعام ١٩٨٢، ص ٢٠٣، وعدد ٢٧، لعام ١٩٨٣، ص ٥٤٩-٥٥٥.

(٤) ياقوت، معجم البلدان، ٢٥٩/٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى ١٥٦/٤. مخلوف، الأردن، ص ٢٤٠، الدومنيكي بلدانية، فلسطين، ص ٦٠.

(٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٤٧.

(٧) لي سترانج، فلسطين، ص ٤٧.

(٨) الدومنيكي، بلدانية فلسطين، ص ٦٣.

(٩) المرجع السابق، ص ١٦١.

تنسب إليه مياه هذا الوادي الغزيرة (عيون موسى) التي انبجست من حجر موسى «اثنتا عشر عينا»، وتقول الرواية أن العيون الاثنتي عشرة تفرقت على اثنتي عشرة قرية^(١).

أما الإقليم الطبيعي الثالث في الأردن فهو البادية الشرقية والجنوبية. وفي البوادي المترامية الأطراف توجد مناطق قليلة ذات مياه وغدران وآبار وعيون وتلال ورمال وقرى ونخيل ومن أشهر هذه المناطق الأزرق، وهو واحة غناء في وسط صحراء حارقة مترامية الأطراف - ويقول أبو الفداء: «أن الأزرق اسم حصن بناه الملك المعظم على طريق الصحراء حيث تمر به طريق الحجاز، وتمر عن يمينه الطريق المؤدية إلى العلا وتبوك، بينما تمر عن يساره طريق تيماء وخيبر»^(٢). وعرفه ياقوت بأنه ماء في طريق حاج الشام دون تيماء^(٣). ومن واحة الأزرق الغزيرة المياه، زودت مناطق عديدة في الأردن بالماء، كما أن عشرات المزارع في الأزرق تعتمد على المياه الجوفية المحيطة بالنبع، مما جعل مياه الأزرق تتناقص بشكل ملحوظ.

وفي الأزرق مياه مالحة أيضاً، يستخرج منها المواطنون مادة ملح الطعام لذلك كانت هذه المنطقة مصدراً للملح عبر الزمان. ومما يجدر ذكره أن واحة الأزرق كانت مورداً ومستقراً للحيوانات البرية وتأوي إليها على اختلاف أنواعها، سواء منها المهاجرة أم المقيمة. وقد أعادت الجمعية الملكية لحماية الطبيعة مجموعة من الغزلان والنعام والحمر الوحشية من تلك السلالات التي كانت تعيش فيها، وأسكنتها محمية الشومري الواقعة إلى الجنوب من أزرق الشيشان على بعد خمسة عشر كيلو متراً^(٤).

وتعيش في البادية بعض الأشجار الحرجية كالسدر والطلح والصبار والرتم، وشجيرات أخرى رعوية، وذكر صاحب تحفة الغرائب في بادية الشام شجرة إذا نظر إليها الناظر رأي أوراقها كالسرج المشعولة، وكلما كان الليل أظلم كان الضوء أشد، وإذا هش الورق لا يرى

(١) انظر ياقوت، معجم البلدان ٣٤٦/٥. الدومنيكي بلدانية فلسطين، ص ٢٣٥.

(٢) لي سترانج، فلسطين، ص ٣١٦.

(٣) معجم البلدان، ١/١٦٨.

(٤) انظر مخلوف، الأردن، ص ٥١-٥٢.

شيء من الضوء^(١). ومن الطبيعي أن تتفاوت الحياة النباتية في البادية من مكان لآخر، فهي أكثر وأغنى حول الواحات مثل: واحتي الأزرق والجفر والسخنة وفي أحواض الأودية كوادى السرحان الذي يبدأ من منطقة الأزرق ويتجه جنوباً إلى شمال الجزيرة العربية.

وقد دلت تجربة المحميات في البادية الأردنية على غنى البادية بأنواع النباتات البرية وسرعة نموها، وهذا ما يفسر غناها في الماضي بأنواع الحيوانات المختلفة، ويفسر في نفس الوقت اهتمام الخلفاء والأمراء من الأسرة الأموية ببناء القصور في البوادي الأردنية، طمعاً في الصيد، والاستقلال والهواء النقي.

وجملة القول أن بلاد الشام يتشابه فيها المناخ كما تتشابه التضاريس، وإن كانت الأجزاء الغربية والشمالية منها أغنى بالمياه والزروع، ومع ذلك تكاد تتشابه الزروع والنباتات في أجزاء بلاد الشام، وقد أشار المقدسي وغيره إلى زروع بلاد الشام بشكل عام، وعدد أنواع الثمار والنبات في كورة فلسطين التي كانت تتكون من النصف الجنوبي لكل من فلسطين والأردن الحاليين^(٢). ويستدل من قائمة المقدسي أن سكان هذه البلاد كانوا يعرفون من الزروع والثمار أكثر مما نعرف اليوم.

وأورد ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار وصفاً آخر للزروع والفواكه والرياحين في بلاد الشام مما يعكس حال الزراعة في زمانه، ويكمل لنا الصورة التي رسمها المقدسي، فقال: «أما زروع الشام فغالبيتها على المطر ومنها ما هو على سقي الأنهار، وهو قليل، وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البر والشعير والذرة والأرز والباقلا والبسلة والجلبان واللوبياء والحلبة والسمسم والقرطم. ولا يوجد فيه الكتان والبرسيم، وبه من أنواع البطيخ والقتاء ما يستطاب ويستحسن، وكذلك غيرها من المزروعات كالقلقاس والملوخية والبادنجان واللفت والجزر والهليون والقنبيط والرجلة والبقلة اليمانية، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة وقصب السكر في أغواره، إلا أنه لم يبلغ في الكثرة حد مصر».

وذكر العمري فواكه الشام المعروفة اليوم، وقارنها بفواكه مصر، وقال بأن الشام تزيد على مصر بالجوز والبندق والأجاص والعناب والزعرور والزيتون فيه الغاية في الكثرة.

(١) المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٢) انظر أحسن التقاسيم، ص ١٨١.

وقال: ان في أغوار الشام أنواع المحمضات كالاترج والليمون والكباد والنارنج ولكنه لا يبلغ في ذلك حد مصر. وكذلك الموز. وقال: ان في الشام فواكه تأتي في الخريف وتبقى للربيع كالسفرجل والتفاح والعنب. وأما ريحانه ففيه كل ما في مصر من الاس والورد والترجس والبنفسج، ومنه ماء الورد، وينقل إلى سائر البلدان وقد تسمى به ما كان من ماء ورد جور ونصيين^(١).

وختاماً يجدر بنا أن نثير إلى أن مناطق عديدة في الأردن الحالي كانت مكتظة بالسكان منذ العصر الحديدي الثاني، وعرف منذ القدم العديد من أبراج المراقبة التي أعيد استعمالها في الفترة البيزنطية وقد أعيد سكن المنطقة وبكثافة في الفترة الإسلامية وبخاصة (الفترة الأيوبية والمملوكي). وتدل المواقع الأثرية الباقية على أن التجمعات السكانية والمباني كانت تقام قريبة من مصادر المياه. وتقوم الحصون الدفاعية، والأبراج التي تعود إلى تلك العصور، ما بين أم الجمال شمالاً، وحتى العقبة جنوباً، ويبدو أن هذه الأبراج والحصون كانت الحد الفاصل بين البادية والمناطق المستقرة وأقيمت لدفع البدو عن هذه المنطقة الغربية العامرة بالزروع. ولا شك أن الأردن الإسلامي كان أكثر ماء وأكثر زروعا، بخاصة النباتات البرية ولكن المناطق المستغلة زراعياً كانت أقل مساحة.

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (١٣٤٩هـ/١٩٤٩م) تحقيق وتقديم: أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للأثار الشرقية بالقاهرة، باريس ١٩٨٥، ص ٢٥. وأنظر القلقشندي، صبح الأعشى ٨٦/٤. الدومنيكي، بلدانية فلسطين، ص ١٠٩.

كتب الرحالة كمصدر لتاريخ بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين

(كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي نموذجاً)

أسهم الرحالة المسلمون في رفد المكتبة الانسانية بنصيب وافر من المعرفة الجغرافية، ومنذ القرن الهجري الثالث/التاسع الميلادي، كثر التأليف في المسالك والممالك، وظهرت تصانيف في الاقاليم والتقاسيم، وصفت المدن والجبال والانهار، واعطت صوراً لسكاني هذه الاقاليم.

ومن هؤلاء الجغرافيين الرحالة او الرحالة الجغرافيين نجد الكندي (ت حول ٢٠٠هـ/٨٠٠م)، وابن خرداذبة ت (٢٧٢ او ٣٠٠هـ/٨٨٥ او ٩١٢م) واليعقوبي (ت أواخر القرن الثالث الهجري) وقدامة بن جعفر (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) وابن الفقيه الهمداني (ت أواخر القرن الثالث الهجري) وابن رسته (ت ٢٩٠هـ/٩٠٢م) وابن حوقل النصيبي (ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م) والاصطخري (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م) والمقدسي البشاري (٣٨٥هـ/٩٨٥م) وغيرهم.

ونحن اذا عرضنا للمكتبة الجغرافية العربية وجدناها تضم كتباً او اوصافاً لاكثر من ثلاثين من الرحالة الذين وصلت اليها آثارهم^(١).

لقد تعددت انواع واهداف هذه الرحلات، وتراوحت بين دوافع السياحة وحب الاستطلاع، والدوافع الدينية كالحج الى الاماكن المقدسة، والتعرف على ملك الله الواسع ومخلوقاته في الارحاء الواسعة، والدوافع التجارية والتنقل بين البلدان جلباً للسلع التجارية من بلاد وبيعها في بلاد اخرى، والدوافع الرسمية، وتمثل بالوفود المرسلة لهذه الجهة او تلك لغايات سياسية او تجارية، ولا ننسى الدوافع العلمية عند البعض، وهذا النوع من الرحلات ساد في الحضارة الاسلامية، فكان العلماء والطلاب يتنقلون بين المراكز الاسلامية، طلباً للاستزادة من العلم من هذا الشيخ او من ذاك، او التحري عن خبر او روايه.

(١) نقولاً زيادة (٢٠٠٧)، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الاهلية للنشر والتوزيع ط٣-١٩٨٢، ص٧ سيشار اليه زيادة، الجغرافيا والرحلات.

وقد ساعد على ذلك اتساع رقعة الدولة الإسلامية وانضمام شعوب مختلفة فيها ونشاط حركة النقل والترجمة ، لذلك اتسع نطاق الرحلات مع توسع النشاط الإداري والتجاري حتى شمل بحار الصين وسواحل البلطيق والاندلس وجزر المحيط الهندي، وخلفوا في هذه الممالك ، نقودا واثارا تدل عليهم والى ما وصلوا اليه، والمكتشفات الاثرية تتزايد كل يوم لتكون شاهدا على ذلك.

وتتمثل قيمة كتب الرحلات في انها تمدنا بصورة حقيقية لشهود عيان عن الاحوال السياسية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمناخية والدروب والمسافات، وما الى ذلك من مكونات البلدان ارضا وناسا . بالاضافة الى انها توفر زادا وفيرا التراجم كثير من العلماء الذين غفلت عن ذكرهم كتب التراجم او لم تفهم حقهم من العناية.^(١)

قيل ان الخليفة هارون الرشيد بعث الى اليمن اشخاصا ليتعرفوا من اين ياتي العنبر، واستطاع هؤلاء الرجال استقصاء احوال السكان في عدن وما حولها^(٢) وأرسل الخليفة الواثق حوالي منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بعثة برية الى سد ياجوج ومأجوج ، حفظ لنا الأديسي أخبارها على لسان سلام قائد هذه البعثة^(٣) كذلك تأتي رحلة ابن فضلان الشهيرة الى بلاد البلغار سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م) ومن ذلك رحلة أبي دلف الى أرمينيا وآسيا الوسطى حوالي سنة (٣٣٣هـ/٩٤٤م)^(٤). لسا بصدد بيان أهمية الرحلة وفوائد السفر، ولكننا نتذكر عبارة الفيلسوف الانجليزي ”فرانسيس بيكون“ ان السفر تعليم للصغير وخبرة للكبير“^(٥) ولعل العبارة ”الرحلة عين الجغرافيا المبصرة“ وهي

(١) النابلسي عبد الغني بن اسماعيل (ت ١١٤٣هـ / ١٧٣٠) الحقيقة والمجاز في الرحلة الى بلاد الشام ومصر والحجاز، تقديم واعداد احمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، ص ٧. سيشار اليه، النابلسي، الرحلة.

(٢) ياسين ابراهيم الجعفري، اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، دار الرشيد للنشر والتوزيع بغداد، ١٩٨٠، ص ١٧٣.

(٣) آدم، متر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢م، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريده، ط ٤، دار الكتاب العربي-بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص ١٤/٢. سيشار اليه، متر، الحضارة الإسلامية.

(٤) ن. م ص ١٥/٢.

عنوان كتاب لاستاذ الجغرافيا صلاح الشامي ، ما يشير الى ان الرحلة ليست وسيلة استكشاف فحسب بل ايضا "جزء اصيل من حركة الحياة على الارض" على حد تعبيره، ويعني الشامي "ان الرحلة قد رسخت كل العوامل والمفاهيم التي عليها مسألة وحدة البشر على الارض، بل لقد فجرت في الانسان استشعار المصالح المشتركة التي وثقت عرى هذه الوحدة على الارض"^(١) وفي الناحية الاجتماعية الاستفادة من الرحلات، نراه في قول اعرابية لابنها: "خالط الناس بجميل البشر، واتق الله في السر"^(٢).

وحتى تعطي الرحلة ثمارها وتصنف في التراث الانساني حيث يتنفع بها الناس، لا بد للرحالة من تمثل ما جاء في التراث الانجليزي: "يجب ان يكون للمسافر حقيقتان، واحدة للمال، والثانية للصبر" والرحالة المسعودي يقول: "ليس من لزم جهة وطنه وقمع بما نمي اليه من الاخبار عن اقليمه، كمن قسم عمره، على قطع الاقطار، ووزع ايامه بين تقاذف الاسفار، واستخرج كل دقيقة من معدنه، واثارة كل نفيس من مكمته"^(٣) ونكرر كيف ان كتب هؤلاء الرحالة، تحتوي على معلومات جغرافية وتاريخية وسوسولوجية وادبية، لاتستغني عنها اليوم اية مؤسسة علمية او موسوعة جغرافية في العالم بسبب دقتها واهميتها العلمية. لذلك نجد تراثا لغويا عند رحالة القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، ونجد ماعرف بعلم الانواء، واصلوا لنا العديد من الامثلة التي نجدها عند المؤرخ السدوسي (ت ١٩٥هـ/٨١٠م) وهو جغرافي ومؤرخ بالاضافة الى كونه لغوي، وابي حنيفة الدينوري (٢٨٢هـ/٨٩٥م) وهو معروف ايضا كمؤرخ بكتابه "الاخبار الطوال".

"ومن بين هؤلاء الفلكيين، عبدالرحمن الصوفي (ت ٣٧٦هـ/٩٨٦م) الذي يقول بصدد الدينوري سالف الذكر، وذلك بعد قرن منه. "وجدنا في الانواء كتبا كثيرة اتمها واكملها في فنه كتاب: ابي حنيفة الدينوري فانه يدل على معرفة تامة بالاخبار الواردة عن العرب، وفي سياق ما عرف بالجغرافيين اللغويين نعد المؤرخ المشهور هشام بن محمد الكلبي (ت حوالي ٢٠٦هـ/٨٢٠م) وهو خبير ممتاز بالجاهلية وصاحب كتاب الاصنام

(١) فهمي، حسين محمد، ادب الرحلات، عالم المعرفة (العدد: ١٣٨) ص ٢٢

(٢) المسعودي ابي الحسن بن الحسين (ت ٣٤٦/٩٥٧)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. م. السعادة القاهرة، ط ٤/١٣٨٤/١٩٦٤ ص ١٢/١. سيشار اليه، المسعودي، مروج.

الذي لم يسبقه احد في بابيه، ويمكن ان نحسب الاعرابي الامي المدعو عرام الاصبع من هذه الطائفة الذي لما رأى الناس يقبلون على مثل هذه الموضوعات، املى في سن الشيخوخة (بعد عام ٢٣١هـ/ ٨٤٥م) كتابا اسماه: "جبال تهامة ومكانها معتمدا في ذلك على معرفته الجيدة بمواضيع جزيرة العرب، واخذ عنه من اتى بعده الكثير مما رواه^(١) ولا ننسى أن نذكر الجاحظ في هذا السياق أيضا وتنوع الموضوعات التي تناولها، ومثل ذلك يقال عن القاضي وكيع الذي وضع رسالة في الأنواء^(٢) .

لقد اتسع نطاق الرحلات وتنوعت الموضوعات، فقد تناقل الجغرافيون، كابن خرداذبه (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) والمسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) اخبارا عزيزا لشخص يدعى (مسلم الجرهمي)، ومنها ما له علاقة بالاتجاهات الفكرية لممارسات الساسة في العهد العباسي، فذكر ان بعض مبادلات الاسرى التي كانت تتم بين العرب والبيزنطيين كانت تتم بحضور القاضي العباسي في زمن الخليفة المأمون، وكان القاضي يفحص الاسارى. بمسألة خلق القرآن فمن وافقه اخلى سبيله، ومن رفض أبقى في اسره. غير ان كراتشوفسكي يقول: "والله اعلم بمدى صدق هذه الرواية"^(٣) .

وبهذا الصدد ما روي عن رحلة الغزال المغربي الى بيزنطة وما نسب اليه من شعر عربي في البلاط البيزنطي. اصبحت المعلومات وفيرة عن صلات العرب بالصين سواء من خلال رحلة ابن فضلان في زمن المقتدر سنة (٣٠٩هـ/ ٩٢١م) او من خلال ما ذكره ابو زيد السيرافي عن زيارات تجار بين عمان والصين، او ما يذكره ابن رسته من حقائق عن الهند^(٤) ويؤيد ما ذكرناه ما رواه ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) في معجمه الجغرافي عن جغرافي (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي).

لقد كان القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فاتحة عهد جديد في تاريخ الادب

(١) ا. ي. كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله الى العربية: صلاح عثمان هاشم، قام بمراجعته ايفور بلياييف، القسم الأول، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج ٢، ص ١/ ١٢٧. سيشار اليه كراتشوفسكي، الأدب الجغرافي.

(٢) المرجع السابق، ١/ ١٢٨.

(٣) كراتشوفسكي، الادب الجغرافي في ١/ ١٣٤-١٣٥.

(٤) ابن رسته ابي علي، احمد بن عمر (ت ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م)، الاعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ١٨٩١م، ص ١٣٢.

الجغرافي، وقدّموا مادة كان لها دورها في بروز جغرافي القرنين الرابع والخامس الهجريين، العاشر والحادي عشر الميلاديين، وظهور الجغرافيين الكبار الذين هم موضوع هذه الدراسة، وما نقلوه عن بلاد الشام. لذلك نقول وصلت الجغرافيا البشرية الى ذروتها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، مع صورة الأرض لابي القاسم ابن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، واحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم لمحمد بن احمد المقدسي (٣٣٥-٣٩٠هـ/٩٤٦-١٠٥٥م)، ولعل جهود هؤلاء وامثالهم، اثمرت ظهور المعاجم الجغرافية، فابو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) لم يغادر مسقط راسه في بلاد الاندلس، واعتمد في كتاب المسالك والممالك على عدة مصادر سابقة، اما الشريف الادريسي (ت ٥٦٥هـ/١١٦٠م) فقد اقتبس من كتاب صورة الارض لابن حوقل^(١).

ومن المقرر ان نضوج هذا العلم (علم البلدان او علم المسالك والممالك) قد حصل في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين اللذين شهدا طفرة في المعرفة الجغرافية منهجا وعلميا، كما شهدا ظهور النوابع في الادب الجغرافي العربي، وفي مقدمتهم الرحالة العظام من امثال الاصطخري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي والبيروني وابن فضلان وقدامة ابن جعفر وناصر خسرو.

لقد تحررت الجغرافيا العربية من التأثيرات اليونانية والفارسية والهندية، على يد هؤلاء النوابع، فقد جاء في مقدمة كتاب المسالك والممالك للاصطخري "اني ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك، وقصدت منها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وما يعود بالاعمال المجموعة اليها ولم اقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض"^(٢) اما ابن حوقل فشغف بالاسفار وقرا كتب المسالك والممالك، فلم يجد فيها كتابا مقنعا، -كما يقول- فوضع

(١) محمد حسن، مساهمة كتب المسالك والرحلة في تأسيس معجم موحد للبلاد المغاربية، في كتاب: بحوث مهداة الى محمد الطالبي في عيد ميلاده السبعين، منشورات كلية الاداب - بمينويه ١٩٩٣م (١١-١٦). وانظر كراتشكوفسكي، الادب الجغرافي ٢٣٧/١.

(٢) ابي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (ت ٣٤٠هـ/٩٥١م)، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال الحيني، دار القلم، مصر ١٣٨١هـ/١٩٦١م ص ١٥. ومما يجدر ذكره ان المدرسة اليونانية تقسم الأرض الى سبعة اقاليم.

كتابه بصورة جديدة^(١) اما المقدسي فقال عن نفسه: "لم يبق شيء مما يلحق المسافرين، الا وقد اخذت منه نصيبا، غير الكدية و ركوب الكبيرة وانفقت في اسفاري عشرة الاف درهم... و يقول ايضا في مقدمة كتابه واعلم اني اسست هذا الكتاب على قواعد محكمة فاعلي قواعده وارصف بنيانه بما شهدته وما عقلته وعرفته وعلقته، وعليه رفعت البنيان وعملت الدعائم والاركان..."^(٢) تحدث هؤلاء عن مشاهداتهم ومنها ما خص بلاد الشام، فالاصطخري ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف (بالكرخي) المتوفى في النصف الاول من القرن الرابع الهجري/العاصر الميلادي، ولعل لقب الاصطخري لحق به اذ كان يعرف بالفارسي نسبة الى اصله، والأصطخري نسبة الى بلده، والاصطخري له منهجه الخاص به، فهو لا يميل الى تجزئة البلدان، و يتحدث عنها موحدة، كذلك ينتقد بعض الاحاديث التي لا يقبلها العقل ويصرح، بانها خرافة، ومنهجه هذا يقوم على اسس ثلاث، اولاً: المشاهدة والوصف وفق الرؤية، وثانياً: تحري الدقة جهد الطاقة مخالفاً غيره تارة، ومتفقا تارة اخرى، وثالثاً: سماع الاخبار والاقتصاد في روايتها، ولقد بين ذلك في مقدمة كتابة قائلاً: "فقد يوجد في الاخبار ولا يتعذر على من اراد تفضيل شيء من ذلك من اهل كل بلد ولذلك تجوزنا ذكر المسافات والمدن و سائر ما نذكره"^(٣).

ويرى المرحوم الاستاذ خدابخش، الذي ترجم كتاب الاصطخري الى الانجليزية ان اكبر مصدر رجع اليه الأصطخري هو كتاب صور الاقاليم لأحمد بن سهل البلخي^(٤). تحدث الاصطخري عن مشاهداته في بلاد الشام، فمر بالثغور ومن بين ما عرف بالثغور الشامية والثغور الجزرية، واعتبرهما جميعاً من الشام، وذكر: ملطية ومرعش من ثغور الجزيرة، وقال بانها سميت بذلك لان اهل الجزيرة، يرابطون بهذه الجزر، وبها يغزون. وذكر فلسطين واصفاً مناخها وزروعها ومدنها وقال فيها "فلسطين اركى بلدان الشام" وتحدث عن الرملة باعتبارها قصبة فلسطين في زمانه، واكبر مدنها، وتاتي مدينة بيت

(١) ابو القاسم ابن حوقل النصيبي (ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الارض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٧، ص ١٠.

(٢) احسن التقاسيم، ص ٣.

(٣) محمد جابر عبدالعال الحيني، مقدمة كتاب المسالك والممالك ص ١٠.

(٤) متز، الحضارة الاسلامية، ١٧/٢.

المقدس بعدها في الكبير، واعطى الاهمية لبيت المقدس لقداستها، وتحدث عن مسجدها، واصفا اياه، بان ليس في الاسلام مسجد اكبر منه^(١).

ذكر الاصطخري زروع فلسطين واصفا زيتونها وتينها وسائر اشجار الجميز والعنب وغيرها. وتحدث عن غزة وانها اخر مدن فلسطين مما يلي مصر، وقال بان بها قبر هاشم بن عبد مناف، وبها ولد محمد بن ادريس الشافعي، ومنها كان غنى عمر بن الخطاب في الجاهلية، لان غزة كانت متجر (مستطرق) اهل الحجاز^(٢). وأضاف أن فلسطين على صغر مساحتها بها عشرين منبرا، وهو بذلك يشير الى كثرة مساجدها، وكثرة طلبه العلم فيها، لانه يقصد بالمنبر المسجد الجامع، والذي يحوي في داخله عادة حلقات الدروس.

وذكر بلاد الشراه وقال ان مدينتها اذرح، والجبال ومدينتها «رواث» ووصفهما بانهما بلدان في غاية الخصب والسعة، وان غالبية سكانها المتغلبون عليها من العرب^(٣). وتحدث عن الاردن وقال بان مدينته طرية، وهي على بحيرة عذبة الماء طولها، ١٢ ميلا في عرض فرسخين او ثلاثة و اشار الى مياهها وحماماتها المعدنية ذات المياه الحارة وتحدث عن غور الاردن وزروعه وذكر اشجار النخيل فيه^(٤). ومن الجدير ذكره، ان زراعة النخيل، عادت الى الغور بعد انقطاع ازمنة طويلة مضت^(٥).

ووصف مدينة صور على ساحل البحر المتوسط، بانها احصن الحصون، عامرة خصبة، وانها اقدم بلد بالساحل. وكما هو منهج الاصطخري في تتبع الحديث عن بلاد الشام جندا بعد جند، فبعد حديثه عن جند فلسطين واهم مدنه، وكل خصائصه، انتقل لوصف جند دمشق، وان قصبته دمشق وقال عنها: "اجل مدينة بالشام كلها" وقد فصل في حديثه عن مياه دمشق، وتحدث عن زروع دمشق وما حولها، مفصلا عن الغوطة، ثم

(١) المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال، دار القلم (١٣٨/٩٦١) يشار اليه الاصطخري، المسالك والممالك ص ٤٣.

(٢) ن.م ص ٤٣ و ٤٤. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٩.

(٣) الاصطخري، المرجع السابق، ص ٤٤. لازالت رواث تحتفظ بهذا الاسم قرب الرشاديه في محافظة الطفيله.

(٤) طول سواحلها ٥٣ كم، وطولها ٤٦ كم، و عرضها ١٧ كم.

(٥) الاصطخري، المرجع السابق، ص ٤٤.

خصص جزءاً كبيراً من حديثه عن مسجد دمشق واصفاً إياه "ليس في الإسلام مسجد احسن ولا اكثر عظمة منه"^(١). وتحدث عن تاريخ وموجبات بنائه بهذه العظمة.

وانتقل بعد ذلك للحديث عن جند حمص، واصفاً المدينة وازقتها واهلها وقال "في اهلها جمال مفرط". كذلك تحدث عن جند قنسرين، ومدينة حلب، مشيراً الى كثافة سكانها وموقعها على طريق العراق والى الثغور وسائر الشامات، وذكر اهم المدن التي تتبع حلب مثل: قنسرين ومعرة النعمان وخصاصه وانطاكية مركز العواصم. وكان الاصطخري حريصاً على ذكر تفاصيل مشاهداته، ويلاحظ اهتمامه بالمياه والزروع والاثار ذات التاريخ، كما يبدي تعليقه لبعض المشاهدات فهو عندما يتحدث عن «الرقيم» فيقول: «انها مدينة بقرب البلقاء وهي صغيرة منحوتة بيوتها كلها، وجدرانها من صخر كانها حجر واحد، والبحيرة الميتة من الغور بقرب زغر، وانما تسمى الميتة لانه ليس فيها شيء من الحيوان لا سمك ولا غيره»^(٢) وتقذف بشيء يسمى الحمر، منه يلحقون كروم فلسطين كما يلحق النخيل بطلع الفحال منها، و بزغريسر يقال له الدنقلاء، لم ارى بالعراق ولا بمكان اعذب ولا احسن منظراً منه، كانه لون الزعفران، لا يغادر منه شيء ويكون اربع منه شبرا، وديار قوم لوط على ارض تسمى الارض المقلوبة" وليس بها زرع ولا ضرع ولا حشيش"^(٣).

وفي نهاية حديثه الجغرافي التاريخي عن كل اقليم، يبرز حديثاً خاصاً عن المسافات بين مدن الشام، محدداً هذه المسافات بالمراحل والايام. تحدث عن جند الاردن بمثل حديثه عن بقية الاجناد وقال بان الاردن هو اصغر اجناد الشام واقصرها مسافة^(٤).

ويعتبر المسعودي مؤرخاً من طراز رفيع، كما اعتبر جغرافياً من نفس الطراز، لما حظي به من مصداقية عند المتأخرين، فقد تناول في كتابه: مروج الذهب ومعادن الجوهر، اخبار الامم الماضية والانبيا والرسل وكثيراً ممن وردوا في قصص القرآن الكريم، كاصحاب الاخدود، وذي القرنين واهل الكهف، وبعض المشاهد من تاريخ العرب قبل الاسلام، وتعرض لبطليموس

(١) ن.م. ص ٤٥.

(٢) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٤٧.

(٣) ن.م، ص ٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٩.

اليوناني واراته الجغرافية وتحدث عن الانهار والتجار والممالك ومدنها واحوالها.
 وخصص الجزء الثالث من كتابه للحديث عن الدولة الاموية اي ان الكتاب يجمع بين
 التاريخ والجغرافيا والسياسة والعمران، بل يتضمن معظم ضروب العلم في عصره^(١).
 وعلى الرغم من ان القرن العاشر الميلادي يعتبر عصر انحطاط سياسي بالنسبة للخلافة
 الاسلامية الا أنه عصر ازدهار الحضارة الاسلامية بما في ذلك ازدهار الادب الجغرافي،
 وهو القرن الذي أنجب المسعودي في مجال الأدب الجغرافي الذي امتاز برحلاته الواسعة و
 اتصا له بمعظم طبقات المجتمعات التي زارها وهو المتمثل بشعر أبي تمام:

فغربت حتى لم اجد ذكر مشرق و شرقت حتى قد نسيت المقارب
 ضطوب اذا لاقيتهن رددنني جريحا كاني قد لاقيت الكتاب^(٢)

انفرد المسعودي في كتابه باتباع المنهج الحولي في التاريخ، كذلك المنهج الموضوعي في
 نفس الكتاب وهو اسلوب تميز به عن سائر معاصريه من المؤرخين وعلى الرغم من انه رحاله
 الا انه لا يقف عند وصف المشاهد وانما ينقل اخبارا عن شخصيات البلد الذي يزوره. وعلى
 الرغم من الجهد العظيم الذي قدمه المسعودي الا ان كتاب المروج لم يسلم من النقد فأخذ عليه
 نقل الخرافات دون تمحيص والاستطراد في امور لا تستحق ذلك^(٣).

ومن بين الجغرافيين والرحالة الكبار في هذا القرن أبو القاسم ابن حوقل (ت بعد
 ٣٦٧هـ/٩٧٧م) الذي استعرض اقليم الشام كسابقه فذكر الشراه والجبال واكد
 على ما ذكره من تقدمه من الجغرافيين من ان في الغور "فاكهة وأب ونخيل وعيون
 وانهار"^(٤). وكرر ما ذكره الاصلطخري عن صور وقال بان "غالب الحكماء منها واشاد
 بدمشق وغزارة مياهها وذكر ان العتبة التي فوق محراب جامع دمشق عند المقصورة من

(١) زكي محمد حسين، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، ١٩٤٧ ص ٣٧

(٢) المسعودي، التنبيه والأشراف دار التراث، بيروت ١٩٦٨م ص ٦. كراتشكوفسكي، تاريخ الادب
 الجغرافي، ج ١ ص ١٧٨.

(٣) انظر: نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات ص ١٤٦-١٥٠.

(٤) ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٦٠.

أبنية الصابئين»^(١). وهذا قول غريب لا تؤيده المصادر على الرغم من وجود معبد وثني سابق على بناء المسجد والذي لا تزال آثاره امام الباب الرئيسي (الغربي) لساحة المسجد فالثابت ان المسجد من بناء الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) وهو في الاصل مسجد اضيفت اليه كنيسة القديس يوحنا وكما تذكر بعض المصادر انه كان "في حائط المسجد" نقش يقول امر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد امير المؤمنين" وجاء على لسان النابغة الذبياني في مدح الوليد:

قلعت بيفتهم عن جوف مسجدا
فصرها عن جديد الأرض منسوف

يذكر مثل ذلك كل من ثيو فانس (ت ٨١٨م) عام ٦١٩٩ من تاريخ الخليفة (٧٠٧م) والبلاذري (ت ٨٦٨م) وابن قتيبة الدينوري (ت ٨٨٩م) وابن الفقيه الهمداني (ت ٩٠٣م) والطبري (ت ٩٢٢م) نقلا عن المدائني وتيكيوس (ت ٩٣٩م) والمنبجي اغابوس في نهاية القرن العاشر الميلادي وميخائيل السوري (ابن البطريق) واليعقوبي (١١٦٦-١١٩٩) وقد دار جدل قديم جديد حول هذه المسألة وطرح نظريات تقول بان زلزال (٦٠٢م) والغزو الفارسي عام (٦١٣م) تسببا في هدم الكنيسة وليس الوليد، كما ان دراسة الطرز المعمارية لكنائس بلاد الشام لا تتطابق والطرز المعماري لمسجد دمشق^(٢).

ويجزم كرزويل بعد استخراجه لمختلف الروايات والاقاويل، الى ان حرم المسجد كان في الاصل معبدا، ولما جاءت المسيحية اخذ نصف حرم المعبد الغربي حيث بنيت فيه الكنيسة ولما جاء المسلمون بنوا مسجدهم في النصف الشرقي الذي كان للمعبد، ولما جاء الوليد فاوض النصارى على ضم الكنيسة للمسجد مقابل بناء كنيسة في اي مكان آخر من دمشق. وقد اكد الواقدي انه شاهد اتفاقية صلح دمشق التي كتبها خالد بن الوليد ولم يجد فيها ما يشير الى تقاسم المسلمين لمنازل دمشق وكنائسها، كما ذهبت الى ذلك بعض المصادر^(٣). ذكر ابن حوقل خراج الشام على عهد بني مروان، وقال انه بلغ الف الف دينار فوق ثمانمائة

(١) ن.م، ص ١٦١.

(٢) انظر ل. كرزويل الآثار الاسلامية الاولى، نقله الى العربية عبد الهادي ابو ريده واستخرج نصوصه وعلق عليه احمد غسان سبانو، دار قتيبة - دمشق ١، ١٤٠٤ - ١٩٨٤ م ص ٨٨ - ١٠٤م.

(٣) انظر الرواية في البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، م. السعادة مصر ١٩٥٩م، ص ١٢٩.

الف دينار^(١) وتحدث عن بيروت وقال انها فرضة بعلبك وبها يربط اهل دمشق وسائر جندھا، وينفرون اليھم عند استنفارھم. وبيروت ھذه كان مقام الازاعي، وبھا من النخيل وقصب السكر والغلات المتوافرة، و تجارات البحر علیھا واردة وصادرة^(٢) وفي حديثه عن حمص، اشار الى دخول الروم اليھا في زمانه، وما احدثوه من خراب و تدمير في المدينة، ولاحظ ظاهرة الزحف الصحراوي في جند حمص، واعتبر هذا السبب الذي جعل نكفور ملك الروم لا يقيم فيها^(٣). نقل ابن حوقل ما ذكره الأصبطخري عن حلب وعزا تراجع حلب لسوء سياسة وتدير سيف الدولة الحمداني لانه احرق جامعھا وسبا ذراري اھلھا و اھرقھا الروم ولم یغن عنها السور شيئا من سوء تدير سيف الدولة. ويتابع القول: «ھي الان بخسة اميرھا ودناءة نفسه مملوكة لجهتين: احداھن: انها في قبضة الروم، مجزية یؤدي كل انسان عن دكانه وداره جزیه والثانية: ان اميرھا اذا وردها متاع من خسيس او نفيس اشتراه من جالبه وباعه ھو لاهلھا علی اقبح صورة واحسن جھه، وما يستثار بھا من خل وصابون، فھو یعمله ویبيعه وليس بھا مبيع ومشتري الا وله فيه مدخل قبيح. وشرب اھلھا من نھر یعرف بابي الحسن (قويق) وفيه قليل طفس ولم تزل اسعارھا في الاغذية قديما وجميع الماکل والمشارب واسعة رخيصة، وعلیھم الان للروم في كل سنة قانون یؤدونه...»^(٤).

وكأي جغرافي اخر تحدث عن حواضر بلاد الشام مسجلا اھم ما لفت نظره من خبر تاريخي او مظهر جغرافي، فذكر معرة النعمان، ثم تحدث عن جبلة علی ساحل بحر الروم و كان رؤساؤها من بني وزير، فافتتحھا نكفور وسبی منها خمسة وثلاثين الف امرأة وصبي ورجل بالغ بقاء العدو وبمانع عن نفسه^(٥).

اما ابن الفقيه الھمداني والذي ينسب اليه "مختصر كتاب البلدان" فھناك خلاف في تاريخ وفاته ما بين اواخر القرن الثالث الهجري واواسط القرن الرابع وقد جاء حديثه عن بلاد الشام مختصرا علی وصف سطح البلاد، وينقل الرواية التي تقول من عجائب الشام

(١) ابن حوقل، صورة الارض (ص ١٦١-١٦٢)

(٢) ن.م (ص.١٦٢).

(٣) ن.م ص ١٦٣.

(٤) ابن حوقل ١٦٣-١٦٤.

(٥) ابن حوقل ص ١٦٤.

اربعة اشياء: بحيرة طبرية والبحيرة المنتنة واحجار بعلبك ومنارة الاسكندرية، ولا ادري لماذا ادخل الاسكندرية وهي ليست من الشام، وتكلم عن زروع الشام ومياهها وعجائب عادات اهلها، وشيئا من تاريخ المكان كما فعل عند حديثه عن بيت المقدس.

وقد استعرض قدامة بن جعفر (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) تاريخ فتوح الشام بالتفصيل معتنيا بتاريخ الحوادث معتمدا في معلوماته على ما جاء في كتب الفتوح، وما اورده الامام الطبري من روايات الفتح. وكان يذكر رواته احيانا وحيانا أخرى يلجأ الى الرواية الجمعية "قالوا" وكانت متابعتة الى حد المطابقة لكتاب فتوح البلدان للبلاذري، وقد اشتمل الكتاب على بعض المعلومات الاحصائية المعتمدة على القيود الرسمية لكونه كان يعمل في الديوان، فالارقام التي يوردها مأخوذة من القيود الرسمية لسنة ٢٠٤هـ وهو يذكرها بالحنطة والشعير^(١).

يعتبر أبو المعين ناصر بن خسرو القبادياني المروزي (٣٩٥-٤٧٠هـ/١٠٠٤-١٠٧٧)، المعروف بناصر خسرو أديبا وشاعرا فارسيا بليغا، وفيلسوبا عميقا، وقد ترك لنا نماذج عديدة تشهد على براعته، وحبه للبحث والاستقصاء في حياته الواقعية، والذي يراه أساسا لأغناء حياته الروحية.

ففي كتابه سفر نامه يبدو لنا خسرو رجلا ذا اهتمام وجداني بالطريقة التي تتحصن بها المدن وكيفية معالجة شؤونها الادارية، اذ يركز خسرو على ايراد المعلومات التي تدور حول عدد أبواب كل مدينة، وسماكة أسوارها ومن أين تصلها المياه^(٢) وكذلك طول وعرض المدينة^(٣) كما يتجول في الأسواق مسجلا أسعار عينات من بضائعها، ويقدم بعد ذلك مقارنات بين الأسعار التي توصل اليها، كما يذكر الجماعات التي تقطن بلده الأم خراسان^(٤).

وتشير المعلومات التي يحرص خسرو على ايرادها الى دقته وقوة ملاحظته، فهو كمن

(١) قدامة بن جعفر، (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م) الخراج وصناعة الكتابة ص ٥٩.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامه، ص ٤١، ٣٦.

(٣) ن. م. ص ٣٨.

(٤) ن. م. أما كن متفرقه. من الكتاب.

يسجل أرقاماً في سجل تجاري لا يحتمل الخطأ، إلا أنه حين يعرض للخلفيات التاريخية نجده يميل إلى الغموض فكأنه يخفي أسراراً، ولعل ذلك عائد لتكوينه الاسماعيلي.

ففي حديثه عن زيارته للبحرين القرمطية في زمانه أزعجه ما أقدم عليه القرامطة من مهاجمتهم مكة ونهبهم الحجر الأسود من مكانه بالإضافة إلى سوء سلوكهم مع الحجيج. فقد اتخذ خسرو من هذه الحادثة فرصة لألقاء الخطب والموعظ الدينية التي تناقض هذه الأفعال وتنعكس على سمعة القرامطة لاسيما وأن موسم الحج فرصة للدعاية الحسنه، فكيف اذا جاء هذا الأعتداء على مكة أقدس مكان عند المسلمين.

زار خسرو الشام قادماً من المشرق من ميفارقين إلى حلب وقال بأن المسافة مائة فرسخ، وذكر أن حلب هي مركز مكوس وهذا يشير إلى نشاطها التجاري في تلك الحقبة، حيث يرد إليها التجار من مختلف البلدان. وذكر خسرو أن الوزن في سوقها بالرطل الظاهري وهو اربعمائة وثمانون درهماً، وهو الرطل الذي اعتمد في مصر أيام الظاهر لأعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٥م).

تحدث عن معرة النعمان وقال أن بالمدينة رجلاً اعمى اسمه أبو العلاء المعري، وهو حاكمها واسع الثراء، عنده كثير من العبيد وكان أهل البلد كلهم خدماً له، أما هو فقد تزهد يصوم الدهر ويقوم الليل ولا يشغل نفسه بامر دنيوي، وكان هذا الرجل حياً وأنا هناك^(١) وهذه الشهادة أن صحت ترد التهم التي وجهت لأبي العلاء المعري بالزندقة والاحاد. ووصف ناصر خسرو مباني طرابلس وقال بأن ارتفاعها يصل إلى ست طبقات، ويقال بأن بها عشرين ألف رجل، وهذه الاحصائية لا نجد لها عند غيره ممن زاروا طرابلس، وعلى العموم قليلاً ما يتحدث الرحالة عن تعداد السكان. وقد اهتم خسرو بالتوجهات المذهبية للسكان، ونلاحظ أنه ينسب سكان المدن التي زارها إلى المذهب الشيعي. تحدث عن بيت المقدس ووصف قبة الصخرة والدكة والمدافئ وقبر الخليل بما لا يخرج عن حديث سابقه، وعن كنيسة القيامة وتعظيم ملك الروم له وذكر أن ملك الروم يزورها متخفياً، كما أكد هدم الحاكم بامر الله الفاطمي لها سنة ٤٠٠هـ/١٠٤٧م ووصف لنا زخارفها وما ركب

(١) ناصر خسرو، سفر نامه (ص ٤٤).

فيها من صور، وما يقوم عليها من خدمة، وقال لو وصفت كل ذلك لطال الوصف^(١)، اما اوصافه الاخرى للبلدان فلا تخرج عما ذكره سابقوه.

والمقدسي هو شمس الدين ابو عبدالله بن احمد بن ابي بكر البناء الشامي المعروف بالبشاري (ت ٣٣٥- حوالي ٣٨١هـ/ ٩٤٦/ ٩٤٧- ٩٩١/ ٩٩٢) ويطلق عليه مقدسي او مقدسي نسبة الى بيت المقدس، وقد لقب بعدة القاب في حياته واثناء اسفاره ذكرها لنا في مقدمة كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» مثل: مقدسي، مصري، مغربي، خرساني، فقيه، صوفي، زاهد، عابد، سائح، وراق، شامي..... الخ. استخدم المقدسي مصطلحات لتوضيح طبيعة مناخات الاقاليم التي زارها، ووصف بعضها بطيية الهواء ومنها: حمص، وبيت المقدس، واخرى معتدلة الهواء مثل دمشق، واحيانا صحيحة الهواء او رقيقة الهواء و متوسطة الهواء و ذكر الشام على العموم جيدة الهواء، والهواء السجسج جعله لهواء بيت المقدس. اما مصطلح الهواء الشامي وهو نسبة الى اقليم الشام. ووفق تصنيف المقدسي فان هواء الشام متوسط اي معتدل الحرارة^(٢) ويعد المقدسي خاتمة الجغرافيين الكبار من المدرسة العربية التي بلغت اوجها في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، فالرجل يمثل العالم الصحيح الدقيق الملاحظة العالي الهمة الصبور الجلد لذلك جاء كتابه «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» نموذجا للكتاب المرتب والمنظم، يقدم للقارئ الاسماء المتفقة اسما المختلفة صقعا، وينتقل الى خصائص الاقاليم فيجملها. و يمكن اعتبار كتابه من الكتب الادبية الجميلة وقد ذكر اسباب تليفه ابتداء، ووصف ملاقاته من احوال في اسفاره. وقد اثنى عليه من كتبوا في ادب الرحلات قديما وحديثا، واعتبره شيرنجي «اكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة»^(٣).

(١) احمد بن علي، اتعاض الخفاء باخبار الفاطميين الخلفاء ٣، تحقيق جمال الدين الشبال، منشورات المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٩٧١-١٩٧٣، ج٢، ص ١٧٦. محمد الحافظ النقر، ندوات القدس ٥٠٠ عام من الحقوق العربية، الندوة الثانية، جامعة ال البيت (١٩٩٧/١١/٢٤). القدس في كتابات بعض الرحالة الاوروبيين في فترة الغزو الفرنجي، مقالة غير منشورة، عمان ١٩٩٧ م.

(٢) المقدسي (ت ٥٣٨٥/ ٩٨٥ م)، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، (ص ٤٩).

(٣) كراتشكوفسكي، الادب الجغرافي ١/ ٢٠٨. (انظر كراتشكوفسكي ١/ ٢١٤) وبارثولد، تركستان (ص ٧٢- ٧٤) نقولا زيادة، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت ط ١٩٨٢، ٣، بيروت ص ٤٧- ٥٥. صلاح الدين الشامي، الاسلام والفكر الجغرافي العربي منشأة المعارف بالاسكندرية القاهرة

ويرى "كرامرز" ان المقدسي اكبر الجغرافيين العرب اصالة، ومصنفة من اكثر الكتب الجغرافية في الادب الجغرافي قيمة^(١).

تناول المقدسي اقطار الاسلام واحدا بعد الاخر، يقسم الحديث في القطر الى ثلاثة اقسام، القسم الاول يرد الكلام على اقسام المنطقة ومدنها والمواضع العامرة منها، اما القسم الثاني فيبحث في المناخ والزرع والطوائف واللغة والتجارة والاوزان والنقود والعادات، اما القسم الثالث فيتناول ذكر المسافات وطرق المواصلات، ويقدم لنا المقدسي معلومات هائلة عن التجارة والمعتقدات والعادات^(٢).

والمقدسي مثال للرحالة الاثنوجرافي وذلك لمزجه الجلي بين الرحلة والاثنوجرافيا في وصفه اقليم المشرق^(٣) لا بل اعتبره البعض واضع اساسيات منهج الاثنوجرافيا عند الرحالة المسلمين في العصور الوسطى، وهو كغيره من الرحالة قصر معظم حديثه على بلاد الاسلام وبخاصة التي زارها واطلع على احوالها، لان ما جاء في كتابه انما هو ثمرة رحلاته وملاحظاته الناتجة عن المشاهدة^(٤) فهو يقول: "وفي كتابنا هذا اختصار لفظ يدل على معان...."^(٥).

وعندما يتحدث المقدسي عن اقليم الشام، يبدو الحماس في حديثه واضحا عن مناقب الشام وفضائله وما يشتمل عليه من مفاخر الانبياء والصالحين، وماثر الامم من يهود ونصارى ومسلمين، ليظهر تميز هذا الاقليم على غيره من اقاليم الارض، فهو يفتتح حديثه قائلا "اقليم الشام جليل الشان ديار النبيين ومركز الصالحين ومعدن البدلاء ومطلب الفضلاء، به القبلة الاولى وموضع الحشر والمسرى، والارض المقدسة والرباطات الفاضلة،

١٩٧٨ ص ١٢٨-١٢٩، صباح محمود محمد، دراسات في التراث الجغرافي العربي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات دار الرشد للنشر (٢٥٢) ١٩٨١ ص ٤٣-٤٥. احمد ابو سعد، ادب الرحلات، منشورات دار الشرق الجديد ط١، بيروت ١٩٨٠ ص ٨٠.

(١) كرامرز، كوفسكي، ٢٠٨/١. Kramer, Al-Mukaddasi, p. 765.

(٢) زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، ١٩٤٧، ص ٤٣.

(٣) حسين محمد فهم، ادب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة (١٣٨) الكويت ص ٦٣-٦٥.

(٤) نفيس احمد، الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي، ترجمة فتحي عثمان، مراجعة: علي ادهم، دار العلم ط٢ الكويت ١٩٧٨/٥١٣٩٩ ص ٧٢.

(٥) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٦.

والثغور الجلييلة والجبال الشريفة، ومهاجر ابراهيم وقبره، وديار ايوب وبئر ومحراب داوود وبابه، وعجائب سليمان ومدنه، وتربة اسحق وامه، ومولد المسيح ومهده، وقرية طالوت ونهره، ومقتل جالوت وحصنه، وجب ارمبا وحبسه، ومسجد اوريا وبيته، وقبة محمد وبابه، وصخرة موسى وربوة عيسى، ومحراب زكريا ومولد يحيى، ومشاهد الانبياء وقرى ايوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى وجبل زيتا ومدينة عكا ومشهد صديقا، "ورغم ذلك تبدو في كتاباته نظراته المتوازنة للغير، فلا نلمح عنده اي انحياز لبني دينه او جنسه، وهذا يؤشر على طبيعة الطبقات الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره، فهو عندما ينقد انما ينقد واقعا بغض النظر عن يشغله ديناً ام عرقاً.

قسم المقدسي بلاد الشام الى اربعة صفوف الاول: يلي بحر الروم وهو يعني به السهل الساحلي والصف الثاني الجبل، ويقول عنه مشجر ذو قرى وعيون، والصف الثالث الاغوار، والصف الرابع سيف البادية ويتبع ذلك وصف لكل صقع بكل ما فيه ويذكر المسافات والطرق^(١) مع مشاهد لا تحصى وفضائل لا تحفى، وفواكه ورخاء واشجار واميا واخرة ودينا، به يرق القلب وتبسط للعبادة الاعضاء، ثم به دمشق جنة الدنيا... وليسوا كالا عاجم في العلم والدين والنهي... يقدمون طاعة المخلوق على طاعة رب السماء، عامتهم جهال او غوغاء لا نهضة في جهاد ولا حمية على الاعداء"^(٢)، ويقصد بذلك الأعاجم.

تحدث المقدسي عن احوال الشام قاطبة عن الطبيعة واحوالها والمدن واهلها، فهو عندما يتحدث عن دمشق يذكر موقعها واهميتها وشيئا من تاريخها، ويتحدث عن قصورها واثارها ومواد عمرانها من الخشب والطين، ووصف حصنها (القلعة) ويقول بانه أحدث وانا به «وقال بان معظم اسواقها مغطاة، وان لهم سوق على طول البلد مكشوف... ويتحدث عن الناس ويصف احوالهم ومستوى فكرهم وعقولهم ويصف الماء والهواء والزروع والفواكه.

(١) المقدسي البشاري، ص ١٨٤.

(٢) ن.م، ص ١٥١-١٥٢.

يصف الجامع ويقول بانه "أحسن شيء للمسلمين"^(١) وهو في عرض مشاهداته يتميز بدقة الملاحظة وجمال الوصف وفي معرض حديثه عن مسجد دمشق يقول: «قلت لعمي يا عم: لم يحسن الوليد حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق، ولو صرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان اصوب وافضل، قال لا تفعل يا بني، ان الوليد وفق وكشف له عن امر جليل وذلك انه رأى الشام بلد النصرى، ورأى لهم فيها بيع حسنة قد افتنن بزخارفها، وانتشر ذكرها كالقمامة (القيامة) وبيعة لد والرها، فاتخذ للمسلمين مسجدا اشغلهم به منهم. وجعله احد عجائب الدنيا، الا ترى ان عبد الملك لما رأى عظم قبة القمامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى»^(٢) وهو بهذه المعلومات يضع حدا لتفسيرات اسباب بناء قبة الصخرة والمسجد الاقصى.

وعندما يصف المقدسي المكان كأنه يرسم له لوحه دقيقة التفاصيل تبدو فيه المعرفة التاريخية والجغرافية، وتبين عن معرفة في فنون العمارة وذوق في تميز مواطن الجمال، وعلم في احوال السكان، ولننظر وصفه لمدينة الرملة «بهية حسنة البناء، خفيفة الماء، مرية واسعة الفواكه، جامعة الاضداد، بين رساتيق جميله ومدن سريه ومشاهد فاضلة وقرى نفيسه، والتجارة بها مفيدة ليس في الاسلام ابهى من جامعها ولا احسن ولا اطيب من حواريتها ذات فنادق رشيقة وحمامات انيقة واطعمة نظيفة، وادامات كثيرة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وامور جامعة قد خطت في السهل وقربت من الجبل والبحر، وجمعت التين والنخل، غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل، وفي الصيف ذريرة من الرمل، كثيرة البراغيث عميقة الابار مالحه، وماء المطر في جباب مقفلة، فالفقير عطشان والغريب حيران»^(٣) فهو ينقل مشاهداته وانطباعاته، وكأنه آلة تصوير تعكس الواقع بما فيه من متناقضات، على الرغم من أن البعض يرى ان الرملة هي بلد المقدسي حيث وضع كتابه القيم^(٤) وخلفه لنا مصدرا قيما لدنيا المسلمين في القرن الرابع الهجري/

(١) ن.م، ص ١٥٧

(٢) ن.م، ص ١٥٩

(٣) ن.م، ص ١٦٤

(٤) نقولا زياده، الجغرافيا والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع ط ١٩٨٢، ص ٥. ويقال بأنه كتبه وهو بمدينة شيراز.

العاشر الميلادي، وفي معرض حديثه عن الرملة يوثق دروبها فيقول «الذي أعرف من دروبها درب بئر العسكر، درب مسجد عنه، درب بيت المقدس، درب بيلعه (بالعه)، درب لد، درب يافا، درب مصر، درب داجون تتصل بها مدينة اسمها داجون، فيها جامع^(١)، ويصف الجامع بما عهد عنه من تفاصيل.

وفي تناوله لبيت المقدس يقرر: «ان ليس في مدائن الكور أكبر منها... لاشديدة البرد وليس بها حر^(٢)، وقليلًا ما يقع فيها الثلج، وأشاد ببنائها وقال « فيها كل حاذق وطبيب، وألها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب» وعن المكاييل في الرملة يقول: «فلأهل الرملة القفيز والوبية والمكوك والكيلجة، فالكيلجة نحو صاع ونصف، والمكوك ثلاث كيالج والوبية مكوكان والقفيز أربع وبيات، وينفرد أهل ايليا بالمدى وهو ثلثا القفيز والقب وهو ربع المدى، ولا يستعمل المكوك الا في كيل السلطان. ومدى عمان ست كيالج... الخ»^(٣) وهو حيثما نزل وسئل عن بلده أفاض في ذكر فضائلها، وفي معرض تفسيره لذلك قال: «وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللوز، والرطب والجوز، والتين والموز»...^(٤).

ولا يتورع المقدسي من ذكر عيوب المدينة ونقل ما قيل من أنه «مكتوب في التوراة بيت المقدس طشت ذهب مليء عقارب»... ثم لا ترى أقدر من حماماتها، ولا أثقل مؤنة، قليلة العلماء كثيرة النصارى، وفيها جفاء. على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال على ما يباع فيها... وليس للمظلوم فيها أنصار، والمستور مهموم والغني محسود، والفقيه مهجور، والأديب غير مشهود، لا مجلس نظر ولا تدريس، قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس، وهي أصغر من مكة وأكبر من المدينة^(٥) وهذه الأوصاف لاتنسجم مع عواطفه تجاه الشام ولا تنسق مع حديثه العام.

(١) المقدسي، المرجع السابق ص ١٦٥.

(٢) ن. م. ص ١٦٤.

(٣) ن. م. ص ١٦٧. ذكر الأصطخري فيما سبق أنها تأتي بعد الرملة.

(٤) ن. م. ص ١٧٥.

(٥) ن. م. ص ١٧٤.

يتابع المقدسي وصفه لكل أجزاء المدينة فيذكر تفاصيل عن السور وأبوابه ويسمي كل باب كما يصف البرك. يفصل المقدسي الحديث عن المسجد الأقصى من عمارة وأعمدة وقباب وأبواب ورخام وزينته وخدمه ومما يليه... وهكذا يتناول بقية المدن الفلسطينية وكأنه يلتقط صوراً جوية للأماكن التي يمر بها، فذكر سلوان وجبل زيتا وبيت لحم وحرى (الخليل) وبيت جبريل وأريحا وعمان معدن الحبوب والأغنام، بها عدة أنهار وأرضية يديرها الماء، ولها جامع طريف بطرف السوق مفسفس الصحن، وقد قلنا أنه شبه مكة. وقصر جالوت على جبل يطل عليها، وبها قبر أوريا عليه مسجد، وملعب سليمان، رخيصة الأسعار كثيرة الفواكه، غير أن أهلها جهال وطرقها صعبة^(١).

وفي حديثه عن الرقيم نجد يروي قصة أهل الكهف بسند كامل يتصل بعبد الله بن عمر رضي الله عنه. وكذلك يصف عسقلان بأنها كثيرة المحارس والفواكه ومعدن الجميز وقرأها فائق وخيرها دافق والعيش بها رافق. وعن قيسارية يقول بأنه ليس على بحر الروم أجل ولا أكثر خيرات منها^(٢).

وعن أريحا يقول بأنها كثيرة الحيات والعقارب، أهلها سمر وسودان، كثيرة البراغيث، غير أن ماءها أخف ماء في الاسلام، كثيرة الموز والأرطاب والريحان^(٣). ويروي خيراً طريفاً، أن شلنديات الروم تقلع إلى رباطات المسلمين على البحر، ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة دينار، ويستخدم سكان الرباطات المناور ليلاً والمحارق نهاراً ليدلوا على هذه الشواني والشلنديات، وهذا الأسلوب كان معروفاً عند المسلمين في إيصال الأخبار الهامة أيام الحروب الصليبية^(٤). وبعد أن فصل الحديث عن معظم المواقع التي مر بها في تجواله ببلاد الشام يعود ويتحدث عن جمل شؤون هذا الاقليم فيجمل وصف الاقليم وهوائه ومائه وأرضه وزروعه وعمرانه وسكانه واصنافهم ومذاهبهم واعمالهم، فيقول ان أكثر الصباغين والجهايزه والصيارفه والديباغين بهذا الاقليم يهود، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى، واتى على وصف الملابس في الصيف والشتاء، كما

(١) ن.م، ص ١٧٥.

(٢) ن.م، ص ١٧٧. (قصة بيع الأسارى لتأييدها المصادر).

(٣) انظر المرجع السابق ص ١٧٩-١٩٢.

(٤) ن.م، ص ١٨٠.

تحدث عن الجنائز والقبور وعن الخبز والتنور (الفرن). وذكر معادن البلاد وحجارتها والخمر والملح والعسل والمياه وخواصها ومصادرها الى غير ذلك من التفاصيل التي لا يوردها الا اللبيب الفطين“. والمقدسي في اجماله لاحوال اقليم الشام يستدرك ما فات من تفاصيل، ويركز على الغلات والتجارات فيعدد ما يرفع من كل بلدة من تجارات بشكل يثير الإعجاب، ويذكر العادات والتقاليد، وخلاصة القول ان كتب الرحلات مصدر هام للمعرفة بعامة والمعرفة التاريخية بخاصة، فهي مصادر موسوعية لا يستغنى عنها في دراسة احوال البلاد والعباد.

رحالة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وجهودهم بالتعريف بالأصقاع الشمالية للعالم الإسلامي

إن محاولة الإنسان استكشاف محيطه والتعرف على عناصر المكان، هي غريزة إنسانية مدفوعة بالفطرة، ويتساوى فيها البشر على اختلافهم في الزمان والمكان.

لعل هذه الخاصية تنبه إلى أهمية المكان في حياة الأفراد والجماعات، إذ أن طبيعة المكان بموقعه وخصوبته ومناخه، كان مقصد الحركة الاجتماعية عبر التاريخ من أجل توفير ظروف أفضل للحياة.

ومع الزمن ازداد الاهتمام بالتعرف على المكان سواء لأغراض تجارية، بما في ذلك معرفة الطرق والمدن والأسواق، وما في هذه الأماكن من أمور تجب معرفتها وأخذ احتياطات الأمان فيها، وأغراض عسكرية تجعل العسكر على معرفة بالأماكن التي يستهدفونها، والطرق التي يسلكونها. بما فيها من عقبات وصعاب، وما يجب أن يتوفر فيها من عوامل مساعدة على الحصول على الماء والمأكّل إلى غير ذلك من المتطلبات التي أصبحت الآن من أهم متطلبات العلوم العسكرية.

ومن بين الدوافع الكثيرة التي تجعل الإنسان يرحل من مكانه أو يتوق إلى رحلة الحج إلى الأماكن الدينية، لقضاء المقاصد التي يفرضها عليه دينه أو معتقده، ومنها أيضاً الرحلات الاستطلاعية حُباً بالتعرف على الآثار أو تأمل طبائع المكان، بالإضافة إلى عوامل أخرى سياسية أو استخبارية.

لما جاء الإسلام تزايدت الرغبة بالرحلة واستكشاف المجهول، ذلك أن الارتحال أصبح مطلباً دينياً، لاستكشاف عظمة الخالق سبحانه وتعالى، بالنظر في ملكوت الله وعجائب مخلوقاته، لأن في ذلك تعظيم للخالق وبرهان على جدارته بالطاعة والعبادة، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: الآية (١٣٧)]. وقوله ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِمَّنْ﴾ [غافر: الآية (٨٢)].

وقوله ﴿فَيَسْجُوْا فِي الْأَرْضِ...﴾ [التوبة: الآية (٢)]. وقوله ﴿إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: الآية (٣٣)] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تدعو إلى الحركة في المكان والنظر في هذا الكون والتدبر والتذكر واستخلاص الحكم والدروس.

مثلت حركة الفتوحات الإسلامية دفعا قويا لعلم الجغرافية، حيث الرحلة من أهم مقوماته، فقد امتدت الفتوحات العربية الإسلامية ما يزيد على قرن من الزمان بعد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت ممتدة في مختلف الاتجاهات، وفي تنوع من البيئات المناخية والطبيعية، كانت فتحاً عسكرياً واجتماعياً وثقافياً، امتد شرقاً حتى الهند والصين، والمحيط الأطلسي (بحر الظلمات) غرباً، فقد انتشر العنصر العربي في هذه الأرجاء الواسعة، ونشر معه لغته ودينه، ونشطت في ظل الدولة العربية الموحدة حركة التجارة والحج والسياحة في طلب العلم والمعرفة^(١)، وأصبح التعرف على عادات الشعوب وتقاليدها وثقافتها مطلباً مرافقاً لمعرفة المكان.

أصبح أدب الرحلة في الثقافة الإسلامية يقدم في الغالب وصفاً موضوعياً لمجموعة من المعطيات الجغرافية والإثنية والمعمارية واللغوية والاجتماعية للأماكن التي جال فيها الرحالة، وتحدد درجة الموضوعية في الأخبار بشخصية الرحال ومعرفته ومستوى ثقافته وحقيقة اهتماماته وأهدافه، كما تحدد المعرفة العامة لأبناء زمانه وأهل عصره، إذ من الطبيعي إن المجتمعات البسيطة تميل بطبعها إلى تقبل الأساطير والخوارق، كما أن المغترب أو الرحال يميل بطبيعته ومجاراته لمجتمعه إلى تهويل أخباره ومشاهداته^(٢)، اللهم يستثنى من هؤلاء الرحالة المثقفون الذين كانت دوافعهم الذاتية علمية، وفي كل الأحوال أصبحت المعطيات المعاصرة تتجاوز مثل هذه المرويات المبالغ فيها نتيجة إتساع دائرة الثقافة، وانحسار العالم إلى مساحة صغيرة بفعل تقدم وسائل الاتصال الحديثة، وفي كل الأحوال يشهد للرحالة

(١) أنظر مقدمة نقولاً زياده، في كتابه رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، هدية المقتطف السنوية، سنة ١٩٤٣ ص ٥. سيشار إليه، زياده، رواد.

(٢) جاء في مثل شعبي متداول عند العرب عامة وفي بلاد الشام بخاصة: ما أكذب من عجوز ماتت أجياله، وغايب (مغترب) قلت أمثاله.

والجغرافيين العرب بأنهم قدموا اسهامات بارزة في علوم الجغرافية على اختلاف ميادينها، الوصفية والعملية والفلكية والرياضية، وعللوا الظواهر الكونية، وتركوا لنا مكتبة حغرافية متنوعة، أسهمت بقدر واسع في المعرفة الإنسانية.

إن من المفارقات التي تواجه أبناء عصرنا، أن نجد أحد مواطني الاتحاد السوفيتي القديم يُعرف بمزايا حضارتنا، ويشيد بجهود رموز العلوم المختلفة فيها، ويذكر بالفضل سجايا علمائنا، ذلك هو العلامة الروسي أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي^(١) ومما ذكره في مقدمة كتابه المعروف في قوله: "تعرفت خلال إقامتي في الشرق العربي إلى كثير من علماء العرب، وأدبائهم وصحافيينهم، ولا أنسى لطفهم وعنايتهم"^(٢) مدى الدهر، وكان هذا اللطف العربي المشهور من الأسباب التي جذبتني إلى الشرق جذبة لا أتخلص منها ما دمت حياً. تعرفت على الكثير من العلماء الذين صاروا من أعضاء المجمع العلمي المكرمين فيما بعد. ففي القاهرة عرفت جرجي زيدان الذي اخترمته المنية سنة ١٩١٤، وأحمد زكي باشا عضو المجمع العربي الحالي، والأستاذ نالينو الايطالي (Carlo Alphonso Nallino)، وفي فلسطين السيد خليل السكاكيني والشاعر الفاضل اسعاف النشاشيبي، وفي بيروت حضرت دروساً للأب لويس شيخو، وفي دمشق زرت إدارة مجلة المقتبس الغراء، واستفدت في هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتي...^(٣)

أردت من هذا الاقتباس أن أبين كيف يعترف هذا العلامة بالجميل كما يُعرف ببعض من أعلام العرب في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. يعتبر عمل كراتشكوفسكي رائداً في مجال الاستعراب، وقد لفت النظر إلى جهود الرحالة العرب بالتعريف بأصقاع الأرض قاطبة وليس بعالم الإسلام فحسب، بل فتح مجالاً لعلماء الاستعراب للولوج في ميدان منجزات العرب والمسلمين في التاريخ الجغرافي على الإطلاق.

(١) ولد في ولنا (Vilna) عاصمة لتوانيا سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥١ م. زار البلدان العربية وأتقن اللغة العربية وكتب عن الشعر والأدب العربي، كما ألف كتابه المشهور: "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" نقله إلى العربية المرحوم صلاح الدين عثمان هاشم، وقام بمراجعته: إيغور بليانيف، ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر التابعة للجامعة العربية، عن النسخة الأصلية الصادرة في موسكو سنة ١٩٥٧ م، القاهرة.

(٢) في الأصل لطفكم وعنايتكم (٣) ن. م. ص ٤. سيشار إليه كراتشكوفسكي، تاريخ

(٣) ن. م. ص ٤.

نبلغ عدد كبير من الجغرافيين العرب الرحالة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وسيقتصر البحث على أولئك الذين زاروا الأقاليم الشمالية من البلاد الإسلامية ودخلوا بلاد الروس والبلغار وغيرها، وزودونا بمعلومات فريدة عن هذه البلاد وأهلها.

ومن أبرز هؤلاء الجغرافي المؤرخ المشهور بالمسعودي، علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن، من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه^(١).

نشأ المسعودي^(٢) في بغداد وجاء مصر، ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد، قطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩هـ/ ٩٢١م، حتى استقر في اصطخر، وفي السنة التالية قصد الهند إلى ملتان والمنصورة، ثم عطف إلى كنهاية فصيمور فسرنديب (سيلان)، ومن هناك ركب البحر إلى بلاد الصين وطاف البحر الهندي إلى مدغشقر، وعاد إلى عُمان، ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤هـ/ ٩٢٦م إلى ما وراء أذربيجان وجرجان ثم إلى الشام وفلسطين، وفي سنة ٣٣٢/ ٩٤٣م جاء أنطاكية والثغور الشامية إلى دمشق واستقر أخيراً بمصر، ونزل القسطنطينية سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م، وتوفي السنة التالية ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م.

كان المسعودي في تجواله عيناً مبصرة، لا تفوته ملاحظة، كما كانت اذناه صاغية، فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبق إليه أحد، وألف كثيراً من الكتب التي تشهد على سعة معرفته وتوقد ذهنه.

ومن تجواله الواسع سيهمننا ما سجله من انطباعات عن الأقاليم الشمالية، فقد لاحظ أن أهل الربع الشمالي هم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والافرنجة ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعف عنهم لبعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرد، وتلبدت أفهامهم، وثقلت ألسنتهم وابتضت ألوانهم حتى أفرطت، فخرجت من البياض إلى الزرقة، ورقت جلودهم وغلظت لحومهم وازرقت أعينهم أيضاً، فلم تخرج من طبع ألوانهم، وسقطت شعورهم، وصارت صهباً لغلبة البخار الرطب، ولم يكن في مذاهبهم

(١) من مقدمة محقق كتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط٤، ١٩٦٤م.

(٢) هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) عداده في البغداديين، وأقام بمصر مدة، وكان أخباراً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر، له مجموعة مؤلفات، وصلنا منها: مروج الذهب، وكتاب التنبيه والإشراف.

متانة، وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة، ومن كان منهم أوغل في الشمال والغالب عليهم الغباوة والجفاء والبهائية، وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال^(١).

تحدث المسعودي عن الروس وأممهم وعن علاقتهم التجارية مع الأندلس ورومية، وقسطنطينية والخزر، وذكر أن الترك (الغز) يعبرون بخيولهم على نهر الخزر في حال انجماده، ليغيروا على بلاد الخزر^(٢). تحدث عن حروب المسلمين والروس من بلاد برطاس على شاطئ نهر الخزر^(٣).

تحدث عن الجبال فقال: "وهذا جبل دنباوند بين بلاد الري وطبرستان، يرى من مائة فرسخ لعلوه وذهابه في الجو، ويرتفع في أعاليه الدخان، والثلوج متردفة عليه.. ويخرج من أسفله نهر كثير الماء أصفر كبريتي ذهبي اللون، مسافة الصعود إليه في نحو ثلاثة أيام بلياليها، وقال الفرس إن الضحاك ذا الأفواه موثق في أعاليه بالحديد، وهذه الأطم التي في أعالي هذا الجبل أطم عظيمة من آطام الأرض وعجائبها^(٤)".

وفي عام ٣٣٢هـ/٩٤٣م "ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والقلزم، واليمن، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة، فلم أجد أهول من بحر الزنج^(٥)". يفتخر المسعودي بكثرة تجواله حتى أصبح حاله حال من تمثل شعر أبي تمام قائلاً:

فغربت حتى لم أجد ذكر مشارق وشرقت حتى قد نسيت المغارب

خطوب إذا لاقيتهن رددنني جرياً كأنني قد لقيت الكتاب^(٦)

يقول المسعودي أنه لقي كثيرين ممن رحلوا إلى الصين، وعرف منهم أن الطريق من خراسان إلى بلاد الصين تمر ببلاد الصغد، وأنه يمر بالجبال التي يؤخذ منها النشادر، ويؤخذ من هذا أن طريق الصين كان في القرن الرابع، هو الطريق الذي وصفه سوين-تاج

(١) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي ١٨٢/٣.

(٢) مروج الذهب ١٨٢/١-١٨٣.

(٣) ن.م ص ١٨٣-١٨٥. ربما قصد الحروب التي كانت تقع بين سكان القوس القوقازي من الترك والخزر.

(٤) ن.م ص ٩٢-٩٣.

(٥) ن.م ١/٢٣٤.

(٦) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي ١/١٨١.

والجردوزي، لأن في الروايات الصينية ما يدل على أن هذه الجبال داخلة ضمن سلاسل تيان شان شمالي كوشا، ولم يوصف هذا الطريق إلا بعد ذلك بمائتي عام^(١).

تحدث المسعودي عن الأمم المحيطة بالبواب والأبواب^(٢)، وسور المدينة (درند) وجبل القبخ وبلاد الخزر واللان، وعرض للعلاقات التي تسود بين هذه الأمم من حرب أو سلم، وأشار إلى وجود تجار العرب في هذه البلاد، ووصف أحد انتصارات الترك على الروم ومحاصرة القسطنطينية، وتحدث عن حجم الغنائم التي غنمها الترك، وأثر ذلك في معنويات الترك، قال: "فاتصلت غاراتهم إلى نحو بلاد الأندلس والإفرنج والجلالقة"^(٣).

وصف الأبخاز بأنهم أمة عظيمة، انقادت إلى دين النصرانية، كان يحكمهم ملك سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م، فقال: "يلي ملك الأبخاز ملك الجورية، وهي أمة عظيمة منقادة إلى دين النصرانية تدعى أو "خزران"، وقال إن في الخزران مسجد يعرف (بمسجد ذي القرنين)^(٤) وكان أهل الأبخاز والخزرية يؤدون الجزية إلى صاحب ثغر تفليس، منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل^(٥)، وهكذا نجد المسعودي يحاول أن يغطي كل الأخبار التاريخية والجغرافية للبلدان التي يزورها.

لا ينسى المسعودي الحديث عن تاريخ النبات، فذكر أن شجر النارج والأترج المدور جلب من أرض الهند بعد الثلاثماية، فزرع بعمان ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغر الشامي وأنطاكية وساحل الشام وفلسطين ومصر وما كان يعهد ولا يعرف، فعدمت منه الروائح الطيبة واللون الحسن، الذي يوجد فيه بأرض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصة البلد الأصلي^(٦).

(١) متز، الحضارة الإسلامية ص ٤١٦/٢.

(٢) المسعودي، مروج ٢٠٣/١. يطلق على مدينة درند اسم باب الأبواب، لكونها باباً للدخول إلى بلاد الخزر، يافوت الحموي، معجم البلدان، ٤٤٩/٢.

(٣) ن.م. ٢٠٠/١-٢٠٣.

(٤) ن.م. ص ٢٠٣.

(٥) ن.م. ص ٢٠٥.

(٦) المسعودي، مروج ٤٣٨/٢-٤٣٩. متز، الحضارة الإسلامية ٣٠٦/٢.

وقال: "لولا تصدير العاج إلى عمان والهند والصين لكان كثيراً في بلاد الإسلام"^(١)، وذكر أن أهل أنطاكية يستخدمون الفيلة على طريقة أهل الهند^(٢).

وتعرض إلى حوادث نقل السكان، فقال: "منذ غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة (الفراتية) وآمد وغيرها من بلاد الروم، نقل من أهلها خلقاً كثيراً، أسكنهم مدناً من فارس وصار الديباج يعمل بتستر والخز بالسوس حتى عصر المسعودي"^(٣).

ينقل المسعودي انطباعاته عن تاريخ المكان وجغرافيته في آن معاً، ويحاول أن لا يدع ظاهرة من ظواهر المكان إلا ويستقصي خبرها، فعندما يتكلم عن نهر الخزر الذي يمر بمدينة (إتل)، يقول بأنها دار مملكة الخزر في وقتهم، وكانت دار مملكتهم قبل ذلك بلنجر، وإليها يصب نهر برطاس، وهي أمة عظيمة مضافة إلى أمة الخزر، وقال: "تجري في هذا النهر السفن العظام والتجارات وأنواع الأمتعة من بلاد خوارزم وغيرها، ويتحدث عن منتجات هذه الأقاليم الشمالية، كالجلود والفراء، والأوبار، ويذكر أنساب الأقوام الذين يمر بهم فيقول أن بخارى دار مملكة آل اسماعيل بن أحمد بن أسد بن أحمد بن سامان خداه صاحب خراسان ثمانية عشر فرسخاً منها خمسة عشر إلى السور الأعظم المحيط ببخارى وعمائر^(٤)ها. هذه الملاحظات وغيرها تشير إلى أن المسعودي كان على اتصال مباشر بأخباره.

يقول كراتشكوفسكي "من المستحيل إنكار ما يمتاز به المسعودي من تنويع النشاط العلمي وما يتصف به من موضوعية في الحكم على ما يتعلق بالشعوب والأديان، فهو يسأل باهتمام ممثلي مختلف العقائد، ويفحص بانتباه فائق كتبهم، ويتعرف جيداً على آدابهم"^(٥).

ومن الرحالة العرب الذين أجادوا وصف البلدان الشمالية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، العالم والأديب والشاعر أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد، وهذا وصف موجز لأسباب الرحلة.

(١) م. ٨/٣، متز، ن. م. ص ٣٣٢.

(٢) المسعودي، ن. م.، متز، ن. م. ص ٣٤٦.

(٣) متز، ن. م.، ص ٣٥٨.

(٤) المسعودي، كتاب التنبيه والإشراف، دار التراث، بيروت ١٩٦٨م، ص ٥٥-٥٧. (خداه: أي منحه).
سيشار إليه، المسعودي، التنبيه.

(٥) تاريخ الأدب ١/١٨٣.

كان الخليفة العباسي المقتدر بالله أبو الفضل جعفر (٢٩٥-٣٢٠ هـ/٩٠٧-٩٣٢ م) قد بويع بالخلافة وعمره ثلاث عشرة سنة، كانت بغداد حينها كعبة الحضارة الإنسانية، لما تمتعت به من ثروة وجاه ومنعة وقوة كما يصفها المؤرخ مسكويه في تجارب الأمم^(١).

قدم وفد من قبل ملك الصقالبة (الروم) سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م إلى بلاط الخليفة المقتدر يحمل رسالة من ملكهم (ألمش بن بلطوار)، وقد رتب لاستقبال الوفد ترتيباً مهيباً يعكس عظمة الخلافة والخليفة، ويسهب مسكويه كما يسهب محقق رسالة ابن فضلان في وصف هذا الاستقبال بالعساكر المسلحة والحاشية المزركشة، ومظاهر القوة والمنعة والترف.

والتمس الوفد الوصول إلى المقتدر بالله لإبلاغه الرسالة وتقديم الهدايا، فأعلموا بأن ذلك متعذر صعب، لا يجوز الا بعد لقاء الوزير، ومخاطبته فيما قصد إليه وتقرير الأمور معه، والرغبة في تسهيل الاذن عليه، وبعد لأي سمح للوفد بمقابلة الخليفة. وسط هذا الاستقبال والذي نوهنا إليه، والذي يظهر عراقة التقاليد التي تتفوق على أعرق ما في الممالك في الحفاظ على التقاليد القديمة من دول أوروبا المعاصرة، فقد ظهرت بغداد كأغنى عواصم الملك في الغرب^(٢).

وقف الرسولان أمام عرش الخليفة بعد أن قبلا الأرض، وقدمتا رسالتهما التي تضمنت طلب ملك الصقالبة من أمير المؤمنين أن يرسل له بعثة تفقه الملك وقومه في الدين وتعرفهم شرائع الإسلام، وتنشئ لهم مسجداً، وتبني لهم حصناً يتحصن فيه الملوك من أعدائهم ملوك الخزر^(٣). وما كان في وسع الخليفة أن يرفض مثل هذا الطلب، وجاراه في ذلك وزيره حامد بن العباس، فرأى الإثنان أن في مثل هذا التحالف خيراً، فانتدبا وفداً للقيام بما طلبه ملك الصقالبة^(٤). تكون الوفد من أربعة أشخاص هم: سوسن الرسي مولى نذير الخرمي، وتلين التركي، وبارس الصقلاي، وأحمد بن فضلان، ومعهم دليل هو رسول

(١) مسكويه، (ت ٤٢١ هـ/١٠٣٠ م) تجارب الأمم، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢، ص ١٠-١٥.

سيشار إليه، مسكويه، تجارب.

(٢) ن.م. ص.

(٣) مقدمة محقق الرسالة ص ٢٢-٢٣.

(٤) ن.م ص ٢٣.

الصقالبة^(١). يقول ابن فضالان: ”فندبت أنا لقراءة الكتاب عليه (أي ملك الصقالبة) وبتسليم ما أهدي إليه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين“^(٢).

يخيل إلينا إن اثنين من أعضاء الوفد يعرفان الروسية^(٣)، وربما أن أعضاء منهم خبراء في الاحتجاجات التي طلبها الصقالبة، قد يكون منهم معماري لبناء المسجد والحصن، كما أن إشارة ابن فضالان بأنه الذي عهد إليه بقراءة كتاب الخليفة على ملك الصقالبة وتسليمه الهدايا، توحي بأنه كان رئيس الوفد.

رحل الوفد من بغداد يوم الخميس ١١ صفر سنة ٣٠٩هـ/ ٢١ حزيران ٩٢١م واتخذ الطريق على إقليم الجبال فهمذان فالري قرب طهران اليوم، وعبر نهر جيحون فبلغ بخارى، ثم أوغل في البراري والبوادي حتى وصل إلى الفلجا (القولغا) عند ملك الصقالبة يوم الأحد ١٢ محرم سنة ٣١٠هـ^(٤) الموافق ١١ أيار ٩٢٢م، فاستغرقت الرحلة أحد عشر شهراً في الذهاب، وقد حفظ لنا ياقوت في أكثر من مكان من ”معجم البلدان“ مقتطفات من هذه الرحلة، وعنى المستشرقون بها كثيراً لأنها أحد المصادر النادرة للتعريف بالحالة في تلك المنطقة المنعزلة عن العالم نسبياً يومها، غير أنه أصبح الآن ميسراً قراءة الرسالة بلغتها العربية الأصلية، بعد أن حُقق النص بفضل المرحوم الدكتور محمد سامي الدهان^(٥).

وصف ابن فضالان رحلته وصفاً رائعاً، عرض فيها إلى ما لاقاه من مصاعب وأهوال بأسلوب جعله في الصف الأول من الرحالة الأدباء^(٦).

يتحدث ابن فضالان بتفصيل شديد ودقيق عن العديد من نواحي الحياة لأهل الشمال، وعاداتهم وتقاليدهم، خاصة الوثنية منها في حالات السلم والحرب، والعلاقات الاجتماعية المتعددة.. وهذا ما جعل الباحثين الاسكندنافيين المعاصرين، يشيدون برسالة ابن فضالان،

(١) ن.م.

(٢) ن.م ص ٢٤.

(٣) ن.م.

(٤) ن.م ص ٢٥.

(٥) دمشق، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

(٦) ن.م ص ٢٥.

ويثنون على دقة ملاحظاته وصدقها، مما جعلها منسجمة مع كتاباتهم عن شعبهم.

وعن أهمية هذه الرحلة يقول المستشرق الأستاذ "فرين" (Frin) حين قدم لدراسة ابن فضلان في الألمانية، أن تاريخ روسيا وما جاورها في العصور القديمة غير معروف، وهو ما يزال غامضاً مبهماً في أكثر نواحيه، لم يضيء من جوانبه أحد من الأوروبيين، فإذا كان الروس قد أغفلوا تاريخهم، فإن العرب والشرقيين تحدثوا عنها، وبخاصة عن البلغار وروسيا في عهدها البعيد، وبذلك فتح العرب عيون الغرب على معلومات نافعة، وخاصة عن البلغار وروسيا، وما في الكون من عجائب من أقصى الهند والصين إلى المحيط الأطلسي^(١).

يقدم ابن فضلان صورة حية لأوضاع العالم الإسلامي زمن الرحلة وأشار إلى العلاقات السائدة في العالم الإسلامي والبلدان المتاخمة لها في آسيا الوسطى والأصقاع النائية إلى الشمال، وهي التي كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك، مثل حوض الفولجا، وتحفل الرسالة بمادة أثنوغرافية قيمة جداً ومتنوعة بصورة فريدة، وهي تمس عدداً من القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الوسطى وعدداً من الشعوب التي كانت تلعب آنذاك دوراً أساسياً في تاريخ أوروبا الشرقية كالبلغار والروس والخزر، كما لا يمكن إنكار قيمتها الأدبية وأسلوبها القصصي السلس، ولغتها الحية المصورة التي لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعابة التي ربما لم تكن مقصودة^(٢).

أضاف ابن فضلان إلى معلوماتنا نقله من عادات وتقاليد بين الشعوب الاسكندنافية، وذكران عاداتهم في حرق الموتى تشبه ما يفعل الهندوس في موتاهم.

وصف الروس وقد وافوا في تجارتهم على نهر إتل، وقال "بانهم شقر حمر لا يلبسون القراقط ولا الخفانين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين، لا يفارقه جميع ما ذكرناه، وسيوفهم صفائح مشطبة إفريقية، ومن حد ظفر الواحد إلى عنقه مخضّر شجر وصور وغير ذلك"^(٣).

(١) ن. م ص ٢٩.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي ١/ ١٨٦.

(٣) أحمد أبو مطر، رحلة ابن فضلان في بلاد الصقالية، موقع، منبر حر للثقافة والفكر، ١٣ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٦. ج. ١.

وكل امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة إما من حديد وإما من فضة وإما من نحاس وإما من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره. وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً، وفي أعناقهن أطواف من ذهب وفضة، لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم، صاغ لأمرأته طوقاً فرمما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة^(١).

انتبه ابن فضلان إلى ظاهرة العناية الصحية، وقال بأنهم أقدر خلق الله، لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جئنا به، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلددهم، فيرسون سفنهم بإتل وهو [نهر] كبير ويننون على شطه بيوتاً كباراً من الخشب.

تحدث ابن فضلان عن العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء، ويذكر أن المرأة لا تجد غضاضة في الكشف عن فرجها أمام الحضور، كما لا يتورع الرجل من أن يجامع امرأته أو جاريتها أمام الجميع، وربما دخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها فلا يزول حتى يقضي إربه^(٢).

ذكر ابن فضلان وصفاً لطقوسهم فقال: "وساعة توفي سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم، ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيد، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة، لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال، قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة، ويسجد لها، ثم يقول لها: "يارب قد جئت من بلد بعيد، ومعى من الجواري كذا وكذا رأساً من السمور وكذا وكذا جلدًا" حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: "وجئت بك بهذه الهدية" ثم يطلب ما بنفسه يريد من معبوده أن يقضيه له^(٣).

ولهم عادات عجيبة غريبة في حرق ميتهم وبخاصة إذا كان زعيماً، إذ لا بد من أن تتطوع إحدى جواريه لتحرق مع سيدها، ومن أجل ذلك تجري مراسيم جنازية تنتهي بقتل الجارية بعد أن تشرب عدداً من كؤوس النبيذ، وتمارس الجنس مع عدد من الرجال

(١) ابن فضلان، الرسالة ص ١٥٠.

(٢) ن.م ص ١٥١.

(٣) ن.م ص ١٥٣.

بإشراف امرأة تسمى ملكة الموت، التي تتولى قتل الجارية في سفينة ثم تحرق السفينة بما فيها، وتوضع مكانها خشبة يكتب عليها اسم الميت^(١).

ومع غرابة سلوك الروس، يتحدث ابن فضلان عن اهتمام أهل الشمال بالضيف والقيام بواجباته من طعام وشراب وثياب ويعتبرون ذلك شرفاً، وهم يميلون إلى الفرح والمرح والشراب والجواري، ويعتقدون أن الله ينظر بعين الرضا إلى المسرات المفتوحة، يأخذ عليه بعضهم قائلاً: "إنكم يا معشر العرب مثل عجائز النساء، توجفون وترتجفون أمام منظر الحياة..."^(٢).

يرون في حرق موتاهم استعجالاً لدخول الجنة، بعكس المسلمين الذين يضعون موتاهم في التراب فتأكله الهوام والدود، ولعلها نفس الخلفية الفلسفية التي تحكم مسألة حرق الميت حتى اليوم عند الهندوس في الهند^(٣).

سارع ابن فضلان لتفسير هذه العادات عند أهل اسكندنافيه ومعتقداتهم فقال: "لا يجد هؤلاء الاسكندنافيون سبباً للحزن على موت أي إنسان ولا فرق في ذلك أن يكون الميت فقيراً أو غنياً، وحتى موت شيخ العشيرة، لا يثير حزنهم أو دموعهم"^(٤).

رافق ابن فضلان مكرهاً حملة حربية نحو الشمال عبر نهر الفولجا، إلى بلاد الثلج (النرويج). وهناك لاحظ ابن فضلان الظاهرة الفلكية، وهي أن النهار يكون طويلاً في الصيف وقصيراً في الشتاء، ونادراً ما يتعادل الليل والنهار، ولاحظ في توغله إلى الشمال كثرة الغابات وغزارة الأمطار... ويصف إقامة المعسكرات والمستوطنات لمواجهة الأعداء، وتُشكل الجيوش المحاربة، وبعض المعتقدات الخاصة بالآلهة. ولهم تعويذاتهم التي يواجهون بها تقلبات الطقس وهجوم القوى المعادية وغيرها.

يصف ابن فضلان أشكال النساء الاسكندنافيات الشقراوات، وسلوكهن الجنسي

(١) ن.م.ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) ابن فضلان، ن.م.ص ١٤٩-١٥٠، أحمد أبو مطر، رحلة أحمد بن فضلان، الحلقة الثانية، تاريخ النشر ٢٠٠٦/١/١٣ موقع جوجل.

(٣) ابن فضلان، الرسالة ص ١٦٤.

(٤) مواضع متفرقة من الرسالة.

المتحرر بشكل علني فيقول: "إن نساء أهل الشمال شقراوات كرجالهم، ويعادلنهم في طول القامة، ولهن عيون زرقاء وشعورهن طويلة جداً وناعمة تتشابك بسهولة ... كما لا تظهر النساء أي مراعاة أو سلوك للاحتشام، فلا يتحجبن مطلقاً، ويعرضن أنفسهن في الأماكن العامة، كلما ألحّت عليهن الحاجة الجنسية، فيتقدمن إلى الرجل الذي يستحوذ على إعجابهن بطلب هذه الحاجة^(١)."

وهناك رحالة آخر تجوّل في الشمال ونسبت إليه أقوال في صفة بعض البلدان الشمالية التي تجوّل فيها، ووصلت رسالتان منسوبتان لهذا الرحالة العربي، الأولى تتحدث عن رحلته إلى الصين، والثانية تتحدث عن رحلته إلى بلاد الترك والروس وغيرها، وكلاهما نسبتا إلى أبي دلف مسعود بن مهلهل أو المهلهل، ويضاف إلى هذا الاسم نسبة الينبوعي الخزرجي، وهذا يشير إلى أصله العربي فاسمه من الأسماء الواسعة الانتشار في وسط الجزيرة العربية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه، أما نسبة الينبوعي، فتشير إلى علاقة بميناء ينبع، وهو ميناء مكة على البحر الأحمر، كما أن الخزرجي نسبة إلى قبيلة الخزرج المدنية التي كان لها شأنها عند ظهور الإسلام.

من غير المعروف زمن ومكان مولد ووفاة أبي دلف لكنه عاش بدون شك في القرن العاشر في الجزء الشرقي من الخلافة^(٢).

وتحيط شكوك فيما إذا كانت الرسائل المشار إليها لواحد أم لاثنتين وذلك لأن إحدى الإشارات تفيد أن إحدى الرحلات إلى بلاد النورمان، كانت زيارة يعقوب الطرطوشي (أبو دلف) رسولاً من أمير قرطبة إلى الإمبراطور "أوتو الأكبر"، إمبراطور المانيا وصف فيها جانب من الحياة الثقافية ببوهيميا ومانيا والفرنجة (فرنسا)^(٣).

والإشارة الثانية أوردتها كراتشكوفسكي، تفيد بأن أبي دلف كان على الأغلب

(١) مواضع متفرقة من رسالة ابن فضلان.

(٢) الرسالة الثانية لأبي دلف، رحالة القرن العاشر، نشر وتحقيق: بطرس بولغاكوف وأنس خالدوف، ترجمة وتعليق «دكتور محمد منير مرسى، عالم الكتب ١٩٧٠، ص ٨. وتوجد طبعة أخرى لهذه الرسالة تعود إلى سنة ١٩٦٠ في موسكو دون تعليقات.

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ص ١٨٨/١.

شاعراً مداحاً متحولاً، قاده تجولاته إلى بلاط "نصرا لثاني بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١هـ/٩١٤-٩٢٣م) وهو نفس الحاكم الذي سافر ابن فضلان في عهده إلى بلاد البلغار.

ففي أواخر حكمه وصلت إلى بخارى (عاصمة السامانيين) سفارة من الصين حوالي عام ٣٣١هـ/٩٤٢م، فاغتنم أبو دلف الفرصة وصحبها في طريق العودة، فعبر تركستان الغربية والشرقية والتبث عن طريق غير معروف، ثم غادرها إلى الهند^(١).

والذي يزيد من غموض حقيقة مؤلف الرسائل، فيما إذا كان واحداً أم اثنان، فقد أورد النديم إشارة إلى رحالة مسيحي عراقي لعله كتب رحلة لم تصلنا^(٢)، ومن المعروف أن النديم قتل (سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م، ويمكن الاستفادة من المعرفة الشخصية للنديم بأبي دلف، وأن معلوماته عنه حقيقية، كما تثبت معاصرته له.

وحسب معلوماته وأخبار الثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ/٩٦١-١٠٣٧م) في أشعاره في "يتيمة الدهر" نجد أبا دلف يتردد على قصر الوزير البويهى إسماعيل بن عباد بن صاحب (قتل سنة ٣٨٥هـ/٩٩٥م)^(٣). وقد اشتهر أبو دلف كرحالة وجغرافي وشاعر. ووصفه النديم "بالجواله"، "وقال لي أبو دلف الينبوعي، وكان "جواله". يعقد النديم المسألة فأحياناً يشير إلى أبي دلف باسمه "وقال لي أبو دلف" وأحياناً "ذكر لي الراهب النجرائي.. أو الراهب"^(٤)، يقيم النديم من بعيد توازناً بين معلومات أبي دلف ومعطيات الراهب النجرائي، فيذكر أنه ورد من الصين سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧-٩٨٨م مراسلاً من طرف الجاثليق قبل سبع سنوات، والجاثليق لفظ يوناني يقصد به الرئيس الديني الأعلى عند الكلدان النساطرة، ويقابله حالياً "البطريك"^(٥)، وكان معه خمسة عارفين بالدين المسيحي، فلم يعد سواه، وعاد شخص آخر بعد ست سنوات. التقى النديم بالراهب في

(١) شاعر لعبي، مجموعة موافع المدى، تلويحة المدى: رحلة مسيحي عراقي إلى الصين في القرن العاشر ٢٧/١١/٢٠١٠.. جوجل.

(٢) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٣، دمشق ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م ص ١٧٤-١٧٥.

(٣) كتاب الفهرست، ص ٣٤٦.

(٤) انظر ن.م، الصفحات، ٣٤٥-٣٥٠.

(٥) عرف هذا المنصب بنفس الاسم عند يهود العراق منذ بداية حركة الفتوح الإسلامية.

دار الروم وراء البيعة في بغداد: "فرايت رجلاً شاباً حسن الهيئة"^(١)، ودار بينهما حوار.

بعد ذلك يعرج النديم للمرة الأخيرة إلى أبي دلف مستشهداً بقوله أن اسم مدينة الملك الأعظم تسمى حمدان ومدينة التجار والأموال "خانقو" وطولها أربعون فرسخاً، مقارناً هذا التقدير بتقدير الراهب العراقي: "وليس كذي قال الراهب، حال دون هذا بكثير هذه المعطيات لا توجد كذلك في متن رحلة أبي دلف"^(٢).

ولا أرى هذه خلافاً ذات جدوى في تفصي شخصيات الرحالة، فمثلاً يورد النديم خبر بالصيغة التالية: "قال أبو دلف: وكان الملك على "الصنف" يقال له "لاجين" وقال لي النجرائي أن الملك في هذا الوقت ملك يعرف باسم "لوقين" قصد الصنف فأخبرها وملك جميع أهلها"^(٣)، ويمكن أن يكون حصل تصحيف للاسم لأن ما بين لاجين ولوقين من خلاف لا يتعدى أن الجيم في اللفظ الثاني (لوقين) جاءت بالجيم المصرية، وكما يلفظها سكان جنوب الجزيرة العربية. وقد ناقش كراتشكوفسكي ما قيل عن هذه الرحلة وصاحبها، وما شابهما من غموض، وانتهى إلى أنها رحلة حقيقية تنسب لصاحبها "إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي"^(٤)، وفي كل الأحوال نجزم بوجود شخصية أبي دلف الرحال "الجوال" وأنه رحل عدة رحلات جمعها في ما أطلق عليه الرسالة الثانية، التي وصف لنا الأصقاع الشمالية وأجزاء من أوروبا.

لم يكن وصف رحلة أبي دلف معروفاً بشكل مباشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين كشف اللثام عن هذه الرسالة العلامة الروسي غريغوريف (Groigoriev) (١٨٧٢) كما يعود الفضل إلى ياقوت الحموي الذي حفظ لنا شذرات من هذه الرحلة وكذلك تقل عنه القزويني ثم تناول المستشرقون رسالة أبي دلف وبخاصة الروس منهم، وذلك لما تضمنته الرسالة من أخبار عن بلادهم^(٥).

(١) الفهرست، ص ٣٤٩.

(٢) ن. م، ص ٣٥٠.

(٣) الفهرست ص ٣٤٧، تلويحة المدى.

(٤) الأدب الجغرافي ص ١٩٢.

(٥) ن. م.

يقدم لنا الباحث شاكر لعبي تعريفاً بتلك البلدان التي زارها أبو دلف واسمائها كما وردت في كتاب الرحالة، لاسيما الأسماء الصينية التي وقع فيها بعض الخلط لدى نساخ الرحلة إضافة إلى ما تشير إليه المصادر السريانية والإسلامية المبكرة من تشابه بين هذه الرحلة والرحلة التي قام بها "سلام الترجمان" بالنسبة للعلاقة بين اليمن والصين...^(١).

لم يبق من وصف رحلة أبي دلف سوى شذرات عرفت منها الأقسام الخاصة بألمانيا والصقالبة، وهي التي حفظها لنا العذري والبكري والقزويني ثم انتقلت منهم إلى مؤلفين متأخرين^(٢).

أما بالنسبة لزمن كتابة الرسالة الثانية فيمكننا الحكم عليه بالإشارة التالية لأبي دلف: "وكتب هذا التصنيف عند توجهه إلى طبرستان تحت اسم مستعار "السائر" وتحت مثل هذا الاسم المستعار في الأدب يذكر "أبو الفضل السائر" إلا أن تاريخ توجهه هنا غير معروف بالضبط، وبناء على ما يذكره اسفنديار، فإن أبا الفضل السائر العلوي كان موجوداً في أواسط القرن العاشر، ويذكر أمدروز أن تاريخ وفاة أبي الفضل السائر هو ٣٤٥هـ/٩٥٦-٩٥٧م^(٣).

ويبدو من الرسالة أن طريقاً واحداً اتخذ في عدة رحلات، حيث يبدأ من مدينة "الشيز" في جنوب أذربيجان، ويمتد في البداية إلى الشمال حتى مدينة "باكو" ثم إلى "تفليس" ومن هناك عبر "مضيق الدردنيل" في شهرزور، وفي النهاية يسير بدرجة تقل أو تكبر إلى الشرق عبر كرسين - همدان - الري - طبرستان - قومس - طوس - نيسابور إلى هيرات، ثم بعد وصفها ينتقل أبو دلف إلى معالم اصفهان ومدن خوزستان وعندها ينتهي الكتاب^(٤).

ويبدو من الأخبار التي يسردها "أبو دلف" أنها جاءت نتيجة مجموعة زيارات لأماكن مختلفة ثم ذكرها بغير ترتيب، وربما أضاف إليها أوصاف بلدان لم يزرها لأن أسلوب

(١) مفيد نجم، «موقع تلويحة المدى»، بقاء المدن وخرابها، أوروبا كما راودت خيالات الرحالة العرب وحضرت في مدوناتهم. جوجا.

(٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب، ١/١٩٢.

(٣) الرسالة الثانية، المقدمة ص ٢٢.

(٤) الرسالة، ص ١٩.

الوصف وحيويته تختلف عند وصف الأماكن التي يُشك بوصوله إليها. مثل أخباره عن الديلم وخوارزم، كما نجده في أماكن أخرى لا يتقيد بالترتيب الزمني للأحداث، فحينما تحدث عن حوادث شهرزور ذكر تاريخ ٣٤١هـ/٩٥٢-٩٥٣م، ثم بعد ذلك يذكر أنه كان في "كرسين" في عام ٣٤٠هـ/٩٥١م، وهذا يعزز القول بأن المؤلف عند قيامه بأسفار كثيرة وفيما بعد جمعها ورتبها على الصورة التي هي عليها^(١).

يتحدث أبو دلف عن تجواله، فيذكر الدروب التي سلكها، والظواهر التي شاهدها في طريقه، ويصف الأشجار والنبات والمعادن التي أكثر من ذكرها والتعريف بخصائصها حتى يحسبه القارئ جيولوجياً أو متخصصاً بدراسة المعادن، وكذلك يصف المدن ويسمي من يحكمها، ويتحدث عن ظواهرها العمرانية، فوصف أصفهان وسورها وانهارها ومعبدتها الذي تذكى فيه النيران، ويذكر ما نسج حوله من قصص وأساطير. تحدث عن مدينة الران، فذكر أنها تحتوي على معادن الذهب ومعادن أخرى متعددة، وذكر نباتات فيها لها خصائص طبية.

وصف قلعة ملك الديلم المعروفة "بسميران" ووصف بناءها، كما تحدث عن صاحبها "محمد بن مسافر"^(٢) فذكر طباعه ونظامه، ونجد مبالغة أحياناً في أوصافه، فيذكر: "ثم إنني رجعت إلى أذربيجان في الجبل إلى "موقان" فكان مسيري ثمانين فرسخاً تحت الشجر على ساحل بحر طبرستان العظيم، حتى أتيت موضعاً يقال له "باكويه" من أعمال "شروان" فألفت فيه عيناً للنفط، تبلغ قبالتها كل يوم ألف درهم، إلى جانبها عين أخرى تسيل نفطاً أبيض كدهن الزئبق لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً يبلغ ضمانه مثل ذلك"^(٣).

"وسرت من هناك في بلد الأرمن حتى انتهيت إلى تفليس وفيها حمامات شديدة الحرارة، ولا إسلام وراءها..."^(٤).

يذكر المعادن التي توجد في كل منطقة يزورها، ويوضح أساس أو أصل مختلف المعادن التي يصادفها، ويرجع ذلك حسب قوله إلى أعماله في الصيدلة والكيمياء، وأبو دلف

(١) انظر ن. م، ص ٢٠.

(٢) مؤسس عائلة الديلم من بني مسافر «القريني ١٠-١١».

(٣) الرسالة ص ٤٥-٤٦، سلسلة جبال موقان في أذربيجان وباكويه هي باكو الحالية عاصمة أرمينية.

(٤) الرسالة، ص ٤٦.

يذكر أكثر من (٤٠) مكاناً يوجد فيها المعادن أو الأحجار الطبيعية كالذهب والرصاص والزئبق والنحاس والألمنيوم ومعادن أخرى كثيرة^(١).

كذلك يتعامل مع النبات - فيذكر الرمان حول نهر الرّسّ بأنه رمان عجيب لم ير في بلد من البلدان مثله، وقال بأن فيها تين عجيب، وزبيبها يجفف في التناير لأنه لا شمس عندهم لكثرة الضباب^(٢)، ذكر النخل والزيتون والجوز والثلج وفواكه الجبل والسهل^(٣).

ولا ينسى أن يذكر الحيوانات التي يشاهدها مثل: قرن البقر والجواميس والبغال والبراذين وغيرها^(٤). ويذكر طيب هواء بعض المدن التي يزورها فيصف مثلاً أصبها بأنها صحيحة الهواء نقية الجو خالية من جميع الهوام، ولا تبلى أجساد الموتى في تربتها ولا تتغير فيها رائحة اللحم^(٥).

ويقول بأن جرجان مدينة حسنة على واد عظيم في ثغور بلدان السهل والجبل والبر والبحر، وبها النخل والزيتون والجوز والرمان وقصب السكر والأترج وبها ابرسيم (حرير) جيد لا يحل صبغه، وبها أحجار كثيرة لها خواص عجيبة، وبها ثعابين تهول الناظر ولا ضرر بها^(٦).

رحل أبو دلف إلى أرمينية وأفاض بالحديث عن أهلها وحكامها وسهولها وجبالها وكثرة ينابيعها، وعن أسواقها، كما تحدث عن بلاد الحرائية (ونريز) وبلاد طي، ويقول بأن طرق هذه البلاد مألوفة فصدها الشاعر أبو تمام والبحثري وغيرهما^(٧)، وكان علي ابن مر الطائي صاحبها (أي مدينة نريز)^(٨)، ممدحاً يقصده الشعراء، فيتصرفون باللهي حتى غلب

(١) ن. م ص ٢٢.

(٢) ن. م ص ٤٩.

(٣) ن. م ص ٤٨، ٦٤، ٨٧.

(٤) ن. م ص ٧١.

(٥) ن. م ص ٩٠.

(٦) ن. م ص ٨٧.

(٧) ن. م ص ٥٦-٥٧.

(٨) (نريز) بلدة بأذربيجان من نواحي أردبيل، ياقوت، معجم البلدان، دار الكتاب العربي، ص ٢٨١.

على البلد صنف من الأكراد يعرفون بالهذبانية^(١).

ويقول "بأن شهر زور مدينت وقرى وفيها مدينة كبيرة، وهي قصبتها في وقتنا هذا يقال لها: "أزراي" وأهلها عصاة على السلطان، قد استطعموا الخلاف واستعذبوا العصيان^(٢). وفي رحلة إلى بلاد الأترك يعكس من خلال وصفه اختلافاً ثقافياً عبر وصف عاداتهم وتقاليدهم، إذ هو ينظر إلى الغير من موقع الذات فيقدم مادة غنية عن الأقوام التي يراها في أساليب معيشتها وتفكيرها والحياة الاجتماعية التي يحيونها، ويجمل بشكل شمولي نظرهم إلى الأشياء.

وقد أسهب في الحديث عن معابد البلدان التي زارها، وبخاصة تماثيل بوذا، ويقول عن "البد"^(٣)، الموجود في الباميان: "وهذا بيت عظيم يحله الزهاد والعباد وبه من الأصنام الذهب المرصع، ما يجاوز القدر، ولا يبلغه النعت والصفة، يحججه الناس من الهند من أقاصي بلادها براً وبحراً، للتفرج على بيت الذهب العجيب، ويقول أن العرب لما فتحوا هذا الموضع في أيام الحجاج الثقفي، أخذوا منه مائة بهار ذهباً، وينقل النديم ما قاله له أبو دلف الينبوعي: "أن البيت الذي يعرف ببيت الذهب ليس هو هذا والبيت في براري الهند من أرض مكران والقندهار، لا يصل إليه إلا العباد والزهاد من الهند، وأنه مبني بالذهب يكون طوله سبعة أذرع وعرضه مثل ذلك، وارتفاعه اثني عشر ذراعاً، مرصع بأنواع الجواهر وفيه من البددة (مفردها بد) المعمولة من الياقوت الأحمر وغيره من الحجارة الثمينة العجيبة المرصعة بالدرر الفاخر الذي الدرّة منه مثل بيضة الطائر..."^(٤).

تفاوتت المصادر في ذكرها لبيوت العبادة سواء عند هندوس الهند أو عند أتباع زرادشت من الفرس، ويظهر أن هذه البيوتات بتماثيلها المختلفة كانت منتشرة في الأرجاء الواسعة في بلاد فارس والهند، ولا شك أن أبا دلف قد بالغ في وصف هذه البيوت مما

(١) الرسالة ن. م ص ٥٧.

(٢) ن. م ص ٥٨.

(٣) انظر الفهرست، ٣٤٦-٤٧.

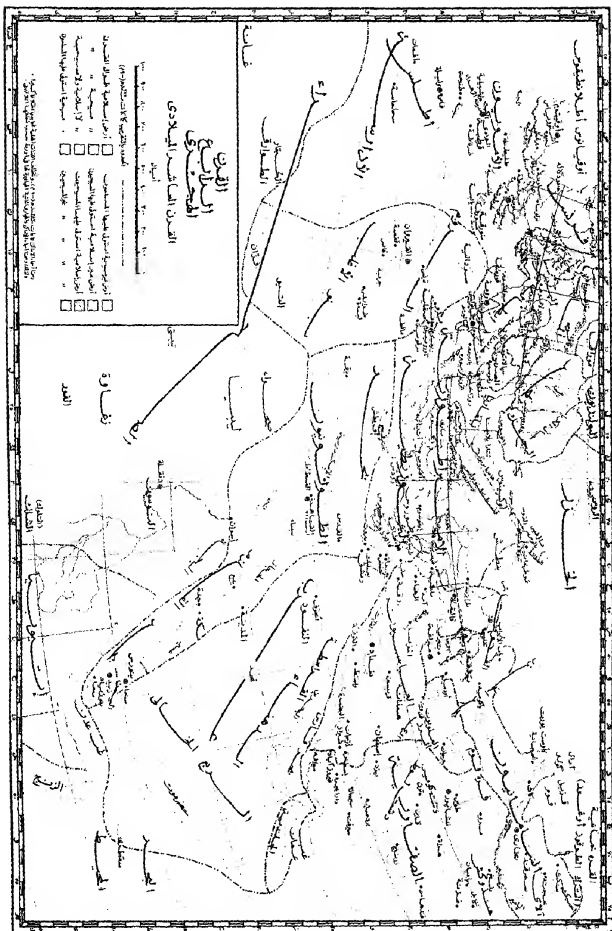
(٤) الفهرست ص ٣٤٦-٣٤٧.

جعل المحققان للرسالة يشيران إلى ما وقع به أبو دلف من أوهام ومن زيادات^(١).

وهكذا نرى أن القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري، هو قرن منجزات في مجال العلوم والآداب بشكل عام، ومنجزات في مجال الأدب الجغرافي على الخصوص، على الرغم من أن هذا القرن كان يمثل انحطاطاً سياسياً، نظراً لتمزق العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية هزيلة متعددة، تسلط عليها مغامرون بفرض استغلال هذه الكيانات لمصالح المغامر وعصابته، وبالمقابل يمثل القرن عصر نهوض حضاري، إذ بلغ عدد الرحالة في هذا القرن أوجه وقدم لنا شخصيات جغرافية ذات جوانب ثقافية متعددة من بينهم هؤلاء الذين سبق لنا التنويه بجهودهم.

وقد تجول الرحالة العرب شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وكانت الرحلات إلى الأقاليم الشمالية من العالم القديم هي الأصعب لكون شعوب هذه البلدان غير معروفين جيداً للعرب، لبعدهم وبرودة أصقاعهم، واختلاف عقائدهم ومذاهبهم يضاف لذلك وعورة مسالكهم وصعوبة دروبهم، ومع ذلك أصر الرحالة على استكشاف هذه البلاد والتعريف بها حتى لأهلها.

(١) انظر الرسالة، ص ٣٥-٣٧، ٦٥، ٧٢.



الرحلة والرحالة في حياة نقولا زيادة

إن الرحلة ضرب من ضروب النشاط البشري، تمتد جذورها إلى بدايات الجنس البشري، فالإنسان مفطور على حب الاستكشاف والاستطلاع ومضطر إلى التنقل والارتحال بدوافع الحاجة، فقد رحل البشر سعياً وراء الرزق، حصولاً على الماء والكأ. ثم تنالت الدواعي تبعاً لتعدد الحاجات وتزايد البشر وتقدم وسائل التنقل والاتصال، وكانت بذلك الرحلات التجارية، كما في رحلتي الصيف والشتاء في مكة قبل الإسلام، والرحلات في المواسم الدينية نحو المقدسات، فظهر الرواد الذين رحلوا بقصد المعرفة والاستكشاف، ولا تكاد سير الرواد والنابعين في كل علم تنفصل عن تاريخ العلم نفسه، فعلم الرحلة أو ما يسمى أدب الرحلات نما مع بقية العلوم الإسلامية، وأصبحت له مدرسة مميزة، ما تزال شواهدا ظاهرة أمام الكافة في المكتبات العربية.

ومن أقدم الرحلات التي وصلتنا أخبارها رحلة «سنوحي» الخيالية التي تحكي قصة أمير مصري هرب اثر انقلاب سياسي إلى بلاد الشام في القرن العشرين قبل الميلاد، وجاء في هذه المدونة وصف لأحوال بلاد الشام الاقتصادية والاجتماعية^(١). كذلك وردتنا أخبار الرحلة التي قام بها المصريون القدماء عام ١٤٩٣ ق. م. باسطول مكون من خمسة مراكب أبحر في النيل باتجاه الجنوب على متن كل مركب واحد وثلاثين مصرياً، لتسويق بضائعهم النفيسة (البخور والعطور) وكان ذلك أول إتصال بين المصريين وأقزام افريقيا، كما تشير إلى ذلك نقوش الدير البحري من استقبال ملك وملكة «بويني» لمبعوث مصري، والرسوم تشير إلى الخصائص الجسمية^(٢).

(١) نقولا زيادة، عربيات، حضارة ولغة، الأهلية للنشر والتوزيع، مصر ١٩٦٦، ص ١٦٢-١٦٣. سيشار إلى هذا المرجع عند وروده، زيادة، عربيات.

(٢) أنظر نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، دار المعارف، مصر ١٩٦٦م، ص ١٦٢-١٦٣. سيشار إليه عند وروده، نجيب ميخائيل، مصر.

وهكذا تتابع الجهد الإنساني في مجال الرحلة والاستكشاف، ولما جاء الإسلام، أثار غرائز المعرفة، وحث على كشف المجهول، والسير في الأرض، كما هو واضح في العديد من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المعنكوت: الآية (٢٠)]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: الآية (١٥)]. ومثل ذلك كثير.

كما وأن فرائض الإسلام استدعت قيام المسلم بالترحال، وفي طليعة هذه الفروض "حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً" والرحلة في طلب العلم، "اطلب العلم ولو في الصين"، ثم تعددت الدواعي وشاعت الرحلات وأصبح في مكتبتنا عشرات المؤلفات النادرة في الجغرافيا والرحلات، هذا التراث الغني الذي غملكه في مجال الجغرافيا والرحلات، أنجب أعلاماً رواداً في هذا الميدان. والدكتور زيادة من الذين استهوتهم الرحلة، وشغفوا بالتنقل حتى أصبحت الرحلة بأشكالها العملية والفكرية والجمالية، جزءاً أساسياً من حياته، والذين عاصروه أو اطلعوا على أعماله الواسعة والمتنوعة يدركون هذه الحقيقة، ففي أعماله دائماً جنوح إلى زيارة المكان والتغني بجماله وقوفاً على اطلاله، فإن لم يتيسر له الوصول إلى المكان والمشاهدة العينية، عرضه يعيون من سبقوه من الرحالة، وأحياناً نجده يقوم برحلة خيالية يعبر فيها الزمان ليرسم صورة تاريخية للمكان الذي يصل إليه، كيف كان وكيف أصبح، إنه في مشاهداته العينية والخيالية يحرص على نظم الماضي بالحاضر بروية المؤرخ الذي يعي بشكل كامل صورة المكان عبر الزمان.

ومن يقرأ أعمال زيادة، يشعر بالإصرار على ربط مغرب الوطن العربي بمشرقه، وكأنه يؤكد على الوحدة الحضارية التي تجمع أطراف الوطن العربي، فقد عقد مقارنة تاريخية أبرز فيها فن العمارة كواحد من أجماد الماضي العربي - بين مدينتي ويلي في المغرب الأقصى ومدينة بعلبك في المشرق (فهما نتاج عصر واحد، ومع أن اليد التي أقامت بعلبك كانت أمهر، فإن الآله الذي صنعهما واحد في الأساس)^(١).

(١) نقولاً زيادة، الأعمال الكاملة "صفحات مغربية" الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٣٢، سيشار إليه عند ورود، زيادة، صفحات مغربية.

هكذا تصل الرويا بزيادة إلى استخلاص عبر التاريخ فيقول: «هنا انتهت حضارة وابتدأت أخرى انتهت حضارة الروم لتبدأ حضارة العرب وإنتهت الوثنية والنصرانية ليبدأ الإسلام»^(١).

وفي قصة سنوحي السابقة نجد يستخلص العبرة المتمثلة بما قاله الوالد لولده سنوحي الصغير: "يا سنوحي الصغير لا تظن بأن النبل والشرف دم يجري في عروق الإنسان، ولكن النبل والشرف طين وأبقار وعمل"^(٢).

وهو بهذه العبر يلخص الأهمية التاريخية للرحلات ويجعلها من المكونات الأساسية للمعرفة اللازمة للحياة.

لقد سقت هذه المقدمات لأوضح أن الدكتور زيادة رحالة وجغرافي فوق كونه مؤرخ وأديب لا بل نجد أدبه يطغى على كل أعماله عذوبة أسلوب وسلامة لغة، ورقة إحساس، إنها ملكات الأديب المتمرس الباحث عن المعرفة تلك التي نلاحظها في كتاباته حيثما تنوعت، وهذا كان دأب الجغرافيين الكبار في حضارتنا.

يدعو صاحبنا باستمرار إلى السفر والترحال والتغرب عن الأوطان، ويردد ما قاله رمضان العطيفي (ت ١١٠٥ هـ / ١٦٩٣ م) في فوائد السفر:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

تفرج هم واکتساب معيشة وعلم وأدب وصحية ما جد

فلن قيل في الأسفار هم وغربة وقطع قفار واقتحام شذائذ

فموت الفقير خير له من مقامه بأرض هوان بين واثق وحاسد^(٣)

يستطرد زيادة فيقول «ولاني كثير الرحلة فإني أؤيد العطيفي فأقول: إذا استثنت

(١) زيادة، صفحات مغربية.

(٢) زيادة، عربيات، ص ١٧-٣٣.

(٣) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة "لبنانيات" الأهلية للنشر والتوزيع. بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٢٧٦، سيشار إليه عند وروده، زيادة، لبنانيات.

اكتساب المعيشة، فقد نعمت بالأمور والفوائد الأربعة الأخرى، وكم آمل أن أكتب يوماً من الأيام عن إفادتي من الرحلة في تفرج الهم والعلم والأدب وصحبة الماجد»^(١).

تحدث زيادة في مذكراته (أيامي) عن شغفه بالرحلة والسفر منذ طفولته، فكثيراً ما كان يصطحب أصحابه في رحلات إلى الأماكن الأثرية والطبيعية القريبة وهو ما زال في الصفوف الأولى، ثم كيف التحق بفرق الكشافة والرياضة وكان المحرك لها للقيام بالرحلات^(٢).

روى لنا تفاصيل إحدى رحلاته التي قام بها سنة ١٩٢٥م برفقة صديقه درويش المقدادي، مشياً على الأقدام، من فلسطين إلى لبنان وشمال سورية، وسنه لا تتجاوز الثامنة عشرة^(٣).

بدأ الرفيقان الرحلة من صفد شمال فلسطين - وكان خط سيرهما: صفد منطقة الحولة - بانياس - جباتا - الزيت - قمة جبل الشيخ - شبع - صيدا - جزين - عماطور - بعقلين - دير القمر - بيروت (زيارة لجبيل) - صوفر - زهور الشوير - صنين - العاقورة - حصرون - وبزغون - الأرز - وطرابلس - تلة كلخ - قلعة الحصن - صافيتا - جبلة - اللاذقية - (٤ أيام في جبال النصيرية) - ثم بحراً إلى انطاكية. والعودة من أنطاكية عن طريق حلب - حماة - حمص - بعلبك - زحلة - دمشق - وإلى القاهرة (بالسيارة والقطار)^(٤).

وروى لنا تفاصيل رحلة ثانية إلى لبنان سنة ١٩٣٥م، وبأسلوب الأديب البارع، وصف لنا قلعة جبل الشيخ ووصوله إلى (القرنة السوداء) وهي أعلى قمة في بلاد الشام، وقد اختلط أدب الرحلة بالتاريخ والسياسة والماضي بالحاضر، فكان هذا الرحالة يريد إدخال كل شيء في ذهن القارئ حتى لا تفوته فائدة، ذكر في عرضه المشاق والمعاناة التي واجهها في رحلته، وذكر في نفس الوقت المتعة التي حصلت له وهو يتجول في ثنايا الطبيعة الخلابة، مستسلماً لصحبتها، مطمئناً لآمنها وأمانها، ويرى في ذلك ما يفوق أمان

(١) زيادة، لبنانيات، ص ٢٧٦.

(٢) نقولاً زيادة، أيامي - سيرة ذاتية - ٢ ج، هزار - لندن، ١٩٩٢، ج ١، ص ١٠٥، سيشار إليه عند وروده، زيادة، أيامي.

(٣) ولد نقولاً زيادة في دمشق عام ١٩٠٧م، من أبوين أصلهما من الناصرة، بفلسطين، انظر نقولاً زيادة، الأعمال الكاملة، في سبيل البحث عن الله، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٧، سيشار إليه عند وروده، زيادة، في سبيل البحث.

(٤) زيادة، لبنانيات، مقدمة الكتاب.

الإنسان، ومن جميل تعبيره عن هذا الانطباع قوله: «لما وصلنا مكاناً - قبل شبعاً - عوى كلب، فاستشهد صاحبي درويش بالبيت القائل:

عوى الكلب فاستأنست بالكلب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر^(١)

تركت هذه الرحلات انطباعاً أثّر في نفسية الدكتور زيادة، فهو يقول عند ذكرها: «هاتان الزيارتان لا تزال آثارهما منطبعة في ذهني»^(٢) ويقول «ثمة أمور ادركتها وأخرى ملأت قلبي غبطة وسروراً جاءتني من الصلة الأولى بلبنان، فالوقوف على قمة جبل الشيخ وقمة صنين وظهر القضيبي علمني كلمة «الجبل الأشم» و «الرفعة» و «الصمود» والتنقل على مهل في ربوع الجمال ومعانيه في لبنان، يومها كان له معنى غير المعنى الذي صار له فيما بعد»^(٣).

وكما فعل الرحالة العظام من قبله، فهو يصف كل ما يمر به في رحلته من البشر والحجر والشجر والهواء والماء، وتظهر إنفعالات الرجل مع الرؤيا سلباً أو إيجاباً حسبما يرى في المنظر، فعندما يتجول في آثار قلعة جبيل وتأخذ المشاهد المعبرة عن حضارة الأجداد فيقول:

«إن كل شخص يقيم في المشرق العربي يشاركني يومها في أننا نحمل على اكتافنا وزر تاريخ يمتد على الأقل، سبعة آلاف سنة، وما أثقله من حمل»^(٤).

لا يكتفي نقولا زيادة بالوصف الجغرافي للمكان الذي يزوره، بل يجمع كل مكوناته التي تيسر الحياة لسكانه، فعندما يصف ارز لبنان مثلاً، يتذكر دور لبنان القديم في تجارة الأخشاب^(٥)، ولا ينس الدور، المتنوع للطبيعة اللبنانية في تنوع المحاصيل، وبين مكان وآخر يقف متأملاً ومستوحياً تاريخ المكان وجماله، فتثير في نفس الشيخ الأشجان والاطمئنان في آن معاً، فيعقد المقاربات التاريخية بين هذه الصورة الحاملة والمعبرة عن عظمة الماضي وارتباطه بالحاضر، وكأنه يعطي دروساً بالوطنية للأجيال التالية، كي يقدرُوا

(١) زيادة، لبنانيات، المرجع السابق.

(٢) نفس المرجع.

(٣) نفس المرجع. ص ١٠٦-٢٢

(٤) زيادة، لبنانيات، ص ١١.

(٥) نفس المرجع ص ٦٦

جهود من سبقوهم ويحافظوا على ما أنجزوه. تخيل وهو على اطلال انطاكية لقاءً مع الطبيب العربي الرحالة (ابن بطلان)^(١). الذي رحل من بغداد إلى مصر والقسطنطينية مروراً بحلب حيث أقام مدة في رعاية حاكمها (معز الدولة بن ثمال صالح) ويظهر من تصور زيادة أن ابن بطلان كان على علم بالأماكن التي زارها والمجالس التي حضرها، ولعل اختيار ابن بطلان بالذات لهذا اللقاء مرتبط بانتشار الوباء سنة (٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م) ففي هذه السنة دفن في كنيسة لوقا بعد أن امتلأت جميع المدافن التي في القسطنطينية اربعة عشر الف نسمة في الخريف...، ومات في القسطنطينية والشام أكثر أهلها، وجميع الغريباء، الا من شاء الله، وابن بطلان الطبيب واحد من الذين تصدوا لهذا الوباء، بعلمهم ونصائحهم، فكانه بذلك يؤكد على ضرورة العلوم لبقاء الحياة.

فهذه المقاربة التاريخية تجعل المرء يتساءل، هل الرحلة بما فيها من شواهد هي التي جعلت صاحبنا يستحضر ابن بطلان من قلب التاريخ، أم هو نزاع التاريخ في عقل المؤرخ، يأتي إلا أن يظهر في الوقت المناسب ليؤدي دوره؟!

فإبن بطلان الى جانب كونه طبيباً ورحالاً، فهو مؤرخ يتحدث عن أحوال الناس في البلدان التي زارها، كما لا ينسى من باب الوفاء أن يؤرخ للعلم والعلماء في زمانه، فيترجم للفقهاء والقضاة والأدباء والكتاب الذين ذهب بهم الوباء، ويقول: « فانطقات سرج العلم وبقيت العقول بعدهم في ظلمة »^(٢).

تكرر مثل هذه الصورة التي تربط بين الماضي والحاضر في كتابات زيادة الرحالة، الكاتب والأديب، فهل كان يضع هذه الصورة امام القارىء لاستخلاص العظة والعبرة؟^(٣).

(١) هو ابو الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان، نصراني من أهل بغداد قام برحلته من بغداد إلى مصر سنة (٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م) وكان دخوله القسطنطينية في مستهل جمادى الآخرة من سنة (٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م) وأقام بها ثلاث سنين، وذلك في دولة المستنصر بالله الفاطمي، انظر ابن أبي اصيبعة موفق الدين ابي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، د. ت. ص ٣٢٥ - ٣٢٦، سيشار إليه عند وروده، ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء.

(٢) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

(٣) انظر، نقولاً زيادة، الأعمال الكاملة، لمحات من تاريخ العرب، الأهلية، للنشر، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص ١٠١-١٥، سيشار إليه عند وروده، زيادة، لمحات من تاريخ العرب.

يحث زيادة الرحالة على المشي ليصل إلى ما لا تصل إليه وسائل النقل الحديثة، ويرى في المشي متعة بجمال المكان، وراحة للنفس، فالمشي يوصل إلى قمم الجبال، حيث تسرح العيون في كل الجهات، فقد استوحى رؤية ذلك الفلاح وقد بلغ به التعب مبلغه من الحصاد في يوم حار، فلاذ إلى ظل شجرة قريبة، بعد أن أكمل عمله يستريح من العناء ويستمتع بالظل والهواء ويسرح ناظره عبر الجبال والوديان، ويترجم مشاعره مغنياً بعد غبطته بنعمتي الظل والراحة ويقول:

لا طلع لراس الجبل	واشرف على الوادي
وأقول يا أهل الجبل	نسسم هوى بلادي
ايمتى يسيل النهر	تيجر الوادي
لحط صدري جسر	لتعبر البنية ^(١)

كرر الشيخ زيادة هذا المشهد، وكأنه يختزل أماني الفلاح اللبناني، لا بل الفلاح أينما كان حيث يرى السعادة بوجود الحب والماء.

وهذه الأغنية تتكرر في بلادنا بصيغ مختلفة ولكنها تحمل نفس المعنى فمن الصيغ التي لا زالت تتردد:

لا طلع عراس الجبل	واشرف على الوادي
واقول يا مرحبا	نسسم هوى بلادي
يا ربي تنشتي الدنيا	ويسيل الوادي
وامد ايدي جسر	تاتعبر البنية

أحب زيادة بلاد العرب وخصها جميعاً بأعماله، وأبرز مفاتن كل بلد بأسلوبه الأدبي الرائع، لكن حبه للبنان كان فوق كل حب، فهو متيم بجباله وسهوله، مأخوذ بسحر جماله، فكتب عنه الكثير، ولم ينقطع عن التغني به حتى فارق الحياة. أحب لبنان لأنه عرفه جبلاً وهضاباً وسهولاً وآثراً وثقافة وشعباً وشعباً، فكتب في خريف ١٩٩٠م «هذه المعرفة الحقيقية لهذا البلد وعاصمته هي أساس حبي وهذا الكتاب «لبنانيات» الذي اضعه بين يدي

(١) زيادة، لمحات، من تاريخ العرب، ص ٧٢-٧٨

القاريء إنما هو عربون لهذه المحبة أو لهذه الصداقة»^(١). وهذا وفاء رجل قدر للبنان وأهله إحتضان لبنان له معزراً مكرماً طيلة سبع وخمسين سنة أقامها فيه (١٩٤٩ - ٢٠٠٦م) «ولذلك فأنا أقول أن بيروت ولبنان واللبنانيين أعجوبة، وإنني أحب بيروت لمئة سبب وسبب، وإن كنت لا أستطيع أن أعد أكثر من عشرة أسباب»^(٢).

وكما أحب زيادة لبنان أحب الأردن، وكرر الزيارات للأردن، محاضراً، ومشاركاً في البرامج الثقافية المختلفة، ورحالاً بين سهوله وجباله، فوصف لنا في إحدى زيارته الطريق من عمان إلى جرش، ويستثيره المشهد فيروي تاريخ الأردن وبلاد الشام ويفصل في تاريخ جرش، وكأنه يؤكد بأن تاريخ بلاد الشام وحدة لا تتجزأ، وفي إحدى رحلاته إلى بتر، يصف رحلته بالقطار من عمان إلى جنوب الأردن، ويتحدث عن الركاب الذين كان فيهم التجار الذين جمعوا سلعهم من حوانيت دمشق وعمان، لينقلوها، إلى أهل الكرك.

وقد امتدت محبته وعشقه من لبنان ليشمل بلاد العرب من أقصى مشرقه إلى أقصى مغربه، وتحدث عن بلدانه حديث الرحالة المشاهد والمعاين، لا حديث السامع والقاريء، لأن زيادة زار كل رقعة في دنيا العروبة مرة ومرات، وأقام فيها وتنقل بأرجائها، وتغنى بمعالمها الجميلة، وبعث تاريخها التليد واشاد بعلمائها وأدبائها وشعرائها، وأهل كل فن فيها.

تحدث عن فلسطين موطن أهله ومدرج صباه، ونظر إلى حالها من خارج الحدود، فأدرك أن العروبة هي الحاضنة لفلسطين، وأن لا دواء لآلام فلسطين إلا بالعروبة، لذلك عاش زيادة عروبياً حتى النخاع، واعتبر جهده وعلمه ديناً في عنقه تجاه وطنه، فكتبه «عالم العرب، جغرافيته، تاريخه، ومصادر ثروته»^(٣)، اشتمل على عرض تاريخي جغرافي لاثنتين وعشرين دولة عربية، ابتداء بالمغرب وإنهاء بلبنان». هذا العشق لدنيا العروبة جعله يطير إلى تونس ويزور جزيرة جربة المقابلة للساحل التونسي، ويجول بها عرضاً وطولاً ويعتد تاريخها ويعترف أهلها وأسلوب عيشتهم، ويعود إلى بيروت، ثم يعاود السفر إلى

(١) زيادة، لبنانيات، ص ٢٤

(٢) نفس المرجع، ص ٢٢

(٣) الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢، سيشار إليه عند ورود زيادة، عالم العرب، وهو مجموعة مقالات، نشرتها مجلة "شؤون عربية" التي كانت تصدرها، الجامعة العربية، وذلك ابتداء من آذار، مارس، ١٩٨١م.

طرابلس في ليبيا، ويتجشم السفر إلى الصحراء الليبية ليروي لغيره الحقائق التي يجدها في أسفاره. يقول زيادة: «وقد أتيت لي فيما بعد من السنين أن اشرق في دنيا العرب وأغرب ووصل به التغريب إلى بلاد شنقيط ليروي أخبارها، ويثني على آدابها، ويقرظ علماءها وفقهاءها ويرسم لهذا البلد - الذي كنا لا نعلم عنه إلا القليل - صورة تبعث على الأمل لنشاط هذا الشعب العربي الذي حافظ على حضارته وعروبته رغم فقره وعزلته.

كذلك أفرد كتاباً^(١) تحدث فيه عن أربع وعشرين مدينة عربية من مراكش إلى بغداد، استعرض فيه تاريخ هذه المدن ومعالمها الحضارية وذكر فترات ازدهارها والشواهد على آثارها وعمرانها، وهو في حديثه يجمع ما بين رواية التاريخ ومشاهدة العين.

ومن بين أعماله الكثيرة في الشأن العربي، كتاب اسماء بـ «مشرقيات» وآخر سماه «مغربيات» صفحات مغربية وثالث اسماء «متوسطيات»، بالإضافة إلى «لبنانيات» و«شاميات» وكأنه يؤكد على وحدة الوطن والأمة بعد ما أصاب هذا الوطن من إنقسام وهذه الأمة من تفرق، وهو يوزع حبه وعشقه على اقطار الوطن بالتساوي حتى لا يفسح المجال للعتب عليه، ما نذكره من نشاط للراحل هو قليل من كثير في ميدان العروبة، حضارة، وقومية، فقد عرض قضايا الأمة عرض الخبير بالآلام الأمة وأدوائها، فهو حين يتحدث عن المغرب يشعر وكأنك تعيش في المشرق العربي وبالعكس، كان يبحث عن عناصر الوحدة في التاريخ والوجدان، ويعرضها للأجيال بعين الرحالة الفنان، خشية عليها من التآكل والنسيان.

وبما أن صاحبنا رحالة وجغرافي يجوب البلدان شرقاً وغرباً، فقد عرفناه لا يستقر في مكان، فكل أرجاء الوطن الكبير مقره، وكل الناس في هذه الأرجاء أهله، وقد حققت له الرحلات الكثير من الأصحاب الأماجد، ويسرت له الإطلاع على ما خفى من الكنوز، فزاده هذا حباً في الرحلة والمغامرة واتقدت في نفسه جذوة الإطلاع على أعمال الذين سبقوه، فهل يا ترى كان اطلاعه هذا هو الذي ولد لديه هواية الرحلة والسياحة، أم أن الرحلة والسياحة هما اللتان ولدتا فيه حب الإطلاع والمعرفة؟

(١) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة (مدن عربية) الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢م، (التصدير) سيشار إليه عند وروده، زيادة، مدن عربية.

وأرى أن كل العوامل السالفة مع عامل حب الاستكشاف، دفعت صاحبنا للتأريخ للرحالة والرحلات إلى بلاد العرب، ويعتبر بحق من أوائل العرب الذين ولجوا هذا الباب في العصور الحديثة، ومن المؤسف أن دراسة تاريخ الجغرافية العربية الحديثة لم تقم بسواعد العرب في الأساس وإنما يعود الفضل في ذلك للأوروبيين، من أمثال : ناليو (Nailino) ومينورسكي (Minorsky) ومجيك Mzik وهو نجمان Honigmann، ومن قبلهم رينو Reinaud وغيرهم^(١)، وهؤلاء وأمثالهم لفت نظرهم التراث الجغرافي الضخم الذي خلفه العرب من عصور الإزدهار، فانكبوا عليه ترجمة ودراسة ومن ثم تأليفاً حتى أصبحت أسماء الاعلام العرب في الجغرافيا معروفة ومألوفة في المدارس الغربية والشرقية من المتخصصين في ميدان الجغرافيا التاريخية عند الغرب. ففي عام ١٨٧٠م، بدأ العلامة الهولندي دي خوية Degueje تنفيذ فكرته بنشر سلسلة (مكتبة الجغرافيين العرب) Bibiotheca Geographopum Arabicorum التي اكتمل عقدها بظهور الجزء الثامن في عام ١٨٩٤م وتضم في صفحاتها مصنفات مؤلفي عهد ازدهار الأدب الجغرافي العربي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، الثالث والرابع الهجريين، وفي عام ١٨٤٢م عمل فستنفلد wuistinfeld موجزاً بلوغرافياً للأدب الجغرافي العربي معتمداً في ذلك على كتاب حاجي خليفة (كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون) فأورد أسماء مائة وستة وعشرين مؤلفاً، وهو رقم لا يمكن اعتباره في الآونة الأخيرة (الحاضرة) وافياً بالغرض^(٢). ومنذ نهاية القرن التاسع عشر تتابع الاهتمام بالجغرافيا وأدب الرحلات عند العرب بفضل تقدم وسائل الاتصال وحركة الترجمة واضطراد حركة الاستشراق (الاستعراب). وكذلك زاد الاهتمام بهذا الميدان في القرن العشرين وشاركت به دول جديدة، فكان بارتولد Bartold الروسي ومن ثم كراتشكو فسكي صاحب كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الذي اشرنا إليه سابقاً، وهو بحق افضل مؤلف في ميدانه حتى الآن .

وإذا كان كتاب كراتشكوفسكي قد ظهر عام ١٩٥٧ م فإن الدكتور زيادة سبق هذا

(١) انظر، ا.ي، كراتشكو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية : صلاح الدين عثمان هاشم، قام بمراجعته، ايغور بلياييف، القسم الأول. اختارته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر. ٢ ج، ١ ج، ص ١٠-٦ . سيشار إليه عند ورود كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي.

(٢) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي، ص ٢٩

العالم، إذ نشر أول كتاب له بعنوان "رواد الشرق العربي في العصور الوسطى"^(١). سنة ١٩٤٣م وتحدث في هذا الكتاب عن الرحلة والرحالة فذكر الحج إلى القدس واثره في سياحة الأوروبيين إلى الشرق العربي، وذكر أسماء عدد من الذين تركوا وصفاً لزياراتهم وإنطباعاتهم.

كما تحدث عن الجغرافيا والرحلات في الإسلام، موضحاً دور الإسلام في حفز الناس على الرحلة، واستعرض عدداً كبيراً من الرحالين المسلمين، قديماً وحديثاً حتى عصره، وفي عام ١٩٦٢م، صدر له كتاب ثان بعنوان: «الجغرافيا والرحلات عند العرب» يتحدث فيه عن العرب والجغرافيا، متبعاً المدارس الجغرافية من الدور اليوناني العربي، حيث كان التأليف متأثراً ببطليموس اليوناني، ويمثل هذه المدرسة ابن خردادبه (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) صاحب كتاب «المسالك والممالك». واليعقوبي في (٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) مؤلف كتاب «البلدان» وابن رسته (٢٩٠ هـ / ٩٣٠ م) صاحب كتاب «الأعلاق النفسية» والخوارزمي الذي ألف كتاب «صورة الأرض» وابن الفقيه (٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م) صاحب كتاب «البلدان» ويعقوب الكندي صاحب كتاب «صورة الأرض» وقدامه بن جعفر (٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م) صاحب كتاب «الخراج وصناعة الكتابة»^(٢).

وقد أفرد كراتشكوفسكي فصلاً من كتابه يتحدث فيه عن جغرافي المدرسة اليونانية والزيجات الكبرى، ولم يذكر من الذين ذكرهم زيادة سوى الخوارزمي الرياضي ويعقوب الكندي^(٣). وتشير كتابات زيادة أنه نقل هذه المعلومة عن الأوروبيين^(٤).

أخذ زيادة بما أجمع عليه أهل التاريخ الجغرافي «بأن القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي يمثل فترة النضج في البحث الجغرافي عند العرب» الذين أنتجوا مدرسة عربية في الجغرافيا، وبرز ممثليها: الأصبهري (توفي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) وابن حوقل (٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) والمقدسي (٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م)، وذلك في بحوثهم المبينة على

(١) نشر لأول مرة سنة ١٩٤٣ م، هدية المقتطف السنوية، سيشار إليه عند وروده، زيادة، رواد الشرق.

(٢) زيادة، الجغرافية والرحلات، ص ١٧.

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، (ج ١ من ثبوت المحتويات). انظر ترجمة الكندي، في ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٨.

(٤) اشار زيادة في إحدى حواشيه إلى : ميلر Miller, Mappae Arabicae Band Band 1/1 p.10 انظر رواد الشرق، ص ٥٧.

الاختبارات والمشاهدة الناتجة عن السفر والارتحال^(١).

ومن الجغرافيين المسلمين من اختص بأقليم واحد بعينه كالأهمداني (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) الذي ألف كتاب «صفة جزيرة العرب» والبيروني (ت حوالي ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) في كتابه عن الهند. يستعرض زيادة جهود الجغرافيين العرب موضحاً مميزات كل جغرافي وما له وما عليه والمكتبة العربية تزخر بعشرات الكتب في مجال الجغرافية والرحلات، ولا شك أن رحلات هؤلاء الجغرافيين تستهوي صاحبنا، لايمانه بأن معلومات الرحالة تمعن في التفاصيل الدقيقة المعتمدة على المشاهدة.

كان وصف البلدان من عمل المؤرخين، ولكن الأمر ما لبث أن استقل فتولاه كتاب الأقاليم، وكان منهم ابن خرداذبه (٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، وكتابه من أقدم الكتب عن جباية الدولة العباسية في أواسط القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، حيث كان يتولى ديوان البريد والخبر بنواحي الجبل في بلاد فارس، وكذلك برز قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج الذي بين فيه الطرق والمسافات، فضلاً عن قيمة جباية الدولة^(٢)، ومثل ذلك يقال عن: اليعقوبي وابن الفقيه وابن رسته.

يتفق كراتشكوفسكي مع زيادة بالقول بغنى الحضارة الإسلامية في ميادين علم الجغرافية، ولا سيما الجغرافية الوصفية التي تعتبر أدباً من نتاج الرحالة^(٣).

ومن أعجب بهم زيادة، وأكثر الاستشهاد بهم المقدسي (٣٧٨هـ/ ٩٨٨م) صاحب «كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ولا نكاد نجد كتاباً من كتبه إلا وفيه نقول من المقدسي، فمن ذلك ما نقله عن الشام: «والتجارات به مفيدة يرتفع من فلسطين الزيت والقطن والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط - ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني ...»^(٤).

(١) زيادة المرجع نفسه. والجغرافيا والرحلات، ص ٣٠.

(٢) زيادة، رواد الشرق، ص ٥٦.

(٣) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي، ج ١ ص ١٩-٢٠.

(٤) زيادة، رواد الشرق، ص ١٢٥، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (ت ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م). "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، مكتبة مدبولي، ٣، القاهرة، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م. ص ١٨٠-١٨١، سيشار إليه عند وروده، المقدسي، أحسن التقاسيم.

واقتبس من المقدسي بعض تقاليد وعادات أهل اليمن، ويذكر كيف انهم يوقدون مصابيحهم بدهن السمك، كناية عن تأثير البحر فيهم، كما ينقل عنه مقدار الضرائب في مدينة (ميناء) جده^(١).

وذكر شيئاً عن أهل العراق مما أورده المقدسي، عن ملابسهم ودكاكينهم وبعض مواسمهم^(٢). والمقدسي أهل لثقة شيخنا الذي يحسن تقدير عمل الرحالة، فقد عانى في رحلاته، واكتسب مهارة وأدب الرحال، وآمن أن المعلومة القائمة على الوصف والمشاهدة هي أصدق الأخبار. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تعززت الثقة لكون المقدسي شامي خبر بلده ارضاً وناساً.

واخذ زيادة وصف ابن حوقل لبرقة وطرابلس في ليبيا، فذكر أن برقة أول محطة ينزلها القادم من مصر إلى القيروان، ومدح منتوجات برقة من القطران، ووصف كثرة التجار الغرباء فيها، وقال في أسواقها الجلود والتمور ويصلها الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت^(٣). يكثر زيادة الاقتباسات التي تتعلق باقتصاد البلدان، ومعايش الناس، وبعض العادات المميزة للسكان، فهو ينقل وصف ابن حوقل لأهل جزيرة «أوجله» و سرت في ليبيا، فيقول «هم قوم مرموقون بنظافة الأعراض والثياب والأحوال ولهم في الخير مذهب من طريق العصبية لا يدانيهم أهل بلد»^(٤).

نقل زيادة كذلك عن ابن حوقل بعض احاديثه عن أهل الأندلس وما فيها من نفائس البحر، ووصف مدنها العامرة والزاهرة، ووصف صقلية، وما في هذه البلدان من العجائب والغرائب^(٥). وكذلك فعل في أوصاف مدن الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، وبعد

(١) زيادة، رواد الشرق، ص ١٢٦، المقدسي، احسن التقاسيم، ص ٨٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠٤.

(٢) زيادة، رواد الشرق، ص ١٢٦، المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٣) ابن حوقل، أبو القاسم النيصبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٦٩، سيشار اليه عند وروده، ابن حوقل، صورة الأرض. زيادة، الجغرافية والرحلات ص ٣٢.

(٤) زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص ٣٢-٣٣. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٧١. أنظر ما ذكره زيادة عن رحلة ابن حوقل في الجغرافية والرحلات، ص ٣٢ وما بعدها.

(٥) أنظر ما ذكره زيادة عن رحلة ابن حوقل في الجغرافية والرحلات، ص ٣٢ وما بعدها.

هؤلاء الجغرافيين تأتي طبقة اصحاب المعاجم الجغرافية وعلى راسهم ياقوت الحموي، ثم اصحاب الموسوعات فيما بعد كالنويري والقلقشندي، وابن فضل الله العمري، وفي الفصل الثامن من كتاب الجغرافية والرحلات تحدث عن « طلائع الرحالين » بدأ فيه برحلة ابن فضلان^(١)، ثم تحدث عن المسعودي^(٢).

وبعد ذلك تناول الرحالة وفقاً لأوطانهم، فتكلم تحت عنوان " رحالون من الشرق " ^(٣) عن نصري خسرو ورحلته، ثم الهروي ورحلته^(٤)، وتحت عنوان : رحلة من المغرب، تحدث عن ابن جبير ورحلته^(٥)، وابن سعيد ورحلته^(٦)، ثم العبدري ورحلته^(٧)، ثم أفرد عنوانا « رحلة عالم »، تحدث فيه عن عبد اللطيف البغدادي^(٨)، وبعد ذلك تحدث عن شيخ الرحالين ابن بطوطة^(٩)، وبعد ابن بطوطة تحدث عن التجاني ورحلته^(١٠).

وفي كتابه الأول « رواد الشرق العربي » تناول الرحالين المسلمين، نصري خسرو، وابن سعيد، وابن جبير، واسامة بن منقذ والهروي، والبغدادي، وابن بطوطة، وقايتباي الملك الأشرف^(١١)، هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الرحالة الأندلسيين والمغاربة الذين

(١) نقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٤١، سيشار إليه عند وروده، زيادة الجغرافية والرحلات .

(٢) المسعودي هو أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) من ذرية عبد الله بن مسعود الصحابي رضي الله عنه، واعتبر من البغداديين، انظر ترجمته في مقدمة كتابه " مروج الذهب ومعادن الجوهر "، ج٤، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٤، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م. سيشار إليه عند وروده، المسعودي، مروج.

(٣) زيادة، الجغرافية والرحلات ص ١٥١

(٤) نفس المرجع ص ١٥٦

(٥) نفس المرجع، ص ١٦٠

(٦) نفس المرجع ص ١٦٢

(٧) نفس المرجع ص ١٧٤

(٨) نفس المرجع ص ١٨٠

(٩) نفس المرجع ص ١٨٨

(١٠) زيادة، رواد الشرق، ص ٦٢

(١١) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، لبنانيات، الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢ م، سيشار إليه عند وروده، زيادة لبنانيات.

زاروا الشرق بقصد الحج وطلب العلم.

ويلاحظ المطلع على أعمال الدكتور زيادة الاستشهاد المتكرر بأقوال الرحالة المسلمين في وصف البلدان التي يتحدث عنها، ففي كتابه «لبنانيات» يتحدث عن جغرافي العرب ولبنان، فيورد ما قاله ناصري خسرو، وابن جبير وابن بطوطة، كما يورد أقوال رحالة من غير العرب كولينم الصوري، ويعقوب الدفتري ودولابروكييه والأب دنديني وجون ساندرسون وهنري مندرل وفولني وجون كارن... الخ^(١).

ومعظم الرحالة النصارى جاءوا فلسطين بغرض الحج، ومن ثم توسعت سياحتهم في المنطقة، ومعظم معلوماتهم مفعمة بالروح العدائية للعرب والمسلمين، وإن كان بعضها لا يخلو من فائدة وبخاصة في وصف الكنائس والأديرة.

وفي كتابه «أبعاد التاريخ اللبناني» يقتبس الكثير مما ذكره المقدسي^(٢)، وهكذا يفعل في معظم مؤلفاته، وبأنه لا يمل من تأكيد دين الماضي على الحاضر، ولذلك فهو دائم التذكير والتذكير تساعده في ذلك ثقافته التاريخية.

لن نتمكن من عرض كل ما كتبه عن الرحلات والرحالة، فالمجال لا يتسع لذلك سنوجز ما أورده من تأريخ لأشهر الرحالة الذين ترجم لهم واستفاض في عرض رحلاتهم مراعين في ذلك ترتيبه المتبع في كتابه الثاني الذي سبقت الإشارة إليه من اسماءهم الرحالة. أورد زيادة أخبار ابن فضلان ورحلته، واشاد بنتائجها، وابن فضلان كان على رأس وفد رسمي للخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ / ٩٠٧ - ٩٣٢ م) إلى ملك الصقالبة من شعوب البلغار عند حوض نهر الفرجا في بلاد الروس^(٣)، وقد استغرقت الرحلة من بغداد إلى بلاد الصقالبة أحد عشر شهراً (من ١١ صفر سنة ٣٠٩ هـ / ٢١

(١) نقولا زيادة، المرجع السابق.

(٢) نقولا زيادة الأعمال الكاملة، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص ١٢١، سيشار إليه عند وروده، أبعاد التاريخ.

(٣) انظر زيادة، الجغرافية والرحلات ص ١٤٢، ورواد الشرق. ص ٦١، وانظر رحلة ابن فضلان تحقيق محمد سامي الدهان، نشر المجموع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٩ م.

حزيران/ يونيو ٩٢١م إلى ٢ محرم سنة ٣١٠هـ/ ١١ أيار / مايو ٩٢٢ م^(١).

وصف ابن فضلان ما شاهده في رحلته من عجائب وغرائب في العادات والتقاليد للشعوب التي مر بها، ولم ينس حتى وصف الليل والنهار وما يصيبهما من طول وقصر، والجو وما يتبدل فيه الحر والقر من مكان لآخر.

وبعد ابن فضلان تحدث زيادة عن المسعودي ت (٣٤٦هـ / ٩٥٧م) المؤرخ والجغرافي، ويعتبره واحداً من أعلام الفكر العربي الاسلامي، فيقول: « فهو واحد من أولئك الذين أحاطوا بالمعرفة، إحاطة وافية، وتمثلها تمثلاً صحيحاً »، كتب المسعودي عشرات من الكتب اشهرها في مجال الجغرافية والبلدانيات مما وصل إلينا، « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ». وكتاب « التنبيه والإشراف ». والمسعودي مثل غيره ممن تعلموا وألفوا وتنقلوا من مكان لآخر في العالم الإسلامي براً وبحراً، وهو بالإضافة إلى كونه جغرافي فهو مؤرخ بارع وناقد نافذ، إذ نقد الكثير ممن تقدموه وأثنى على بعضهم من أمثال: ابن قتيبة الدينوري والطبري المؤرخ ونفطويه والصولي وقدامة بن جعفر^(٢).

وصف المسعودي الأماكن التي زارها وصفاً دقيقاً وشاملاً لذلك اعتبره من جاء بعده، الوحيد الذي تحدث عن الشعوب والبلاد المجاورة لعالم الإسلام في عصره^(٣). وفي تناوله رحالة من المشرق تحدث عن ناصري خسرو (ق ٥ هـ / ١١ ق م) وقال أنه كان « إسماعيلياً شديداً التعصب لمذهبه » كما شهد له بدقة ملاحظاته وعنايته ببعض الأخبار وروايتها، لذلك جاءت رحلته المعروفة باسم « سفر نامه » غنية بالصور المليئة بالمعلومات عن البلاد التي زارها^(٤). وكان خسرو قد تجول في أقطار بلاد الشام، متنقلاً في مدنه الواحدة بعد الأخرى، كما زار مصر والحجاز، وخص مكة المكرمة ومناسك الحج ومشاعره فيها بقسط كبير من جهوده ووقته وكتابه^(٥).

(١) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص ١٤١ - ١٤٢.

(٢) المسعودي، سبقت الإشارة إليه. انظر زيادة، الجغرافية والرحلات، ص ١٤٦ - ١٥٠.

(٣) زيادة، المرجع السابق، ص ١٥٠.

(٤) زيادة، رواد الشرق، ص ٦٣ - ٦٤.

(٥) الهروي هو ابو الحسن علي بن أبي بكر، (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م) وكتابه، الإشارات نشره، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، وعينت بنشره وتحقيقه، جانين سورديل، طومين، دمشق، ١٩٥٣م. سيشار إليه عند

استدل زيادة على دقة ملاحظة خسرو بما ذكره عن المد والجزر في الخليج العربي، وعلاقة ذلك بالفيضان في شط العرب . والهروي هو الرحالة الثاني الذي تحدث عنه صاحبنا، وهو معاصر للرحالة الأندلسي ابن جبير (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) وتتبع تجواله في كل من سوريا والعراق واليمن والحجاز ومصر وبلاد الروم وجزر البحر الأبيض المتوسط وحتى صقلية، وذكر زيادة أن الهروي يمتاز عن غيره بمعرفته بعلم السیما.

زار الهروي القسطنطينية وشمال سوريا، والتقى بقيادة المسلمين في هذه البلاد. وأورد خبر حملته لرسائل، من القائد ابو القاسم بن حمود إلى صلاح الدين الأيوبي، يطلب إليه تجهيز حملة ضد صقلية، وقد دون الهروي معلوماته في كتابه «الإشارات إلى معرفة الزيارات»^(١)، واشتمل الكتاب على ذكر لمئات الأماكن الدينية، ومن لطيف ما جاء به أيضاً، وصفه لزهو مصر ونباتاتها^(٢).

أما عن الرحالين من المغرب فتحدث عن ابن جبير^(٣) (ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م) الذي قام بثلاث رحلات، أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات (٥٧٨-٥٨١هـ). وجاءت معلوماته حافلة في المشاهدة والتجارب التي اكتسبها اثناء تجواله في عجائب البلدان والمدن، ورويته لغرائب الأشياء وإطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التي كانت سائدة في تلك الفترات^(٤).

رحل ابن جبير للمشرق مرتين وحج في كل واحدة منها، وفي طريقه إلى الشرق زار مصر، وسواحل البحر المتوسط، وركب البحر من عكا إلى صقلية بمركب فرنجي وجاءت اخباره في البداية على شكل مذكرات ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البلاد والصلبيين في سوريا، كما كان شديد العناية في البحث عن

وروده، الهروي، الإشارات. زيادة، رواد الشرق، ص ٦٩-٧٠.

(١) الهروي، المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥٠-٥١. انظر زيادة، رواد الشرق. ص ٧١.

(٣) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي الشاطبي، ولد ببلنسية سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، وكتابه عرف باسمه هو (رحلة بن جبير) . دار التراث، - بيروت، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، سيشار إليه عند وروده، ابن جبير، الرحلة.

(٤) ابن جبير الرحلة، ص ٥، زيادة، رواد الشرق، ص ٦٧.

المدارس والمساجد والمارستانات، وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الأسلوب» وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده، فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته، وليس أدل على ذلك من أن ابن بطوطة نفسه نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد^(١)، وفي كتابه «لمحات من تاريخ العرب» أتى زيادة على وصف ابن جبير لتجواله في البحر المتوسط، وعودته من عكا إلى الأندلس ووصفه للمركب الذي حملة^(٢).

زار ابن جبير دمشق ووصف جامعها ومدارسها، ومارستاناتها، وأهلها، وانتقد بعض عادات أهلها، ومن ذلك تحيتهم وصفة سلامهم، فقال عنهم: «وهذه الحالة من الانعكاف الركوعي في السلام، كما عهدناه لقينات النساء، فيا عجباً لهؤلاء الرجال كيف تحلوا بسمات ربات الحجال»^(٣).

وابن سعيد رحالة أندلسي ولد سنة (٦١٠ هـ / ١٢١٤ م) في أسرة عريقة في الحسب والنسب، عمل لوزير الموحدين بإفريقية ابن جامع^(٤)،

وقد ترجم له الدكتور زيادة وقال عنه «لقد ترك لنا ابن سعيد وصفاً نفيساً لمصر والفسطاط»^(٥). ارتحل إلى المشرق سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م وفي مصر تلقى أخبار الهجوم المغولي على حلب بقيادة هولاكو، وما تركه هذا الهجوم من خراب وتدمير. له تواليف كثيرة وتسمياتها عجيبة مثل «المغرب في حلي المغرب» و «المشرق في حلي المشرق» و«المرقصات والمطربات»^(٦).

والعبدري هو محمد بن علي وينسب إلى عبد الدار، واسم العبدري مرتبط ببلنسية، فهو رحالة أندلسي رحل إلى المشرق عبر الشمال الإفريقي وعاد برا إلى بلاده، وفي رحلته

(١) زيادة رواد الشرق، ص ٦٨-٦٩

(٢) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، لمحات في تاريخ العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص ٥٢-٥٥، سيشار إليه عند وروده، زيادة، لمحات.

(٣) زيادة، رواد الشرق ص ٦١، ابن جبير، الرحلة ص ٢٤٢

(٤) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص ١٦٢

(٥) نفس المرجع

(٦) نفس المرجع ص ١٦٣

التي بدأت في شهر ذي القعدة من عام ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م، وصف فيها المدن المغربية التي مر بها في طريقه إلى الشرق، مثل: تلمسان - الجزائر - وحل بتونس واستطرد بوصف كافة معالمها وقال: «: تونس مطمح الآمال، ومصب كل برق، ومحط الرحال من الغرب والشرق»^(١). وقال عنها « وما زالت تونس كلاها الله دار ملك وفخامة، وهي الآن دار مملكة افريقية»^(٢). ووصف الجامع الأعظم (جامع الزيتونة) وماء زغوان والحنانيا (القناطر)، ومدح أهل تونس وقال: « ما رأيت لأهلها نظيراً شرقاً وغرباً »^(٣). كما اثني على علماء تونس وقضاتها وعدولها، ومؤديها وتجارها.

وكما اسلفنا أفرد زيادة عنوان « رحالة عالم » تحدث تحت هذا العنوان عن عبد اللطيف البغدادي وذكر مولده في بغداد سنة ٥٢٧ هـ / ١١٦٢ م جاء دمشق في عهد صلاح الدين، وحصلت مناظرات بينه وبين علمائها فانتصر عليهم، ثم توجه إلى القدس وجاء معسكر صلاح الدين والتقى بظاهر عكا مع بهاء الدين بن شداد، قاضي عسكر صلاح الدين وعماد الدين الكاتب والقاضي الفاضل. لم تطل إقامة عبد اللطيف البغدادي في مصر حيث أكمل كتابه: « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر »^(٤). زار البغدادي القدس ودرّس في الجامع الأقصى، ومكث بدمشق حيث اشتهر بصناعة الطب ودرّس في المدرسة العزيزية، وتنقل بعد ذلك بين حلب وأذربيجان في بلاد الروم، وأرزن الروم وبغداد وتوفي بها^(٥).

أما ابن بطوطة فأطلق عليه الدكتور زيادة لقب: «شيخ الرحالين»^(٦). ويقول: « إن الرجل الذي يقضي ثمان وعشرين سنة من حياته، يتنقل في أجزاء العالم المعروف، فتحمله أسفاره من طنجة إلى مصر عبر شمال افريقية، ثم إلى الشام، وبعد أن يقضي فريضة الحج

(١) نفس المرجع ص ١٦٦

(٢) نفس المرجع ص ١٦٧

(٣) نفس المرجع، ص ١٦٨

(٤) عبد اللطيف البغدادي، (٥٥٧ هـ - ٦٢٩ هـ / ١١٦١ - ١٢٣١ م)، (الإفادة والاعتبار ...). تحقيق المحامي أحمد غسان سبانو، دار ابن زيدون، بيروت، دار قتيبة، دمشق، ط ٢، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م، انظر زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص ١٧٥.

(٥) زيادة، نفس المرجع، ص ١٧٦

(٦) نفس المرجع، ص ١٨٠ - ١٨٧. زيادة، رواد الشرق، ص ٧٦ - ٧٨

يزور إيران وبلاد العرب وشرق أفريقيا ويدخل القرم وحوض الفولقا الأدنى ويعرج على القسطنطينية، وبعد ذلك يمعن بالرحلة شرقاً إلى خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند والصين وجزر الهند الشرقية، ثم يزور الأندلس والسودان، والذي يقطع في أسفاره ما لا يقل عن ١٢٠,٠٠٠ من الكيلومترات، أن رجلاً هذا شأنه يعتبر بحق شيخ الرحالين العرب، وسيد الرحالين اطلاقاً في عصره أي في القرن الثامن الهجري « الرابع عشر الميلادي»^(١)، ومما يجدر ذكره أن ابن بطوطة فقد الأوراق التي كان يسجل فيها ملاحظاته، لذلك أملى رحلته من الذاكرة. استعرض زيادة تفاصيل الرحلات التي قام بها ابن بطوطة عبر العالم المعروف آنذاك، واقتبس الكثير مما ذكره عن أسفاره ومعاناته، وتقلب الأحوال به، وذكر وصف الظواهر العمرانية والاجتماعية والسياسية. ويذكر زيادة بعض خصائص الرحلة لابن بطوطة، منها: أنه كان قليل الحفاوة بالأرض والمدن، ولكنه كان عظيم الاهتمام بالناس وخاصة بالعلماء والأولياء، ومن ثم فالرجل بالإضافة إلى كونه رحالة من الطبقة الأولى، يمكن اعتباره مؤرخاً اجتماعياً للمسلمين في عصره»^(٢).

إن الملاحظات التي يبيدها الدكتور زيادة على أدب الرحلات تشير إلى وعيه بأهمية الرحلة بما تحققه من أهداف شمولية، تصور المجتمع بشكل كلي، وتبرز كل مكوناته، وتعطي كل الوانه، وتسمى الأشياء باسمائها، دون خوف أو وجل، هذه هي صورة أدب الرحلات في عقل زيادة، وهذا ما نجده في رحلاته، يستنطق الحجر والشجر والبر والبحر والأنسان والحيوان ويستخلص الصورة الحقيقية للحالة التي يقف عليها في تجواله.

بعد ابن بطوطة تحدث زيادة عن رحلة آخر اكتسبت رحلته أيضاً شهرة واسعة، ذلك هو التجاني التونسي^(٣)، وعندما يتحدث الدكتور زيادة عن التجاني الرحالة، يتحدث كعادته عن الأحوال العامة لبيئة الرحالة السياسية والاجتماعية والعلمية ولذلك عرض

(١) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨-١٣٦٩م)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب المصري . سيشار إليه عند وروده، ابن بطوطة، الرحلة.

(٢) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص ١٨٢.

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، ولد في مدينة تونس، عاصمة الدولة الحفصية آنذاك بين سنتي (٦٧٠-٦٧٥هـ / ١٢٧٢-١٢٧٦م)، من أسرة عريقة بالعلم والأدب والفقه . انظر زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص ١٨٨.

لعلاقة التجاني باللحياني الذي استولى على الملك في تونس فترة من الوقت وكان التجاني يتولى رئاسة دواوين رسائله، ولما لم يستطع اللحياني الصمود في الحكم، غادر تونس تاركاً مصيرها لخصومه، فوقع التجاني وغيره من أفراد أسرته في أيدي الخصوم وانتهت حياتهم بالقتل. زار التجاني في إتجاهه شرقاً المدن التونسية كما زار جزيرة جربة المقابلة للساحل التونسي ثم طرابلس ومصراته، ثم عاد بطريق أقرب إلى الساحل أي أنه لم يعرج إلى الأماكن الداخلية.

تحدث زيادة عن نشاط التجاني الأدبي وعن رسائله ومراسلاته كونه كان رئيساً لديوان الرسائل ويقول بأن رحلته هي أدب وتاريخ وجغرافية، ووصف المجتمع الذي رآه وخالطه ويرى زيادة أن أحداً لم يصف جربه من رجال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة، بمثل الدقة التي وصفها بها التجاني، ومما قاله: « وجزيرة جربة من أعظم الجزائر خطراً، وأشهرها في سالف الزمن عمارة وذكرأ، وطولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً... وأما عرضها فمختلف فعرض الراس الغربي منها عشرون ميلاً، وهو الطرف الواسع، ومن هذا الموضع إلى جزيرة قرقنة في البحر ستون ميلاً... »^(١). وهكذا يستمر التجاني بذكر كل التفاصيل للمكان الذي يزوره وهذا يلاقي الاستحسان لدى زيادة، الباحث عن استكشاف المجهول ليكون أمام القارئ حتى يشعر بأنه يقف في ذات المكان. تحدث التجاني عن المدارس والعلماء والأدباء وأورد زيادة الاقتباسات الكثيرة من هذه الرحلة الغنية باسماء العلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم^(٢).

ويظهر من خلال أعمال الدكتور زيادة، أنه كان مستوعباً لكافة رحلات الرحالة، وأن مشاهداتهم ورواياتهم حاضرة في ذهنه، يستحضر مادتهم عند الحاجة، فعندما يتحدث عن الخليج العربي في العصور الوسطى يستحضر تاريخ الصراع على التجارة وطرقها وموانئها^(٣) ويستشهد بما ذكره المؤرخون والجغرافيون والرحالة لذلك يورد أخبار البصرة وسيراف وعمان ويصف متاجرها ومراكبها، من خلال مشاهدات الأصطخري وابن

(١) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص ١٨٨-١٩٨

(٢) المرجع نفسه

(٣) زيادة، الجغرافية، والرحلات، ص ٢١٤-٢٢٢

جوقل والمقدسي والمسعودي، فلا يتخرج من الاستحضار المتكرر لبعض الرحالة، فهو حين يتحدث عن الإحساء في العصور الوسطى ويلحظ أنه لم يتعرض للحديث عنها عند حديثه عن ناصري خسرو، يعاود ما ذكره خسرو عن وصف الإحساء وما يتبعها من سواد وما فيها من زنوج كما يتحدث عن قلعتها وعن كل وسائل العيش فيها، ويتنقل خسرو في أرجاء الخليج فيتحدث عن الشواطئ الشمالية والشمالية الشرقية منه ويذكر كيف عمل أهل الخليج المنارات كي لا تصطدم السفن بالمياه الضحلة. وكيف يوقدون السرج في زجاجات بحيث لا تطفئها الرياح، وتحدث عن مدينة مهروبان وأهميتها كمركز تجاري ذات سوق كبير، ويترك زيادة الحديث عن المدن والعمران ليتحدث عن المروزي من أهل القرن الثاني عشر، وما قدمه من معلومات قيمة عن الصين والأترك وغيرهم من شعوب المشرق^(١) وفي هذا الإطار يورد زيادة ما ذكره كل من بنيامين بن البلخي (القرن الثاني عشر) وياقوت الحموي (القرن الثالث عشر) وما ذكره ابن بطوطة عن أجزاء أخرى من الخليج وشطآنه، ووصفه مدينة ظفار والبحرين والمغاص على اللؤلؤ^(٢). وهكذا يستمر جهد زيادة دون ملل في البحث عبر العصور عن تاريخ المكان وما أصابه من تطور، وما امتاز به وما تعرض له من أهوال.

تحدث زيادة عن اسامة بن منقذ^(٣) الأمير الفارسي الذي تنقل في مصر وسوريا وبغداد ويقول: «إنما ادخلناه في عداد الرحالين لأن كتاب الاعتبار نسيج وحده في الأدب العربي ومذكرات صاحبه تشمل صفحات مجيدة في تاريخ الفروسية والقومية العربية^(٤)، وبالإضافة إلى البعد الأدبي في الكتاب فإن فيه إشارات كثيرة إلى أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية^(٥)، جاب أسامة انحاء الشرق العربي وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق وفي مصر زمن الخليفة الفاطمي بالقاهرة (١١٤٤-١١٥٤م) وأما

(١) المرجع نفسه ص ٢١٧

(٢) زيادة، الجغرافيا والرحلات، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٣) ولد اسامة بقلعة شيزر في ٢٧ جمادى الأولى ٤٨٨هـ / ٤ تموز (يوليو) ١٠٩٥، وقلعة شيزر تقع على بعد (٢٤) كم شمال حماة، كانت حصن بني منقذ انتزعوها من الصليبيين سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١ م.

(٤) زيادة، رواد الشرق، ص ٧٢

(٥) المرجع نفسه ص ٧٣

كهولته فصرفها عند اتابكة الموصل وفي حصن كيفا^(١). زار بيت المقدس وحج وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية وتعرف إلى كبار الأفرنج فضلاً عن صداقته للخلفاء والملوك. وبين الرحلات التي ذكرها زيادة في الفترة المملوكية رحلة رسمية قام بها الملك الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠٢ هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦ م) في سورية سنة ٨٨٢ هـ / ١٤٧٨ م، حين كان شمال سوريا مهدداً من قبل الدولة العثمانية، تفقد برحلته القلاع والتحصينات الدفاعية الحدودية، وزار معظم مدن ديار بكر وسوريا في طريقه. وقد كتب رحلة قايتباي ابو البقاء بن جيعان، وهو أحد الذين رافقوا السلطان وسماها «القول المستطرف في رحلة مولانا الملك الأشرف»^(٢).

يتابع الدكتور زيادة أخبار الرحالة ويحرص أن لا يفوته ذكر أحدهم، فذكر رحلة أبو القاسم الزباني وكتابه «الترجمانه الكبرى» فرغ من تأليفه سنة (١٢٢٣ هـ / ١٨٠٨ م) الذي جمع فيه أخبار المدن المعمورة في البر والبحر، ولم يقتصر على ما جمعه عبد المنعم الحميري في «الروض المعطار» وما جلبه ابن الجوزي من أخبار البحار والقفار وما في «خريدة العجائب» من الجزر والعيون والآبار والأنهار. وما في «عجائب المقدور من نفائس الأخبار وما كان بعدهم من الحوادث والآثار ..»^(٣).

وعرض لرحلة محمد بن عثمان الحشائشي التونسي إلى ليبيا، الذي دون أخبار رحلته في كتاب يعرف باسمين، الأول: «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب» والثاني «النفحات المكية في أخبار المملكة الطرابلسية» سنة ١٣١٣ هـ / ١٨٩٥ م^(٤).

وفي كتاب لبنانيات ذكر زيادة عدداً كبيراً من الرحالة وأصحاب المذكرات وما دونوه من أوصاف وإنطباعات عن لبنان، ومن الذين ذكرهم رمضان بن موسى العطيفي (ت ١٦٩٣ م) وعبد الغني النابلسي (ت ١٧٣١ م)، قام الأول برحلته سنة ١٦٣٧ م، أما النابلسي فقد قام برحلتين إلى المناطق اللبنانية ويمتاز النابلسي «بدقة ملاحظاته عما شاهده

(١) المرجع نفسه ص ٧٢-٧٣

(٢) المرجع نفسه، ص ٧٨-٨٠

(٣) نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، افريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٢ م، ص ٢٥٥. سيشار إليه عند وروده، زيادة، افريقيات.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٣

في الموانئ من المراكب في طرابلس وغيرها»^(١)

ومن اصحاب المذكرات تحدث شيخنا عن مذكرات شكيب أرسلان «الارتسامات اللطاف» وهي ذكريات حجه وإنطباعاته التي خلفتها في نفسه زيارة الأماكن المقدسة^(٢). وتحدث عن الشيخ محمد رشيد رضا ورحلاته في المناطق اللبنانية، ثم رحل إلى مصر، وزار بلاد الشام بعدها مرتين الأولى بعد ١٩٠٨م، والثانية بعد الحرب العالمية الأولى، زار الهند والقسطنطينية وأوروبا، وكان ينشر اخبار رحلاته في مجلة «المنار»^(٣).

استعرض زيادة الحجاج المسيحيين الرحالة، الذين زاروا الشرق العربي وما خلفوه من قصص وأخبار، فعدد رحالة القرنين الرابع والخامس، فذكر جيروم، والقديسة سلفيا (أثريا) وداود الولشي، وقال بان ابرز رحلات القرن السابع رحلة «اركولف» الذي قدم من بلاد الغال إلى الأراضي المقدسة ودمشق وصور والإسكندرية والقسطنطينية، وقد قص اخبار سياحته على راهب انكليزي اسمه «ادفنان» وهذا دونها فيما بعد، واشتملت على ثلاثة أقسام، أولها عن القدس، والثاني عن بقية الأراضي المقدسة ومصر، والثالث عن القسطنطينية، والرحالة يعني بامور كثيرة لها علاقة مباشرة بجغرافية البلاد في أيامه^(٤).

تابع زيادة الحديث عن رحالة القرن الثامن فذكر ليبولد الانكليزي الذي زار سوريا ما بين (٧٢١-٧٢٧م) وبرنارد الحكيم في القرن التاسع، الذي يعتبره القرن الأخير من عصر التفاهم والتسامح بين الشرق والغرب الذي سبق الحروب الصليبية^(٥).

وقد شهدت فترة الحروب الصليبية سياحاً وحجاجاً أوروبين من جنسيات مختلفة «بينهم الولشي والنرويجي والروسي والألماني واليوناني والفرنسي

(١) زيادة، لبنانيات، ص ٢٧٥-٢٨٠

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٣

(٣) نفسه، ص ١٦٥

(٤) زيادة، رواد الشرق العربي، ص ٤٩-٥١.

(٥) المرجع نفسه ص ٥٣.

والأسباني»^(١)، وكانت عناية حجاج الفترة الأولى منصبة على مشاهدة الأماكن المقدسة، ولذلك لا نجد في كتابات سيولف الولشي (على سبيل المثال) سوى جدول يحوي أسماء الكنائس التي زارها في القدس^(٢).

تحتل كتاب القرن الأول من العصر الصليبي على العرب والإسلام، ولكن ذلك تبدل في أوائل القرن الثالث عشر كما يقول زيادة، وقد عرض زيادة لرحلات عدد كبير من الأوروبيين، منهم الكهنة ومنهم المطارنة، وتحدث عن رحلة السائحين اليهوديين بنيامين التودلي الأسباني (١١٦٠ - ١١٧٣م) وبتاحيا بين (١١٧٠ و ١١٨٧م) وهذان يمثلان الحجاج واليهود الغربيين الذين قدموا إلى الشرق لزيارة بني جنسهم فيه.

ومن أشهر الرحلات التي تمت في هذه الفترة «رحلة ماركو بولو» الذي يعتبر أكبر رحالة القرن الثالث عشر ويقول عنه زيادة: «ولو كنا نوّرخ للرحلة أو للكشف الجغرافي لكان لزاماً علينا أن نخصه بأكبر قسط من هذا الكتاب»^(٣). وهذه الشهادة تدل قبل على كل شيء على روح العدل والانصاف لدى زيادة.

انطلق ماركو بولو بصحبة أخيه نحو الشرق، مروراً بالموانئ العربية حتى وصل بلاد الصين، وهو في نظر زيادة «دقيق الملاحظة، كثير العناية بالتاجر وموارد الثروة، ومن هنا كانت اخباره وصوره ذات قيمة خاصة»^(٤).

وآخر رحالة الفترة الصليبية هو بركارد الراهب الدومينيكاني الألماني الذي كتب عن الأرض المقدسة سنة ١٢٨٣م وكان قد أقام بالقدس وسكن عكا وتجول كثيراً في البلاد المجاورة، ويمتاز عمن سبقه بعنايته بالآثار^(٥).

نلاحظ من خلال ما كتبه زيادة عن الرحالة، خصائص متفردة، أولها نظرة الاحترام

(١) زيادة، زواد الشرق، ص ٨١

(٢) المرجع نفسه، زار فلسطين بعيد مجيء الصليبيين (١١٠٢م أو ١١٠٣م).

(٣) زيادة، رواد الشرق، ص ٩٢. (وماركو بولو وأخوه كانا يشرفان على تجارتهما بالقسطنطينية).

(٤) المرجع نفسه، ص ٩٣

(٥) زيادة، رواد الشرق، ص ٩٣.

* لقد قدر للباحث أن يرافق المرحوم زيادة في بعض السفرات العلمية، وأن يتعرف عليه من قرب. فوجده نعم الباحث ونعم صديق السفر.

والتقدير التي يكنها لكل رحالة مهما اختلف جنسه أو مذهبه، وثانيها الدقة في اختياره ابرز المعلومات التي سجلها الرحالة فيما يختص بالعرب وبلادهم، وثالثها هذا الحياء الذي يبديه تجاه النوازع والاتجاهات الكثيرة التي حملها الرحالة، فظل عالماً شامخاً يترفع عن توافه الأمور، مستخدماً المنهجية العلمية في اختيار نصوصه من هذا أو ذاك، ورابعها هذا النفس الطويل الذي تمتع به، وهو ير حل بفكره ونظره مع عشرات وربما مئات الرحالة الذين تعامل معهم، ولا شك أن هذا كله جاء من شخصية الرحال، الذي تفرس على تحمل الشدائد بروح رياضية.

هناك رحلات كثيرة أشار إليها صاحبنا، إذ لا يكاد يخلو عمل من أعماله الكثيرة من ذكر لرحلة من الرحلات أو لرحال من الرحالين، وكم كنت أتمنى لو أنه أهدي كتابه رواد الشرق العربي، وباكورة أعماله إلى روح المقدسي «شيخ الرواد المسلمين في الرحلات» والذي حرص على صحبته طيلة أعماله*.

فليرحمهما الله جزاء خدمتهما لأمة العرب والإسلام

المصادر والمراجع

أ - المصادر العربية

* القرآن الكريم.

* كتب الحديث الشريف.

١- ابن الأثير، ابو الحسن عز الدين بن أبي الكرم (٥٥٥-٦٣٠هـ). التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر احمد الطليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م.

٢- الكامل في التاريخ ١٣م، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.

٣- الأزدي، أبو اسماعيل محمد بن عبد الله، فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠م.

٤- الأزرق، الوليد محمد بن عبد الله بن احمد (٢٥٠هـ/٨٦٤م) أخبار مكة، الطبعة الهندية ١٢٦٥هـ.

٥- الاصطخري، ابو اسحق ابراهيم، كتاب الأقاليم، مكتبة المثنى، بغداد.

٦- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الشيخ الامام، الفتح بن علي البنداري الأصفهاني، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١٩٨٠.

٧- الأصفهاني، ابو الفرج، الأغاني، ٢٤ ج، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.

٨- الأصفهاني، الحسن بن عبد الله، بلاد العرب، تحقيق حمد الجاسر، والدكتور صالح العلي، منشورات دار اليمامة.

٩- الألوسي، محمود شكري، بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الأثري، ط ٣، مصر ١٣٤٢هـ.

١٠- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م) صحيح البخاري ٩ ج/٣م. دار احياء التراث العربي، بيروت.

١١- البدر، نزهة الأنام، المكتبة العربية، بغداد ١٣٤١هـ.

- ١٢- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، ت ٧٦٧هـ/١٣٤٩م، رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، دار الكتاب المصري، القاهرة.
- ١٣- أبو البقاء، هبة الله الحللي، المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، ٢ ج تحقيق: صالح درادكه ومحمد خريسات، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان ١٩٨٤.
- ١٤- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، ت ٤٨٧هـ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ٤ ج، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ١٥- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، م. السعادة، مصر ١٩٥٩م.
- ١٦- ابن تغري بردي، أبي المحاسن يوسف، (٨١٣-٨٨٧هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر د.ت.
- ١٧- الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م، رسائل الجاحظ، جمع حسن السندوبي، القاهرة ١٩٩٣م.
- ١٨- الجزري، عبد القادر محمد الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٩٨٣م.
- ١٩- أبو جعفر، محمد بن يعقوب بن اسحاق الكليني الرازي، ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م، كتاب الكافي، مطبعة طهران.
- ٢٠- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، فضائل القدس، تحقيق جبرائيل جبور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ٢١- ابن حبيب محمد، ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م، كتاب المحبر، رواية أبي سعيد السكري، تحقيق: اينزه ليختن شتير، منشورات المكتب التجاري، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- ٢٢- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، تهذيب التهذيب، طبعة حيدر آباد، الدكن، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.
- ٢٣- الحربي، أبو اسحق ابراهيم بن اسحق الحربي، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم

الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٩/١٩٦٩م.

٢٤- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ت ٤٥٨هـ/١٠٦٣م، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

٢٥- الحميري، محمد عبد المنعم ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦ الروض العطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ط ٢، ١٩٨٤م.

٢٦- الحلبي الشافعي، علي بن برهان الدين، إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون، المعروفة بالسيرة الحلبية، وبهامشه السيرة النبوية والآثار المحمدية، لأحمد زيني دحلان، المطبعة الأزهرية، ط ٣، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

٢٧- ابن حنبل، أحمد، ت ٢٤١هـ/٨٥٥م، مسند أحمد بن حنبل ٦ ج المكتب الإسلامي - بيروت.

٢٨- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.

٢٩- ابن خرداذبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، مطبعة بريل ١٩٦٨م.

٣٠- الخطيب البغدادي، الإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي، ت ٤٩٣هـ/١٠٧٠م، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣١- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، تاريخ ابن خلدون المسمى «العبر وديوان المبدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» بتصحیح وعناية: علّال الفاسي، وعبد العزيز بن ادريس المغربي، تعليق الأمير شكيب ارسلان، مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

٣٢- ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق يوسف علي طويل، ومريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٣٣- خليفه بن خياط (٢٤٠هـ/٨٥٤م) تاريخ خليفه بن خياط، تحقيق أكرم العمري، النجف الأشرف ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

٣٤- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/٩٣٣م) الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، مؤسسة مصر ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

٣٥- الديار بكري، حسن بن محمد بن الحسن، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، المطبعة

الوهيبي، القاهرة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.

٣٦- الدينوري، أبو حنيفة (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م) الأخبار الطوال، تحقيق، عبد المنعم عامر، ومراجعة جمال الدين الشيال، ط ١، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٧- الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي، المواهب اللدنية، المطبعة الأزهرية، القاهرة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

٣٨- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م) الاعلان بالتويخ لمن ذم التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٩- ابن سعد، محمد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى ٨ ج، دار بيروت ودار صادر، بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٥٧م.

٤٠- السمهودي، نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، ١٩٧١.

٤١- السهيلي، الروض الأنف، ضبط وتعليق طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية.

٤٢- ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الجيب، بيروت، ط ٢، ١٩٧٤م.

٤٣- السيوطي، جلال الدين (ت ٩١٠هـ/١٥٠٤م) تاريخ الخلفاء، مطبعة المدني، ط ٢، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

٤٤- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٠٢هـ/٨١٧م)، كتاب الأم، كتاب الشعب ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٤٥- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، م ٣، دار المعارف، القاهرة.

٤٦- تاريخ الرسل والملوك ١٠ ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦٠م.

٤٧- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م)، العقد الفريد، تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، بيروت.

٤٨- أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٣٢٤هـ/٩٣٥م) كتاب الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٨٨م.

٤٩- أبو عبيد معمر بن المثنى، النقائص، الطبعة الأوروبية.

- ٥٠- ابن العديم، كمال الدين عمر (ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م)، زبدة الخلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الكتاب العربي، ١٩٩٧م.
- ٥١- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م)، الزهري، أبو بكر محمد بن مسلم، بعناية: نعمة الله قوجاني، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ٥٢- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: شكري فيصل وروحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد، مطبوعات مجمع اللغة العربية - دمشق.
- ٥٣- العليمي، أبو اليمن القاضي مجير الدين (ت ٩٢٧هـ/١٥١٢م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ ج، المطبعة الوهيبية، القاهرة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م.
- ٥٤- أبو القدا عماد الدين اسماعيل بن محمد صاحب حماء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) المختصر في أحوال البشر، ٢ ج، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- ٥٥- تقويم البلدان، بعناية رينود والبارون ماك كوهين ديسلان، باريس ١٨٥٠م.
- ٥٦- الفسوي (البسوي)، أبو يوسف يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م)، المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة ١٩٨١م.
- ٥٧- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م)، مسالك الإبرار من ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق، أيمن فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، الجزء الخاص بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، بيروت ١٩٨٥م.
- ٥٨- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)، كتاب المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، ط ٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٩م.
- ٥٩- قدامه بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابه، شرح وتعليق محمد حسن الزبيدي، دار الرشيد، بغداد ١٩٨١م.
- ٦٠- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الأنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.
- ٦١- مآثر الانافه في معالم الخلافه، تحقيق: عبد الستار احمد فراج، صورة بالآوفست، عالم الكتب، بيروت ط ١، ١٩٨٠م.

- ٦٢- ابن كثير، عماد الدين اسماعيل (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية، ١٤ ج، ط. بيروت ١٩٦٦م.
- ٦٣- ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م)، كتاب الأصنام، تحقيق: أحمد زكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.
- ٦٤- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م)، التبيين والإشراف، دار التراث، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ٦٥- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٤ ج، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- ٦٦- أبو المعالي المشرف بن المرحا المقدسي، من رجال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، فضائل بيت المقدس والخليل عليه السلام وفضائل الشام.
- ٦٧- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م)، مختصر تاريخ دمشق، تحقيق: محمد راتب حموش ومحمد ناجي العمر راجعه رياض عبد الحميد مراد، حيدر أباد - الدكن ط ١، ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م.
- ٦٨- لسان العرب، دار صادر، بيروت.

ب - المراجع العربية:

- ١- أحمد عادل كمال، الطريق إلى دمشق، دار النفائس، بيروت، د.ت.
- ٢- أحمد عرموش، الفتنة ووقعة الجمل، دار النفائس، بيروت، د.ت.
- ٣- أحمد أمين، ضحى الإسلام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط ٣، ١٩٥٢ م.
- ٤- أسد رستم، الروم وصلاتهم بالعرب، بيروت، ط ١، ١٩٥٥ م.
- ٥- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية و صدر الإسلام، القاهرة، ١٩٢٧ م.
- ٦- جبرائيل جبور، مكانة القدس لدى المسلمين بحث منشور في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام وفلسطين، ١٩٨٠ م.
- ٧- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠ مجلدات، دار العلم للملايين، بيروت، ومكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٨ م.
- ٨- جورج زيدان، العرب قبل الإسلام، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٧٩ م.
- ٩- حمد الجاسر، المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب ضمن كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية ٢ ج، جامعة الرياض، ١٩٧٩ م.
- ١٠- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٤ م.
- ١١- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦ م.
- ١٢- شاكِر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، ٢ ج، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، د.ت.
- ١٣- صالح درادكه، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية، مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، ط ٢، ٢٠٠٧ م.
- ١٤- عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، دار الشروق، ١٩٨٣.
- ١٥- مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١ م.
- ١٦- التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، ١٩٨٤ م.
- ١٧- العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط ١، ١٩٧٤ م.

- ١٨- عبد المالك خلف التميمي، التبشير في منطقة الخليج العربي، الكويت، ١٩٨٢م.
- ١٩- عز الدين التنوخي، الرحلة من الزرقاء إلى القرينات، جمع وتحقيق يحيى عبد الرؤوف حبر، ط ١، ١٩٨٥م.
- ٢٠- عفيف عبد الرحمن، القدس ومكانتها لدى المسلمين وانعكاس ذلك من خلال كتب التراث، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام؛ ١٩٨٧م.
- ٢١- عون الشريف، نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول (ص)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.
- ٢٢- فواز طوقان، الواقصة، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في صور الإسلام، مج ٢، تحرير محمد عدنان البخيت وإحسان عباس، عمان، ١٩٨٧م.
- ٢٣- كامل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، دراسة وبيبلوغرافيا، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، ط ١، ١٩٨١م.
- ٢٤- محمد حميد الله، الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، دار الإرشاد، بيروت، ط ٣، ١٩٦٩م.
- ٢٥- محمد عزة دروزه، تاريخ الجنس العربي، ج ٨، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ت.
- ٢٦- محمد ناصر الدين الألباني، تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربيعي ومعه مناقب الشام وأهله، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ١٤٠٥هـ.
- ٢٧- محمود شيت خطاب، الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، ط ٤، ١٩٧١م.
- ٢٨- ناجي حسن، القبائل العربية في المشرق خلال العصر الأموي، ٤٠هـ/٦٦٠م، ١٣٢هـ/٧٤٩م، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٩٨٠م.
- ٢٩- مرتضى العسكري، خمسون ومائة صحابي مختلف، ترجمة عدد من الصحابة اعتماداً على رواية سيف بن عمر.
- ٣٠- ملكة أبيض، التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاث الأولى، دار العلم للملايين، بيروت.
- ٣١- ناصر الدين الأسد، واقعة أجنادين، دراسة تحليلية للمصادر والروايات، م ٢، بلاد الشام في صدر الإسلام، الندوة الثانية من أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، تحرير محمد عدنان البخيت وإحسان عباس، عمان، ١٩٨٣م.

ج - المراجع العربي

- ١- اجناس جولد تسيهر، العقيدة والشرعية، ترجمة وتعليق محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق، وعلي حسن عبد القادر، دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٦م.
- ٢- ادوارد سعيد، الإستشراق، ترجمة كمال أبو ذيب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط٤، ١٩٩٥م.
- ٣- استيفان رنسيमान، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
- ٤- تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العربي، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- ٥- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج٦، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.
- ٦- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية، نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.
- ٧- برنارد لويس، العرب في التاريخ، تعريب نبيه أمين فارس، ومحمود يوسف زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٨م.
- ٨- توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن ابراهيم حسن، وعبد الحميد عابدين وإسماعيل النحراوي، مصر، ط٣، ١٩٧٠م.
- ٩- جي. ١٠ ج، كرامرز، الجغرافية والتجارة، تراث الإسلام، تأليف فتح الله بإشراف سير توماس آرنولد، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨م.
- ١٠- ديسو العرب في سوريا قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومراجعة محمد مصطفى زياده، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٩م.
- ١١- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدول السلجوقية، نقله إلى العربية، ابراهيم أمين الشواري، وعبد المنعم محمد حسن، وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة.
- ١٢- فؤاد سيزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة عبد الحليم النجار وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٧م.

- ١٣- فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٠م.
- ١٤- فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (٢ ج). ١٥- حتي وإدوارد جرجي، وجبرائيل جبور، تاريخ العرب مطول، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ط٤، ١٩٩٥م.
- ١٦- كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.
- ١٧- القس لامنس، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشناوي ورفاقه، وزارة المعارف العمومية.
- ١٨- الستراخ، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية تستير فرنسيس وكوركس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.
- ١٩- موسكاتي، سبتيو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- ٢٠- هوست كلينكل، آثار سورية القديمة، ترجمة قاسم طوير، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٥م.
- ٢١- وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ٢٢- ي، أ. بليانيف، العرب والإسلام والخلافة العربية، نقله إلى العربية، أنيس فريجه، وراجعته وقدم له محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٢م.

د - المراجع الأجنبية:

- 1 - a.G.W. Bowersock, Roman Arabia Harvard University Press, Mass 1983.
- 2 - Anderw D.petersen, Early ottoman forts on the Hajj Road in Jordan, Thesis Rembroke college oxford, Trinity Term, 1986.
- 3 - A. Smith, Historical Geography of the Holy Land, London (1894-1988).
- 4 - A.N. Stratos, Byzantium in the Century, trans. by Harry f. Hionides, vol.2.
- 5 - Caetani, Leonel, Annali dell' Islam, Lovds, Milani U.Hoeplis 19.5-1926.
- 6 - Conder, The Latin kingdom.
- 7 - F. M.donner, The Early Islamic conquests, Princeton, new Jersey, 1981.
- 8 - H.E. Glidden, The Encyclopaedia of Islam 2ed vol 1.
- 9 - H.E. Glidden, The Mamluk origin of the Fortified New York, 1952.
- 10 - J. Horovits, Islamic culture , 1928.
- 11 - King. Knight Hospitallers?
- 12 - N. Glueck, Detities and Dolphions, New York. 1965.
- 13 - N. Glueck, Bulletin of the American Schools of oriental Research , 1938.
- 14 - Ph, Grant, The Syrian Desert Caravans Travel and Ezploration, New York, The Macmillan company, 1938.
- 15 - Ph, Mayerson, The Desert of southern Palestine according to Byzantine Sources, P.A.PH.S. 1907.
- 16 - Praver, J The latin kingdom of Jerusalem, London, 1972.

- 17 - R.F. Burton, Personal Narrative of Apligrimage to Al. Madina and Mecca, 2 vols, 1964.
- 18 - R.G. Good Child, The coast Road of Phoenicia and its Roman Milestones Archaeol gical Studies Berytus, LX, 1949.
- 19 - Stevenson, W.b, The Crusaders in the east.
- 20 - Trimingham, Christianity among, Arabs in Pre- Islamic times, London, New York.
- 21 - Y.Ahoroni, The Roman Roads to Aila I.E.J, IV. 1954.

الفهارس العامة

- ١ - فهرس الآيات ٣٤٢
- ٢ - فهرس الأحاديث ٣٤٣
- ٣ - فهرس الأشعار ٣٤٤
- ٤ - فهرس القبائل ٣٤٥
- ٥ - فهرس الأعلام ٣٤٦
- ٦ - فهرس الأماكن ٣٤٩
- ٧ - فهرس الموضوعات ٣٧٥

١- فهرس الآيات

- (م)
من جانب الطور ناراً ٢٥
- (و)
والتين والزيتون ٢٥
وان هذه امتكم امة واحدة ٢٣
ونجيناها ولوطاً إلى الأرض ٢٤
ولا تزر وازرة وزر أخرى ٤٧
وجعلنا ابن مريم وأمه آية ٢٤
وسلهم عن القرية ١١٠
ولقد بوأنا بني إسرائيل ٢٥
ونحن نسيح بحمدك ونقدس لك ٢٥
وهل اتك حديث موسى ٢٦
- (ي)
يا موسى أقبل ولا تخف ٢٥
يا نار كوني برداً وسلاماً ٢٦

- (أ)
أفلم يسيروا في الأرض ٢٨١
إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ٢٣
إني ذاهب إلى ربي ٢٦
- (ر)
ربنا إني سكنت من ذريتي ١٧١
- (س)
سبحان الذي أصرى عبده ليلاً ٢٣
- (ف)
فاخلع نعليك أنك بالوادي ٢٦
فأما من أوتي كتابه بيمينه ٤٧
فسيروا في الأرض ٢٨١
فضرب بينهم بسور له باب ٢٤
في بيوت أذن الله أن ترفع ٢٤
- (ل)
لكن الذين اتقوا ربهم ٢٥

٢- فهرس الأحاديث

ق

قدس الأرض الشام ٢٩

ع

عليكم بالشام ٣٠

ل

لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ٣٠

م

من أبغض العرب أبغضه الله ٤٢

هـ

هذا أول يوم انتصف العرب من العجم ٤٣

أ

أربع من مدائن الجنة ٢٩

ألا أن الشام ستفتح ٢٧

إن دمشق من أبواب الجنة ١٦٤

إني نذرت أن أفتح الله عليك مكة ٢٧

الجنة مطوية في قرون الشام ٢٩

س

ستجندون أجناداً ٢٩

ط

طوبى للشام ٣٠

٣- فهرس الشعر

أ

أبلغ أبا بكر إذا الأمر انبرى ١٦٤
اترك لي مصراً لديسون حسرة ٢٥٢

ب

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ١٢١

ت

تربع أكناف القنان فصارة ١١١
تغرب عن الأوطان في طلب العلا ٣٠٥

ر

رأيت وأصحابي بأيلة موهنا ١١١

س

سقى الله حيا بالموقر دارهم ١٦١

ع

على كل مقصوص الذنابي معاود ١٨٩
عوى الكلب فاستأنست بالكلب اذ عوى ٢٠٧

ف

فانكم والمملك يا أهل أيلة ١١١
فدتك عراب اليوم أمني وخالتي ١٨٩
فغربت حتى لم أجد ذكر مشرق ٦٩

ق

قفا نيكى من ذكرى حبيب ومنزل ٥
قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا ٢٧٠

ل

لعزة نار ما تبوخ كأنها ١١١
لقد طمع البرنس بمستحيل ١٣٣
لما تقابلت الحمول حسبها ١١٧

م

متعت بصاقاً والبطاح فلم ترم ١٢٤
من يغر الدهر أو يأمنه ١١٦

ن

نزلت بيت الضب لا أتت ضائر ١٢٣

هـ

هل غادر الشعراء من متردم ٥

و

وعزلت أيلة والبحر المضم ١١٦
ولو تكلمنا ذمنا طارقا ١٢٤

ي

يا دار مية بالعلياء فالسند ٥

٤- فهرس القبائل

ج جذام ١٦، ١٧، ٣٥، ٤١، ٤٤، ١١٥
١٢٥، ١١٧،
بني الجراح ١٢٦
بني جفيل ٤٠
بني جفان ٤١
بني حوين ٤١
س
سليم ١٧
ض
بني الضبيب ٤٠

أ
الأزد ٤٦، ٥٤
ب
بكر ٣٥
بلقين ١٦، ١٨، ٣٥
بلي ٤٢
بهاء ١٦، ١٨، ٤٢
ت
بني تغلب ٤٣
تنوخ ١٧، ٤٤
بني ثعلبه ٤٠، ٤٣

٥- فهرس الأعلام*

أ

ابراهيم الأبياري ح: ١٦

ابراهيم بن طهمان ١٣٩

ابراهيم بن المنذر ١٤٠

أبو بكر الصديق ٣٨، ١٥٢

ابي بن كعب ٢٤

ابن الأثير ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧

إجناس جولانيسهر ٢٦، ٧٠

احسان عباس ٥٠

احمد بن الحسين المقرئ الأيلي ١٤١

احمد بن حنبل ٢٧

احمد بن زكريا الأيلي ١٤١

احمد زكي ١٧، ٢٨٣

احمد بن سهل البلخي ٢٦٦

احمد الشناوي ١٧

احمد بن صالح المصري ١٣٧، ١٤٠

احمد بن طولون

احمد عادل ح: ٦٩

احمد عرموش ٦٥

احمد غسان سبانو ٨٩

احمد عادل كمال ح: ٥٢

احمد بن محمد بن ابراهيم ٣٢

الإدريسي ١٥٠، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٥

الازدي ١٧

ادهم بن محرز ٧٩

ادهم بن محمد بن اسيد الباهلي ٨٠، ٨٨

الادريسي ١٥٠، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢،

١٦٣، ١٦٤، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٤، ٢٥٦

ادوارد جرجي ح: ١٣

الازدي ١٧

اسامه بن زيد ٣٨

اسامه بن منقذ ٣١٦، ٣٢٤

استيفان رنسيما ٩٦، ١٣١، ١٣٣

ابو اسحق ابراهيم بن يحي ح: ١٨، ٣٢

اسحق بن اسماعيل بن العلاء ١٤٠

اسحق بن عبد الله بن فروه ١٣٤

اسد رستم ح: ٣٨

اسرائيل ولفنسون ٢٠

اسعاف النشاشيبي ٢٨٣

* ح: تعني الاسم في هامش الصفحة المثبت رقمها إلى جانب ح

(ب)

اسماعيل بن حفص بن عمر بن دنيار
(ميمون الايلي) ١٤٠

اسماعيل بن عباد بن الصاحب ٢٩٤

اسماعيل بن عياش ٨١

اسماعيل بن كثير ٢٥٠

اسماعيل النجراوي ح: ٩

الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري ١٣٤

ابن الاشعث ٤٦

ابي شمر الغساني ٣٩

ابن الاشهب العطاردي ١٣٩

افثيشيوس (المكنى سعيد بن البطريق) ٧٠

الأفضل بن بدر الجمالي ١٠١

الب ارسلان ٩٧

اليكوس كومنين ١٠٦

امرئ القيس ٥

امين فارس ٦٣

امينه بيطار ٨٩

انس بن مالك الأنصاري ٧٨

انس بن هلال النمري ٤٢

انطيوخوس ٩٦

انيس فريجه ح: ٣٣

الاوزاعي ٧٩

اوريون النصراني ١١٥

ايراثوشنس ١١٣

ايلوس غالوس ح: ٢٢

باونولد ٦، ٣١٢

البخاري ٨١

برد بن سنان ٥٧

بركيا روق ٩٨

برناد الحكيم ٣٢٦

بروكلمان ح: ٧٦

بشير بن كعب ٤٩

بطرس الرسول ٩٦

بطرس الناسك ١٠٣

ابن بطلان ٣٠٨

بظلموس ٦، ١١٣، ٣١٣

ابن بطوطه ١٦٢، ١٧٧، ١٨٤، ٣٢١، ٣٢٢

ابي بكر ابي داود ١٣٦

بكر بن سليمان ٧١، ٧٤

بكر بن سهل الدمياطي ١٣٧

ابو بكر محمد ١٣٧

البكري ح: ١٦، ١٤٩، ١٧٤، ٢٤٥

البلاذري ح: ١٧، ح: ١٨، ٤٢، ح: ٤٢،

٤٣، ٤٤، ٥٠، ٥٩، ٦١، ٦٤، ٧٦، ٧٧،

٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٩، ١١٩، ١٢٠،

١٢٢، ٢٧٢.

بلدوين الأول ١٢٨

بنيامين التطيبي ٢٣٦

بوهمند ١٠٠، ١٠٢

البروني ٢٦٥

بيير كها ردت ١٤٨

(ت)

تانكرد ٩٩

التجاني ٣٢٣

تراجان ١٤٣

تركان خانون ٩٨

الترمذي ٧٢

تمام ابنة الاصغ ٣٤

تمام بن أبي الحسين ٣١

توماس ارنولد ٤٤، ٤٢

(ث)

ثيودوسيان ١٨٩

ثيوفانس ٢٧٠، ٧٠، ٥١، ٥٠

(ج)

جابر بن ظالم بن حارثه بطائي ٤١

الجاحظ ٨٢، ١٤٥، ٢٦٤

جبلة بن الایهم ٣٩

جبرائيل جبور حا: ٣١، ٢٥، ٩

ابن جبیر حا: ١٣٣، ٢٣٨، ٣١٦، ٣٢٠

ابن جريح ١٣٧

جواد علي حا: ١٤، ١٥، ١٧، ١١٣،

١١٤، ١١١٥، ١١٩

جريرين حازم ١٣٩

جورجي زيدان حا: ١٥، ١٨، ١٩، ٢٨٣

ابن الجوزي حا: ٣٣، حا: ٣٠

جزء بن عمرو ٤٠

ابن الجصاص الجوهري ١٨٥

ابو جعفر الطحاوي ١٣٤

جعفر الغربي ١٤٣

جعفر بن محمد بن اميه ٥٤

جلدن ١٣٣، ١٠٩

جمال الدين الشيبان ٤٣

جمال الدين ابو المحاسن يوسف بن تغري/

بردی ٩٤، ٩٩

ابو جهضم الازدي الشامي ٥٨

جهضم بن الصلت ١٢٠

جودفري ٩٩

جویریة بن أسماء ٥٥

(ح)

الحارث بن الحكيم بن أبي العاص ١٤٠

الحارث بن سريج المرجئی ٤٦

الحارث بن عمرو الكندي ٢٢

الحارث بن مسكين ٦٠

حاجي خليفه ٣١٢

الحاكم بأمر الله الفاطمي ٢٧٣

المحافظ عبد الرحمن حا: ٧٢

ابن حبان ٨٤

ابن حبيب حا: ١٧

ابن حبیب ٥٦

خ

- خالد بن برمك ٥٧
خالد بن نزار ١٣٩
خالد بن معدان بن أبي كرب ٨٦، ٥٥
خالد بن الوليد ٤٣، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٢
٨٣، ٨٧، ٨٩، ٩١، ١٢٣، ٢٣٠، ٢٧٠
خالد بن يزيد ١٥٧
خاير بك العلاي ١٣٤
الخدري ١٣٦
الخشنى أبو ثعلبه ٢٩
ابن خرداذبه ٧٢، ٧٣، ١٤٩، ١٥٨،
١٥٩، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧،
١٦٨، ١٧٥، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤
٢٠٠، ٣١٣
الخطيب البغدادي ٥٣، ٧٢، ٨٦
ابن خلدون حا: ١٤
ابن خلكان حا: ٧٦، ٨٦، ٢٣٧
خليفة بن خياط ٥٤، ٦٠، ٧١، ٧٣، ٧٤
حا: ٧٣، حا: ٧٣

د

- ابو داود المحدث ٧٢
دحية بن خليفة الكلبي ٣٤، ٤١
ابو الدرداء الخزرجي ٨٢
دروزه حا: ١٠، حا: ٢٢
درويش المقدادي ٣٠٦

- الحجاج بن يوسف الثقفي ١٨٧
ابن حجر العسقلاني ٥٣، حا: ٥١، ٦٣،
٧٩، حا: ٥٦، حا: ٨٠، ٨٤
الحرابي ١٤٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢،
١٦٣، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦
حسام الدين لؤلؤ ١٣١، ١٣٢
حسان بن ابراهيم الكرمانى ١٣٦
حسان الأيلي ١٤١
حسان بن بحدل الكلبي ١٢٣
حسان بن جراح ٢٦
حسن ابراهيم حسن ٣٣
الحسن البصري ٧٦
الحسن بن زياد ٥٧، ٥٨
الحسن بن سفيان ١٣٩
حسين بن رستم الأيلي ١٤١
الحسين بن علي ٢١٩
الحسين بن محمد ابن خراشه (الأيلي) ١٤٠
حسين بن ناصر ١٤٨
حمد الجاسر ١٤٨، ١٦٣
الحكم بن عبد الله الأيلي ١٣٥
الحكيم بن موسى البزاز ٨٤
حمد ابي سر ١٤٨، ١٦٣
حميد الله حا: ٤٠، ٤١
ابن حميد ٧٠، ٧٤، ٧٥
ابن حوقل ٣٣
الحنائي ١٤٠

ز

- الزرقاني ح: ١٦٩
 زميل بن عمرو ٤٠
 زهير بن قرضم ٣٢
 الزهري ٧٨
 زياد البكائي ٧٢
 زياد بن اللخمي ٣٨
 ابو زيد عمر بن شبة ٥٥
 زيد بن حارثة ٣٤

زينو (القنصل) ٢٤١

س

- سبط بن الجوزي ح: ٣٠، ١٣٢
 السبكي ١٢٠
 سترابون ٢٤٦
 السخاوي ح: ٣١
 السدوسي ٢٦٣
 سعدان الأيلي ١٣٩
 سعد الأيلي ١٣٨
 ابن سعد ح: ١٦، ح: ١٨، ح: ٢٨،
 ح: ٣٤، ح: ٣٥، ح: ٣٦، ح: ٣٧،
 ح: ٣٧، ح: ٣٨، ح: ٣٩، ح: ٤١،
 ٥٣، ح: ٥٤، ح: ٥٥، ٦١، ٧٥، ٧٨،
 ح: ٨٠، ح: ٨١، ح: ٨٤، ح: ٨٦، ح:
 ١١٨، ح: ١١٩، ١٣٩، ١٤٢
 سعيد الأيلي ١٣٦

ابن دريد ٥٤

الديار بكري ح: ٢٤

دي خويه ٤٢

ديسو ١٤

الدوري ح: ١٥، ح: ١٧، ١٧، ح: ٣٦

الدينوري ٤٣

الذهبي ٥٧

ر

الرازي البجلي ٣١، ٧٤

راشد بن عبد الرحمن الأزدي ٥٧

ابو رافع الخيري ١٢٢

الربيعي علي محمد المالكي ٣١

ربيعة ١٣٨

ابو الربيع الكلاعي ٥٦

رجاء بن جميل ١٣٧

ابن رسته ٣١٣

الرشيد ١٨٥

رضوان الحلبي ٩٨

رضوان محمد رضوان ح: ١٧

رفاعة بن زيد الجذامي ٤٠

ارناط ح: ١٣٢، ١٣٠، ١٣٣

ريشارد ديل ١٩

ريسيون ٢٥٢

رينود ٦، ٣١٢

السمعاني ١٣٥
 السهمودي ١٦٦، ١٦٧
 سنوحى ٣٠٣
 سهل بن صدقه ١٣٩
 سهيل السلمي ٢٧
 سيد الأزهرى ٢٠٨
 ابن سيد الناس ح: ٣٥، ٧٢
 سيف الدولة الحمداني ٢٣١
 سيف بن عمر التميمي ٥١، ٥٢، ٥٣،
 ٥٩، ٦٢، ٦٥، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٩٠
 سيولف الولشي ٣٢٦

(ش)

الشارتري ح: ٦٢
 ابن شاعر ٨٦
 شاعر لعبي ٢٩٦
 شاعر مصطفى ح: ٣١
 ابو شامه ح: ١٢٩، ح: ١٣٠، ح: ١٣١
 شبيب بن سعد ١٢٧
 ابن شداد ح: ١٢٨
 شداد بن أوس ٢٧، ٧٩
 شرحبيل بن حسنه ١٢٠
 شعبه بن حجاج ٧٢
 شكر الله بن نعمه الله القرجاني ح: ٧٨
 شكيب ارسلان ح: ١٨

سعيد بن أبي سعيد الخدري ١٣٦
 سعيد الافغاني ح: ١١٣
 سعيد عاشور ح: ١٠١، ح: ١٠٢، ح: ١٢٨
 سعيد بن عبد العزيز الدمشقي ٥١، ٩١
 سعيد بن المسيب ٢٥، ١٣٧
 سعيد بن الهيثم الأيلي ١٤١
 سفيان الثوري ٢٤، ٧٢، ٨٠
 سفيان بن حرب ٦٣
 سفيان بن سليم الازدي ٥٨
 سفيان بن عيينه ١٣٩، ١٤٠
 سقمان بن ارتق ١٠٤
 سلامه بن الأبرش ٧٥
 سلامه بن روح ١٣٧
 سلام بن مسكين ١٣٩
 سليمان الخزاعي ٨٠
 سلمه بن كهيل ١٣٦
 ابو سليمان خالد بن الوليد ٨٢
 سليمان بن بلال ١٣٥
 سليمان بن داود ١١٢
 سليمان بن سحيم ١٣٨
 سليمان بن سليم الجنازي ١٣٧
 سليمان بن قتلمش ٩٨
 سليمان بن المغيرة ١٣٩
 سليم العثماني ١٣٤

ابو شمر الغساني ٣٩

شمس الدين ابو العباس ٣٢

شهاب الدين الأيلي ١٤١

ابن شهاب الزهري حا: ١٣٥، ٣٦

الشيال جمال الدين حا: ١٣١

شيبان بن فروح ١٣٩

شيخ الربوه حا: ١١٤، ٢٥٦

(ص)

ابن الصائبي ١٢٧

صالح الحمارنه حا: ١٩

صالح درادكه حا: ١٨، حا: ٥٦، حا: ٦٢، حا: ٦٤

صالح العلي حا: ١٤٥، حا: ١٤٦، حا: ١٤٧، ١٤٨، ١٥٦

صالح بن كيسان ٧١، ٧٤

ابو الصباح سعدان بن سالم الأيلي ١٣٨

صخر بن ربيعة ١٣٩

ابو صخر يزيد بن سلمه الأيلي ١٣٨

الصعق بن حزن ١٣٩

صفوان بن سليم ١٣٨

ابو صفوان عبدالله الأموي ١٣٨

الصقعب بن زهير ٥٧، ٥٩

صلاح الدين الأيوبي ١٢٩، ١٣٠، ١٣١

صلاح الدين عثمان ٦

صلاح الصفدي ١٥٦، ١٧٧

الصنعاني حا: ٣٠، ٨٤

(ض)

الضياء المقدسي ابو عبدالله بن عبد الواحد

٣٢

(ط)

طارق بن عمر ١٢٤

طه عبد الرؤوف سعد حا: ٣٤

طه الوني حا: ٢٩

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير حا: ١٧،
 ١٨، حا: ٢٤، حا: ٢٥، حا: ٢٦، ٣٥،
 حا: ٣٩، حا: ٤٣، حا: ٤٤، حا: ٤٥،
 ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، حا: ٦١،
 حا: ٦٢، ٦٤، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٨٥،
 حا: ٨٥، ٨٧، ١٥٥، ١٨٥، ١٦١، ٢٧٠

طرفه بن العبد ٢٢١

طغتكين ١٠٤

طلحه بن عبد الله الأيلي ١٣٨

طلحه بن يحيى ١٣٥

(ع)

عاصم بن رازح ١٣٦

عامر بن الأسود الطائي ٤١

عامر الخزرجي ٨٢

عباده الكندي ٥٤

- ابو العباس ٨٢
 العباس بن سهل بن سعد ٧٩، ٨٠، ٨٨
 عبدان الأهوازي ١٣٩
 عبد الحيار بن عمر الأيلي ١٣٨
 عبد الحليم النجار ٣١
 عبد الحميد الثاني ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٢٠
 عبد الحميد الدواخلي ح: ١٥
 عبد الحفيظ مكي ح: ١٦
 عبد الرحمن بن ابراهيم ٦٠
 عبد الرحمن باشا ٢٠٦
 العبدري ٣١٦
 عبد الرحمن بن جبير ٦٠
 عبد الرحمن بن جبيره ٨٨
 عبد الرحمن بن السليك ٥٨، ٥٩
 عبد الرحمن بن عوف ٣٤
 عبد الرحمن بن الفضل ٥٦
 ابن عبد ربه الاندلسي ٣٣
 عبد العزيز ادريس المغربي ح: ١٨
 عبد العزيز بن عبد الحق ح: ٢٦
 عبد الله بن ابي بكر الانصاري ٥٢
 عبد الله بن أبي بكر ٧١
 عبد الله بن حوالة ح: ٢٩
 عبد الله بن احمد ١٣٩
 عبد الله بن رجاء المكي ١٣٦
 عبد الله بن سعد الأيلي ١٤١
 عبد السلام هارون ح: ١٨
 عبد الغني النابلسي ١٦١، ٣٢٥
 عبد القادر بدران ح: ١٧
 عبد القادر القباني ٢٠٧
 عبد القادر بن محمد الجزيري ١٥١
 عبد الله بن قرط ٥٨، ٥٩
 عبد الله بن عمر ١٣٨
 عبد الله بن عمر النميري ١٣٦
 عبد اللطيف البغدادى ٣١٦
 عبد الله بن المبارك ١٤٢
 عبد الله بن مسلم المقدسي ١٤٠
 عبد الله بن وهب ١٣٧
 عبد الملك بن السليك ٥٨
 عبد الملك التميمي ح: ١٩
 عبد الملك بن مروان ١٩٠
 عبد المنعم عامر ح: ١٧، ح: ٤٣
 عبد الواحد الأيلي ١٤٠
 عبد الواحد بن عبد الله النصري ٧٧
 عبد الله بن يونس الأيلي ١٤١
 عبيد الله بن زياد ٨٠
 ابو عبيده القاسم بن سلام ح: ٢٨، ٨٣، ٨٨
 ٩٢، ح: ١٢٠
 ابو عبيده ٧٧، ٧٩، ٨٤، ٨٥، ٨٨، ٩١

عثمان الدارحي ١٣٩

ابو عبيد معمر بن المثنى حا: ٤٣

عثمان الدرامي ١٣٩

عثمان بن عفان ٢٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤

عثمان بن عمر ١٣٦

ابو عثمان عنبسه بن خالد بن ابي نجاد
الأيلي ١٣٧ابو عثمان يزيد بن اسيد الغساني ٥١، ٥٣
العجلي ٥٥

عدي بن عدي بن زيد ٤٤

ابن العديم حا: ٩٨، حا: ١٠١، ١٠٦

عرام الأصيف ٢٦٤

عروة بن الزبير ٥٧، ٧٠، ٧٤، ٧٨

عزت باشا العابد ٢٠٦، ٢١٥

عزيا ملك يهوذا ١١٢

ابن عساكر حا: ١٨، حا: ٢٧، حا: ٢٩، حا:
٣٠، حا: ٤٣، حا: ٤٤، حا: ٤٥، ٧١، ٨٠

عصام عقله ٥٧

عفيف عبد الرحمن حا: ٣٠، حا: ٣٢

عقبه بن عامر الجهني ٨٨

عقيل بن خالد الأيلي ١٣٦، ١٣٨

العلاء بن عبد الرحمن ٧١

علال الفاسي حا: ١٨

علي بن احمد بن علان ١٣٦

علي بن أبي طالب ٣٤

علي بن اسحق الاسفرائيني ١٣٧

علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي حا: ٣٧

علي حسن عبد القادر حا: ٢٦

علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ٧٦

علي رضا الركابي ٢٠٦

علي بن الطائي ٢٩٨

علي بن محمد الطنافسين ٨١

ابو علي يزيد ١٣٥

العليمي ابو اليمن القاضي حا: ٢٣، حا:
٢٧، حا: ٣٠

عماد الدين رنكلي ٩٧

عماد الدين بن حامد الأصفهاني حا: ٩٧

عمار بن عزبه ١٣٥

عمر بن ابي الطاهر المصري ١٣٧

عمر بن اوس الباهلي ٧٩

عمر بن الخطاب حا: ٢٨، ٣٩، ٤٣، ٤٦،
٥٨، ٦٠، ٧٩، ٨٠، ٨٥، ٨٨، ١٢٢،

١٥٣، ١٥٩

عمر بن سعيد الايلي ١٤١

عمر بن شعيب ٥٩

عمر بن عبد العزيز ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨،
١٣٩، ١٥٥

عمر بن عيسى ٧٧

عمر بن مالك ٧٩، ٨٠

عمرو بن العاص ٨٨، ١٢٢، ١٩٦

عمرو بن محصن ٩٠

عمر بن وضاح ١٣٦

عمره بنت عبد الرحمن ١٣٧

عميره بن محمد البحيري ١٣٦

عمرو بن كلثوم ٢١

عنتره العبسي ٥، ١٧٤

عنبسه بن خالد الأيلي ١٣٥

عون الشريف حا: ٢٨، ٤٠

عيسى البابي الحلبي حا: ١٨، ٤٣

ابن عيينه ١٣٦

ع

غالب بن عبد الله الليثي ٣٥

غريق وويف ٢٩٥

الغفري ٢٣٤

غيداء خزنه كاتبي ١٦

ف

الأفضل بن بدر الجمالي ١٠١

ابو الفداء اسماعيل بن كثير حا: ٣٦،

حا: ١٢٧، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤،

٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩

فروة بن عمر الجذامي ٢٨، ٤٠، ٤١، ١١٥

الفسوي، يعقوب بن يوسف ٥٤

ابن فضالان ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢

ابن فضل الله العمري ٢٤٧، ٣١٦

ابو الفضل بن دكين ٥٦

ابو الفضل السائر ٢٩٦

ابن الفقيه الهمداني حا: ٣٠، ١٨٢، ٢٦١

فيروز (الزراد) ١٠٢

فيلاديوس الارمني ٩٨

ق

قايتباي (الملك الاشرف) ٣١٦

قدامه بن حجر حا: ٣٧، ٢٦١، ٢٦٥

القزويني ٢٣٣، ٢٩٥

القلقشندي ١٥٥

ك

كاستيو ١٤٨

كايتاني ٥١

كايتاني ٥١

كراتشكوفسكي ٥، ١٤٨، ٢٨٣، ٣١٢،

٣١٣، ٣١٤

الكتاني، عبد الحي حا: ٢٨، ٧٠، حا: ٧١

كثير عزه ١١١

كرامرز ٦، ٢٧٥

كربوقا ٩٨، ١٠١، ١٠٥

ابو كرب الكلاعي، انظر خالد بن

معدان

كعب بن عمر ٣٥

محمد بن عزيز بن عبد الله الأيلي ١٣٦

محمد علي باشا ٢١٦

محمد فوزي العظم ٢٠٦

محمد كرد علي ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٩،
٢٢١

محمد بن كعب القرظي ١٣٩

محمد بن المذكور ١٣٨

محمد بن مروان الأموي ٢٥١

محمد بن مسافر ٢٩٧

محمد بن مسلم بن عبد الله ٧٨

محمد بن مهدي الأحميني ١٣٧

محمد بن وضاح ١٣٦

محمد بن يوسف ٧٩

مرتضى العسكري ح: ٥٣

مروان بن الحكيم ١٢٣، ١٦٥

مره بن عمرو الأيلي ١٤١

المسعودي ح: ١٢٠، ح: ٣٥، ١٨٣،

٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩،

٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣١٨، ٣٢٤

مسيب بن أبي حازم ٩٠

مصطفى كامل ٢٠٩

مصطفى مراد الدباغ ح: ١١٣

مصعب الزبيري ٨١

مصعب بن عبد الرحمن بن عوف ١٢٣

معاوية بن أبي سفيان ١٣٥، ١٥٥

كعب بن زهير ١٢١

ابن الكلبي ٦١، ٧٦، ٨٨، ٩١، ح: ١٢٢

كلود كاهن ١٠٠، ١٠٥

الكليني ١٥٦

الكندي ح: ١٢٣، ح: ١٢٤، ١٢٦، ٢٦١

ل

لامنس ح: ١٧، ١٩، ٤٦

لويس شيخو ١١٤

م

ماركو بولو ٣٢٧

مالك بن أنس ١٣٨

مالك بن هبيرة ١٢٣

محرز بن أسيد الباهلي ٧٩

محمد حميد الله ح: ١١٩، ح: ١٢١

محمد الاخشيدي ٢٣١

محمد الدهان ٢٨٩

محمد رشيد رضا ٢٠٩

محمد بن سعد ٨١، ٨٣

محمد بن سليم ١٣٧

محمد بن عبد الله الحكيم ١٣٩

محمد بن عبد الله العلوي ١٦٣

محمد بن عثمان الحشاشي ٣٢٥

محمد عدنان البخيت ح: ١٢٧

معز الدولة ٣٠٨

مفضل بن فضال ١٣٦، ٢٥٩، ٢٦٦

المقتدر بالله العباسي ابو الفضل ٢٨٨،

٣١٧، ٣٢٥، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٢

المقدسي البشازي ١٧٢، ١٧٤، ١٧٦،

١٨٢، ١٨٥، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧،

٢٧٨، ٢٧٨، ٣١٣، ٢٧٩، ٣١٤

المقريزي ح: ١٣٣

مكحول البيروني ١٤٠

مكحول الدمشقي ٨٨

المنصور (الخليفة العباسي) ١٩٠

مهدي بن هارون ١٣٩، ١٩٠

موسى بن هارون ١٣٩

موسى ١٠٩، ١٣٣، ١٤٨، ١٦٣

ميخائيل السوري ٢٧٠

ميرزا علي ٢٠٨

مينووسكي ٦، ١٤٨، ٣١٢

ن

النابعة الذبياني ٥، ١٣٦

ناجي حسن ح: ١٦

ناصر الدين الأسد ح: ٦٩، ح: ٧٦، ٧٨

ناصر خسرو ١٨٦، ١٨٨، ٢٣٢، ٢٤٩،

٢٦٥، ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨

ناطف الخالدي ٢١٤

نافع مولى ابي عمر ٥٦، ١٣٨

ناليو الايطالي ٣١٢

نبيه أمين فارس ٣٣

النجاد الأيلي ١٣٧

النديم (ابن القديم) ٢٩٩

النسائي (المحدث) ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠،

نسيب وهيب الخازن ح: ١٥

النعمان عمرو بن مالك ١٦

نعيم زكي ٢٣٩

نقولا زياده ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٧،

٣٠٩، ٣١٠، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢١،

٣٢٥، ٣٢٤، ٣٢٧

النورماندي بوهمند ١٠٠

هـ

هاشم بن عبد مناف ١٣٦، ٢٦٧

هرقل ٩١

الهروي ابو الحسن ٣١٩

هشام بن عروه بن يزيد ٧٢

هشام بن عمار ٧٤، ٨١، ٨٣

ابن هشام المعافري ح: ١٦

هشام بن محمد الكلبي ٥١، ٧٦، ٢٦٣، ٢٦٤،

الهمداني الحسن بن احمد ١٤٩، ١٦٤،

١٨٥، ٣١٤

هو نجمان ٣١٢

الهيثم بن عدي ٨٣

و

يحيى بن صالح الأيلي ١٣٩

يحيى بن صالح المصري

يحيى القطان ١٣٨

يزيد بن أبي سميه ١٣٩

يزيد بن خصيعة ١٣٨

ابن يزيد العطار ١٣٩

يعقوب الكندي ٣١٣

يوسف الدبس ح: ١٧

اليعقوبي، أحمد بن واضح ح: ١٦،

١٢١، ١٤٩، ١٥٧، ١٨٢، ٢٤٨، ٣١٣

يوحنا (يحنة) بن رؤيه ١١٩

يوسف غوانمه ح: ١٢٩، ١٣٠

يوسف بن يزيد الأيلي ١٣٧، ١٣٨

الواقدي، محمد بن عمر ح: ١٢، ٣٤،

٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٥٠، ٥١،

٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٧١، ٧٦، ٧٧، ٧٨،

٨١، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٢١

ولفنسون (اسرائيل) ح: ١٢٢

وليم الصوري ح: ٩٥، ١٠١، ١٠٣

ابن وهب ٢٤، ١٣٦

ي

ياغي سيان ٩٧، ٩٨

ياقوت الحموي ٩٦، ١١١، ٢٨٩، ٢٣٣،

٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦١

يحيى بن سعيد الأنصاري ١٣٨

٦- فهرس الأماكن

(أ)

١٩٩، ١٩٣، ١٧٨، ١٧٢، ١٦٣
الأكر ١٧٥
اراك ١٧٥، ١٧٢، ١٦٨، ١٦٤
أريد ٢٥١
الارجاء ١٧٩
الأردن ١٧، ٤٤، ٥٣، ٨٥، ١٠٩،
١١٢، ١١٥، ١٢٧، ١٤٤، ١٥٢،
١٥٦، ١٦٠، ١٨١، ١٩٤، ١٩٥،
١٩٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٤٣،
٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠،
٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٧، ٢٥٨،
٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٦٨، ٣١٠
الأرز ٣٠٦
أرزن ٣١٦
أرض السواد ٦٣
أرض النخلتين ١٧٧
أرمينيا ٢٦٢، ٢٩٨
أريحا ٣٢، ١٨٥، ١٩٦، ٢٧٧، ٢٧٩
ازاري ٣٠٣
ازرق ١٥٧، ١٧٧، ١٩٨، ٢٥٨، ٢٥٩

آبار حمزه ١٧٧، ١٧٨
آبار علي ١٧٨
آبل ١٦٢
ابني ٣٨
الأبواء ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٤
الأبواب ٢٨٦
ابي خبيب ١٧٨
أببار الحجر ١٧٨
آتل ٢٨٧، ٢٩٠
الأثاية ١٧٤
أجنادين ٥٤، ٥٨، ٦١، ٦٢، ٧٧، ٩٠،
٩٢، ٩١
الإجساء ١٦٨، ١٧٥، ١٧٦
الدخول ٥
أدما ١٢٢
أدوم ١٤٤، ٢٥٦
أذربيجان ٢٨٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٢١
أذرح ١٥٩، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٧
أذرعان ٦٤، ٦٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠،

- اسبانيا ٩٣
استانبول ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢١
استانة ٢٠٥
اسدود ١٩١
اسكندرية ٣٥، ٩١، ١٢٩، ١٣١، ١٢٩
١٩٤، ١٩٥، ٢٧١، ٢٧٢، ٣٢٦
اسكندنافية ٢٩٢
اشرف البعل ١٦٩
اصطخر ٢٨٤
أصفهان ٢٩٦، ٢٩٨
أصقاع ٢٩٠
الاعراء ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦
أفغانستان ٣٢٢
الأقصر ١٦٢، ١٧٢، ١٧٨، ١٧٩
اكرى ١٧٧، ١٧٩
اللوى ٥
المانيا ٤١٠، ٢١٢، ٢١٣
ام الجمال (كبتلاياس) ١٤٣، ٢٥٢، ٢٦٠
أم قيس ٢٥١
أمج ١٦٥، ٢٧٣، ١٧٤
أمد ٢٨٧
- امرتسار ٢٨
الأناضول ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٤، ٢٣٦
انجلترا ٩٣
الاندلس ٨٢، ٢٦٢، ٢٨٥، ٢٨٦
٣٢٢، ٣٢٠
أنطاكية ٥١، ٨٣، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦
٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣
١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٤
١٩٥، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٦٨، ٢٨٤
٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٨
أنملة ١٦٩، ١٧٥
أوال ١٦٥، ١٦٨
ايران ٢١٨، ٣٢٢
أيلة ٣٧، ٣٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١
١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦
١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١
١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦
١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١
١٢٥، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨
١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٥٢
١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥
١٧٦، ١٧٩، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٦
١٩٨، ٢٤٣، ٢٥٧
ايليا ٤٥، ١٤٤، ٢٧٨

ب

- بدأ ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦
 بدأ يعقوب ١٧٥
 بدر ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩
 برزة ٨٢
 برطاس ٢٨٥
 بريطانيا ٢١٠، ٢١٦، ٢١٨
 البرقاء ١٧٥
 برقة ٣١١
 بركة تبوك ١٧٥
 بركة زيزي ١٧٧
 بركة المعظم ١٧٧، ١٧٨
 برنيسي ١١٣
 بزغون ٣٠٦
 بصرى ٦٢، ٧٧، ٩٠، ٩٢، ١١٣، ١١٤،
 ١٤٣، ١٤٤، ١٥٨، ١٥٩، ١٧٧، ١٩٢،
 ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٧، ٢٥٢
 بصاق ١٩٩، ٢١٧، ٢٥٢
 البصرة ١٨٢، ٢٨٦
 بطن الغول ١٧٩
 بطن مر ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤،
 ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩
 بطن مر الظهران ١٧٤
 بطن مكة ١٧٩
 بعقلين ٣٠٦
 بئر الحجر ١٧٧
 بئر الحديد ١٧٩
 بئر الزمرد ١٧٩
 بئر السبع ١٤٤
 بئر الغدني ١٧٤
 بئر علي ١٧٧
 الباقورة (البقارية) ٢٤٧، ٢٤٨
 باكو ٢٩٦
 باكويه ٢٩٧
 بالعة ١٦٠، ١٧٢، ٢٥٠
 بانياس ٣٠٦
 البتراء ١١٣، ١١٤، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٥،
 ١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ٣١٠
 البشنية ١٦٣، ١٧٢، ٢٥٠
 بحر القلزم ٢٨٥
 البحران ٤٣
 البحرين ٣٢٤
 البحيرة ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦
 بحيرة الحولة ٢٤٣
 بحيرة طبريا ٢١٦، ٢٤٧
 بحيرة لوط ٢٤٤، ٢٤٧
 بخارى ٢٠٩، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٤، ٣٢٢

ت

التبت ٢٩٤

تبوك ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٩، ١١٨، ١٣٢،
 ١٤٤، ١٥١، ١٥٢، ١٦٠، ١٦٢،
 ١٦٣، ١٦٤، ١٧٢، ١٧٧، ١٧٩،
 ١٩٣، ٢٠٨، ٢٢١

التحريم ١٧٠

تدمر ١٧، ٣٤، ١٩٧، ١٩٩

الترانفسال ٢٠٨

تركستان ٢٩٤

تركيا ٢٩٣

تستر ٢٨٧

تفليس ٢٨٦، ٢٩٦، ٢٩٧

تل الخليفة ١٠٩، ١٩٣

تل الرميث ٢٥١

تل القاضي ٢٤٧

تل كلخ ٣٠٦

تلمسان ٣٢١

التنعيم ١٦٦، ١٧٣

تهامة ١٣٠، ٢٦٤، ٣٢٣

تونس ٩٣، ٣١٠، ٣٢١، ٣٢٣

تيماء ٣٧، ١١٣، ١١٩، ١٤٤، ١٥١

١٥٢، ١٥٩، ١١٢، ١٧٢، ١٩٨، ٢٥٨

تيهان ١٧٤

بعلبك ١٨٦، ١٩٥، ١٩٧، ٢٧١، ٢٧٢،

٣٠٦، ٣٠٤

بغداد ٥٣، ٥٧، ٦٢، ٧٢، ٨٧، ٩٤

١٢٦، ١٢٩، ١٤١، ١٨٢، ١٨٣،

١٨٤، ١٨٩، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٠،

٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٥، ٣٠٨، ٣١١،

٣١٧، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤

بلنجر ٢٨٧

بلد الشيخ ٢١٧

البلطيق ١٨٥

البلغار ٢٦٢، ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣١٧

البلقاء ١٨، ١٣، ٣٥، ٣٨، ٤٠، ١٥٧،

١٦١، ١٧٩، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٤

البندقية ٢٣٩

بواط ٢٤٠، ٢٤٢

بومبي ٢٠٨

بوهيميا ٢٩٣

بيت جبريل ٢٧٩

بيت عينون ٢٨

بيت لحم ٢٨، ٢٧٩

بيت رأس ٢٥١

بيروت ١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٧١،

٢٨٣، ٣٠٦، ٣١٠

بيسان ٣٢، ١٨٥، ١٨٦

البيضاء ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥

ث

ثباسكوس ١٩٥

الثنية ١٧٧

ثنية المرة ١٥١

ج

الجابية ١٨٤، ١٢٢، ٨٨، ٥٣

الجار ١٧٩، ١٧٦، ١٧٠، ١٦٩

جبال طوروس ١٤

جبال النصيرية ٣٠٦

جبل الشيخ ٣٠٦، ٢٥١

جبل زيتا ٢٧٩

جبل القبيخ ٢٨٦

جبل ٣٠٦

الجحفة ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩

١٧٩، ١٧٦

جخيمات ١٧٩

جدارا ٢٥١

جدة ٢١٨، ٣١٥

الجديدة ١٧٨

جرجان ٢٨٤، ٢٩٨

جرش ١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ٢٢١، ٣١٠

الجرف ١٧٩

جرف الدراويش ١٦١

الجزائر ٣٢١

جزيرة أوجله ٣١٥

جزيرة جربه ٣١٠

الجزيرة العربية ١٤، ١٥، ١٦، ١٩، ٢١،

٢٣، ٢٦، ٣٣، ٣٨، ٤٠، ٤٨، ١٤٨،

١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٦، ٢٣٦،

٢٥٩، ٢٦٤، ٢٩٣، ٢٩٥

الجزيرة الفرانية ٢٨٣

جزين ٣٠٦

جسر شامه ٢٤٧

جسر الصغيرة ٢٤٧

جسر العادلي ٢٤٧

جسر الكسوه ١٧٨

جسر الملك الحسين ٢٤٦

جسر يعقوب ٢٤٧

الجفر ١٨١، ١٩٨، ٢٥٩

الجنابذ ١٧٤

الجنذل ١٦٤

جناين القاضي ١٧٩

جنوة ٢٣٩، ٢٤٠

الجنينة ١٦٢، ١٦٣، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤

الجوف ١٤٤

الجولان ٦٣، ٦٥

ألجي ١٧٤

الجزيرة ١٦١

ح

حاييل ١٩٨، ١٤٤

الحيشة ٣٨، ٣٦

حبرون ٢٨

الحجاز ٣٨، ٣٦، ٣٤، ٢٩، ٢٤، ٢١

٤٥، ٦٥، ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ١١٦

١١٧، ١١٩، ١٢٤، ١٢٠، ١٢٩

١٣٠، ١٣٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦

١٤٧، ١٥١، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٦

١٨٧، ٢٠٥، ٢٠٨ / ٢٠٩، ٢١٠

٢١١، ٢١٢، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩

٢٢١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٥٦

٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٧، ٣١٨، ٣١٩

الحجر ١٦٢، ١٧٢

الحسا ١٦١، ١٧٧، ١٧٩، ٢٥٦

حسمى ٨٧٠، ٢٥٧

الحسا، عقبة الصوان ١٧٧

حسبان ١٩٢، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤

حصرون ٣٠٦

حصن الكرك ١٧٧

حصن كيفا ٣٢٥

الحضر ٢٣٠

الحفير ١٦٠، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤

حقل ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٩

حماة ٢١٧، ٣٠٦

حمدان ٢٩٥

حمص ٣٢، ٤٤، ٥٣، ٥٩، ٦٢، ٨٥

٨٦، ٩٠، ٩١، ٩٢، ١٠٣، ١٩٤

١٩٧، ١٩٨، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٦٨

٢٧١، ٢٧٤، ٣٠٦

الحمة التحتا ٢٤٨

الحمة الفوقا ٢٤٨

الخميمة ٢٥٧

حلب ١٦، ١٧، ٢٠، ٤٤، ٩٦، ٩٨

١٠٥، ١٠٦، ١٨٦، ١٩٤، ١٩٥

١٩٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠

٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥

٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠

٢٤١، ٢٦٨، ٢٧١، ٢٧٣، ٣٠٦

٣٠٨، ٣٢٠، ٢٣٣، ٣٢١

الخوراء ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٩

حوران ١٦، ١٧، ١٣٨، ٢٢١، ٢٤٨

حوض الفولجا ٢٩٠، ٣٢٢

الحولة ٣٠٦

حومل ٥

الحيرة ٤٠٣

حيدرآباد ٢٠٨

حيفا ٢٠٥، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٨

٢٢٠، ٢٢١

خ

خان ذي النون ١٧٨

خان الزبيب ١٦١

خان عنيزة ١٧٨

خان القطراني ١٧٨

خان قياد ١٧٨

خان الكشك ١٧٩

خان المفرق ١٧٨

خانقو ٢٩٥

خبيب ١٧٧

الخرار ١٥١

خراسان ٢٨٧، ٢٨٥، ١٨٢

خربة ابو عليق ١٦١

خربة السمرا ١٩٤

الخزر ٢٩٠، ٢٨٦، ٢٨٥

الخلصة ١٤٤

خليص ١٧٩، ١٧٨، ١٧٧، ١٧٤، ١٦٦

الخليل ٢٧٩، ٣١، ٢٩، ٢٨

خناصرة ٢٦٨

خوارزم ٣٢٢، ٢٩٧

خوزستان ٢٩٦

خير ٢٢٨، ١٤٤، ٣٣

خيف ١٧٩

خيم ١٧٤، ١٦٦

د

داجون ٢٧٨

دار الظرافة ١٧٩

الدار ٢٤٧

دارب ٢٥٦

دار البطيخ ٢٣٢

الداروم ٣٨

دامية ٢٤٧

الدجينة ١٦١

الدخول ٥

ددان ١٤٤

دريند ٢٨٦

الدردينل ٢٩٦

درعا ١٩٣، ١٧٧، ١٦٠، ١٥٨، ٦١٥

١٩٨، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦

٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٤٨

دعه ١٧٢

دمة ١٧٢، ١٦٣، ١٦٢

دمشق ١٣، ٢٥، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٩، ٥٣

٥٤، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٩، ٧١

٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢

٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢

٩٧، ٩٨، ١١٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٤٠، ١٤٢

١٤٣، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٧، ١٥٨، ١٧٢

١٧٧، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٣، ١٩٤

١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٥، ٢٠٦

ر

- رأس بلاطة ١٧٨
 رأس الرجاء الصالح ٩٣، ٢٣٣
 رأس العين ٢٥٣
 رأس وادي عنتر ١٧٧
 رأسون ٢٥١
 رابغ ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩
 رانكون ٢٠٩
 الرامة ٢٥٠
 ربة عمون ٢٥٣
 الربوة ٢٤
 الرحبة القصيبة ١٦٩
 رجم الكيال ١٦١
 الرحبة (الرحيبة) ١٦٣، ١٦٤، ١٦٧
 ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٥، ١٧٦
 الرصافة ١٩٧
 رفع ١٤٤
 الرقة ١٩٤، ١٩٧، ٢٣٢
 الرقيم ٢٦٨
 الرمثا ٦٥، ١٧٩، ٢٥١
 الرملة ٢٤، ٣٢، ١٢٥، ١٩٥، ١٩٦
 ١٦٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٠٦
 رواث ٢٦٧
 الروحاء ١٦٥، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧

- ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧
 ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٣١، ٢٥٠
 ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٤
 ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٣، ٢٨٤، ٣٠٦، ٣١٠
 ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٦

- دومة الجندل ١٣، ١٤، ٣٣، ٣٤، ٣٧، ١١٩
 ديار بكر ١٩٥، ٢٣٢
 الدير الأسود ٢٤٧
 دير أيوب ٦٤
 ديرا الجمل ٦٤
 دير القمر ٣٠٦
 الديلم ٢٩٧
 ديوسبوليس ١٤٤

ذ

- ذات حج ١٧٧، ١٧٨
 ذات صبح ١٧٩
 ذات المثار ١٦٠، ١٧٢
 ذات المنار ١٦٤
 ذات المنازل ١٧٢
 ذو المجاز ٢١
 ذو المروة ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧
 ١٦٩، ١٧٢، ١٧٥
 ذي الحليفة ١٧٣، ١٧٤، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩
 ذي خشب ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧
 ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٥

روسيا ١٨٤، ٢١٨، ٢٩٠

الروضة ١٧٤

روما ٩٥

روميہ ٢٨٥

الروثة ١٦٥، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤

الرها ١٠١، ٢٧٧

الري ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٩٦

الرياض ٢٢٠

رييلاتا ٩٥

ز

زيد ٢٠

زرع ١٧٧

زرعة ١٧٧

الزرقاء ١٥٧، ١٦٠، ١٧٢، ١٧٧

١٧٨، ١٧٩، ١٩٧، ١٩٨، ٢١١

٢١٦، ٢٢١، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٣

زغر (صفر) ٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥٠، ٢٦٨

زقلاب ٢٤٩

الزلاقات ١٧٩

زيزياء ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٧٧

زيوقما ١٩٥

س

السحنة ١٩٧، ٢٢١، ٢٥٩

السرحتين ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٨

سرغ ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٧٢، ١٩٧

سرف ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤

سرنديب (سيلان) ٢٨٤

السعودية ١٤٨

سقيا بني غفار ١٧٣، ١٧٤

سقيا يزيد ١٦٩، ١٧٥

السقيا ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨

١٦٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

السلط ٢٤٩

سلوان ٢٧٩

السند ١٨٤

سواحل البلطيق ٢٦٢

السودان ٢٣٤، ٢٢٢

سوريا ١٦، ١٨، ١٩، ٤٦، ٩٦، ٩٨

٩٩، ١١٤، ١٢٧، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦

١٤٧، ١٥٦، ١٨١، ١٨٤، ١٨٩

١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦

١٩٧، ١٩٩، ١٠٠، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٠

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٤١

سوس ٢٨٧

السويد ١٨٤

السويداء ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧

١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٥

السويقة ١٦١

السيالة ١٦٥، ١٦٦، ١٧٣، ١٧٤

سيراف ٣٢٣

سيراليون ٩٣

سيف البحر ١٥١

سيل الجوفي ١٧٨

سيل الصافي ١٧٧

سيناء ٢١٦، ١٨٩

ش

شبع ٣٠٦

شجرة ١٧٣، ١٧٤

شراة ٣٨، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٧، ٢٦٩

شرف البعل ١٦٨، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦

شرف ذي النمل ١٧٠، ١٧٥

الشريعة ٢٤٧

شعب النعام ١٧٨، ١٧٩

شغب ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦

شق العجوز ١٧٨

شقيف ٢٤٧

شهرزور ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩

الشوبك ١٣٠، ٢٥٧

الشونة ٢٤٥

شيراز ١٨٢

شينز ٢٩٦

ص

صافيتا ٣٠٦

الصغد ٨٥

صفد ٣٠٦

الصفراء ١٧٧، ١٧٨

صقلية ١٢٩، ٣١٩

الصلا ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٩

الصلت ٢٥٤

الصتمين ١٧٢، ١٧٧، ١٧٩

صنين ٣٠٦

صور ٩٣، ١٨٦، ١٩٥، ٢٦٧، ٢٧٤، ٣٢٦

صوفر ٣٠٦

صويلح ٢٢١، ٢٥٤

صيدا ١٩٥، ٣٠٦

صيمور ٢٨٨

الصين ١٠٩، ١١٠، ١٨٤، ١٩٢، ٢٠٨،

٢٣٣، ٢٣٤، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٨٢،

٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٣،

٢٩٤، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٦

ض

ضبة ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠

ط

الطائف ٤٣، ١٢٥

طابا ٢١٦

طارق قديد ١٧٨

طبرستان ٢٨٥، ٢٩٦، ٢٩٧

٣١٩، ٢٨٦، ٢٦٨، ٢٥٦، ٢٥٠، ٢٣٤
 العرج ١٧٤، ١٧٣، ١٦٩، ١٦٦
 العريش ٢٧
 عسفان ١٥١، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠،
 ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٩
 عسقلان ٣١، ٣٢، ١٢٥، ١٤٤، ١٩٥،
 ٢٧٩
 عشيرة ١٧٦
 العطاس ١٧٧
 عطوف ١٧٠، ١٧٦
 عفولة ٢١٧
 العقبة ١٠٩، ١١٢، ١٢٦، ١٣٤، ١٣٥،
 ١٤٣، ١٥٢، ١٦٧، ١٧٥، ١٧٧،
 ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨، ٢١٥،
 ٢١٦، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٧، ٢٦٠
 عقبة الأخيضر ١٧٨
 عقبة الخلاوة ١٧٩
 عقبة السوداء ١٧٣، ١٧٥
 عقبة صوان ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩
 عقيق ١٧٨
 عكا ٢١٧، ٢٧٦، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٧
 عكاظ ٢١
 العلا ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ٢٢١، ٢٥٨
 العليا هـ
 عماطور ٣٠٦

طبرية ٨٦، ١٠٦، ١٩٥، ١٤١، ١٨٦،
 ٢٨٨، ٢٤٩، ٢٦٧، ٢٧٢
 الطبيلية ١٧٨، ١٧٩
 طرابلس ١٨٦، ١٩٥، ٢٧٣، ٣٠٦،
 ٣١١، ٣١٥، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٢٦
 طشقند ٢٠٩
 الطلوب ١٦٦، ١٦٧، ١٧٤
 طوس ٢٩٦
 طهران ٢٨٩
 الطيبة ١٦٩، ١٩٥، ١٩٧، ٢٣٢

ظ

ظبة ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦
 ظفار ٣٢٤
 ظهر الشوير ٣٠٦
 ظهر القضيبي ٣٠٧

ع

العاقورة ٣٠٦
 عبادان ١٧٩
 عتاب ١٦٤، ١٦٨، ١٧٢، ١٧٥
 عجلون ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٧
 عدن ١٤٥، ٢٦٢
 العراق ١٣، ١٥، ١٨، ٢٣، ٢٤، ٢٩، ٣٤،
 ٤٠، ٥٤، ٥٩، ٦٢، ٩١، ١١٥، ١٤٤،
 ١٤٥، ١٨٨، ١٩٠، ١٩١، ١٩٤، ١٩٥،
 ١٩٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٨، ٢٣١، ٢٣٢

٩٢، ٢٥١

الفحلتين ١٧٨، ١٧٩

فدك ٣٤، ٣٥، ١٥٢

الفرات ٢٧

فرنسا ٩٣، ٢١٠، ٢٩٣

القسطاط ١٩٢، ٢٨٤، ٣٠٨، ٣٢٠

الفلجا (الفلوفا) ٢٨٩

فلورنسا ٢٣٩، ٢٤٠

فنلندا ١٨٤

قويق ١٧٧

فيلادلفيا ١٤٣، ١٤٤، ١٩٢

فيق ٢٤٧

ق

القاحه ١٧٤

قاع ١٧٩

قاع الزرة ١٧٨

قاع بسطة ١٧٨، ١٧٩

قالس ١٦٨، ١٧٥

القاهرة ١٢٦، ٢٨٣، ٣٢٤

قبال ١٧٢

قبة الحج ١٧٨

قبرص ١٢٧، ٢٤١

قبور الشهداء ١٧٨

القدس ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠

عمان ١٤٣، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢

١٧٢، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٨، ٢١١

٢١٤، ٢١٦، ٢٢١، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٤

٢٦٤، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٧، ٣١٠، ٣١٢

عُمان ١٨٤، ١٨٦، ٢٣٣، ٢٨٤

عمقة ١٧٦

عمون ١٤٣

عناب ١٦٥

عنزة ١٧٩

عنيزة ١٦١

عويند ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦

عين الباشا ٢٥٤

عين التمر ١٩٩

عين زارة ٢٥٤

عيون القصب ١٧٩

عينونه ١١٠، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦

غ

غزه ٣٢، ١٢٧، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥

١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢٦٧

الغور ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧

٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٥

الغوطة ٦٢، ٨٢، ٩١، ٢٦٧

ف

فارس ٢٦، ١٨٣، ٢٣٣، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٩٩

فحل ٥٣، ٦٢، ٧٣، ٨٥، ٩٠، ٩١

قلعة المزريب ١٧٩
 قلعة المعظم ١٧٩
 قلعة يلبغا ١٧٧
 قمة جبل الشيخ ٣٠٦
 قمة صنين ٣٠٦
 قناة السويس ٢١٦
 قندهار ٢٩٩
 قنسرين ١٦، ١٧، ٤٤، ١٩٤، ٢٣٠، ٢٣١،
 ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٦٨، ٢٧٩
 القنيطرة ٢٤٨
 قومس ٢٩٢
 قيال ١٦٠، ١٦١
 القيروان ٣١٥
 قيسارية ٢٧، ٤٦، ٧٩، ١٤٤، ١٩٥،
 ٢٣٣، ٢٣٨
 (ك)
 كنباية ٢٨٤
 كردستان ٣٢٢
 الكرك ١٢٩، ١٣٠، ١٣٢، ٢٤٥، ٢٥٠،
 ٢٥٥، ٢٥٦، ٣١٠
 كرسين ٢٩٦، ٢٩٧
 كرمان ٢٨٤
 كسوة ١٧٧، ١٧٩

٣١، ٣٢، ٩٦، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣،
 ١٢٥، ١٢٨، ١٤٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧،
 ١٨٨، ١٩٥، ١٩٦، ٢١٧، ٢٦٧، ٢٧٢،
 ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٨، ٣١٣، ٣١٤، ٣٢١،
 ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧
 قديد ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤،
 ١٧٦، ١٧٩
 القرع ١٦٩، ١٧٥، ١٧٦
 قرطاج ٩٣، ٩٤، ٩٥
 القرم ٣٢٢
 قرية المجامع ٢٤٧
 قرية الكتبية ١٧٩
 القريفة ١٧٠، ١٧٦
 القسطل ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٧٢
 القسطنطينية ٥١، ٩٦، ٢٨٥، ٢٨٦،
 ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٢٢، ٣٢٦
 قصر جالوت ٢٧٩
 القصيبة ١٦٥، ١٧٠، ١٧٦
 القطرانة ١٦١، ١٦٢، ١٧٧، ١٧٩
 القلايات ١٧٩
 القلعة ٢١
 قلعة بسميران ٢٩٧
 قلعة تبوك ١٨٣
 قلعة الرض ٢٥١
 قلعة القطرانة ١٧٩

م

مأدبا ١٤٣، ٢٤٦، ٢٥٤
 مأب ١٤٤، ١٦٤
 مؤاب ١٩٣، ١٥٠، ٢٥١، ٢٥٥، ٢٥٦
 ماعين ٢٥٤
 مرد ١٧٩
 مجنة ٢١
 محدثة ١٦٢، ١٧٢
 محمية الشومري ٢٥٨
 مخيه تحت ٢٤٨
 مخيه فوق ٢٤٨
 مدائن صالح ١٤٤، ١٧٨، ١٧٩، ٢١٥
 مدغشقر ٢٨٩
 المدورة ١٥٩، ١٦٠، ١٩٧، ٢١٤، ٢١٦
 مدين ٣٥، ١١٠، ١١٢، ١٦٧، ١٦٨،
 ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٩
 المدينة المنورة ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٣٧،
 ٥٥، ٦٤، ١١١، ١١٩، ١٢٢، ١٢٣،
 ١٢٥، ١٢٨، ١٣٢، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٢،
 ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩،
 ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠،
 ١٧٢، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨،
 ١٧٩، ١٨٥، ١٩٧، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٥،
 ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢
 مدينة السلام (بغداد) ٧٣
 مراکش ٢٠٩، ٣١١

كشمير ٢٠٨

الكفرين ٢٥٥

الكلابة ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٤

١٧٥، ١٧٦

كلكتا ٢٠٨

الكن ١٧٦

كنيه ١٧٨

كورا الغميم ١٧٤

كوشا ٢٨٦

الكوفة ١٥٣، ١٨٢، ١٩٩

ل

اللاذقية ١٩٥، ٣٠٦

اللان ٢٨٦

لاهور ٢٠٨

لبنان ١١٦، ١٨١، ٢٠٧، ٣٠٦، ٣٠٧

٣٠٩، ٣١٠، ٣١٧، ٣٢٥

اللجا ٢١

اللجون ١٤٤، ١٧٧، ٢٧٧

اللد ١٢٧، ١٤٤، ٢١٧، ٢٧٧

لطي ٤٤

لكهنو ٢٠٩

لندن ٢١٦

ليبيا ٣١١، ٣١٥، ٣٢٥

١٩٧، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠،
 ٢٢١، ٢٥٦، ٢٧٤
 معرة النعمان ٢٧٣
 معناه ١١٠
 مغاص ٣٢٤
 مغاير شعيب ١٧٩
 المغرب ٣٣، ١٦٥، ٢٤٤، ١٧٤، ٣١١،
 ٣١٦، ٣٢٠، ٢٣٢
 المغيثة ١٦٠، ١٧٢، ١٧٦
 المغازة العظمى ١٨٧
 المفرق ١٥٧، ١٧٩، ١٩٨
 مكة المكرمة + ٤
 مكران ٢٩٩
 ملتان ٢٨٤
 ملطية ٢٦٦
 ملل ١٦٥، ١٧٣، ١٧٤
 منبج ١٩٧، ٢٢٩، ٢٣٣
 المنخوس ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥،
 ١٧٦
 المنصورة ٢٨٤
 منزل ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٨١
 مهروبان ٣٢٤
 الموجب ٢٥٠
 الموصل ٣٢٥
 موقان ٢٩٧

١٥٩، ١٦٤، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠،
 ١٧٥، ١٧٢
 مرج دابق ١٠٣
 مرج الصفر ٨٢
 مرج العيون ٢٤٧
 مرطوم ٢٨
 مر الظهران ١٥٠، ١٦٧، ١٧٣، ١٧٤
 مرعش ٢٦٦
 اطروة ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٨
 مزيرب ٦٥، ١٧٨، ١٧٩، ٢٩٨، ٢١١،
 ٢٤٨، ٢١٤
 مستولان ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦
 مثلل ١٧٤
 مصر ١٤، ٣٣، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٩٧، ٩٨،
 ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠،
 ١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٥٣، ١٦٩، ١٨٧،
 ١٩٢، ١٩٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠،
 ٢١٦، ٢١٨، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥١،
 ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٧، ٢٧٣،
 ٢٧٨، ٢٨٤، ٢٨٦، ٣٠٨، ٣٢٢،
 ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٦
 مصلى ١٦٩، ١٧٠
 مصراته ٣٢٣
 مطارين ٧٨
 معان ٤٠، ١١٥، ١٥٩، ١٦٠، ١٦١،
 ١٦٢، ١٦٤، ١٧٢، ١٧٨، ١٧٩، ٨١،

الموقد ١٦٢

موبلحة ١٧٩

ميافارقين ٢٢٣

ميناء عيذاب ١٣٢، ١٢٨

ن

نابلس ١٤٤، ٣٢

ناتال ٢٠٩

نبط ١٧٩

النبك ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦،

١٧٩، ١٩٧

نجران ١٨

النزويج ١٨٤، ٢٩٢

نريز ٢٩٨

النقب ١٤٤، ١٧٨، ١٩٣

نقع ذو خشب ١٦٩

النيل ١٦٩، ١٨٦، ٣٠٣

نيابوليس ١٤٤

نيسابور ٢٩٦

نهر الأردن ٢١٦، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨،

٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٥

نهر بانياس ٢٤٧

نهر بنطاس ٢٨٧

نهر جيحون ٢٨٩

نهر الخزر ٢٨٧

نهر الزرقاء ٢٤٧، ٢٥١

نهر الفولجا ٢٩٢، ٣١٧

نهر الموجب ٢٥٥

نهر اليرموك ٢٤٥، ٢٤٨

ه

هذه ١٧٨، ١٧٩

الهده ١٥١

الهرماس ٢٤٧

همدان ٢٨٩، ٢٩٦

الهند ١٠٩، ١١٤، ١٢٩، ٢٠٨، ٢١٠،

٢٣٤، ٢٦٤، ٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦،

٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٤، ٢٩٩،

٣١٤، ٣٢٢، ٣٢٦

هيت ١٩٨

الهيذان (الواله ٢٥٠

هيرات ٢٩٦

و

واحة الجوف ١٩٨

وادي الأردن ١٥٨

وادي الحسا ٢٥٠، ٢٥٦

وادي حسيان ٢٥٠

وادي الزاره ٢٥٠

وادي زرد ٢٥٥

وادي الزاهر ١٧٨

وادي زقلاب ٢٤٩

وادي السرحان ١١٨، ٢٥٩

وادي السرف ١٧٠، ١٧٦

وادي السير ٢٢١

وادي شعيب ٢٤٩

وادي الطيبة ٢٤٩، ٢٥٦

وادي العرب ٢٤٩

وادي عربة ١٤٤، ١٩٣، ٢٤٣

وادي الغراب ١٦٩، ١٧٥

وادي غزل ١٧٤

وادي فاطمة ١٦٧

وادي فرتاح ١٦٤

وادي القرى ٣٤، ٣٦، ٤٠، ١٢٤

١٥٢، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧

١٧٢، ١٧٥، ١٧٨، ١٧٩

وادي القديم ١٧٩

وادي كفرنجة ٢٤٩

وادي الكفرين ٢٥٠

وادي المنحنا ١٧٨

وادي النسور ١٧٩

وادي الوالة ٢٥٥

وادي اليرموك ٢١٦، ٢٤٨

الواقصة ٥٤، ٦١، ٦٤، ٦٥

الوجة ١٦٩، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٩

ودان ١٥١

وعرة الغباغب ١٧٩

وقارا ١٩٧

الولايات المتحدة ٢١١

وليلي ٣٠٤

الوسا ١٤٤

ي

يافا ١٩٥، ٢٧٨

اليابان ٢٣٣

اليرموك ٢٤٨

يلبا ١٦٩

اليمامة ٨٤

اليمن ١٨، ٢٦، ٢٩، ٣٨، ١١٣، ١١٤

١١٩، ١٢٩، ١٣٠، ١٨٥، ٢٣٣، ٢٣٤

٢٣٦، ٢٦٢، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣١٥، ٣١٩

ينبع ١١٥، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٦، ١٧٩

٦- فهرس الموضوعات

٥	مقدمة.
٩	تقديم.
١٣	مقدمات في فتح بلاد الشام.
٤٩	واقعة اليرموك.
٦٩	فتح دمشق (دراسة في الروايات).
٩٣	الحملة الإفريقية على إنطاكية، والدروس المستفادة.
١٠٩	لمحات من تاريخ أيلة (العقبة) في العصر الإسلامي.
١٤٣	طريق الحج الشامي في العهد الأموي.
١٨١	البريد وطرق المواصلات في بلاد الشام في العصر العباسي.
٢٠٥	سكة حديد الحجاز.
٢٢٧	أهمية حلب بين المتوسط والفرات على طريق التجارة العالمية.
٢٤٣	المياه والزروع في رقعة الأردن الحالي عند الجغرافيين والرحالة العرب.
		كتب الرحالة كمصدر لتاريخ بلاد الشام في القرنين الرابع
٢٦١	والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين.
		رحالة القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وجهودهم بالتعريف
٢٨١	بالأصقاع الشمالية للعالم الإسلامي.
٣٠٣	الرحلة والرحالة في حياة نقولا زيادة.
٣٢٩	المصادر والمراجع.
٣٤١	الفهارس العامة.
٣٧٦	فهرس الموضوعات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

دراسات في الجغرافيا التاريخية
بلاد الشام

أ. د صالح موسى درادکه

